عودة بطرس عودة

عبد الناصر والاستعمار العالمي

(١)

مؤسسة ناصر للثقافة
دار الوحدة

عبد الناصر
والاستعمار العالمي

الطبعة الاولى
١٩٧٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

مقدمة

لو ان مفكرا حالما قوي الايمان بحيوية الامة العربية وقدراتها الحضارية . شديد التفاؤل باحتمالات المستقبل . عميق الدراسة لحركة التاريخ . حاول في العام ١٩٥٢ م أن يتنبأ، أو يضع تصورا لواقع الوطن العربي بعد عشرين عاما . وكثيرا ما يفعل المفكرون الحالمون ذلك . وتوقع فيما توقع تصفية الاحتلال الاستعماري من كل الوطن العربي وهزيمة احلافه العسكرية ، وامتلاك الامة العربية لنفطها الذي يعتبر عصب الحياة للدول الراسمالية الاستعمارية ، وانتقال بعض اقطارها من دول فقيرة تعتمد على فتات الاحتكارات العالمية او معونات أميركا وبريطانيا وفرنسا ، الى دول فائض المال لديها يقدر بعشرات الالوف من ملايين الدولارات والاسترليني والفرنكات ،واضعاف فائض اغنى الدول الراسمالية .. لوصفوا هذا التصور باللامعقول !

ولو ان ذلك المفكر الحالم توقع تصفية الاقطاع وسيطرة راس المال في مصر ثم في سوريا في ظل وحدة ستتحقق بينهما ، واسقاط الانظمة الملكية في مصر والعراق واليمن وليبيا ، وانتزاع عروبة الجزائر من براثن الاستعمار الفرنسي الذي كان يعتبرها امتدادا للارض الفرنسية ، ووضع اساس التحول الاشتراكي في المجتمع العربي المصري ، وانتقال ذلك الى اجزاء متعددة من الوطن العربي ، وفتح ابواب العلم والعمل وتكافؤ الفرص امام الجميع بحيث يصبح ابناء الكادحين من الفلاحين والعمال والطبقات المسحوقة منافسين لابناء العائلات وكبار المسؤولين ومتفوقين عليهم في مجالات كثيرة .. لاتهموا صاحب هذا التوقع بالجنون !

ثم ، لو ان ذلك المفكر الحالم بلغ به التصور حد توقع

سقوط الامبراطوريتين الاستعماريتين البريطانية والفرنسية بيد الارادة العربية الثورية ، وتصدي هذه الارادةللامبريالية الاميركية ، واندفاع حركة القومية العربية من القاهرة التي كانوا يعتبرونها معقل الاقليمية لتملأ أرجاء الوطن العربي من المحيط الى الخليج مرددة في ربوعه هتافات الحرية والاشتراكية والوحدة ، وظهور القيادة العربية القادرة على تحطيم احتكار السلاح الرهيب واقامة جسور الصداقة مع الدول الاشتراكية ، واسترداد قناة السويس وكل ما اغتصبه الاستعماريون ، ومواجهة التحديات الامبريالية الاستعمارية ، وبناء سد عال في ظل حروب عدوانية متنوعة .. لقيل وقتئذ : انها احلام صيف !

كذلك ، لو ان ذلك المفكر الحالم ، توقع بعد ثورة ٢٣ يوليو حدوث تفجرات ثورية اخرى متأثرة بها في مواقع مختلفة ، وثورة مكملة لها في ليبيا ، واداء دور تاريخي عظيم في تحرير الشعوب الافريقية والاسيوية واللاتينية من الاستعمار العالمي ووضع اسس جديدة في العلاقات الدولية ترتكز على الحياد الايجابي وعدم الانحياز ، وصنع مكانة مرموقة للامة العربية والانتقال بها من التبعية وصفوف الظل الخلفية الى مقدمة الصف الامامي وصيرورتها مؤثرة في الاحداث العالمية وقوة من القوى الرئيسية في المجتمع الدولي .. لقهقهوا ساخرين، ولربما طالبوا بادخال صاحب هذا التصور احدى المصحات العصبية اشفاقا عليه !

ذلك لان الواقع العربي في العام ١٩٥٢ كان مظلما شديد الاسوداد . قاتما يدعو الى اليأس . فالاستعمار جاثم على كل صدر ينبض بالحياة ، موجود في كل مكان بأساليب ومظاهر واشكال متنوعة . والانظمة العربية غارقة في الجهل واللامبالاة والملذات، تلهث وراء رضى لندن وباريس وواشنطن فكانت مستسلمة لا ارادة لها .. وبلغ بها الهوان انها رضيت ان تكون متآمرة على عروبة فلسطين !

وكان المجتمع العربي في كل الوطن العربي ، يتمثل في

طبقتين اثنتين الفارق بينهما مخيف رهيب ، طبقة الاقلية البرجوازية من الاقطاعيين الراسماليين ، او افراد الاسر المالكة ، ونسبتها لا تتجاوز الواحد في المائة ، وكانت في مصر نصف واحد في المائة . تملك كل شيء . وطبقةالاكثرية الساحقة من الفلاحين والعمال محرومة من الحرية ومن كل شيء .

ثم بدأ التحول العظيم بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بقيادة جمال عبد الناصر .

واذا كان اللامعقول في العام ١٩٥٢ اصبح الان حقيقة واقعية ملموسة يعيشها الشعب العربي ، فان جعل اللامعقول معقولا خلال جيل واحد فقط ، والانتقال بالواقع العربي من ذلك الواقع المحزن المخزي الى واقع اليوم الذي اصبحت فيه الامة العربية تملك ارادتها ونفطها واموالها وعنفوانها ، فانه كان يتطلب معجزة ، بل معجزات في عصر الفضاء ، وكان يحتاج الى قيادة قديمة ثورية تملك الارادة والشجاعةلمواجهة عمالقة الاستعمار والامبريالية ، والقدرة على استثمار سخاء الجماهير االعربية في العطاء الثوري .
فكان عبد الناصر ،

لقد حطم القيود والسلاسل والاسوار العالية التي كان الاستعمار يحبس وراءها الامة العربية . وشق الطريق لها وسط لهيب الحروب وتحت وطأة الهجمات التي لم تتوقف يوما واحدا .

واذا كان هذا القائد المعلم العظيم يتعرض اليوم الىمؤامرة تشكل استمرارا الى مؤامرة الاستعمار والامبريالية والصهيونية والرجعية الحاقدة عليه منذ فجر الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٢ ، وينفقون عليها من اموال النفط الذي حرره لهم ، وتستهدف بعد وفاته تشويه تاريخه والتشكيك بمبادئه ومنجزاته الوطنية والقومية الاشتراكية ، تشويها للتاريخ

العربي الحديث وتشكيكا بمبادىء الثورة العربية ، وتكريسا للاقليمية البغيضة والتبعية الخائنة ، فانــه سوف يبقى عملاقا في التاريخ معلما للاجيال الصاعدة ، وسوف تبقى أعـــماله ومنجزاتـــه شواهد للاجيال المتعاقبة تواصل على هديهــا مسيرة الثورة العربية بلوغا لاهدافها القومية .

وصفحات هذا الكتاب ، هي جزء من صفحات كثيرة غنية ، نتولى فيها بالتحليـــل والدراسة ، تحديد جوانب هامة من شخصية عبد الناصر وقيادته الثورية ، اغناءا لتاريخ النضال العربي وتاريخ ثورات الشعوب من اجل حقها في الحرية والحياة ، ذلك أن الصراع الذي خاضـــه عبد الناصر ضد الاستعمار العالمي كان من اجل الحرية والحياة ، فكان صراعا رهيبا ، التفوق فيه بالمقاييس المادية ، كان للقوى المعاديه له والثورة العربية ، ولكن النتائج كانت رغم ذلك انتصارات مذهلـــة انتزعها عبد الناصر انتزاعا من براثن تلك القوى المتآمرة على الشعب العربي المعادية لحركة التاريخ ، التي التقت ضـــده كما لم تلتق ضد اي قائـــد ثورة في تاريخ الشعوب ، ولقيت على يديـــه من الهزائم ما لـــم تلقها على مدى قرون .

واذا كان عبد الناصر العظيم قد حقق في اقل من عشريـــن عاما ما كان يعتبر أماني وأحلاما غير معقولة ، فان المسؤولية القومية والوطنية تحتم حماية وتدعيم وتنمية كل المنجـــزات والمكاســـب التي تحققت بقيادته ، والاستمرار بالثـــورة التي أعطاها كل عمره ، لكي لا يكون ما حدث ظاهرة عابرة .

عودة بطرس عودة
ــ مصر الجديدة ــ ٢٧ يوليو ١٩٧٥

الفصل الاول

الواقع قبل الثورة
دولياً وعربياً ومصرياً

ليس اسهل على الحاكم العربي من كسب تأييد الولايات المتحدة الاميركية بما يتمثل فيها من زعامة الامبريالية والاستعمار العالمي . فالامر لا يحتاج الى أكثر من ان يكون الحاكم ، بغض النظر عن طبيعة وصوله الى الحكم، اقليميا في تفكيره وسلوكه ، منكمشا على ذاته في اطار الحدود التي صنعها الاستعمار ، مشغلا جماهير الشعب بالمشاكل المحلية المتوارثة المتراكمة ، مستخدما وسائل الاعلام في الدعاية له واشباع الملايين من الجوعى والمحرومين والكادحين بالوعود والاوهام الوردية ، مصورا الوفاق والتآلف مع الانظمة العربية الاقليمية بانه اسمى مظاهر واشكال الوحدة العربية، مستعينا بالبرجوازية وبأمثالها ممن لا يعطون ولاءهم لغير مصالحهم الذاتية المرتبطة بالاحتكارات الرأسمالية العالمية والمتناقضة مع مصالح العمال والفلاحين وجموع الكادحين الفقراء ، مسخرا اجهزة الدولة ووسائلها لتعميق الاقليمية الضيقة البغيضة وتوجيه الانظار عن القضايا القومية المصيرية ، واباحة البلاد وفتح ابوابها للاستثمارات والاحتكارات الاجنبية تحت شعارات خادعة ، وتهيئة الرأي العام لتقبل الولايات المتحدة الاميركية باعتبار انها تملك مفتاحا سحريا يمكن به حل كل المشاكل وتحويل البلد الى جنة الله وترابها ورمالها الى ذهب وهاج .

هذا النمط من الحكام العرب تأخذه الولايات المتحدة الاميركية

بالاحضان والقبلات ، وتغدق عليه الاوصاف والعطاء ،وتحرص على دعمه بكل الأمكانات ، فتعينه بالاموال وفائض المواد الغذائية لتجعله يبدو امام شعبه بانه الحاكم القادر على التعامل معها وكسب ودها وعطفها .

والولايات المتحدة الاميركية لا تفعل ذلك حبا بهذا الحاكم او ذاك ، وانما لان هذا النمط من الحكام العرب يخدم المصالح القومية الاستراتيجية للامبريالية الاميركية .

وهذا الاسلوب الاميركي في التعامل مع الحكام العرب وامثالهم في انحاء العالم هو تطوير للاسلوب الاستعماري اقتضته ظروف ما بعد الحرب العالمية الثانية التي نقلت القيادة من يدي بريطانيا وفرنسا الى يد الولايات المتحدة الاميركية .. فالدول الاستعمارية التقليدية القديمة كانت تفرض سيطرتها بالاحتلال العسكري ثم تخلق ادارة او نظام حكم تعطيه مظاهر الاستقلال الزائف وتتبنى حمايته ودعمه. وكان الوطن العربي كله تقريبا الى سنوات قليلة بعد الحرب العالمية الثانية تحت سيطرة الاحتلال الاستعماري ، وكانت جميع الانظمة فيه بدون استثناء تلقى الدعم الاستعماري مباشرة او بطريقة غير مباشرة ، بشكل أو باخر، لانها كلها كانت مرتبطة مصلحة ومصيرا بالاستعمار العالمي، فكانت بحكم طبيعتها معادية لجماهير العمال والفلاحين المعدمين المحرومين ، ترضى بفتات موائد المستغلين ناهبي ثروات الشعب .

بقي هذا الحال سائدا في الوطن العربي حتى ظهور جمال عبد الناصر بالثورة العربية التي قادها فجر ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . فبظهوره اختلت القاعدة التي وضعها الاستعمار اساسا للتعامل مع الحكام العرب .

وبحكم ما ارتسم في أذهان الاستعماريين من خلال تجاربهم الغنية وتعاملهم الطويل مع الحكام العرب تصوروا انجمال عبد الناصر سوف لا يكون اكثر من مغامر استهوته السلطة

واضواؤها وبريقها ، وانه بمجرد أن يعتاد ويتكيف مع حياة القصور والاستراحات واليخوت بما فيها من ملذات ، ويجد نفسه انتقل من واقع الضابط العادي الى واقع التعامل مع الملوك والامراء والرؤساء والاثرياء واصحاب المصالح الاستغلالية الذين يعرفون كيف يفسدون الحكام ورجال السلطة ، فانه ينسى الطبقة المحرومة التي نشأ فيها وخرج منها ، وينسى الام الفلاحين والعمال المحرومين من أبسط حقوقهم الانسانية ، وينسى معها الافكار الاصلاحية التي كانوا يتصورون انها ربما تداعب خياله ، ويغرق في حياة الملذات ، ويصبح بالتالي اداة يمكن الاستفاده منها في استقرار الاوضاع في مصر المتميزة دوما في التأثير بأوضاع الوطن العربي والقارتين اسيا وافريقيا .

كان هؤلاء الاستعماريون يجهلون جمال عبد الناصرويجهلون بالتالي نواياه وافكاره الثورية ، ولذلك فانهم تصوروا ما حدث بانه انقلاب وليس ثوره ، وراحوا يبذلون كل ما لديهم منجهد وطاقة لحصر ما حدثفي اطار الانقلاببما يعنيه من ابقاء واقع البلد على ما هو عليه ؛ اقلية تستغل الاكثرية ،والمستغلون الاجانب يواصلون نهبهم لخيرات وثروات البلد .. فيكون ما تغير هو الشكل وليس الجوهر .. واذا ما ضمنوا ذلك فانهم يكونون على استعداد لتوفير كل امكانات الدعم لهذا الواقع الجديد .

وتصورت الولايات المتحده الاميركية بانها المهياه لان تكون القبله التي يتجه اليها عبد الناصر . وبنت هذا التصور على اساس ان هناك موجة عارمة من الكراهية والعداء تغمر مصر والمنطقة العربية ضد بريطانيا ، وان هذا الواقع الجديد سوف يتجه الى تحقيق مكسب كبير يدعم به وجوده ، فلا بد اذن من ان يتجه الى انهاء الاحتلال البريطانيوتحقيق بعض الاصلاحات الداخلية ، ولكي يتمكن من تحقيقذلك ليس امامه غير الاستعانة بالولايات المتحدة الاميركية التي آلت اليها قيادة المعسكر الراسمالي الاستعماري ، وكانت

وقتئذ اقوى واغنى دولة في العالم .

ورغم هذا التصور فان الولايات المتحدة الامريكية كانـــت تخشـــى اشد الخشية ان يكون ما حدث في مصر حافـــزا للاتحاد السوفياتي لكـــي يحطـــم عزلته ويتجـــه بكل قواه نحو القاهرة يعين الواقع الجديد فيها على تصفية الاستعمار، ومصدر هذه الخشية :

● ان الولايات المتحدة الاميركية كانت وقت ظهور جمـــال عبد الناصر تنفذ سياستها الاستراتيجية الرامية الى تطويق الاتحاد السوفياتي ومحاصرتـــه وبالتالي تطويق ومحـــاصرة الافكار الاشتراكية .

● انها كانت تدرك بان الاستعمارين البريطاني والفرنسي اللذين كانا يسيطران على الوطن العربي باستثناء السعودية التي كانت قد سقطت في يد الاحتكارات الامبريالية الاميركيه، كانا منذ الحرب العالمية الثانية يواجهان مصيرهما المحتوم ؛ وانها بحكـــم زعامتها للاستعمار العالمي كانت تعتبر نفسها الوريثة الشرعية لهذين الاستعمارين وكأنه لا حق للشعوب في الحريه والاستقـــلال .

● ان الثروات البتروليه الهائلة المكتشفة والمخزونة فـــي جوف ارض الوطن العربي ، مع ادراكها الى الاهمية البالغة والقيمة الحيوية للبترول بالنسبة لمستقبل الصناعة وبالتالـــي بالنسبة لمستقبل المجتمعات الراسمالية ، جعل الولايـــات المتحدة الاميركية شديدة الشره والطمع تجاه الوطن العربي عامة ومصر بشكـــل خاص .

● ان الموقع الجغرافي للوطن العربي بممراته المائـــية واهمها قناة السويس ، وشواطئه المترامية على امتـــداد جنوب وشرق البحر الابيض المتوســـط ، وصلته الحضارية والدينية بأفريقيا واسيا ، وملاصقته لاوروبا ، ومجاورتـــه للاتحاد السوفياتي وعلى الاخص لتركيا وايران اللتين تحولتا الى قواعد عسكرية أميركية ملاصقة للاتحاد السوفياتي ..

هذا الموقع للوطن العربي ضاعف من اهتمام الولايات المتحدة الاميركية بما حدث في مصر عام ١٩٥٢ .

● ومما ضاعف من هذا الاهتمام الاميركي بالواقع الجديدة في مصر ، انها كانت تخشى من احتمالات المستقبل على اسرائيل ، مولودها الجديد الغريب ، اذا ما انطلق عبد الناصر في اتجاه التغيير الثوري للمجتمع العربي المصري واضعة في حسابها المؤثرات التي يمكن ان يحدثها مثل هذا التغيير في المنطقة العربية كلها وانعكاسات ذلك على مصير الكيان الصهيوني .

لذلك كله ، ومن اجل ان تفوت الفرصة على الاتحاد السوفياتي ، لم تنتظر الولايات المتحدة الاميركية الى ان يأتي جمال عبد الناصر ليقرع ابواب واشنطن ، وانما بادرت منذ اللحظة الاولى الى الحركة السريعة لتطويق عبد الناصر وتحويل الثورة التي قادها الى مجرد انقلاب .
ولم يكن اسهل على عبد الناصر وقتئذ من ان يكسب تأييد الولايات المتحدة الاميركية ويضمن استمرار هذا التأييد . بل وتاييد ودعم القوى الراسمالية والصهيونية العالمية . لم يكن الامر يحتاج من عبد الناصر الى اكثر من أن يصبح رئيسا للجمهورية يحتفظ بخصائص النظام الملكي ويحصر اهتمامه وطموحه داخل الحدود الاقليمية المصرية .

وكانت الولايات المتحدة الاميركية على استعداد تام ، في سبيل السيطره على حركة عبد الناصر وتطويقه ، لتقديم كل ما من شأنه تدعيم الحكم الجديد بما في ذلك المعونات المالية السخية لتنفيذ بعض المشروعات الاصلاحية . فالمهم بالنسبة للولايات المتحدة الاميركية وقتئذ ان يتناغم نظام الحكم الجديد مع سياستها وانظمة الحكم العربية المرتبطة بها ، وان يتجنب المساس بالمصالح والاحتكارات الراسمالية الاجنبية ، أو الاقدام على تغيير الواقع الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع العربي المصري .

كانت الولايات المتحدة الاميركية مستعدة لانفاق الوف الملايين من الدولارات على مشروعات اصلاحية واستثمارية في مصر مقابل ان ينضوي جمال عبد الناصر تحت جناحيها ويدور في اطار جاذبيتها .. بل ربما كانت تطمع في ان تجعل من مصر التابعة للولايات المتحدة الاميركية نموذجا يشجع على القيام بحركات انقلابية في الاقطار العربية الاخرى يتم بموجبها تصفية الوجود الاستعماري البريطاني الفرنسي والاتجاه نحو الامبريالية الاميركية والدوران في فلكها . ولا شك في ان مثل هذه الاطماع والتصورات الاميركية كانت تتجاوز حدود الوطن العربي لتشمل الاقطار الافريقية والاسيوية التي كان ما زال معظمها تحت السيطرة الاستعمارية البريطانية والفرنسية .

وكان جمال عبد الناصر حريصا على كسب تأييد الولايات المتحدة الاميركية لاضعاف موقف بريطانيا في مفاوضات الجلاء وليتمكن من انهاء الاحتلال البريطاني . كما كان حريصا على الحصول على اية معونات اميركية ممكنة .. ولكنه الى جانب ذلك لم يكن على استعداد ابدا لان يقبل دعما اميركيا مشروطا ولا معونات مالية مشروطة ولا اي قيد مهما كان شفافا يحد من حركته الثورية او يحول الثورة الى انقلاب .

ولم يكن من السهل ابدا ، بل لعله كان امرا بالغ الصعوبة ، بمقاييس الظرف الدولي والواقع العربي وقتئذ ، أن يواجه جمال عبد الناصر التحديات التي كان لا مفر عليه من مواجهتها بدون الاعتماد على احدى الدولتين الكبريين ودون اي تراجع منه أو تنازل عن الثورة واهدافها والتصميم على بلوغها .

•

كان الواقع الدولي عند ظهور جمال عبد الناصر بالثورة التي قادها يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ على النحو التالي :

كان العالم منذ الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ــ ١٩٤٥) التي لم يكن قد مضى على انتهائها عند ظهور عبد الناصر

غير سبعة اعوام قد تبلور الى معسكرين رئيسيين نتربع على قمة كل منهما دولة كبرى .

الاول : المعسكر الاشتراكي يتربع على قمته الاتحاد السوفياتي، اذ لم يكن الخلاف الايديولوجي والتناقض العقائدي قد تفجر بعد بين موسكو وبكين ، وبذلك فان هذا المعسكر كان يشتمل على الصين الشعبية وكوريا الشمالية ومنغوليا في اسيا ومجموعة الاقطار الاشتراكية في اوروبا الشرقية . كان ستالين بقبضته الحديدية هو المتربع على قمة السلطه في الاتحاد السوفياتي ، وكانت الاحزاب الشيوعية قد وصلت الى السلطة في البلدان الاشتراكية الاوروبية نتيجة لاحتلال القوات السوفياتية لهذه الاقطار اثناء مطاردتها للجيوش الالمانيا النازية ، وكانت الحرب قد الحقت بالاتحاد السوفياتي اضرارا اقتصادية وعمرانية هائلة ؛ وكانت الولايات المتحدة الاميركية منهمكة في تدبير المؤامرات الانقلابية على امل أن تنجح في انتزاع بعض الاقطار الاشتراكية الاوروبية من الحكم الشيوعي وخلق المتاعب للاتحاد السوفياتي . بذلك فان ستالين اتبع سياسة الانغلاق على الذات واقامة اسوار حديدية واقفال ابوابها في وجه الغرب عموما ليحبط المحاولات الامبريالية الاميركية التامرية ، ويتفرغ لاعادة بناء ما دمرته الحرب والتهمته نيرانها من مصانع ومدن وقرى ومنشآت اقتصادية وعمرانية وطرق مواصلات ، وما الى ذلك ، وحقق ولا شك انجازات هائلة .

وكان الاتحاد السوفياتي وقتئذ شديد التشنج في تعامله مع حركات التحرر العالمي ، فلم يكن يعطي دعمه لغير الاحزاب الشيوعية والحركات او الجبهات الوطنية التي تقودها وتتزعمها هذه الاحزاب .

بفعل ذلك ، ولان جمال عبد الناصر لم يكن شيوعيا ولم يصل الى السلطة من خلال الحزب الشيوعي ، ولم تكن نواياه وافكاره التقدمية المعادية للاستعمار قد وضحت ، كما

لم يكن شخصية معروفة ، فان الاتحاد السوفياتي كان بطيء الحركة في اتجاه عبد الناصر ، بل وكان في الشهور الاولى شديد الحذر منه ، ينظر اليه ويصفه بأنه يقود مجموعة من الفاشيين الذين يحاولون خنق حرية الجماهير .

الثاني : المعسكر الراسمالي الاستعماري تتربع على قمته الولايات المتحدة الاميركية . وكان يشتمل بشكل رئيسي على بلدان أوروبا الغربية الاستعمارية وهي :

بريطانيا وفرنسا وهولندا وبلجيكا والبرتغال ، الى جانب المانيا الغربية وايطاليا واليابان .

كانت الدول الاوروبية الاستعمارية تسيطر بالاحتلال المباشر على القارة الافريقية كلها باستثناء جنوب افريقيا حيث الحكم العنصري البغيض ، والحبشة وليبريا المرتبطتين بالاستعمار بحكم طبيعة نظام الحكم فيهما .

كذلك كانت بعض هذه الدول الاستعمارية وعلى الاخص بريطانيا وفرنسا تحتفظ بسيطرتها المباشرة وغير المباشرة على اقطار اسيوية عديدة بالاحتلال العسكري والاحتكارات الهائلة .

كانت هذه الدول الاستعمارية باستثناء البرتغال قد تعرضت الى الدمار والخراب والانهيار الاقتصادي بسبب الحرب ، وكانت نتيجة لذلك قد فقدت مقومات ممارسة الارادة فتراجعت مكرهة من الصف الامامي على مسرح المجتمع الدولي وراحت تعتمد على الولايات المتحدة الاميركية ، ولكنها رغم ذلك راحت تتشبث بمستعمراتها وتتصدى الى حركة التاريخ التي أخذت تعصف بالاستعمار وتهدم هياكله .

وكانت الولايات المتحدة الاميركية ، الزعيمة الجديدة للاستعمار العالمي ، مشغولة وقتئذ في :

أولا : تقوية المجتمعات الراسمالية في اوروبا الغربية واليابان بانعاش اقتصادها عن طريق مشروعات مارشال

والرؤوس المالية الامیركية مستهدفة من وراء ذلك حرمان الاحزاب الشیوعيه من فرصة الوصول الى الحكم باستغلال سوء الاوضاع الاقتصاديه والاستفادة من المشاكل التي يمكن ان تتفاقم وتتعاظم في حالة عدم استيعاب جميع العمال وتحسين احوالهم الاجتماعية والمعيشية ،.وكذلك لاحتواء هذه المجتمعات من خلال تغلغل الراسمال الامیركي في كافة مجالات الصناعة والاقتصاد .

ثانيا : ان ترث الاستعمار القديم ، بالاستيلاء على جميع المستعمرات والسيطرة على الثروات الطبيعية فيها ،والتحكم بمقدراتها مستخدمة اساليب جديدة تعتمد في الدرجة الاولى على اقامة انظمة حكم تكتفي من الاستقلال بمظاهرة ، راية ترفرف ، ونشيد وطني يعزف ، وجيش يجيد الاستعراض في المناسبات والبطش بالجماهير ، ومن وراء ذلك تبيح موارد البلاد للاحتكارات الامبريالية الامیركية .

وتحقيقا لهذه الغاية فان الولايات المتحدة الامیركية كانت تشجع تصفية الاستعمار القديم في اي مكان كانت تضمن لنفسها ان تكون الوريث له . والا فانها كانت ترمي بكل ثقلها ضد حركات التحرر تدعيما لسيطرة الاستعمار الى ان تحين فرصة ابعاده واخذ مكانه . وكانت الدول الاستعمارية وعلى الاخص بريطانيا تتشبث بمستعمراتها تشبث الانسان الذي يلفظ انفاسه بالحياة ، ذلك لانها اعتادت على استغلال الشعوب ونهب ثرواتها والحياة المترفة على حساب شقاء وحرمان واذلال مجتمعات تلك المستعمرات . ولقد ادى ذلك الى تناقضات سياسية وصراعات حادة داخل اطار هذا المعسكر الراسمالي الاستعماري .

ثالثا : محاصرة المعسكر الشيوعي وتطويقه بالاحلاف والقواعد العسكرية . وتحقيقا لهذه الغاية فان الولايات المتحدة الامیركية كانت تتبع سياسة وضع العالم على حافة الهاوية التي برع فيها فيما بعد وزير الخارجية الامیركيةجون

فوستر دالاس في عهد الرئيس الاميركي ايزنهاور ٠٠ وكانت مثل هذه السياسة سببا للحروب الساخنة (حرب كوريا عام ١٩٥٠) والحرب الباردة التي استمرت الى أواخر الستينات من هذا القرن .. وكانت الولايات المتحدة الاميركية تستغل هذه الحروب لتبرير اقامة الاحلاف والقواعد العسكرية واستخدام انظمة الحكم المرتبطة بها مباشرة أو بطريقة غير مباشرة لمطاردة حركات التحرر في انحاء العالم بحجة مطاردة الشيوعية .

رابعا : تدعيم وتأكيد زعامتها للمعسكر الراسمالي الاستعماري وتنصيب نفسها « رجل البوليس في العالم » تحمي من يلوذ بحماها وتعاقب كل من يجرؤ على التطاول عليها وتهديد مصالحها والاخلال بالواقع الذي تريده .

لم يكن العالم في حقيقته وقتئذ غير هذين المعسكرين اذ لم تكن الهند التي استقلت عام ١٩٤٦ قد حررت اقتصادها وبالتالي ارادتها لتصبح قادرة على التأثير في السياسةالدولية، كما لم تكن اندونيسيا التي استقلت عام ١٩٤٩ في وضع يسمح لها لان تلعب اي دور فعال اكثر من الابتعاد مع الهند عن جاذبية المعسكرين ..

اما بقية العالم خارج المعسكر الشيوعي فكان تحت السيطرة الاستعمارية :

افريقيا كلها تحت سيطرة الاستعمار التقليدي القديم

واميركا اللاتينية كلها تحت سيطرة الامبريالية الاميركية

وما تبقى من اسيا كان بعضه مثل الهند الصينية (فيتنام وتايلاند وكمبوديا) تحت الاحتلال الفرنسي وبعضه الاخر مثل المنطقة العربية تحت السيطرة البريطانية المباشرة ، وكانت هناك أقطار مثل ايران وتركيا والسعودية سقطت في قبضة الاحتكارات الامبريالية الاميركية .

وكانت التناقضات الحادة بين المعسكرين بالغة العنف ،

ادت بكل منهما او بتعبير اكثر دقة ، ادت بكل من الدولتيـن المتربعتين على القمة،وهما الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفياتي الى الاعتماد على القوة المسلحة لتدعيم مركزها وحماية نظامها الاقتصادي والاجتماعـي وتحقيق اهدافهـا وغاياتها تحت رايات العالم الحر او الثورة العالمية . ونتج عـن ذلـك بالطبيعـة :

اولا : ظهور الاحلاف العسكرية وكان اولها وابرزها فـي المعسكر الراسمالـي الاستعماري حلف الاطلنطي بزعامة الولايات المتحدة الاميركية واشتمل على معظم اقطار اوروبا الغربية وامتد في عام ١٩٥١ ليحتوي اليونان وتركيا فـي جنوب شـرق اوروبا . اما في المعسكر الاشتراكي فكان حلف وارسو بزعامة الاتحاد السوفياتي ، وكان بمثابـة رد فعل لسياسة الاحلاف الاستعمارية . وفي حين تمكنت الولايات المتحدة الاميركية من اقامة احلاف اخرى بزعامتها المباشرة او غير المباشرة مثل حلف جنوب شرق اسيا وحلف بغـداد الذي تحول اسمه الى حلف المعاهدة المركزية ، فان الاتحاد السوفياتي لم سمكن من اقامة حلف اخر وكان يتمنى اقامـة حلف يضم الصين والاقطار الاشتراكية الاسيوية ..

ثانيا : سباق التسلح النووي الرهيب . وقد انحصر بشكل رئيسي بين الدولتين الكبريين . وبفعل هذا السباق ظهرت الصواريخ ، واصبح العالم يعيش عصر الصواريخ العابرة للقارات ، وتطورت الاسلحة الذرية تطورا مفزعا مروعـا بحيث اصبح ما تملكـه الدولتان كافيا لافناء معالم الحـياة والحضارة وتدمير كل ما صنعته ارادة الانسان وابدعه في رحلته الطويلة في دقائق قليلة .

ثالثا : الحرب الباردة . وكانت شعوب العالم تعيـش بسببها في حالة من الخوف والقلق والرهبـة والانفعـال العصبي . وكانت الولايات المتحدة الاميركية وقتئذ تدين بقانون « من ليس معها فهو ضدها » وبذلك كانت ترفض فكرة الحياد

وتستغل الحرب الباردة المستعمرة لاحتواء المعسكر الاشتراكي باحتـــواء العالـــم .

واذا كان تصور هذا الواقع الدولي كافيا بحد ذاته لانيجعل الانسان يدرك مدى وابعاد الصعوبات التي كانت تعتـــرض طريق جمال عبد الناصر ، فان عبد الناصر كان يتمنى لو ان الصعوبات والتحديات التي واجهها كانت في اطار الواقـــع الدولي الرهيب دون سواه .

كان عبد الناصر يتمنى ذلك ولا شك لانه واجه الى جانب ذلك تحديات الواقـــع العربي ، وتحديات الواقع الداخلي الاقليمي المصري ، وهي لا تقل ان لم تكن اكبر من تحديات الواقـــع الدولـــي .

كانت الامة العربية تعيش في محنة من اقسى ان لم تكـــن أقسى المحن التي مرت بها وواجهتها في تاريخها الطويل . ففي عام ١٩٤٨ في الخامس عشر من شهر مايو — أيـــار نجحت الغزوة الاستعمارية الصهيونية التي بدأت فـــي عام ١٩١٧ ببيان بلفور الشهير في اقامة راس جسر لـــها فـــي فلسطين باسم دولة اسرائيل ليكون مكان تجمع ، وأداة ضرب ، وكيانا عازلا ، وقاعدة انطلاق وغزو للوطن العربي .

ورغم أن هذا النجاح الاستعماري الصهيوني أفقد الانسان العربي اتزانه وجعله يعيش في ظلام دامس علـــى حافـــة هاوية سحيقة .. الا انه فجر في الامة العربية ينابيع الحياة وايقظ فيها خصائص الوجود ، ذلك أن المصائب والشدائد يمكن أن تؤثر في الانسان الفرد تأثيرا سلبيا في احيان كثيرة تضيق حدود قدرته على الاحتمال ، أما تأثيرها فـــي الامم الحية الحضارية فان المصائب والشدائد والنكبات تكون فـــي اكثر الاحيان مفجرة لينابيع الحياة وخصائص الوجود الكامنة فـــي الاحشـــاء .

كان الواقع العربي وقتئذ مجموعة من السلبيات متراصة

متراكمة ، وكانت صورة هذا الواقع بهذه السلبيات قاتمة مظلمة شديدة الاسوداد تتمثل في الاتي :

كان الوطن العربي من المحيط الى الخليج باستثناء سوريا ولبنان تحت وطأة الاحتلال الاستعماري . ولم يكن خلو هذين القطرين من قوات الاحتلال يعني انهما بعيدان عن نفوذه، فلقد كان الحكم فيهما وقتئذ منذ جلاء القوات الفرنسية عنهما في اعقاب الحرب العالمية الثانية مباشرة في يد الطبقة البرجوازية الاقطاعية المرتبطة مصلحة ومصيرا بالاستعمار، وبذلك فان ارادة الاستعمار كانت هي الارادة النافذة في كل الوطن العربي .

ولعله من المفيد والمهم ان يعرف المرء ان قوات الاستعمار البريطاني كانت موجودة في مصر والسودان وفي ليبيا بالاشتراك مع القوات الامريكية وفي الاردن والعراق والكويت والبحرين وقطر ودولة الامارات المتحدة واليمن الديمقراطية ودولة عمان .

وكان اليمن القطر العربي الوحيد الخالي من الاحتلال الاستعماري ولكنه كان في ظل حكم الائمة (اسرة حميد الدين) اكثر الاجزاء العربية ان لم يكن اكثر بلدان العالم تخلفا ، وبذلك فانه كان بطريقة غير مباشرة في خدمة الاستعمار العالمي .. ولعل سبب نجاته من الاحتلال الاجنبي طبيعة ارضه الجبلية وانزواؤه الجغرافي وعدم وجود ثروات معدنية سهلة الاستثمار فيه .

وكانت السعودية قد سقطت بفعل البترول في قبضة الاحتكارات الامبريالية الامريكية الرهيبة وكان قد أصبح للولايات المتحدة الامريكية قاعدة ضخمة في الظهران .

وكانت قوات الاستعمار الفرنسي تحتل تونس والجزائر والمغرب (مراكش) وموريتانيا العضو التاسع عشر في جامعة الدول العربية وكذلك الصومال العضو العشرين في هذه الجامعة .

وكانت الدول الاعضاء في جامعة الدول العربيه وهي الدول

التي تحمل صفة الاستقلال : مصر وسوريا ولبنان والعراق والاردن والسعودية واليمن . وكانت هناك في غزة حكومة عموم فلسطين تتمتع بحق حضور اجتماعات الجامعة العربية كعضو قاصر لا يحق له التصويت .

وكانت هذه الدول المستقلة أعضاء في الامم المتحدة ، ان رايات ترفرف ووفود تشارك في المؤتمرات والاجتماعات .. ولكنها عند التصويت كانت في صف الاستعمار .

لم يكن هناك في الوطن العربي كله بدون استثناء حكم في قطر واحد نابع من ارادة الجماهير ، ويهتم بمصلحة الشعب ، او يعتمد على تأييد الشعب له . لا فرق في ذلك بين الانظمة الملكية والجمهورية ، ولا بين الانظمة المرتبطة بالاستعمار بمعاهدات مثل مصر والعراق والاردن او الانظمة الاخرى ، ذلك لان الطبقة الحاكمة في الجميع كانت طبقة البرجوازية والاقطاعية وهي طبقة استغلالية في طبيعتها مرتبطة بالاستعمار في مصالحها . وانعكاسا طبيعيا لذلك فقد كانت جميع القوانين والانظمة في خدمة اغراض وغايات هذه الطبقة والاسرة الحاكمة وبالتالي في خدمة الاستعمار واستثماراته واحتكاراته .

كان الواقع الاقتصادي والاجتماعي في الوطن العربي رهيبا مخيفا يحمل في احشائه بذور السخط والنقمة والحقد والرفض وبالتالي بذور الثورة .

كان الاقتصاد بهياكله الرئيسية في يد الشركات الاستعمارية ، وكان اقتصادا استهلاكيا في الدرجة الاولى ، اذ كان الانتاج ايضا في خدمة الاستهلاك لضمان الحصول على اكبر قدر من الربح ، وابقاء هذا الوطن سوقا استهلاكية ، محروما من ثرواته ومن الاستفادة منها في تحسين اوضاعه وبناء مستقبله واللحاق بركب التقدم .

وكان الاقطاع هو النظام السائد في كافة أجزاء هذا الوطن يتمثل في قلة قليلة تملك الارض وتتحكم بالفلاحين وتسومهم

أقسى انواع الظلم والاضطهاد ، وتحرمهم من كل شيء يفتنونه بشقائهم وعرقهم ودموعهم والامهم اللهم غير ما يسد رمقهم ليبقوا طبقة منتجة .

وكانت الطبقة العاملة الناشئة بحكم نشوء الصناعات الاستهلاكية محرومة من الحماية ، فكان اصحاب العمل المالكون لوسائل الانتاج وغالبيتهم في أقطار كثيرة من الاجانب، يتحكمون في العمال يستغلون جهدهم وعملهم أبشع استغلال، معتمدين على السلطة والقوانين والانظمة في حماية استغلالهم . ورغم انه لم يكن هناك حد ادنى للاجور ، ولا تحديد لساعات العمل في اقطار كثيرة . ولا خدمات اجتماعية للغالبية العظمى فان أصحاب العمل كانوا يملكون حق الطرد التعسفي ، فكان العمال بذلك يعيشون بسد الرمق ودون أي نوع من الاستقرار او الطمأنينة .

★★★

رغم ان فداحة ما حدث في فلسطين قبل ذلك بأربعة أعوام كان يفرض تطورا عميقا وسريعا في النضال السياسي العربي الا ان هذا النضال بقي اقليميا بفعل التجزئة والاقليمية بعيدا كل البعد عن القضايا الاجتماعية الخطيرة وعن كل ما من شأنه ان يؤثر على مصالح الطبقة البرجوازية الاقطاعية الحاكمة منشغلا ومشغلا الجماهير في القضايا السياسية الاقليمية ، مستغلا عداء الشعب للاستعمار والاحتلال الاجنبي والمعاهدات الجائرة لاشغاله في القضايا المتعلقة بالتحرر والحريات دون ان يكون هناك صدق في ذلك اللهم الا بالقدر الذي يخدم مصالح البرجوازية .

ان الاحزاب السياسية وقتئذ ، كانت انعكاسا للواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، وبذلك فانها كانت بمثابة الاقطاعات بيد البرجوازية والاقطاع ، تخادع الجماهير بشعارات زائفة ، وتتصارع من اجل الوصول الى السلطة لتضع السلطة بعدئذ في خدمة القلة القليلة المستغلة لجهد الفلاحين والعمال، وفي أحيان كثيرة لتضع السلطة في خدمة أفراد

قلائل يستغلونها لاختلاس أموال الدولة ونهب ثروات البلد وانفاقها على المفاسد والبذخ وبناء القصور ..

وليست هناك مأثرة واحدة لاي من الاحزاب السياسية التي وصلت الى الحكم في جميع الاقطار العربية الى ما بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . فلم يعمد اي من الاحزاب الى معالجة اي من القضايا الاجتماعية الكبرى معالجة جذرية . فلم يكن هناك تصد للاقطاع او الاستثمارات الاجنبية، او الاستغلال الرهيب لجهد العمال ، كما لم تكن هناك اهتمامات جادة بالخدمات العامة والمشاكل التموينية وغيرها من المشاكل التي تهم الفقراء والكادحين الذين يشكلون الغالبية العظمى في كافة الاقطار العربية . ولقد كان يعتبر حدثا كبيرا اذا ما وقف عضو في احدى المجالس النيابية يطالب بتحديد ملكية الاراضي أو يقترح ادخال بعض التعديلات في قوانين العمل للتخفيف من حدة الاستغلال والظلم .

ولم تكن هذه الاحزاب السياسية البرجوازية الاقطاعية تعني أن تهتم بالقضايا القومية الا بالقدر الذي تستغله لمصلحتها ، أو لتحويل انظار الجماهير وامتصاص نقمتها ، او لتعبئة الرأي العام وتوجيهه نحو أهداف سياسية معينة . فكانت تستغل تعاطف الجماهير مع الثورات العربية ، او الانتفاضات الموجهة ضد الاستعمار والاحتلال الاجنبي والمعاهدات الجائرة والقصف الوحشي للمدن وطرد الشعب العربي الفلسطيني من وطنه والاعتداء على المقدسات وما الى ذلك كثير ، فتتظاهر بالانفعال والتعاطف مع هذه الجماهير وتنظم لها المظاهرات والمهرجانات الخطابية ثم تعلن بلا حياء ولا خجل : قد انتصرنا للقضايا القومية وساهمنا في النضال الجماهيري الموجه ضد اعداء الامة والوطن .

واذا كان هذا ينطبق على جميع الاحزاب الاقليمية بدون استثناء ، وهي الاحزاب التي انحصر نشاطها في اطار القطر الواحد . هنا أو هناك ، ولم تحاول تجاوز الحدود الاقليمية

لانها اقليمية التفكير والاهتمام والسلوك ، فانه كانت هناك اربعة احزاب تجاوزت في نشاطها الحدود الاقليمية وكانت تشد الانتباه بأفكارها وموقفها وتحليلها للاحداث رغم ان أيا منها لم يصل الى الحكم :

كانت هناك جماعة الاخوان المسلمين وهي حركة سياسية تسترت بالدين لاستهواء البسطاء من الناس واستقطابهم حولها . وتمكنت من الانتشار الواسع في مصر والانتقال الى اقطار المشرق العربي ، وامنت بالعنف والارهاب لبلوغ أهدافها ، وعجزت عن التفاعل مع العناصر المثقفة الواعيه، وخلقت موجة عارمة من التعصب الديني هددت الوحدة الوطنية للشعب ، فكانت بذلك كله حركة سياسية متخلفة غير منسجمة مع عصرها . ولقد انشقت عنها جماعة الشيخ تقي الدين النبهاني وشكلت حزبا دينيا باسم حزب التحرير الاسلامي .

وكان السبب المباشر للانشقاق : ان الاخوان المسلمين كانوا يرفعون شعار « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » ويؤمنون بأن اصلاح الفرد هو السبيل لاصلاح المجتمع والوصول الى السلطة ، في حين ان التحريريين النبهانيين كانوا يرون انه لا يمكن تحقيق الاصلاح الا من خلال السلطة . ولقد فشلت الحركتان في تقديم اية افكار تقدمية أو حلول جذرية لمشاكل المجتمع وكان من الطبيعي ان يكون مصيرهما التفكك والتحلل بعد المنجزات التقدمية الثورية التى بدأ يحققها عبد الناصر وبعد المحاولة الفاشلة التى قامت بها جماعة الاخوان المسلمين لاغتياله في الاسكندرية عام ١٩٥٤ .

★★★

وكان هناك الحزب الشيوعي ، أو بتعبير ادق ، الاحزاب الشيوعية ، لان الشيوعيين العرب لا يؤمنون بوحدة الشعب العربي ولا بوحدة الوطن العربي وبذلك فانهم كانوا أحزابا متعددة يتمتع كل منها باستقلالية التنظيم والقيادة رغم ايمانهم

الواحد بالفلسفة الماركسية اللينينية . ورغم أن الظروف كلها كانت ملائمة لبذر بذور الشيوعية ونموها السريع بين العمال والفلاحين والكادحين المحرومين اذ كانت الحركة الشيوعية أسبق من غيرها في محاربة الاستعمار والاستغلال والقهر والتسلط ، الا انها فشلت في كسب ثقة جماهير الشعب العربي لسببين رئيسيين ناهيك عن فردية القيادة التي انعكست على التنظيم وافسدته :

السبب الاول : عدم التجاوب مع النزعة القومية في الانسان بشكل عام ، ومحاربة الوحدة العربية التي كانت وما زالت هدفا استراتيجيا للأمة العربية .

السبب الثاني : قبول تقسيم فلسطين وتأييد الحركة الصهيونية العالمية في اغتصاب جزء من الوطن العربي واقامة دولة اسرائيل فيه ، والالتقاء في ذلك مع الاستعمار والامبريالية العالمية .وكان ومازال موقف هذه الاحزاب من القضايا العربية وعلى الاخص من القضية الفلسطينية انعكاسا لموقف الاتحاد السوفياتي الامر الذي جعل دورها النضالي في تراجع مستمر الى أن غدت في اقطار كثيرة في مؤخرة الحركة الوطنية .

★★★

وكان هناك الحزب السوري القومي الذي اسسه انطون سعادة وتقوم فلسفته على نكران عروبة سوريا الطبيعية والعراق ثم الكويت وشملت فيما بعد قبرص ويطلق عليها اسم سوراقيا . كذلك بالنسبة لمصر والسودان والمغرب العربى . وليس هناك غير الجزيرة العربية يقطنها الشعب العربي . اما سوراقيا فانها فينيقية ، ومصر فرعونية والمغرب العربي بربري ، والسودان زنجي افريقي . ولقد انتشر هذا الحزب في الثلاثينات والاربعينات في سوريا ولبنان وفلسطين وانشغل في الدعوة لافكاره المنسجمة تماما مع مخططات الاستعمار العالمي دون أن يشغل نفسه بالواقع الاجتماعي الرهيب في منطقة نشاطه .

وكان هناك حزب البعث العربي الاشتراكي الذي تأسس في منتصف الاربعينات وانطلق بشعار الوحدة والحرية والاشتراكية داعيا الى القومية العربية ومحاربة الاستعمار في كل الوطن العربي . ولكن هذا الحزب الذي اخذ ينمو بسرعة في منطقة المشرق العربي ويستقطب الجماهير حول شعاره الثلاثي ، لم يقم على فلسفة متكاملة ، كما لم يستند الى النظرية ليضمن لاعضائه الوحدة الفكرية ، وعجز لاعتبارات ليس هنا موضع مناقشتها في بذر بذوره في مصر والمغرب العربي ، ولكنه رغم ذلك كان أول من اقام تنظيما قوميا متجاوزا الحدود الاقليمية المصطنعة وادى دورا كبير الاهمية في بعث القومية العربية ومحاربة الدعوات الاقليمية والاممية ، الدينية منها والمادية .

* * *

كان الاستعمار ، لافرق بين الاستعمار البريطاني والفرنسي بحكم سيطرته على الوطن العربي قدعمد الى تجزئة هذا الوطن الى كيانات ، وتقسيم الشعب الواحد لهذا الوطن الى شعوب تنتسب الى الكيانات وليس الى العروبة ، ثم جعل لكل كيان ادارة منفصلة . ورغم انه كانت هناك قبل الاستعمار كيانات عربية متعددة نتجت عن ضعف وتفكك الدولة العربية الا ان الاستعمار لم يكتف بهذه التجزئة فعمد الى مزيد من التجزئة وتقطيع الاوصال حيثما وجد ضرورة تخدم استراتيجيته . وتمثل ذلك بشكل واضح في المشرق العربي الذي تقاسمته بريطانيا وفرنسا بعد الحرب العالمية الاولى وعمدتا الى تقطيع اوصاله ، فغدت سوريا الطبيعية أربعة كيانات هي : سوريا ولبنان وفلسطين والاردن .

ولم تكن هذه التجزئة تنفيذا للمبدأ الاستعماري اللاأخلاقي فرق تسد فحسب ، وانماكانت تستهدف في الدرجة الرئيسية محاربة القومية العربية وفكرة الوحدة العربية . فكانت الكيانات احدى وسائل المحاربة لأنها كانت سبيلا الى الاقليمية من خلال اشغال الشعب في كل كيان بمشاكله الخاصة . وساعد

على ذلك : انعدام الوعى القومى ، والحركات السياسية والقومية ، وخلق الطبقات المستفيدة من التجزئة والانظمة والآسر الحاكمة المرتبطة مصيرا بالكيانات الأقليمية .

واصبحت هذه الطبقات والآنظمة والأسر الحاكمة بحكم المصلحة والمصير ادوات الاستعمار في محاربة دعاة القومية والوحدة العربية بقسوة اشد من محاربة الشيوعيين . وبسبب ذلك فان التيار الغالب في الوطن العربي وقتئذ كان التيار الاقليمي . وكانت جميع الانظمة بحكم ارتباطها ، ورغم اطماعها وخلافاتها الشكلية ، تتبادل الحرص الشديد على حماية بعضها البعض والبطش بوحشية بكل حركة تستهدف الاخلال بهذا الواقع .

ولقد كانت جميع هذه الانظمة والكيانات المستقلة اسما ، مهتمة في الدرجة الاولى بحماية نفسها والانشغال بالمشاكل الاقليمية ، وكان من الطبيعي ان تكون مواقفها من القضايا القومية مواقف اقليمية مصلحية تزايد بها على غيرها وتستخدمها مادة دعائية للاستهلاك المحلي .

★ ★ ★

في ظل هذه الانظمة والحكومات الاقليمية والطبقات المستغلة لجهد الكادحين المستفيدة من الاقليمية ، فان الحريات العامة التي يكفلها القانون كانت تعني حرية الاقطاعيين في البطش بالفلاحين ، وحرية أصحاب العمل في استغلال جهد العمال ، وحرية السلطة في ارهاب الجماهير والزج في السجن بكل من يدعو الى التغيير او العدالة الاجتماعية ، وحرية التجار الجشعين في الربح السريع ببيع المواد الاستهلاكية للمواطنين بأسعار مضاعفة ، وحرية الحكومات في تزييف الانتخابات النيابية . وبذلك فان مفهوم الحرية في هذه الكيانات الاقليمية كان وما زال حرية الطبقه البرجوازية الاقطاعية الحاكمة في استغلال جهد الشعب ونهب ثروات البلد وقتل كل من يتمرد ويثور على هذا الواقع المرفوض .

وطبيعة هذه الانظمة الاقليمية انها تنظر الى الامن العام والجيش باعتبارهما وسائل ارهاب وحماية . وعلى اساس هذه النظرة، فان أجهزة الامن العام كانت اداة ارهابية بيد السلطة ضد جماهير الشعب . واذا كان هذا يمثل استغلالا سيئا لوظيفة أجهزة الامن فانه في نفس الوقت يشكل انسجاما مع طبيعة تلك السلطة . كذلك الحال بالنسبة للجيش : لم يكن غرض تلك الانظمة منه حماية ارض الوطن من العدوان ، وانما حماية نظام الحكم من الشعب ،بذلك فان حجم وتدريب وتسليح الجيش وأجهزة الامن العام كان وفق مقتضيات الارهاب والحماية .

وبحكم ارتباط تلك الانظمة بالاستعمار ، بطريقة او بأخرى، واعتمادها عليه في الدعم والحماية ، فانها غدت اسيرة له ، لا تقوى على معارضته ولا تقدم على خطوه تزعجه أو تقلق راحته ، ونتيجة لهذا الواقع كان تسليح الجيوش العربية ،كما ونوعا ، خاضعا لارادة الدول الاستعمارية . وخضوع بلد ما ، أو نظام حكم ، لارادة بلد اخر يعني ببساطة فقدان ارادة الطرف الخاضع .

وفقدان الارادة كانت الصفة المميزة لانظمة الحكم العربيه، وبسببها كان السلاح احتكارا للدول الاستعمارية ، وكان تسليح الجيوش العربية خاضعا لمشيئة هذه الدول وليس لمقتضيات الدفاع العربي ولا سلامة الارض العربية .

وانعكس فقدان الارادة العربية وقتئذ على علاقات الدول العربية بدول العالم ، فكانت علاقات التابع مع الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا وفرنسا ، ولم تكن هناك جراة لتبادل اي نوع من الزيارات مع الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية ، بل انه لم تكن هناك مجرد علاقات دبلوماسية بين بعض الدول العربية والاتحاد السوفياتي والصين وغيرهما من الكتلة الاشتراكية . ومثل هذا الوضع المؤسف ما زال بعضه قائما حتى يومنا هذا .

واخطر ما ادى اليه ذلك الواقع العربي انه اباح الوطن العربي للاستثمارات والاحتكارات الاجنبية ، وكان اخطرها احتكار البترول الذي كان محصورا حتى ذلك الحين في العراق والكويت والسعودية .

والبترول مصدر ثروة هائلة ، وعصب الحياة الصناعية ، ولذلك فقد ازدادت المكانة الاستراتيجية للوطن العربي بسببه ، وازداد شره الاستعمار العالمي لابقاء سيطرته على هذا الوطن ليحتفظ لنفسه باستنزاف هذه الثروه وحرمان الامة العربية منها واحتكار تسويقها وتجارتها دوليا ، والتحكم بها واخضاعها لاستراتيجيته العامـــة باعتبارها المصدر الرئيسي للطاقة والصناعة العالمية الامر الذي جعلها تتحكم في مستقبل المجتمعات الراسمالية .

وبسبب الصلة الوثيقة بين منابـــع البترول وممراتـه ومصباته ، الى جانب اهميته الاستراتيجية وقيمته الحيوية للصناعة العالمية ، فان الاستعمار العالمي صار اشد اهتماما من ذي قبل باحتواء الوطن العربي وابقاء سيطرته المباشرة او غير المباشرة على مصادر هذه الثروة الاستراتيجية الهائلة ، وعلى ممراتها ومصباتـــها ، ضمانا لنقلها دون اية صعوبات او متاعب .

وكان من جهل الانظمة العربية وانعدام ارادتها ، انها كانت تكتفي وقتئذ بالنزر القليل من عائدات هذه الثروة الهائلة ، وكانت تنفقها على بناء القصور ، وابتياع الملذات في المدن الاميركية والاوروبية .. وغدا البترول بذلك مصدر امتهان للكرامة العربية بدل أن يكون مصدر قوة وتقدم ..

وكانت جميع اتفاقيات البترول وقتئذ قد تمت والاقطار المنتجة للبترول تحت الانتداب كالعراق ، والاحتلال كالكويت ، والحاجة المقترنة بالجهل كالسعودية .. وبذلك فان جميع هذه الاتفاقيات كانت في مصلحة الشركات الاحتكارية ، وكانت

تلك الانظمه تكتفي بالارقام التي تقدمها الشركات للانتاج العام ، وبحوالي ستين سنتا ثمنا للبرميل الواحد وفق الارقام المسجلة ! ورغم ضالة هذه العائدات الا ان المؤسف حقا والمخجل أن الانظمة الاقليمية كانت تستخدمها في تشديد قبضتها الارهابية على الجماهير ليحلو لها الاستمتاع بالملذات، وسوف نعود الى موضوع البترول في فصل قادم لاهميته وصلته بالكفاح الذي قاده عبد الناصر ضد الاستعمار العالمي.

ان الاستعمار العالمي ، بقيادة الولايات المتحدة الاميركية، استغل فقدان ارادة الانظمة العربية وهيمنته عليها ، فأقام اسرائيل في قلب الوطن العربي لتكون قاعدة امامية له ، يستخدمها في محاربة الاهداف القومية وحركة التحرر في الوطن العربي ، ليضمن ابقاء هذا الوطن في حالته المزرية من التجزئة والتخلف ، ويضمن لنفسه بالتالي استمرار نهبه لهذه الثروة الاستراتيجية .

وكانت اسرائيل تؤدي في ذلك الحين دور رجل البوليس الارهابي في المنطقة العربية ، متحدية بابشع الصور ارادة هذ الامة وكرامة الانسان العربي ، مهددة وجوده مع طلوع الشمس وغروبها ، مطمئنة الى الواقع العربي الذي كان يتمثل في سيطرة استعمارية وانظمة حكم اقليمية غيرمهتمة بالخطر الصهيوني ولا مدركة لابعاده ، ومنصرفة عنه لمحاربة الجماهير ونهب ثرواتها واستغلال جهدها وحرمانها من أبسط حقوق الانسان .

***

وقتئذ ، كان الواقع في مصر تكثيفا شديدا لسيئات وسلبيات الواقع العربي ، خاليا من اية ايجابية مهما كانت بسيطة وصغيرة . واذا كان تراكم وتعاظم السلبيات والسيئات كما كان حاصلا في مصر يسبب القرف والقنوط واليأس ، فأنه كان في نفس الوقت يبذر بذور التمرد والثورة في المجتمع لانه كان يفضح ويعري النظام والسلطة ، ويعمق التناقضات بين القلة المستغلة المترفة والغالبية المستغلة المحرومة .

كان الحكم نظاما وغاية واسلوبا متناقضا كل التناقض مع جماهير الشعب . فقد كان على راس النظام الملكي رجل فاسد فاسق مستهتر بكرامته وكرامة الشعب ومصلحة الوطن . كان فاروق قد ارتضى الاهانة لنفسه ولمصر يوم ضعف ورضخ لانذار السفير البريطاني في الرابع من فبراير ١٩٤٢ بتشكيل وزارة برئاسة مصطفى النحاس زعيم حزب الوفد . وسمح لنفسه بأن يرتكب أقذر الجرائم في أقدس القضايا ، فراح يتاجر بالاسلحة الفاسدة اثناء حرب فلسطين عام ١٩٤٨ لتكون هذه الاسلحة سببا في استشهاد ضباط وجنود في الجيش المصري اكثرمما قتلت من أفراد العدو الصهيوني.. ثم تجاوز كل الحدود في المباذل الشخصية حتى اغرق نفسه في الوحل .

وعندما يكون راس الحكم كذلك ، فان الحكومات التي ترتضي التعاون معه تكون على شاكلته ولا شك .
والحكومات في مصر كما في اي بلد في العالم تشكل انعكاسا للحياة السياسية فيها .
والحياة السياسية في اي بلد تشكل انعكاسا للحياة الاقتصادية والاجتماعية فيها .

وكان نمط هذه الحياة في مصر يتمثل في الاقطاع واقعا وسلوكا . قلة قليلة تسيطر وتملك الارض ووسائل الانتاج ، وغالبية عظمى ، تستغل أبشع استغلال ومحرومة من كل شيء حتى الماء الصالح للشرب .
انعكاسا لذلك ، كانت الاحزاب اقطاعيات في أيدي الاقطاعيين والاثرياء ناهبي ثروات الشعب .

من تلك الاحزاب كانت تتألف الحكومات ، فكانت اقطاعية برجوازية لا فرق بين حزب واخر او حكومة واخرى « كانت سلطة الدولة كلها في يد تحالف راس المال والاقطاع . كان فيه مائة عيلة تملك معظم الاراضي في الزراعة ، ١٦ عيلة

قدمت لمصر كل رؤساء الوزارات والوزراء وكل من تسلط على المناصب السياسية القائدة في البلاد » عبد الناصر ٢٢ يوليو ١٩٦٤ .

كانت تلك الحكومات هي التي تشرف على الانتخابات البرلمانية وكانت في معظم الاحيان تزيفها ، وفي جميع الحالات كان المتنافسون والفائزون من الاقطاعيين والبورجوازيين وباستمرار لم يكن بين هؤلاء ، لا في مجلس النواب المنتخب ولا في مجلس الشيوخ المعين ، واحد ، مجرد واحد ، من ابناء الفلاحين أو العمال ، وبالتالي لم يكن هناك واحد له مصلحة في احداث أي تغيير في الواقع الاجتماعي والاقتصادي. وكان اذا ارتفع صوت احد النواب مطالبا ببعض الاصلاحات السطحية تخرج الصحافة مهللة لهذه الحريات ! مطمئنة الى ان الحال سوف يبقى على حاله . « لم تكن الاحزاب في مصر قبل الثورة تمثل الا مجموعات من كبار ملاك الاراضي ليس بينهم من خلاف على الهدف وان كانت كل مجموعة منهم تحاول ان تنفرد وحدها بالحكومة ، ولكنهم كانوا يلتقون جميعا في مقاومة اي تغيير جذري في الاوضاع . وكانوا جميعا يقفون في وجه التطور ويعرقلون مجراه بما في أيديهم من اسباب القوة الموروثة » عبد الناصر ٩ يونيو ١٩٦٠ .

ولان البرلمانات هي السلطة التشريعية التي تتولى سن القوانين ، فان القوانين المصرية كانت وقتئذ من وضع الاقطاعيين والبرجوازيين فكانت كلها تحمي مصلحة الطبقة المستغلة (بكسر الغين) .

وكانت الحريات بطبيعة الحال لهذه الطبقة .. وكان معناها وقتئذ : حرية تلك الطبقة والسلطة جزء منها ، في الاستغلال والنهب والتزييف وتملك كل شيء وحرمان الجماهير من كل شيء ..

وكانوا يغلفون جرائمهم بالديمقراطية ! وما اكثر واكبر الجرائم التي كانت تقترف باسم الحريات والديمقراطية .

وكان الامر الطبيعي ان تكون محصلة هذا الواقع الاقتصادي الاجتماعي في نظام رأسه فاسد فاسق : حياة سياسية فاسدة وادارة اكثر فسادا في ظل واقع شديد التخلف .

وكان الاستعمار هو المستفيد الاكبر من ذلك ، لان فساد الحياة السياسية والاجتماعية وتناقضها مع مصلحة الجماهير يزيد من اعتماد نظام الحكم عليه وارتباطه به ويهيء له الفرصة للبقاء .

وكان الاستعمار البريطاني موجودا بقوات احتلال في منطقة قناة السويس تبلغ ثمانين ألف جندي ، ورغم أن مصر كانت اعلنت في الامم المتحده الغاء المعاهدة المصرية البريطانية من الجانب المصري ، الا ان ذلك لم يغير من الواقع شيئا فقد بقيت قوات الاحتلال تفرض على محافظات القناة كلها حكما سافرا لدرجة انه كان لا يدخل فرد، رسمي كان أو غير رسمي، الى المنطقة بغير تفتيش يقوم به الجنود الانجليز .

وكانت قناة السويس تحت السيطرة الاجنبية التامة وعلى الاخص السيطرة البريطانية ، بحكم انها كانت تملك غالبية الاسهم ولها قوات احتلال . وكانت هذه القناة عصب الحياه للاستعمار البريطاني بصفة خاصة وللاستعمار العالمي عامة. ولقد ازدادت أهميتها بعد ان غدت الممر الرئيسي لناقلات البترول . وكان نصيب مصر من عائدات هذه القناة في حدود المليون جنيه في السنة !

ولم تكن القناة هي المرفق المصري الوحيد المغتصب .كانت مصر كلها مغتصبة . لقد كان المصريون غرباء في وطنهم اذ كانت جميع المرافق الرئيسية ، وغالبية وسائل الانتاج وهياكل الاقتصاد ، ومعظم البنوك وشركات التأمين ، والتجارة الخارجية بل والداخلية في ايدي مستثمرين اجانب .. وكان الاجانب يشكلون جاليات كبيرة تقدر بعشرات الالوف في القاهرة والاسكندرية ومعظم المدن الرئيسية .. فكانت مصر

ام الدنيا لغير ابنائها ، اما ابناؤها فكان نصيبهم الفقر والجوع والجهل والمرض والحرمان .

كان واقعا مخيفا خطيرا للغاية ، زاد من حدة خطورته ان الجيش كان موضع افساد ليبقى اداة حماية للنظام . وان اجهزة الامن العام متمثلة في البوليس السري كانت أداه ارهاب يستخدمها النظام والسلطة في اقتراف جرائم القمع والبطش ومطاردة الاحرار من عامه الشعب .

ثم تزداد حدة الخطورة بانعدام الحركة السياسية الجماهيرية الواعية . ولقد أدى انعدام مثل هذه الحركات الى ظهور جماعات ارهابية ابرزها جماعة الاخوان المسلمين ، تؤمن بالاغتيال السياسي تعبيرا عن رفضها للواقع وتمردها عليه . ولقد استهوى هذا الاسلوب بين من استهوى وقتئذ جمال عبد الناصر مثلما استهوته وهو يبحث عن مكان له في العمل السياسي دعوة الاخوان المسلمين ، والافكار الشيوعيه ... وجرب عبد الناصر اسلوب الاغتيال السياسي باشتراكه في محاولة فرح لفشلها كانت موجهه ضد احد الوزراء . واستفاد من التجربة والفشل على السواء ، فأيقن ان الاغتيال يمكن ان يقضي على فرد ولكنه لا يغير النظام او الواقع ، وبالتالي يسبب مأساه انسانية دون ان يحقق هدفا استراتيجيا .

وفي عام ١٩٥٢ في الشهور الستة وثلاثة اسابيع التي سبقت يوم الثورة كانت التناقضات قد بلغت مداها الاقصى ، مثلت في ازمات وزارية متلاحقة ناتجة عن الفساد السياسي والحزبي الذي كان يعكس واقع الطبقة البرجوازية الاقطاعيه الحاكمة .

وعندما تكون التناقضات في أي مجتمع قد بلغت حدها الاقصى فان ذلك يعني وفق قانون التاريخ : مخاض الثورة. يكون المناخ قد تهيأ لظهور البدل الذي تتجسد فيه ارادة

الشعب . ارادة الانقلاب على الواقع الذي يكون قد تفكك وتداعى وانتهى .
كان البطل المنتظر هو جمال عبد الناصر .

★★★

ان النظرة لذلك الدور البطولي التاريخي الذي قام به جمال عبد الناصر فجر يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ يجب ان لا تكون من زاوية واحدة وانما يجب أن تكون من كافة الزوايا المحيطةبذلك الحدث المؤثرة فيه والمتأثرة به .

لا يجوز مثلا ان ننظر الى الثورة من خلال الواقع المحلي لبلد مثل مصر بالذات في عصر المنجزات العلمية المذهلة التي الغت المسافات وجعلت الكرة الارضية باتساعها كجسم الانسان يتأثر الكل بالجزء ويؤثر الجزء في الكل .

ولا يجوز أن تكون نظرتنا الى جمال عبد الناصر من خلال تناقضات المجتمع المصري وحده ، ومن خلال فساد الطبقة البرجوازية والفوضى السياسيه التي نتجت عنتفككها وصراع المصالح بين ابنائها ، وعجزها عن تحقيق الحد الادنى من المطالب السياسية وهو انهاء الاحتلال البريطاني ، ناهيك عن المطالب الاجتماعية .

انما يجب أن تكون هذه النظرة من خلال الظروف الدولية والواقع العربي والمحلي التي سبق ايجاز ملامحهاالاساسية .

من خلال تلك الظروف وذلك الواقع وقيمة مصر بالنسبة للاستعمار ومدى اهتمامه بها وبابقائها في اطار سيطرته ونفوذه تبدو لنا حقيقة شخصيه جمال عبد الناصر ، ثائرا وقائدا قوميا ومفكرا تقدميا .

وبناء الشخصية الثورية القيادية لا يتم خلال اسابيع وشهور . فليس كل ضابط مغامر يستغل ظروفا معينة ويستولي على السلطه ويغير نظام الحكم يكون قائدا ثوريا . .

ان ضباطا كثيرين قبل عبد الناصر وبعده استغلوا الجيش

للوصول الى السلطة ، ولكن ليس كل واحد من هؤلاء كان شخصية ثورية . لان الثورية ليست باستغلال الفوضى السياسية والوثوب الى الحكم والاكتفاء بذلك دون اي تغيير في واقع المجتمع .. ذلك يكون انقلابا عسكريا ليس الا ، المستفيد الاكبر منه هو الطبقة صاحبة المصلحة في استمرار ذلك الواقع .

اما الشخصية الثورية . هي الشخصية التي تكون قد تجسدت فيها ارادة الشعب في التغيير ، وذلك يتم من خلال المعاناة وتفهم واقع المجتمع ،والتفاعل مع احتياجات الجماهير ، وتحسسها كرامة الوطن .

مثل هذه الشخصيات نادرة في التاريخ .. خاصة في تاريخ الثورات التي احدثت تغيرات جوهرية في المجتمعات .

وجمال عبد الناصر هو ابرز هذه الشخصيات النادرة لانه كان تجربة متميزة في تاريخ الثورات . فلقد كان هو فكر الثورة وأداتها وقيادتها وارادتها .. فقام بذلك بدور التنظيم الثوري الذي يتولى دور الاداة والقيادة والارادة الثورية .

ولقد تكونت ثورية عبد الناصر من المجتمع الذي عاش فيه. والظروف المحلية والعربية والدولية التي احاطت به ،والاحداث الكبيرة الذي واجهها ..

تأثر بالاسلام دون تعصب ودون انغلاق .. فكان بذلك ابن مجتمعه .

واتصل بالشيوعيين وقرأ الكتب الماركسية دون أن يسعى لعضوية الحزب الشيوعي ، وشغف بقراءة كتب التاريخ وعلى الاخص ما يتعلق منها بالوحدة الالمانية ، فكان بذلك منفتحا على العصر الذي يعيش فيه .

وكواحد من عامة الشعب ، اذ انه ابن موظف صغير في مصلحة البريد ، عانى من الاستغلال الطبقي .. فكان بذلك ابن واقعه .

وكطالب في سن الشباب المبكر نراه يشترك في المظاهرات

ويدخل السجن بسببها وهو يافع .. فكان بذلك ابن جيله .
ثم نراه يصاب بصدمة قوية تهز أعماقه وتهيؤه لبذور الثورة . حدث ذلك في الرابع من فبراير عام ١٩٤٢ عندما استسلم فاروق لانذار السفير البريطاني الذي وافاه في قصر عابدين بموكب من الدبابات والمصفحات والمدافع .. وعين مصطفى النحاس رئيسا لوزارة وفدية وفق ما جاء في ذلك الانذار .
كان لحزب الوفد قبلئذ شعبية كاسحة . وكان النحاس يتمتع بزعامة واسعة .. ولذلك كانت الصدمة في نفس جمال عبد الناصر قوية :

لان كرامةالوطن تعرضت الى اهانة كبيرة . ولان اكبر الاحزاب والزعامات يأتي الى الحكم على اسنةحراب الانجليز وبقوة دباباتهم ومدافعهم .

ولان الملك فاروق لم يحافظ على كرامته ولا كرامة مصر والشعب ..

ان هذه الحادثة فضحت الملك والنظام الملكي والطبقة الحاكمة ، اذ كشفت زيف الاستقلال ونوعية الزعامات والقيادات السياسية ، فأثرت في نفس جمال عبد الناصر كما أثرت في نفوس عدد من الضباط الصغار من أبناء الطبقة الوسطى .

كان جمال عبد الناصر وقتئذ في الرابعة والعشرين من عمره .. بدأ في هذه السن المبكر يفكر بالثورة ويخطط لها ويؤسس تنظيم الضباط الاحرار ، واضعا نصب عينيه رد الاهانة التي لحقت بمصر على يد الاستعمار البريطاني .
وازداد قناعة بضرورة الثورة بعد أن تكشف له ان انغماس الملك وزعماء الاحزاب ، ورجال الحكم في المفاسد اتاح الفرصة للملكة نازلي والدة فاروق وزينب الوكيل قرينة النحاس لان تتدخلا في شؤون الحكم وتوجيه السياسة بنفوذ اكبر من نفوذ

الملك ورؤساء الوزارات . وقد ادى هذا التدخل الى مزيد من الفساد ، وجعل مصر تبدو وكأنها محكومة من النساء اذ كانت زوجة اللورد كيلرن السفير البريطاني صاحب حادثة ٤ فبراير ١٩٤٢ وهي ايطاليه الاصل تصغره بأكثر من عشرين عاما تلعب ايضا دورا مؤثرا في الحياة السياسية المصرية، وليس هذا تعريض بكفاءة المرأة . انما هو تدليل على ما مدى عمق الفساد السياسي الذي اتاح الفرصة لنساء غير مؤهلات ثقافيا وسياسيا واجتماعيا للعبث بالحياة السياسية المصرية .

واذا كانت الاحداث السياسية المصرية الداخلية نمت بذور الثورة في اعماق جمال عبد الناصر فان التجربة التي خاضها على ارض فلسطين عام ١٩٤٨ والنكبة المروعة التي اصابت الامة العربية وقتئذ ، كشفت وعرت وفضحت الواقع العربي، وعجلت في نمو الثورة في نفس عبد الناصر وفتحت امامه افاقا أرحب واوسع ، اذ أصبحت رؤيته تتجاوز حدود مصر الاقليمية لتشمل الوطن العربى كله ، وجعلته يدرك عن كثب ليس مدى وأبعاد الخطر الصهيوني فحسب وانما وهذا هو الاهم ، ان مواجهة هذا الخطر تحتاج الى تغيير شامل يبدأ من القاهرة .

« ان الظروف السياسيه المحيطة بالعاصمة التي نتلقى منها الاوامر تحيطها بحصار وتلحق بها عجزا اكثر من الذي تصنعه بنا نحن القابعين في منطقة الفالوجا . ثم هذه قوات اخواننا في السلاح وفي الوطن العربي الكبير وفي المصلحة المشتركه وفي الدافع الذي جعلنا نهرول الى أرض فلسطين . هذه هي جيوش اخواننا جيشا جيشا ، كلها هي ايضا محاصرة بفعل الظروف التي كانت تحيط بها والتي كانت تحيط بحكوماتها . لقد كانت جميعا تبدو كقطع شطرنج لا قوةلها ولا ارادة الا بقدر ما تحركها أيدي اللاعبين » .

« وكنت مؤمنا ان الذي يحدث لفلسطين كان يمكن ان يحدث

وما زال احتمال حدوثه قائما لاي بلد في هذه المنطقة ما دام مستسلما للعوامل والقوى التي تحكمه الان . »

« وكان واضحا ان الاستعمار هو ابرز هذه القوى حتى اسرائيل نفسها لم تكن الا اثرا من اثار الاستعمار . فلولا ان فلسطين وقعت تحت الانتداب لما استطاعت الصهيونية ان تجد العون على تحقيق الوطن القومى فى فلسطين ولظلت هذه الفكرة خيالا مجنونا ليس له اي امل في الواقع » . عبد الناصر . فلسفة الثورة .

★★★

ان نكبة فلسطين هزت اعماق الامة العربية ، والمجتمع العربي المصري جزء منها ، والمثير للدهشة ان الطبقة الحاكمة وعلى راسها الملك فاروق رغم انكشاف فضيحة الاسلحة الفاسدة لم تغير شيئا في سلوكها ، فبقيت غارقة في الفساد مشغلة الشعب في الازمات الوزارية لتتراكم بذلك العوامل المهيئة لانفجار الثورة . فكان حادث انتخابات نادي الضباط في نوفمبر ١٩٥١ الذي تدخل فيه الملك فاروق لالغاء نتيجتها احد هذه العوامل الرئيسية . وكان جمال عبد الناصر اراد في هذه الانتخابات اختبار فعالية وتماسك تنظيم الضباط الاحرار الذي كان قد نما واتسع .

ثم كان حريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢ حدثا كبيرا كشف عن مدى الضعف الذي وصل اليه الحكم وكان عاملا اخر عجل في تهيئة المناخ الملائم للثورة ..

ثم كانت سلسلة الازمات الوزارية المتلاحقة بمثابة اللمسات الاخيرة في الاعداد للحدث التاريخي الكبير .

★ ★ ★

ان مجموعة هذه الاحداث ، ابتداء من المظاهرات التي شارك فيها جمال عبد الناصر ضد السلطة والاستعمار البريطاني عام ١٩٣٦ وهو في الثامنة عشرة من عمره ، الى حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ ، ثم الى نكبة فلسطين امدادا الى حريق

القاهرة والازمات الوزارية المتلاحقة لم تكن أكثر من عوامل ساعدت وهيأت المناخ لنجاح الثورة .

اما بذور الثورة التي نمت في أعماق جمال عبد الناصر فكانت بعضا من بذور الثورة الكامنة في واقع المجتمع العربي المصــــري .

أن ذلك الواقع كان تراكما ضخما للسلبيات والتخلف والقهر والاستغلال والنهب عبر قرون طويلة « ما من شعب تراكمت عليه اثار الماضي وتبعاته بل وعقده النفسية مثل شعبنا . ما من شعب تامر عليه المحتلون الغربــــاء ومشوا بالجبــــروت والطغيان عليه مثل شعبنا . ما من شعب وقع فريســـة للاستغلال والتضليل والتغرير مثل شعبنا . كان المجتمـــع ينقسم الى طبقتين : طبقة السادة الحكام وطبقة العمــال والفلاحين والاجراء التي كان الواحد فيها لا بد أن يعمل ليأكل . كان في سخرة . كان فيه استبداد .. كان في استغلال . كان فيه ناس بتعمل وتموت . تحفر الترع مجانا . تسوي الارض مجانا . وفيــه ناس تملك الارض وتملك المال ، تملك خيرات الارض » . جمال عبد الناصر .

لقد كانت بذور الثورة حية في احشاء هذا المجتمع تنتظـر الشخصية التي تكون بمثابة الأرض الطيبة التي تنمو فيها . فكان جمال عبد الناصر تجسيدا لمجتمعه العربي . في أعماقه نمت بذور الثورة وترعرعت . وفي فجر ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كان ميلادها وانطلاقها .

وعلى مدى ٦٦٣٦ يوما بلياليها ، استمر عبد الناصر يغير في المجتمع ويشق طريق الثورة وسط أعاصير عاتية وفي ظروف بالغة العنف والقسوة . يقاتل مجموعة من الاعداء ، الاستعمار والامبريالية والصهيونية والقوى الراسمالية والرجعية المحلية والعربية والدولية ، لم تلتق كما التقــت ضد شخصية واحدة تجسدت فيها ارادة امة .

الفصل الثاني

بداية العداء التصادمي

ان العداء للاستعمار من جانب جمال عبد الناصر كان قبل الثورة بحوالي سبعة عشر عاما ، أيام كان طالبا .

اما العداء لعبد الناصر من جانب الاستعمار فقد بدأ بعد نجاح الثورة ·

ذلك لان عبد الناصر لم يكن شخصية سياسية عقائديةبارزة معروفة تلتزم العداء للاستعمار . ولا كان من كبار الضباط الذين يمكنهم من خلال موقعهم التأثير في اتجاهات الحياة السياسية لاتخاذ مواقف معادية للاستعمار . ولا كان مفكرا له اراؤه المؤثرة في الجماهير .. لم يكن شخصية مرئيةعلى مسرح الاحداث في مجتمع الباشوات الاقطاعيين واصحاب رؤوس الاموال الاجانب والبرجوازيين المصريين . كان ضابطا وهناك الاف الضباط في الجيش ، وكانت رتبته متوسطة بالنسبة للرتب العسكريه .. ورغم انه كان أكثر الضباط حركة ونشاطا واتصالات بحكم مسؤوليته في تنظيم وقيادة حركة الضباط الاحرار الا انه كان ابعد الضباط عن دائرة الضوء . ولقد آثر علي ان يبقى في الظل بعد ان قاد الثورة ونجح في الاستيلاء على قيادة الجيش والسلطة واصبح القوه الفعلية والشخصية القيادية المسؤولة عن كل ما جرى ويجري في مصر منذ فجر ٢٣ يوليو ١٩٥٢ منصرفا بكل وقته وجهده لتثبيت أقدام الثوره وتعميق جذورها .

وتصور الاستعمار والزعماء السياسيون وأبناء الطبقة الاقطاعية البرجوازية أن اللواء محمد نجيب الذي وضعه مجلس قيادة الثورة واجهة له هو قائد هذه الثورة .
وكان محمد نجيب من الضباط ذوي الرتب العالية المعروفين

في الجيش والمجتمع منذ انتخابات نادي الضباط في نوفمبر ١٩٥١ ، ولكنه لم يكن شخصية ثورية ، ولم تكن لديـــه افكار تقدمية .. وكانت الثوره مفاجأة تامة له .. وكانت المفاجـــأة الاكـــبر ان يصبح واجهة الثورة .

وانجذبت الانظار اليه .. وانخدع الاستعمار به ولا شك اذ وجد انه شخصية معتدلة يمكن التعاون معها .

ومن طبيعة الاستعمار ، عندما يفاجا بواقع جديد ، انـــه يحاول التكيف معه توطئة لتطويقه واحتوائـــه ... ولتحقيق غايته هذه فانه يتجه الى رجل دائرة الضوء واضعا في الاعتبار أن قائد الواقع الجديد كرئيس الحكومة او زعيم الحـــزب أو قائد الجيش هو الذي تسلط عليه اضواء الاعلام والدعاية .

وبحكم تجربة الاستعمار الطويلة في الوطن العربي والشرق عموما ، ومن خلال تعامله مع الانظمة المختلـــفة ورجـــال السياسة والاحزاب والحكم كان قد وصل الى حد الاقتـــناع بأن الرجل الاقوى في مصر بالذات كما في جميع الاقـــطار والبلدان المتخلفة يأخذ مكانه في القمة او في المقدمة ويحيط نفسه بأضواء الدعاية الساطعة .

وكانت كل الاضواء ، وقتئذ سلطت على محمد نجيب رغم انـــه لم يكن له اي دور في الثورة ، لا في الاعداد لها ولا في تنفيذها . واعترف بهذه الحقيقة في اول حديث له نشر في جريدة الاهرام بتاريخ ٢٣ يوليو ١٩٥٤ يقول في هذا الحديث:

« دق جرس التلفون في منزلي واذا بالاستاذ مرتضـــى المراغي يكلمني من الاسكندرية ويقول لي : الاولاد بتوعـــك متجمهرين عند كوبرى القبة وعاملين دوشة . قوم سكتهم أحسن مش راضيين يسمعوا كلام حد !

وقلت له : انا ما عدنيش اولاد ولا حاجة !

قال لي : فيه شوية ضباط عاملين دوشة .

قلت له : أعرف منين الكلام ده . يمكن حد مدبر مكيدة ضدي علشان أروح وتمسكوني وتقولوا ده شريك معاهم .

فقال لي المراغي : انا حاجيب لك دولة الرئيس الهلالي باشا علشان يكلمك بنفسه ويعطيك عهد أن ما حدش يمسك .

قلت له : وازاي اتحقق من شخصيتكم في التلفون ؟

ومرت لحظات ، واذا بالتلفون يدق من جديد ، وكلمني الاستاذ نجيب الهلالي من الاسكندرية وقال لي :

انا استاذنك يا نجيب .. ومستقبل الوطن متوقف عليك . فأرجوك تعمل على تهدئة الحالة لان الانجليز سيحتلون مصر وتبقى مسألة خطيرة . فطمأنته وقلت له : اني ذاهب لارى الحالة بنفسي » .

ويضيف أنور السادات عضو مجلس قيادة الثورة في كتابه « قصة الثورة كاملة » الصادر عن دار الهلال صفحة ٨٨ :

« ان اللواء نجيب كانفي منزله لا يرى شيئا ولا يعلم شيئا . ثم في الساعة الثالثة اتصل بجمال في مبنى القيادة . وبعد ان كان كل شيء قد تم واصبح الجيش تحت سيطرة الضباط الاحرار .

وقد رد جمال على سؤال نجيب بأن وضح له الموقف كله ، وابلغه لاول مرة ان في الجيش تنظيما اسمه تنظيم الضباط الاحرار ، وان قيادة ذلك التنظيم قد سيطرت الان علىجميع القوات المسلحة في جميع انحاء البلاد .

قال جمال عبد الناصر لنجيب بالحرف الواحد في تلك الساعة من صباح ٢٣ يوليو شارحا له الحكاية :

« الضباط الاحرار قاموا بالثورة الليلة . والثورة نجحت والمنطقة العسكرية محاصرة . واحنا عايزينك تيجي . حانبعتلك عربية تجيبك . »

« هكذا عرف اللواء محمد نجيب لاول مرة حكاية الضباط الاحرار .

وفي الساعة الخامسة صباحا اي بعد ساعتين من معرفة نجيب لحكاية الثورة، وبعد أن عرف أن جمال يجلس الان مع

اعضاء القيادة الجديدة في مبنى رئاسة الجيش ، وصل نجيب الى مبنى رئاسة الجيش . وفي هذا الوقت كان عبد الحكيم عامر جالسا يعد البيان الذي سيذاع على الشعب في الصباح من محطة الاذاعة » .

وقد تولى أنور السادات اذاعة هذا البيان الذي أعده عبد الحكيم عامر واقره جمال عبد الناصر .

الاهمية من وراء اثبات هذا الاعتراف من جانب اللواء محمد نجيب وتأكيده من جانب عضو مجلس قيادة الثورة انور السادات هي لاثبات البرهان على أن محمد نجيب وضع واجهة للثورة ولم يكن اكثر من ذلك .

كانت ظروف تلك المرحلة تستدعي هذه الخطوة ، كما ان تلك الظروف استدعت تشكيل أول وزارة بعد نجاح الثورة برئاسة علي ماهر ..

وذات الظروف استدعت عدم التعجيل بتصفية النظام الملكي والاكتفاء وقتئذ بالخطوة الاولى وهي ارغام فاروق على التنازل عن العرش لابنه الطفل احمد فؤاد الثاني يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ واتاحة الفرصة له ليخرج من البلاد بسلام وتعيين مجلس وصاية من رشاد مهنى وبهي الدين بركات والامير السابق محمد عبد المنعم .

كانت تلك الظروف في تقدير جمال عبد الناصر :

وجود قوات احتلال بريطانية بحوالى ثمانين الف جندي ترابط على امتداد منطقة قناة السويس .

وجود سيطرة رهيبة للاقطاع وراس المال والبرجوازية المصرية تمتد الى أعماق الريف وكافة مجالات الحياة المصريه .

وجود الاحزاب بزعاماتها التاريخية مع انعدام الحركة السياسية التقدمية القادرة على التفاعل مع الجماهير وتنظيمها .

سيطرة الاستعمار الكاملة على الوطن العربي بأجمعه .

عدم وجود صلة بالاتحاد السوفياتي وكان وقتئذ هو القوة

العالمية الوحيدة التي كان يمكنها دعم الحركات التحررية ضد الاستعمار العالمي .

في ضوء هذه الظروف راى جمال عبد الناصر ان المهم ان تحكم الثورة سيطرتها على الجيش ، وتثبت اقدامها في المواقع الاساسية ، وتستقطب الجماهير حولها ، وتوجه الامور الى حيث تريد من خلال وجوه غير استفزازية للاستعمار ريثما تصبح الثورة قادرة على حماية نفسها .

كان يمكن ان يتحرك الثمانون الف جندي بريطاني متذرعين بأية ذريعة لاجهاض الثورة لو لم يتول جمال عبد الناصر قيادتها في الايام والاسابيع الاولى بذكاء خارق واقتدار فذ ..

كان يناور ببراعة فائقة ليكسب الوقت ساعة بساعة ، ويوما بيوم ، واسبوعا باسبوع .. واتخذ من الوجوه الواجهة اساسا لمناوراته .. فأختار شخصيات معتدلة مقبولة من كافة الاطراف المهتمة بما يجري في مصر ..

وتفرغ للعمل وراء هذه الواجهة المجردة من القوة المسلحة، يخطط لتوجيه ضرباته لاعداء الشعب .

كان جمال عبد الناصر قادرا على أن يبدأ في اللحظة الاولى في اتخاذ الاجراءات الثورية ولكنه كان يريد أن يتفاعل الفلاحون والعمال وجموع الشعب مع الثورة ليتهيأ المناخ الملائم لبدء عملية التغيير في المجتمع .

كان يخشى من الصدامات الدموية . ومن الفوضى التي كان يمكن أن تثيرها الاحزاب وفي مقدمتها حزب الوفد وجماعة الاخوان المسلمين . وكان يخشى أن يستغل الاستعمار البريطاني ذلك ، او ان تتآمر القيادات السياسية التقليدية مع الاستعمار ، فيزحف الثمانون الف جندي بريطاني على القاهرة ..

أن الاستعمار الذي لم يتورع في عام ١٩٥٦ عن القيام بغزو شاركت فيه بريطانيا وفرنسا وإسرائيل لضرب الثورة في ظروف دولية معقدة ، وبعد أن غدت جماهير الامة العربية

كلها ملتفة حولها وحول قائدها جمال عبد الناصر ، كان مــن المؤكد أنه لن يتردد لحظة واحدة عن استغلال قوته الموجودة في منطقة القناة لضرب ما حدث يوم ٢٣ يوليو لو انه كان يدري أن ما حدث كان ثورة وان قائد هذه الثورة سوف يدفع حركة التاريـــخ بسرعة الى الامام .

ان الوجوه التي جيء بها لتكون واجهة الثورة جعـــلت الاستعمار يتصور ان ما حدث ليس أكثر من انقلاب عسكري ناتج عن الفساد السياسي وعدم الاستقرار الذي أدى الــى تشكيل خمس وزارات بعد حريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢ كانت اخرها وزارة نجيب الهلالي قبل الثورة بثلاثة أيام ..

وامعانا في خداع القوى المعادية للثورة عمد جمال عــبد الناصر في ١٧ اغسطس ١٩٥٢ وبعد ثلاثة أسابيع كاملة من نجاح الثورة الي التنحي عن رئاسة الجمعية التأسيسيـــة للضباط الاحرار ليتولى منصبه محمد نجيب !

كان تبرير عبد الناصر لهذا التنحي : « ان الوضع أصبـــح حرجا للغاية ، فاللواء نجيب قدمناه للشعب باعتباره قائـــدا للثورة ، وفرضناه قائدا عاما للقوات المسلحة وفي نفـــس الوقت هو لا يحضر اجتماعاتنا وهذا ما لا يصح أن يـــدوم - (قصة الثورة كاملة . انور السادات) .

كان عبد الناصر مطمئنا واثقامن سيطرة تنظيم الضبـــاط الاحرار على الجيش وبذلك فانه لم يكن يخشى مـــن اسناد المناصب اسميا لمحمد نجيب ، كما لم يكن يخشى من الوزارة التي يرئسها علي ماهر ولا من مجلس الوصاية على العرش . كل ما كان يخشاه أن ينقض الاستعمار وقوى الرجعية المصرية على الثورة قبل أن تثبت أقدامها .

بدافع من هذه الخشية آثر جمال عبد الناصر أن يبقـــى بعيدا عن الاضواء . فالمهـــم أن تجتاز الثورة أخطار الايـــام الاولى وتنجو من خطر الانقضاض عليها بقوات الاستعمـــار

المرابطة في فايد على بعد عشرات الكيلومترات فقط من القاهرة .

ولقد انشلغت جميع القوى في الواجهة في حين انشغل جمال عبد الناصر في اعداد خطط الانطلاق نحو الهدف الاستراتيجي للثورة .

تصورت تلك القوى أن الامر انتهى بطرد فاروق وتشكيل مجلس الوصاية على العرش وتغيير قيادة الجيش ، وعلى اساس هذا التصور ، ولان فاروق كان احد اسباب الفساد والافساد وعدم الاستقرار في البلد ، وحيث أن نظام الحكم كنظام ملكي بقي قائما مع ما فيه من معاني الاقليمية . وان اشخاص مجلس الوصاية على العرش ورئيس الوزراء ومحمد نجيب واجهة مجلس قيادة الثورة كانوا من العناصر المعروفة بالاعتدال ، فان الاستعمار اتبع سياسة الاحتواء للواقع الجديد مستهدفا في الدرجة الاولى أن تبقى مصر اقليمية،وانتبقى في اطار نفوذهوجاذبيتهبطريقة او باخرى . لم يكن يهم الاستعمار ان يبقى فاروق او يطرد. فليس اسهل على الاستعمار أن يتخلص من اخلص العملاء له اذا وجد أن مصلحته تقتضي ذلك . والمصلحة الرئيسية للاستعمار في اي بلد لا يتمثل في الاشخاص رغم اهميتهم كأدوات تنفيذية ، انما تتمثل في أن يبقى البلد في دائرة نفوذه ليبقى مجالا مفتوحا لاحتكاراته واستغلاله ، أو قاعدة استراتيجية يستخدمها لحماية مصالحه وتدعيم نفوذه في منطقة معينة كجزء من مصالحه الاستراتيجية في العالم .

أن الاستعمار يعمد هو نفسه الى تدبير انقلابات عسكرية، وبعضها يكون داميا ، ضد حكام جاء بهم الى الحكم واشتهروا بالارتباط به والعمالة له .. انه يفعل ذلك عندما يكون قد استنفد اغراضه من هؤلاء ! لا يتورع أبدا من أن يدبر انقلابا ضد هذا الملك أو ذاك الرئيس عندما تقتضي مصلحته تغيير

الوجوه أو في بعض الاحيان تغيير نظام الحكم كله لامتصاص نقمة الشعب ، وخداع الجماهير واعادة الهيبة الى الحكم والرهبة ليصبح قادرا على فرض النظام والاستقرار .

ان الاستعمار يهمه ان يكون الحكم الاداة ، او الحاكم الاداة قويا بالارهاب البوليسي ، ولو بالبطش بالاحرار ومطاردتهم وقتلهم ، ولو بتخويف الجماهير بشتى الوسائل والاساليب.. ويستحيل أن يكون الحكم الاداة أو الحاكم الاداة قويا بغير ذلك،لانه بطبيعتهوارتباطاتهيكون متناقضامع ارادة الجماهير ومصالحها .. واي حكم او حاكم يتناقض مع الجماهير لا يمكنه أن يحكم بغير الارهاب البوليسي الموجه ضد حرية الشعب .

ولقد كان هناك في الوطن العربي رجال حكم تميزوا بالقوة الارهابية البوليسية .. كان ابرزهم اسماعيل صدقي في مصر ونوري السعيد في العراق وتوفيق ابو الهدى فيالأردن وجماعة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر في السعودية .. كان الواحد منهم يمارس الارهاب الى الحد الذي يصبح الاستمرار فيه خطرا على نظام الحكم كله عملاً بالقاعدة المعروفة : شدة الضغط تولد الانفجار ، عند هذا الحد يتدخل الاستعمار لتغيير اداة الحكم ، فيأتي بعميل اخر للحكم باسلوب اخر ، فيعمد الى تخفيف الاجراءات لكي يتنفس الشعب قليلا، ويفتح أبوابا ضيقة للحريات الزائفة حتى اذا نشطت حركات التحرر عاد من جديد الى الاداة الارهابية .. وهكذا .

ويهم الاستعمار كذلك أن يبقى نظام الحكم مستقرا قويا .. ومن أجل ذلك فانه يعمد باستمرار الى التفريق بين النظام الاداة والحاكم الأداة .. يحاول أن يجعل راس النظام بعيدا عن لعبة الحكم ومفاسد الحكومات التي تعتبر صفة ملازمة للانظمة المرتبطة بالاستعمار .. لانه يحاول ان يحملمسؤولية الفساد والافساد والارهاب وما الى ذلك من مساوىء ، لرؤساء الوزارات ، او لوزراء معينين وخاصة وزراء الداخلية،

فيتحملون المسؤولية ويبقى راس النظام بعيدا ، فيبقى نظام الحكم مستقرا وهذا هو بيت القصيد بالنسبة للاستعمار .

ولكن الامر لم يكن كذلك في مصر ، فان فاروق ، وهو راس النظام قد تجاوز كل حدود الفساد والافساد حتى أصبح عنوانا لهما ، ثم بلغ به الاستهتار بمقدرات الشعب والجيش على السواء الى درجة المتاجرة بالاسلحة الفاسدة .. وبذلك فانه كان عاملا اساسيا من عوامل انعدام الاستقرار في بلد كبير الاهمية الاستراتيجية للاستعمار .

كانت مصر تعيش طوال النصف الاول من عام ١٩٥٢ في حالة من الفوضى السياسية لا مثيل لها . والملك فاروق هو المسؤول الاول عن ذلك لانه جعل من تشكيل الوزارات تجارة كان بعض خدم القصر امثال بوللي من اشهر سماسرتها ٠

وفي جو الفوضى السياسية في أي بلد ، يكون كل شيء متوقعا .. بل أن الاستعمار يكون في حالة خوف شديد من احتمالات المستقبل ، ولذلك فانه يكون في حالة سباق مع الزمن . لا يريد أن يفلت من يده زمام الامور ولا زمام المبادرة ولا يريد بطبيعة الحال أن تصل الفوضى السياسية الى حد الانهيار لكي لا تتاح الفرصة للحركة الوطنية للاستيلاء على الحكم .

والحركة الوطنية التي يخشاها الاستعمار ، هي الحركة المتناقضة معه سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، الهادفة الى تصفية وجوده ونفوذه ومصالحه وعملائه واقتلاع جذوره واسباب سيطرته وتحكمه بمقدرات البلاد وثرواتها ، واقامة حكم نابع من ارادة الشعب ويعمل لتحقيق امانيه ٠

أن مثل هذه الحركة الوطنية بهذا المفهوم التقدمي كانت ضعيفة في مصر ، ولكنها لم تكن منعدمة ، وكانت الحركة الوطنية المصرية السائدة وقتئذ متخلفة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا .. تتمثل في الوطنية البرجوازية التي كانت تستهوي الجماهير بانهاء المعاهدة المصرية البريطانية

والمطالبة بجلاء القوات البريطانية عن منطقة قناة السويس دون أن تكون متناقضة مع الاستعمار فيما هو اكثر من ذلك. فلم يكن هدفها ولا كانت مطالبها تصفية مصالح الاستعمار واستثماراته ووسائل نهبه لثورة الشعب ، وبذلك فان مثل هذه الحركة الوطنية البرجوازية لا يخشاها الاستعمار ولا تشكل تهديدا له .. وقد سهل عليه ان يتعامل معها على مدى اكثر من سبعين عاما دون أن يمكنها من تحقيق ما يريده الشعب . ولم تكن قيادات هذه الحركة في مستوى اماني الشعب ، فبقيت عاجزة عن الارتفاع بنضاله الى مستوى ارادته ، وكانت سهلة الاحتواء من جانب الاستعمار .

أن هذه القيادات البرجوازية لم تكن تخيف الاستعمار في عام ١٩٥٢ ، ولكن خلافات هذه القيادات وتحولها الى ادوات فاقدة الارادة بيد ملك فاسد مستهتر بكل القيم الوطنية والخلقية أدى الى الفوضى السياسية التي عمت البلاد وسببت قلقا مخيفا للاستعمار لخشيته من أن تستغل التنظيمات التقدمية هذا الواقع المضطرب فتستولي على السلطة .

لمواجهة هذا الاحتمال ، اتجه تفكير الاستعمار الى تغيير ادواته بما في ذلك قمة الحكم .

وكان الملك فاروق هدفا للتغيير من جانب بعض قوى الاستعمار البريطاني منذ الايام التي سبقت حادث الرابع من فبراير ١٩٤٢ .

ولكن كانت هناك قوى استعمارية أخرى اكثر تأثيرا حرصت على ابقاء فاروق لان فساده وفوضاه السياسية تهيء مناخا رائعا لمزيد من التحكم بمقدرات مصر ونهب لثروتها وخيراتها. كانت حجة المطالبين بالتغيير : ان استمرار هذه الفوضى السياسية يمكن أن يؤدي الى انهيار كامل في نظام الحكم ويتيح الفرصة لنمو حركة وطنية نابعة من ارادة الشعب ويهيء لها المناخ للوثوب على الحكم .

وكانت حجة المطالبين بالابقاء على فاروق : ان بقاءه مع ضعف الحركة الوطنية التقدمية يخدم أهداف الاستعمار ومصالحه ، لان فوضاه السياسية وصغار زعامات الاحزاب وتهالكها على الوزارات يشغل الراي العام عن القضايا الوطنية والقومية .. وفي هذا مصلحة للاستعمار .

وقبل ان تستقر القوى الاستعمارية على موقف من فاروق وجه جمال عبد الناصر ضربته المفاجئة المذهلة .

***

أن عبد الناصر كان يعرف ما يريد من وراء استيلائه بتنظيم الضباط الاحرار على قيادة الجيش وانتزاع السلطة الفعلية بذلك من يد الحكم .

لم يكن همه أن يصبح حاكما ، او ان ياخذ مكان فاروق .

لم يكن هدفه أن يستمتع بالاضواء ومتع الحياة .

لم يستهوه قصر عابدين ، ولا الحياة البذخة فيه . كان يعتبر هذا القصر شؤما على من يقيم فيه . يقول أنور السادات في كتابه قصة الثورة كاملة : « اذكر أن جمال عبد الناصر في ابريل عام ١٩٥٤ كان يجلس في مكتب اللواء نجيب بعابدين ، وقال جمال للواء نجيب :

انا حاسس ان القصر ده شؤم على كل من يجلس فيه فايه رايك تقعد في مكتب تاني في مكان اخر وتخلي القصر ده متحف » .

فضل عبد الناصر أن يبقى بعيدا عن الاضواء وحياة القصور، فآثر ان يبقى في منزله المتواضع في منشية البكري قرب المكان الذي فجر منه الثورة .

كان همه ان لا يتوقف عند الحكم وينشغل بمشاكله . كان يدرك أن الاكتفاء بطرد فاروق دون المساس بالاوضاع الاقتصادية السائدة انذاك لا يعني اكثر من انه قام بانقلاب عسكري .

لم يكن الحكم هو الغاية التي كان ينشدها جمال عبد الناصر . انما كان ينشد أن يكون الحكم وسيلة للتغيير . وعندما يكون الحكم اداة تغيير تقدمي يكون ذلك ايذانا بالثورة .

وما كان يريده عبد الناصر منذ البداية هو الثورة . التغيير محدد في هدم اسباب التخلف وبناء أساس التقدم .

القضاء على الاستعمار واعوانه من الخونة لتسهل مهمة مواجهة الاحتلال البريطاني في منطقة قناة السويس وارغامه على الجلاء .

القضاء على الاقطاع الذي كان يستبد بالارض ومن عليها .

القضاء على الاحتكار وسيطرة راس المال على الحكم ليتم بعدئذ تسخير موارد الثورة لخدمة مصالح جماهير الشعب .

اقامة عدالة اجتماعية على أنقاض الاستغلال والاستبداد الذي كان سائدا في كافة مجالات الحياة .

اقامة جيش وطني يتولى حماية الثورة ومكاسب الجماهير .

اقامة حياة ديمقراطية سليمة نابعة من ارادة الجماهير المتحررة من عوامل التسلط والارهاب والخوف ، والمطمئنة لغدها .

ولقد تجلت ثورية جمال عبد الناصر بعد نجاح الثورة ، فلم يتوقف عند الاستيلاء على السلطة ، لو فعل ذلك لكان لقي الدعم القوي وبكافة الاشكال من الاستعمار والامبريالية والصهيونية والرجعية العربية والدولية والراسمالية العالمية .. ولكنه لم يتوقف . اتخذ من السلطة أداة للتغيير وانطلق للعمل الثوري .

لم تكن المهمة سهلة ، بل كانت صعبة بالغة الصعوبة .

ولم تكن الطريق ممهدة، بل كانتوعرة شديدة الوعورة .

لم تكن لديه الخبرة في الحكم . ولم يستند الى تنظيم عقائدي . وكان يريد الحكم اداة للتغيير . انها مهمة ثورية شاقة ولا شك .

★★★

لقد اتجه أول ما اتجه نحو الاقطاع . وكان ممنى ذلك الاتجاه الصدام المبكر مع الاستعمار .

أن الاقطاع بشكل عام مظهر من مظاهر التخلف ، بل انه احد العوامل الرئيسية المسببة للتخلف والمعوقة لانطلاق الشعوب نحو أمانيها الوطنية والقومية ، ويشكل أهم الركائز التي يستند اليها الاستعمار ، لان طبقة الاقطاعيين ، وهي الطبقة الحاكمة حيثما يوجد اقطاع ، متناقضة في مصالحها مع جماهير الشعب .. وهناك قاعدة اكدتها حركة التاريخ تقول : انه في البلدان الصغيرة وعلى الاخص المتخلفة منها ، عندما يكون الحكم متناقضا مع ارادة الشعب فانه يكون مرتبطا بالاستعمار ، ويتحقق بذلك فائدة مشتركة . فتتوفر الحماية الاستعمارية للطبقة الاقطاعية الحاكمة ، وبالمقابل تتحول هذه الطبقة الى أداة يستخدمها الاستعمار ، وهو الطرف الاقوى ، لتحقيق أهدافه الاستراتيجية من سيطرة واستثمار ونهب للثروات .

واذا كانت طبقة الاقطاعيين ترتبط بحكم طبيعتها ومصالحها بالاستعمار ، فان طبقة الاقطاعيين في مصر كانت في غالبيتها من الغرباء المتمصرين ولا اقول المستعربين لانهم كانوا ينكرون كل صلة بينهم وبين الامة العربية ، وبذلك فان ارتباطهم بالاستعمار كان اشد واوثق .

ان نشوء وتطور الاقطاع في مصر بالصورة التي كان عليها عند تفجر ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ يرتبط بالمماليك وأسرة محمد علي (١٨٠٥ – ١٩٥٢ م) .

عندما استولى هذا المغامر الالباني على الحكم في مصر وقضى على المماليك اعتبر ارض مصر كلها ملكا له ! تجاهل وجود الشعب العربي المصري وانكر حق هذا الشعب في ارضه .

كان قادة الجيش والضباط من الغرباء ، وكانت الحاشية وخدم القصر وموظفوه من الغرباء ايضا ، ذلك انه لم يكن

يطمئن او يثق بابناء الشعب العربي المصري ٠

من هؤلاء الغرباء الذين لا تربطهم اية رابطة بالشعب العربي المصري ولا بالامة العربية نشأت طبقة الاقطاعيين في مصر. فلقد أخذ الخديوي يكافيء اعوانه وخدمه ومحظييه وضباطه وعشيقاته بالاف الافدنة . بقـــــرى كاملة بأرضها واهلها . بطبيعة الحال بعد أن احتفظ لنفسه وابناء أسرته بعشـــرات الالاف من أجود الاراضي واخصبها ٠

لقد كان الامير يوسف كمال على سبيل المثال وهو مـــن الغرباء يملك ثلاثين الف فدان في منطقة نجع حمادي في وسط الصعيد ، اغتصب القسم الاكبر منها بالسطو والارهاب من الفلاحين . كان هذا الاقطاعي الرهيب حاكما مطلقا لمنطقـــة نجع حمادي ، يتحكم برجالها ونسائها ودوائرها الانتخابيـــة ويفرض الجهل والفقر فيها .

أن هؤلاء الغرباء الذين اصبحوا اقطاعيين هم الذين صاروا يملكون مصر بالاشتراك مع اسرة محمد علي . وكان هـــناك ترابط مصيري وثيق مـــــع الاســـرة الحاكمة « الغريـــبة » والاقطاعيين الغرباء ، فكان من الطبيعي أن تصبح السلطـــة اداة ارهاب وتخويف للفلاحين المحرومين من حقهم في أرضهم بل ومن ابسط حقوقهم في الحياة .

لقد احتفظ هؤلاء الغرباء بخصائص مجتمعاتهم وتقاليدهـــا وعاداتها .. وكانوا ينظرون الى المجتمع العربي المصـــري باستخفاف واحتقار ! يعاملون ابناءه كأنهم عبيد . كانـــوا يعتبرون انفسهم السادة العظام يمارسون هواية الاستغلال والاستمتاع بالحياة البذخة على حساب شقاء الشعـــــب وحرمانـــه .

لا يعني هذا ان افرادا من بين هؤلاء كانوا طيبين . فلكـــل قاعدة شواذ . ولكن الامر المؤكد ان جميع الاقطاعيين كانوا

مجرمين بحق الشعب المصري . كانوا مستغلين لجهد وتعب الفلاح ، يحولون عرقه الى خمر يسكرون به ، ويتدثرون بالحراير والاجواخ وافخر انواع الثياب والملبوسات .. بينما الفلاح لا يجد الاسمال البالية ! ولا كسرة خبز .

ورغم ان طبقة الاقطاعيين الغرباء رسخت اقدامها اذ امتد بها العمر الى قرابة القرن والنصف قرن ، الا انها لم تنتم للمجتمع العربي ، ولم تعط ولاءها للارض العربية ، انما كان انتماؤها وولاؤها لمصالحها الذاتية المتناقضة والمتصدامة مع مصالح جماهير الشعب العربي المصري .

ومن أجل ضمان مصالحها الذاتية هذه ، فانها كانت من انشط العوامل العابثة بعروبة مصر المتآمر عليها . وانه لامر طبيعي أن يكون هؤلاء الاقطاعيون الغرباء كذلك لكي تبقى مصر « عزبة » مباحة لهم ، ويبقى شعب مصر عبيدا

اما لماذا كان ذلك امرا طبيعيا ؟

اولا : لانهم غرباء وبيدهم السلطة فانهم يخافون اي تغيير ينتزع السلطة من يدهم ويعيدها للشعب .

ثانيا : لانهم اقطاعيون مستغلون فانهم كانوا يريدون أن تبقى مصر منطقة مغلقة لهم وحدهم .

وبفعل هذين العاملين ، اي لانهم غرباء واقطاعيون فانهم تحولوا الى أدوات بيد الاستعمار وصاروا أهم ركائزه في مصر . كانوا في حاجة للاستعمار لكي يحميهم من الشعب . كذلك كان حال نظام الحكم كله . وكان الاستعمار في حاجة لهم ولنظام الحكم الغريب ليضمن بواسطتهم تنفيذ سياسته وبلوغ اهدافه .

ولم ينحصر خطر هؤلاء الاقطاعيين الغرباء في الاستغلال والتحكم بمقدرات الشعب والارتباط بالاستعمار والاستهانة بكرامة الوطن .. انما تجاوزوا ذلك ليشمل خطرهم كل نواحي الحياة في مصر العربية .

لانهم كانوا هـم الحكم ، وهم المقتدرون ، فان التعليم كان لابنائهم بشكل رئيسي اللهم غير قلة قليلة مـن أبناء الطبقة الوسطى . وكانت مناهج التعليم في خدمة اغراضهم الملتقية مع أهداف الاستعمار . وكانت الصحافة واجهزة الاعـلام وكافة أجهزة الدولة بأيديهم ، وبالتالي كانت في خدمتهـم وخدمـة الاستعمـار .

وكانت في ايديهم وتحت سيطرتهم الاحزاب السياسية .

وكان البرلمان لهـم وحدهـم .

كانت لهم كل الحرية في الاستغلال والنهـب والبطـش بالشعب . ولم تكن للشعب حتى حرية الشكوى والتذمـر والتظلـم .

وبلغ الاستهتار بالشعب ومقدراته مـن جانب هـؤلاء الاقطاعيين الغرباء انهم فتحوا ابواب مصر للغرباء امثالهـم وللاستثمارات الاجنبية لتصبح مصر قبل ثورة ٢٣ يوليومشاعا مباحا مملوكا للغرباء ينعمون بخيراتها ولا يبقـون لابنائـها غير الدموع والعرق والشقاء والحرمان .

لقد وصف خبير اميركي في شؤون اسيا الغربية الاوضاع في مصر قبل ثورة عبد الناصر على النحو التالـي :

« كان الاقطاعيون ملاك الارض يتزعمون أحزاب البـلاد السياسية الرئيسية ، ويتحكمون في البرلمانات المتعاقبـة ، ويقررون شكل التشريعات التي تسن وتستصدر وتنفذ ، كما يسيطرون على سياسات الحكم الداخلية والخارجية ، وكان السلطان السياسي في مصر معادلا لملكية الارض . وكان معظم السياسيين البارزين في البلاد ينتمون الى فئة الذين يملكون ما يربو على الخمسين فدانا لكل منهم والذين لا تعدو نسبتهم ٤ في المائة من مجموع سكان البلاد . »

(ر.ك. كرانجيا . كيف نجح عبد الناصر)

لهذا كان يهم الاستعمار بطبيعة الحال أن يستمر هذا الواقع الاقطاعي .. لان استمراره يعني ضمان المصالح الاستعمارية !

كان الاستعمار واثقا من أن الاقطاعيين المصريين ، لانهم في غالبيتهم غرباء ومصالحهم متناقضة متصادمة مع مصالح جماهير الشعب ، لا يمكنهم أن يعطوا ولاءهم لغير مصالحهم الذاتية فيبقون في حاجة له — اي للاستعمار — ليوفر الحماية لهم .

اذن فان الاقطاع كان أهم ركائز الاستعمار في مصر .. وكان من الطبيعي أن يعتبر أي هجوم يستهدف تصفية هذا الاقطاع هجوما يستهدف في أبعاده تصفية الوجود الاستعماري .

لهذا فان الاستعمار انزعج أشد الانزعاج عندما تعرض الاقطاع الى ضربات جمال عبد الناصر ، واعتبر أن الهجوم المفاجيء الذي تعرض له هذا النظام الاجتماعي المتخلف انما يستهدف في أبعاده تصفيته وجودا ونفوذا ومصالح واستثمارات من خلال تدمير أقوى قلاعه وتحطيم أهم ركائزه .

أيقن الاستعمار يوم ٩ سبتمبر ١٩٥٢ أن ما حدث يوم ٢٣ يوليو اكبر بكثير من أن يكون انقلابا عسكريا ، وأدرك أن القوة الفعلية ليست في أيدي الذين يقفون في واجهة الحكم وتسلط عليهم الاضواء . . ورغم أن عبد الناصر كان وقتئذ بعيدا جدا عن الاضواء الا ان جميع المهتمين بما كان يجري في مصر تأكدوا من أنه هو القوة الفعلية المحركة للاحداث .

لم يكن قد مضى على ٢٣ يوليو أكثر من ستة أسابيع عندما صدر قانون الاصلاح الزراعي في التاسع من سبتمبر الذي تم بموجبه استعادة الارض من أيدي الاقطاعيين الغرباء أعداء الشعب العربي المصري ، وتحرير الفلاح من أبشع أنواع الاستغلال .

كان صدور هذا القانون اول تأكيد عملي الى ان ما قام به عبد الناصر فجر ٢٣ يوليو كان ثورة .. وأول انتصار فعلي لعبد الناصر على اعوان الاستعمار اعداء الثورة الذين حاولوا احتواءها وتحويلها الى مجرد انقلاب ، بل واقل من الانقلاب، لان النظام الملكي كان حتى ذلك الحين ما زال موجودا فكان هناك احساس لدى الاستعمار وأعوانه من زعامات الاحزاب الاقطاعية بأن ما حدث يمكن حصره ومحاصرته في اطار عزل الملك فاروق وتعيين مجلس وصاية للعرش وتشكيل الوزارة برئاسة علي ماهر .. والاكتفاء بذلك .

ولكن عبد الناصر الثائر ، رفض الاحتواء وتصدى لكل قواه وعناصره ، وخاض ضدهم اهم معارك الثورة .

حاول جاهدا ان يقنع قيادات الاحزاب بالموافقة على قانون الاصلاح الزراعي قبل اصداره . بل حاول ذلك مع مجلس الوزراء برئاسة علي ماهر .. ولكنه فوجيء بمعارضة شديدة استفاد منها الى ابعد الحدود اذ كشفت له اعداء الثورة ، واقنعته باستحالة التعاون مع تلك الزعامات والقيادات التقليدية وضرورة الحذر منها وتصفيتها باعتبار انها ركائز للاستعمار وقوى معوقة لانطلاقة الثورة .

والعجيب الغريب انهم تذرعوا بالحرية والديمقراطية في دفاعهم عن الاقطاع ومعارضتهم لعبد الناصر ورفضهم لقانون الاصلاح الزراعي .. كانوا في حقيقة الامر يدافعون عن حريتهم ، وهم قلة قليلة جدا في تملك ملايين الافدنة واستعباد ملايين الفلاحين واستغلالهم وابقائهم على حافةسد الرمق . كانوا يتسترون بالديمقراطية لاخفاء جرائمهم وتبرير سلبهم لجهد الكادحين واضفاء صفة الشرعية على دكتاتوريتهم الرهيبة التي يفرضونها على جماهير الشعب .

كان قادة وزعماء الاحزاب هم الاقطاعيون والراسماليون

المستغلون . وتصوروا انهم بوتوفهم صفا واحدا يرهبون عبد الناصر ويوقفونه بعيدا عن مصالحهم الاقطاعية . فتكتلوا ضده ولكنه لم يرهبهم .

لقد عجزوا عن فهم أفكاره وادراك أبعاد صلابته وشجاعته واساؤوا تقدير الموقف عندما فاوضهم بهدف اقناعهم للموافقة على تصفية الاقطاع .. تصوروا انه سوف يبقى عاجزا عن الاقدام على الصدام معهم واصدار قانون الاصلاح الزراعي بدون موافقتهم المسبقة معتمدين على معارضة رئيس الوزراء واعضاء مجلس الوصاية لهذا القانون ، مشدودين الى أوهام قدرتهم على تأليب الجماهير ضد هذا الرجل الذي يريد تغيير الاوضاع والانظمة السائدة المتوارثة .

كان عبد الناصر يعلم علم اليقين أنه يواجه تكتلا رهيبا يضم تحالف الاقطاع وراس المال المستغل مع الاستعمار في جبهة واحدة ، وانه لا فائدة من التفاوض مع قيادات الاحزاب ، وان كل ما يقوله لتلك القيادات ينتقل خلال ساعات على الاكثر بأساليب غريبة للسفارات الاستعمارية الاميركية والبريطانية بشكل خاص .. ورغم ذلك فاوضهم ، واثقا من الجيش والامن العام بعد ان اكتملت سيطرة الضباط الاحرار ، وتم تصفية العناصر العميلة المرتبطة فكرا ومصلحة وسلوكا بالقيادات الاقطاعية والنظام الملكي .

كان قادرا على وضع الجميع تحت الامر الواقع واصدار قانون الاصلاح الزراعي بدون التشاور معهم .

وكان قادرا على البطش بهم وتنفيذ تصفية الاقطاع بقوة السلاح . ولكنه ثائر مسالم . يهمه تحقيق الثورة بدون سفك دماء . ولعل البعض يأخذ عليه الان تماديه المفرط في المسالمة .

اتصل بقادة حزب الوفد وجماعة الاخوان المسلمين وغيرهم

وكان يريد موافقتهم بهدف تجنب اية خلافات وانقسامات واقامة جبهة داخلية قوية لمواجهة الاحتلال البريطاني .. واذا لم يتحقق ذلك ، وهذا ما حدث ، يكون قد كشفهم وعراهم لجماهير الشعب فتسقط زعاماتهم الزائفة وتنفتح الابواب لتفاعل اسرع بين الثورة والجماهير الكادحة وعلى الاخص جماهير الفلاحين الذين يشكلون الغالبية العظمى المسحوقة من الشعب .

ان عبد الناصر يربط ربطا وثيقا بين الاقطاع وحرية الفرد. وبين حرية الفرد والديمقراطية الحقة ، وبين الاقطاع والاستعمار . قال في خطاب له في ٢٨ مايو ١٩٥٤ :

« قلنا لهم (قادة الاحزاب وعلى الأخص الوفد والأخوان المسلمين) : اذا اردتم أن تتعاونوا مع الثورة . اذا أردتم أن تعملوا من اجل الشعب فيجب أن نقضي على الاستعمار ويجب أن نحطم الاقطاع . فان الاقطاع اذا كان يمثل شيئا في هذا الوطن فانما يمثل الاستعباد بابشع صوره ولا يمثل الحرية أبدا . فلا معنى لحرية فلاح تحت يد اقطاعي .. مهدد في رزقه . مهدد في اقواله . مهدد في بيته لا معنى لحرية فلاح لا يستطيع انه يقول ما يريد . لا معنى لحرية فلاح غير مطمئن على رزقه وغير مطمئن على نفسه . قلت لهم نريد أن نحطم الاقطاع ونريد أن نحدد الملكية . قلنا لهم نريد أن نقضي على الفساد وعلى سيطرة راس المال على الحكم . ولكنهم كانوا معنا مخادعين مضللين كما كانوا معكم . لم يقبلوا أبدا . بل لم يؤمنوا ابدا بحرية الفرد . بل لم يؤمنوا ابدا بان الفرد الذي يقع تحت سيطرة الاقطاع يفقد حريته » .

وعندما اقترحوا عليه فرض ضريبة تصاعدية والابقاء على الاقطاع وزينوا له الامر بانه سوف يدر دخلا كبيرا لخزانة الدولة رد عليهم بقوله :

« ان رفع الضريبة ربما ضاعف من ايرادات خزينة الدولة، ولكنه لا يحقق الهدف السياسي الذي تؤمن به الثورة ، اي تحطيم قيود عبيد الارض ليختاروا ممثليهم الحقيقيين في البرلمان بلا قهر او ارهاب » (١) .

ولم يشأ عبد الناصر ان يضيع الوقت في حوار غير مجد ومفاوضات عقيمة مع أصحاب المصلحة في بقاء الاقطاع . لقد تحققت له الفائدة المرجوة من الحوار مع هؤلاء ، فاستدرجهم الى الموقف الذي يتعرون فيه وينكشفون بنواياهم العدائية لجماهير الشعب وبالتالي لاسقاط زعاماتهم التي اقاموها بالدجل والزيف والخداع والغوغائية .

وفي التاسع من سبتمبر ، بعد شهر ونصف الشهر من قيام الثورة ، بينما قادة الاحزاب يشكلون تكتلا مع رئيس الوزراء علي ماهر (٢) والاوصياء على العرش ويسندون ظهورهم الى الاستعمار ويحاولون استدراج عبد الناصر الى المفاوضات لكسب الوقت والحيلولة دون اصدار قانون تحديد الملكية، اذ بهم يفاجأون بالقانون ، وبارادة عبد الناصر الفولاذية تتولى تنفيذه وتضرب بقوة كل اقطاعي يرفض الانصياع له ويتمرد عليه . وكان الاقطاعي عدلي لملوم الذي لقى جزاءه بالسجن لرفضه تنفيذ قانون تحديد الملكية مثالا لكل الاقطاعيين ، فاستسلموا لارادة الثورة . كما كان القضاء الفوري على تمرد الامير يوسف كمال مثالا اخر .

ان الذين أصابهم هذا القانون في حدود الالفي اقطاعي . منهم ٦٨ اقطاعيا كان الواحد منهم يملك اكثر من الفي فدان . و ٤٠ اقطاعيا كان الواحد منهم يملك ما بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ فدان و ٩٠ اقطاعيا كان الواحد منهم يملك ما بين ١٠٠٠ و

(١) انور السادات . قصة الثورة كاملة . ص ١٦٦ .

(٢) كان قد استقال في ٧ سبتمبر قبل اصدار قانون الاصلاح الزراعي بيومين وكان يطالب بجعل الحد الاقصى للملكية ٥٠٠ فدان

١٥٠٠ فدان و ٩٢ اقطاعيا يملك الواحد ما بين ٨٠٠ و ١٠٠٠ فدان و ١٦١ اقطاعيا يملك الواحد ما بين ٦٠٠ و ٨٠٠ فدان و ٤١٢ اقطاعيا يملك الواحد ما بين ٤٠٠ و ٦٠٠ فدان و١٤٤٨ اقطاعيا يملك الواحد ما بين ٢٠٠ و ٤٠٠ فدان . (١)

مقابل هؤلاء كان هناك في عام ١٩٥٢ ستة عشر مليونا وثمانمائة واربعة وتسعون الفا وثلاثة وثمانون مواطنا لا يملكون شيئا (١٦٫٨٩٤٫٠٨٣) علما بأن عدد سكان مصر وقتئذ كان حوالي الثمانية عشر مليونا .

ان ملايين الافدنة التي صودرت بموجب قانون ٩ سبتمبر ثم بموجب القوانين المعدلة له التي تم بموجبها تحديد الملكية بمائة فدان ثم بخمسين فدانا وزعت على الفلاحين الذين كانوا يتوارثون الحرمان والشقاء والفقر والمرض والجهل!.

كان ذلك بداية الثورة الاجتماعية وحجر الاساس في المجتمع العربي الجديد . ولم يكن الهدف منه هو مجرد تمليك الارض للفلاحين التي يعيشون عليها ويعملون فيها .. انما كان الهدف الابعد هو تحرير الانسان وبناء شخصيته وكرامته وفتح أبواب المستقبل امامه . اكد ذلك عبد الناصر وهو يخاطب الفلاحين قائلا لهم :

« احرصوا على ما ردته الثورة لكم . هذه الارض ليست للتمليك فقط ولكنها ضمان لتحريركم وتحرير أبنائكم وأحفادكم من بعدكم . وهذه الارض ليست وسيلة لرفع مستواكم فحسب بل لخلق العزة والكرامة وشعور الفرد بالمساواة والحرية » .

كان هذا الذي تحقق للفلاحين اكبر من امانيهم الذاتية .كان الاقطاعيون يشكلون ارهابا فظيعا لهم .. ثم فجأة بضربة من يد عبد الناصر المجسدة لارادة الشعب يتهدم صرحهم وتنهار اقطاعياتهم وتخرج جموع الفلاحين بمئات الالوف

(١) محمود الشرقاوي . القرية بين ماض وحاضر ص ٩ .

والملايين هاتفة بحياة عبد الناصر محطم الاقطاع اقوى قلاع الاستعمار والتخلف ، مرحبة به ملتفة حوله في شبه أسوار عالية لحمايته من اعوان الاستعمار الاقطاعيين والراسماليين المستغلين الذين اذهلتهم الضربة واصابتهم في مقتل ووجدوا انفسهم وقد خسروا كل شيء من مصادر القوة والاستغلال والتحكم .

راحوا يصرخون بأعلى أصواتهم : انها دكتاتورية ! واسرعوا الى أحضان سيدهم الاستعمار ، يحثونه على الاسراع في ضرب عبد الناصر قبل استفحال خطره . وخرج منهم محمود وحسين واحمد أبو الفتح وغيرهم ، ثم لحق بهم علي أمين ليصبحوا أبواق الاستعمار من وراء الاذاعات السرية يجترون ويرددون عبارة الدكتاتورية ! ويطالبون بالديمقراطية !

أن تحرير الانسان من الخوف والاستغلال والظلم والطغيان هو في نظرهم ونظر الاستعمار دكتاتورية وعدوان على الديمقراطية .

أما حرمان أكثر من تسعين في المائة من أبناء الشعب من تملك فدان واحد وحرمان الفلاحين من أبسط الخدمات ومعاملتهم كأنهم قطعان ماشية أو عبيد لا يحق لهم العلاج ولا الكساء ولا الطعام ولا التعليم ولا الراحة أو الاستفادة من شيء من ثمار شقائهم وتعبهم فهذه هي الحرية والديمقراطية في اسمى معانيها !. قال عبد الناصر في ٢٢ يوليو ١٩٦١ :

« هل يمكن ان توجد ديمقراطية مع الظلم الاجتماعي . ان الديمقراطية اساسا هي اقامة عدالة اجتماعية وانصاف الطبقة المظلومة من الطبقة الظالمة . الديمقراطية اساسا هي الا يكون الحكم احتكارا للاقطاع ولراس المال المستغل بل أن يكون الحكم لصالح الامة كلها . أن يكون الحكم منصفا للمظلوم من الظالم » .

أن الضربات التي وجهها عبد الناصر للاقطاع كانت موجهة بنفس القوة وذات الشدة للاستعمار . فالعلاقة بينهما متلازمة،

ذلك ان الاقطاع بمثابة جسر يعبر عليه الاستعمار . وبمثابة قلاع يحتمي فيها . وبمثابة ركائز يستند عليها . لهـذا فان تصفية الاقطاع كانت تعني تدمير الجسور والقلاع والركـائز الاستعمـاريـة .

اصبح الاستعمار اذن بعد تصفية الاقطاع معزولا في عراء مكشوف وبذلك اصبح يواجه مصيره المحتوم .

وكان الاخطر من ذلك عليه هو الخوف من انتقال ما جرى ويجري في مصـر الى الوطن العربي واقطار افريقيا واسيا التي تتأثر بمصر بحكم علاقاتها وموقعها ومؤثراتها الحضارية والدينيـة والقوميـة .

لو ان مصـر جزيرة في محيـط ، او على طرف قـارة ، وشعبها غير عربي ، وليـس لها رصيد حضاري ضخم ، لكان تقبل تصفية الاقطاع باعتباره من مخلفات الماضي لا ينسجم مع منطق العصر ويمكن امتصاص تأثيره وفعاليته .

ولكن الحقيقة غير هذه الفرضية ، وبذلك فان الاستعمـار الذي كان يهيمن على الوطن العربي والقارة الافريقية كلـها واجزاء من اسيا احس بالخطر فور صدور قانون تحديـد الملكية في مصـر ليس لانه قضى على الاقطاع المصـري فحسب وانما لان مؤثراته سوف تعجل في تفجير ثـورات سياسية واجتماعية تعصف بالاقطاع وبالتالي بالاستعمـار واعوانـه في مناطق احتكاراته واستثمارات الواسعـة في العالـم .

★★★

كان المستوطنون الاستعماريون قد استولوا على مساحات واسعة من الارض في ارجاء افريقيا واسيا وطردوا اهلهـا واصحابها وحولوها الى مزارع انتاجية ضخمـة واقطاعيات متطـورة .

كان المستوطنون الهولنديون يملكون ملايين الافدنة والدونمات فـي اندونيسيا .

وكان في الجزائر عند تحريرها في عام ١٩٦١ حوالي مليون فرنسي وأجنبي يملكون حوالـــي الثلاثة ملايين هكتار مـــن الاراضي الخصبة اي ما يساوي الثلاثين مليون دونم أو حوالى الثمانية ملايـــين فـــدآن .

وكان الانجليز يملكون مزارع شاسعة تمثل اخصب واجود الاراضي في كينيا تبلغ مساحتها ثمانية ملايين فدان .

وهناك الاميركيون الذين يملكون ويحتكرون مزارع المـــوز والقصب والفواكه وغيرها من المنتوجات الزراعية في اميركا اللاتينية الوسطى والجنوبية .

وكان هناك البلجيكيون في الكونغو والبرتغاليون في انغولا وموزامبيق وغينيا بيساو يملكون اخصب الاراضي .

والمواطنون المنهوبة منهم أراضيهم ، حولهم الاستعماريون والمستوطنون الاقطاعيون ، الى طبقة من العبيد والخـــدم والاجراء فلا يحصلون لقاء تعبهم وشقائهم على أكثر ممـــا يسد رمقـــهم !

ومثل هذا الحال ، كان وما زال بعضه ، في معظم البلدان التي كانـــت في قبضة الاستعمار وتحت نير احتلاله .

كان الاقطاع قد انتهى في أوروبا الغربية بالذات عند انتشار الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر ، ولكن المستوطنيـــن الاوروبيين الاستعماريين تملكوا أراضي الشعوب الافريقيـــة والاسيوية واللاتينية وتحولوا الى اقطاعيين فيها .

وكان هناك في كثير من البلدان الاقطاع القبلي ..

وكان الاستعمار يتحكم في انتاج كل هذه الاقطاعيـــات والمزارع وفق احتياجاتـــه السوقية والاستهلاكية ، ففـــرض نظام المحصول الواحد في غالبية مستعمراته أن لم يكن في جميع مستعمراته .. وما زالت اقطار كثيرة تعاني من ذلك حتـــى الان ، مثل توجو ونيجيريا التي أرادها الاستعمار مـــزارع لانتاج زيت النخيل ، ومثل غمبيا والسنغال لانتاج الفـــول السوداني ، وساحل الذهب وساحل العاج لانتاج الكاكاو ،

وموزمبيق وتنزانيا لانتاج السيسال ، ومصر لانتاج القطن ، والجزائر لانتاج العنب وتحويله الى خمور .. وهكذا .

وانه لامر طبيعي أن يكون الاستعمار شديد الحرص للحفاظ على مستعمراته واقطاعياته ، وشديد الحساسيه والعداء للخطوة التي اقدم عليها عبد الناصر ضد الاقطاع .

لقد خاضت الدول الاستعمارية حروبا طاحنه من اجل المستعمرات . وحاربت الثورة الروسية والافكار الاشتراكية، خوفا من تأثيرها على مستقبلها الاستعماري ودفاعا عن مصالحها الاستعمارية في افريقيا واسيا وامريكا اللاتينية . واذا كانت فعلت كل ذلك لابقاء مستعمراتها مناطق مغلقة لها ، فانه من البديهي ان تتصدى لعبد الناصر في محاولة للقضاء عليه أو على الاقل لشل حركته وخنقها في مهدها قبل أن تضرب جذورها في الارض وتأخذ في الانتقال والانتشار في الوطن العربي وارجاء أفريقيا واسيا حيث المستعمرات المترامية والاقطاعيات الشاسعة . ذلك لان الاستعمار كان يدرك بأن مصر بموقعها وصلاتها وتأثيرها وانتمائها القومي والقاري سوف تكون بثورتها التي بدات ملامحها بتصفية الاقطاع اشد خطرا عليه من الثورة الشيوعية .

لذلك فانه لم ينظر الى ضربة عبد الناصر المبكرة التي وجهها الى الاقطاع من زاوية انها عمل داخلي تقتضيه مصلحة الشعب العربي المصري ويستهدف تحرير الانسان ورد كرامته له ، وانما كانت نظرته من زاوية أن هذه الضربة موجهة في أبعادها الاستراتيجية اليه ، لانها تقضي على أعوانه وتهدم قلاعه التي يحتمي بها وتشجع شعوب المستعمرات على أن تحذو حذو الثورة العربية .

من هنا ، فان التناقض التصادمي بين عبد الناصر والاستعمار بدأ بالفعل بعد ستة اسابيع من ٢٣ يوليو ١٩٥٢ عندما اجتاز عبد الناصر الخط الفاصل بين الانقلاب والثورة .

وكان ذلك بداية حرب دامية رهيبة لم تتوقف لحظة واحدة على مدى أكثر من ثمانية عشر عاما .

وشأن ما يجري في كل الحروب ، حتى التي خاضها النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم (١) ، فان عبد النـــاصر أصيب بنكسات ولكنه الحق بالاستعمار هزائم منكرة ، وفجر ثورة كان لها دور حضاري تاريخي في تحرير الشعوب .

استمر عبد الناصر يقاتل الاستعمار لانه قائد ثوري كان يعرف جيدا انه يتحمل مسؤولية قيادة الثورة العربية .

واستمر الاستعمار يهاجم عبد الناصر في محاولات مستميتة لحاصرته واقامة السدود من جديد حول الثورة التي قادها وحركة التاريخ التي فجرها وغدت تعصف بالاستعمار القديم والجديد من كل جانب في كل مكان لانه كان يعرف أبعادخطر عبد الناصر عليـــه .

فسر عبد الناصر سبب هذا العداء بقوله :

« ليه العدوان الخارجي المستمر علينا ؟ طبعا نجاح هذه الثورة يستلفت النظر في المنطقة المحيطة بها ، وفـــي كل انحاء العالم الثالث اللي بيقولوا عليه العالم المتخلف، أو الدول النامية ، واذا استلفت النظر هذا النجاح ستحاول كل هذه لشعوب أن تطبـــق في بلادها أنظمة تقضي على الاستغلال، فاذا قضت على الاستغلال ستتأثر بهذا مصالـــح الرجعيـــة ومصالح الاقطاع ومصالح الراسمالية . وفي نفس الوقـــت تتأثر مصالح الاحتكارات العالمية . وعلى هذا الاساس نجد أن المعركة اللي موجودة ضدنا منذ قامت الثورة معركةتتحالف فيـــها قوى مختلفة : الاستعمار مع الصهيونية مع الرجعية العربية مع الاقطاع في البلاد العربية أو النظم الاقطاعية . ثم مع النظم الراسمالية المستغلة » . (٢)

ان جميع هذه القوى لم تلتق وتتجمع وتتكتل في تحالـــف واحد ضد ثورة في التاريخ ، أو ضد شخص واحد تمثلـــت

---

(١) المقصود بهذه الاشارة ان النبي العربي محمد صلعم الذي تجسدت فيـــه روح الله وارادته لم ينتصر في جميع المعارك التي خاضها ضد المشركين ، فقد انهزم في معركة احد .

فيه ارادة أمة ،كما فعلت ضد جمال عبد الناصر منذ أن وجه ضربتــه للاقـــطاع .

ورغم ضخامة امكانات واسلحة القوى التي تألبت على عبد الناصر الا انها عجزت عن هزيمته وفشلت في القضاء على ثورته لانه كان يجسد ارادة الامةالعربية وحركة التاريخ .

ان التاريخ ليس مجرد أرقام .. لو كانت الارقام هي مقياس القوة ومعيارها لتمكنت القوى المعادية لعـــبد النـاصر من القضاء عليه وعلى الثورة التي قادها خلال أيام قليلة .ولكن التاريخ كان وسيظل انعكاسا لارادة الشعوب ، وللعلاقــة القائمة دوما بين الاسباب والنتائج .. ولذلك فشلت القوى المعادية في الصمـــود في وجه تيارات الثورة .

لم يكن معنى هذا الفشل أن الاستعمار استسلم ورمـــى سلاحه بمجرد ان سقطت سلطة الحكم وقلاع الاقطاع التي كان يحتمي وراءها . فلقد استمر يقاتل ويهاجم . يتصـــدى للثورة بكل الاسلحة التي يملكها ويتامر على قائدها بكافــة الوسائل الاجرامية واللاأخلاقية التي يجيدها .. ورغـــم أنه اضطر لان يتراجع ويتقهقر ويتخلى عن مواقعه موقعـــا وراء موقع ، ويطوي أعلامه ويمضي مرغما الا انه لم يتوقف عـــن محاربة عبد الناصر المجسد لارادة الثورة ، كما لم يتوقف عبد الناصر عن مطاردته والاشتباك معه . ومن خلال ذلك ونتيجة له تبلورت عظمة عبد الناصر وصار واحدا من ابرز صناع التاريخ.

لقد كان مستحيلا ان يكون هناك تعايش بين عبد الناصر والاستعمار لانه يستحيل أن يكون هناك تعايش بين الثـــورة والاستعمـــــار .

★★★

---

(٢) خطاب عبد الناصر في العيد الرابـــع عشر للثـــورة بالاسكندريـــة ٢٨–٧–١٩٦٦ .

الفصل الثالث

لماذا لم يكن مفر من الصدام بين عبد الناصر والاستعمار!

لو ان جمال عبد الناصر بالثورة التقدمية الاشتراكية التي قادها ظهر في بلد اخر غير مصر لما تصدى له الاستعمـــــار وحاربه بشدة العداء ، وعنف الكراهية ، وقسوة الحقد التي حاربه بها واستعمل فيها ضده اكثـــر الاساليب اللااخلاقية اجراما وبطشا عرفها التاريخ ٠

لقد قال نابليون قبل ١٧٥ عاما في نهاية القرن الثامن عشر ايام حملته الاستعمارية على الوطن العربي : « ان مصر اهم بلد في العالم » ٠ انه يقصد بهذه الاهمية : موقـــــع مصر ، وتراثها الحضاري وانتماءها القومي العربي والديني ٠

انها في قلب الوطن العربي وجزء منه ، وفي قلب العالـــــم وجسر له ، بذلك فانها تتمتع بميزة استراتيجية لا يتمتع بمثلها بلد اخر في العالم ٠

واذا كنا الان نبعد زمنيا مائة وستين عاما عن معركــــــة واترلو (١٨١٥ م) التي انهزم فيها نابليون ، فان مصر مـــا زالت تحتفظ بذات القيمة والاهمية الاستراتيجية التي حددها ذلك الاستعماري ـ الذي يشهد له التاريخ بانه واحد من ابرز عباقرة الاستراتيجية وقادة الحروب ـ رغم اننا نعيش عصر الفضاء الذي جعل المسافة بين ابعد نقطتين في العالم اقرب زمنيا من المسافة بين باريس وواترلو في ايام نابليون ٠

ان قناة السويس التي افتتحت للملاحة عام ١٨٦٩ زادت من اهمية مصر الاستراتيجية،وغدت هدفا للدول الاستعمارية التي انطلقت بعد عام ١٨٧٠ كالوحوش الكـــــاسرة تفترس بوحشية رهيبة الشعوب الافريقية والاسيوية وتدمر معالـــــم الحضارة في هاتين القارتين ٠

وتمكن الاستعمار البريطاني بالتواطؤ مع الخديوي توفيق وهو من طبقة الغرباء ، من احتلال مصر عــــــام ١٨٨٢ م

والانطلاق منها لاحتلال السودان واكمال سيطرته على غالبية النصف الشرقي للقارة الافريقية من اقصى شمالها الى قصى جنوبها باستثناء بعض الاجزاء مثـــل موزمبيق المستعمرة البرتغالية وتنجانيقا التي كان الالمان قد استولوا عليها ثـم آلت لبريطانيا بعد الحرب العالمية الاولى ·

ان مصر كانت حجرالاساس الرئيسي في البناء الاستعماري الضخم ، بعد احتلالها وليس قبلئذ سقطت افريقيا والوطن العربي تحت الاحتلال الاستعماري الاوروبي وعلى الاخص الاستعمار البريطاني والفرنســـي · وعندمــا جـاء عبـد الناصر وانتزع مصر من الهيكل الاستعماري حدث ما يحدث لاي بناء ينزع منه حجر الاساس · تخلخل الهيكل وتداعـى وسقط ·

بعد احتلال مصر الذي سبقه احتلال المناطق الساحليـــة الشرقية والجنوبية للجزيرة العربية من الكويت الى عمان الى عدن ، وكذلك احتلال الهند وبورما وسيلان وجزر الملايو وسنغافورة شرقا ، اصبح الاستعمارالبريطاني يحتوياحتواء كاملا المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الاحمر وقناة السويس الموصلة بينه وبين البحر الابيض المتوسط ، وضمن لنفسه السيطرة على مداخل ومنافذ المحيطات ·

وفي بداية هذا القرن العشرين اكتشفت بوادر البترول فـي ايرانوالعراق ،وتوالت الاكتشافات البترولية في الوطن العربي بعد الحرب العالمية الثانية ، واصبح هذا الوطن مخزنـــا ومصدرا رئيسيا للطاقة التي لا يمكن للمجتمعات الراسمالية الصناعية الاستغناء عنها والحفاظ على رفاهيتها وتقدمهـا بدونها ·

ولئن كانت الاحتكارات الاميركية قـد نجحت في الاستئثار بالسيطرة على منابع البترول في السعودية فـان الاستعمار البريطاني كان قد تقاسم مع الاستعمار الفرنسي احتـلال المشرق العربي ، وكان نصيبه المنطقة الممتدة من حدود ايران

شرقا حتى البحر الابيض المتوسط غربا ، المعروفة بالعراق والاردن وفلسطين ، وبذلك ضمن لنفسه السيطرة على منابع البترول الغنية في الموصل شمال العراق ، وعبدان في ايران ، ثم في الكويت ومناطق الخليج العربي ، وكذلك على ممراته ومصباته وموانىء تصديره على البحر الابيض المتوسط ، مشركا معه في ذلك حليفه اللدود الاستعمار الفرنسي،مستفيدا من سيطرته على سوريا ولبنان لتمرير خطوط انابيب البترول عبر اراضيهما ٠

ولقد ازدادت اهمية هذين القطرين العربيين كممر للبترول بعد نكبة فلسطين واقامة اسرائيل فيها ٠

كذلك تضاعفت الاهمية الاستراتيجية لقناة السويس كممر رئيسي لناقلات البترول وتضاعفت بذلك الاهمية الاستراتيجية لمصر بالنسبة لمستقبل الاستعمار عامة والاستعمار البريطاني على وجه الخصوص ، الامر الذي كان له اكبر تاثير على تطور العلاقات وتصادمها بين المعسكر الغربي الرأسمالي وبين عبد الناصر ٠

ان السبب في تدهور هذه العلاقات وتصادمها يرجع الى تناقض الارادات والغايات والاهداف ثم لخوف الاستعمار على مصالحه الهائلة واستثماراته الضخمة وعملياته اللصوصية الاجرامية التي يمارسها في انحاء افريقيا واسيا ٠

لقد اقامت الدول الاستعمارية امبراطورياتها بوحشية اكثر شراسة مما يحدث في الغابة ، ومكنت عصابات الصهيونية من ان تقيم اسرائيل على ارض وانقاض الشعبالعربي الفلسطيني لاهداف استراتيجية في مقدمتها : ان تكون قاعدة استعمارية متقدمة داعمة للاستعمار في الوطن العربي وعلى الاخص في مصر ، عازلة بين مصر والمشرق العربي ، وسدا في وجه الوحدة العربية ، واداة لضرب حركة التحرر في هذه المنطقة الحيوية ٠

ان ما فعله الاستعمار في افريقيا واسيا كان رهيبا ، وما نهبه من ثروات الشعوب كان هائلا ، ولا يمكننا ان ندركمدى كراهية الاستعمار لعبد الناصر ، ولا مدى الدور التاريخي لعبد الناصر في تصفية الاستعمار الا اذا ادركنا ، ولو بالنزر القليل المكثف ، ما فعل الاستعمار وما اقترف من جرائـــــم ضد الشعوب للوصول الى مخازن ثرواتها ومن اجل استغلال جهدها وطاقتها الانتاجية ٠

★★★

ان الاستعمار في ابسط معانيه هو : السيطرة من اجــــل الاستغلال ٠ استغلال الانسان لجهد الانسان ، فلا يمكن ان يكون هناك استغلال بدون سيطرة ٠ وليس شرطـــا ان تكون السيطرة احتلالا ٠ كان ذلك في مراحل من التاريخ مضت ولم يبق منها غير جيوب صغيرة غدت الان بمثابة النماذج والامثلة لما كان عليه واقع افريقيا واسيا والوطن العربي بشكل خاص عندما برز عبد الناصر على مسرح الاحداث ٠ ولا يعنــــي انهاء الاستعمار الاحتلالي ان عهد السيطرة من اجــــل الاستغلال انتهى ٠٠ لقد اثبت جمال عبد الناصر بتجربتــــه الثورية الرائدة انه لا يمكن التحرر من السيطرة الاستعمارية الا اذا تحرر الوطن من الاحتلال وتحرر المواطن منالاستغلال٠ ولا يمكن تحقيق ذلك بالنسبة للشعوب التي نكبت بالاستعمار الا بثورتين متلازمتين ٠ سياسية واجتماعية ، يتحقق بهمـــا انهاء الاحتلال واقامة حكم نابع من ارادة الجماهير ، وتحرير الاقتصاد الوطني من قبضة الاحتكاراتالاجنبية والرأسماليين المستغلين والاقطاعيين بغض النظر عن كونهم اجــــانب او مواطنين ٠ وكان هناك تناسب طردي بين عداء الاستعمـــار لعبد الناصر وبينالمنجزاتالسياسية والاقتصادية والاجتماعية التي حققها عبد الناصر وغدت نموذجا للشعوب الافريقيـــة والاسيوية واللاتينية ٠ وحيث ان هذه المنجزات كانت ضخمـــة فان العداء له كان شديدا ٠

لقد كان الاستعمار على استعداد لان ينهي وجودهالعسكري

في مصر · ولكنه لم يكن يقبل بخروج مصر من دائرة نفوذه، ولا بانهاء سيطرته على اقتصاديات مصر · وهذا هو الشكل الجديد المتطور للاستعمار ·

ان السيطرة من اجل الاستغلال ليست شكلا واحدا ثابتا · والاستعمار بالتالي ليس مظهرا واحدا لم يتغير · انه في النصف الثاني من القرن العشرين يتطور الى استعمار غير مرئي ، غير منظور ، غير ملموس · وكان قبلئذ استعمارا مرئيا منظورا ملموسا متمثلا في السيطرة الاحتلالية المباشرة · وكان قبل هذا المظهر يأخذ الصفة التجارية والقرصنة البحرية ·· وسبق ذلك مراحل اخرى من السيطرة الاستغلالية ·

ولعل اكثر ما يلفت النظر في دراسة التاريخ ان السيطرة من اجل الاستغلال بدأت وتطورت مع ظهور الدولة ونظام الحكم والجيش ·· وبالتالي فانها ارتبطت بالحروب وتمتد الى الاف السنين ·

واذا كانت بداية الحروب تاريخيا مرتبطة بمملكة اشور ، فان جذور الاستعمار تمتد الى تلك الحقبة من الزمان · اذ ان تلك الحروب استهدفت السيطرة من اجل الاستغلال ·

لقد كان شكل السيطرة والاستغلال وقتئذ بدائيا · ولكنه رغم بدائيته كان يحمل مظهر السيطرة من اجل الاستغلال · وبذلك فانه يحمل معنى الاستعمار بمظهره البدائي · او شكل الاستعمار عند بداية نشوئه ·

ان المنتصر في تلك الحروب كان يعمد في اغلب الاحيان الى التوسع ليكسب المراعي والارض الزراعية ، وكان في جميع الاحيان يعتمد الى النهب والسلب ليزيد ثروته وقوته ، والى اخذ الاسرى وتحويلهم الى عبيد ·

وحيث ان المستفيد الوحيد من ذلك هو طبقة الامراء وقادة الجيش والتجار فان الاستعمار كان وما زال مرتبطا برأس

المال بغض النظر عن شكل ومظهر ونوع راس المال هذا . ففي القديم كان رأس المال يتمثل في انواع معينة من الماشية والحيوانات او العبيد وما الى ذلك .. ولعل هناك قبائل في افريقيا واميركا اللاتينية واستراليا ما زالت حتى الان تتعامل فيما بينها وتقاس ثرواتها بمقدار ما لديها من ابقار او جمال او اي نوع من الحيوانات المفيدة للانسان.

وتطور نوع رأس المال مع تطور المجتمعات البشرية واكتشاف المعادن . فاذا كان الذهب الان هو اثمن المعادن النقدية ، فانه مضت فترة كان الحديد هو الاثمن ، ثم جاء دور البرونز والنحاس ، ثم الفضة وهكذا .. ولا ندري ماذا يكون نوع المعدن الذي يمكن ان تتخذه الاجيال القادمة اساسا للنقد الدولي .

وكان هناك ، كما هو الحال الان ، ارتباط وثيق بين راس المال والقوة . وبين القوة ونوع السلاح . وبين هذه مجتمعة والاستعمار . فمنذ القدم هناك معادلة تتحكم في حركة الاستعمار وتطوره تتمثل في ان الدول تزيد ثروتها من اجل ان تزيد قوتها وتزيد قوتها من اجل ان تزيد ثروتها .

ان الخلل في هذه المعادلة لاي سبب من الاسباب كان يؤدي باستمرار الى سقوط دولة وقيام دولة اخرى ، وانهيار امبراطورية وظهور امبراطورية جديدة على انقاضها . نلمس هذا جيدا في قيام وانهيار الامبراطوريات القديمة وعلى الاخص الفارسية واليونانية والرومانية . كما نلمسه جيدا في التاريخ الحديث في قيام وانهيار الامبراطورية الاستعمارية الانكليزية والفرنسية والهولندية والالمانية والبلجيكية والبرتغالية والايطالية والاسبانية واليابانية .. كما نلمسه في قيام الامبريالية الاميركية على انقاض تلك الامبراطورات .

ان تطور السلاح كان له اكبر الاثر في تطور القوة وبالتالي في قيام الامبراطوريات وسقوطها وذلك مرتبط بالانسان وقدرته على الابداع .

ان الذين اكتشفوا الحديد واستعملوه سلاحا في الحرب قبل غيرهم كانوا هم الاقوى وهم الذين انتصروا في حروبهم.

كذلك الحال بالنسبة لكل من الخيل والعجلة والمنجنيق والفيلة والسيف والرمح والنبال ثم اكتشاف الآلة البخارية والبارود والبندقية فالمدفع بانواعه .. ثم الطائرات والدبابات والمواصلات السلكية واللاسلكية .. ثم القنبلة الذرية والهيدروجينية والصواريخ وما الى ذلك .

كل نوع من هذه الاسلحة كان نقطة تحول في التاريخ اذ كان له اثر فعال في سقوط دول وامبراطوريات وقيام دول وامبراطوريات جديدة .. وكان يلازم ذلك باستمرار تطور في مظاهر اشكال الاستعمار .

وكما نجد في عصرنا الحالي ، لا يقدر على امتلاك وتطوير الاسلحة الذرية وغيرها غير الدول ذات الثروات الاقتصادية الضخمة ، اي الدول الغنية ، فانه لم يكن يقدر على امتلاك تلك الاسلحة التي تبدو الان في نظرنا بدائية غير الدول القادرة على ذلك .

والقدرة تبقى مرتبطة بالثروة والقوة . اي براس المال ونوع السلاح . والعلاقة بينهما عضوية تلازمية . كذلك الحال بالنسبة لرأس المال والاستعمار ، فحيثما يوجد رأس مال يوجد سعي للاستغلال ... وبما ان رأس المال منذ نشوء المجتمعات تملكه طبقة التجار فان هذه الطبقة الرأسمالية هي التي تتحكم في حركة وسياسة الانظمة الاستعمارية . وهذا امر طبيعي بحكم طبيعة المجتمعات الرأسمالية ، اذ ان طبقة التجار الرأسماليين اصحاب البنوك وشركات التامين ووسائل النقل بانواعها والمصانع وكافة وسائل الانتاج وهياكله الرئيسية واجهزة الاعلام والدعاية ، والاستثمارات والاحتكارات هي التي تحكم حكما دكتاتوريا رهيبا مخيفا مغلفا بديمقراطية زائفة .

ان بريطانيا على سبيل المثال هي اعرق الانظمة البرلمانية في العالم ٠٠ ولكنها كانت اعرق الدول الاستعمارية في التاريخ المتوسط والحديث بموافقة البرلمان الذي ينتخبه الشعببحرية تامة ٠٠ فاعضاء البرلمان البريطاني هم المقتدرون على الانفاق على الحملات الانتخابية ٠٠ وحيث ان العمال والفلاحين كانوا في غالبيتهم اميين وكانوا فقراء معدمين ، فانهم كانوا عاجزين عن خوض المعارك الانتخابية ومنافسة الراسماليين فيها ، وكانوا وهم يمارسون الانتخاب بحرية انما يفاضلون بين راسمالي واخر٠٠فكانت النتيجة باستمرار لمصلحةالطبقة الراسمالية ، اذ كان جميع اعضاء مجالس العموم البريطاني من ابناء هذه الطبقة وعلى الاخص حتى مطلع القرن الحالي٠ وابناء الطبقة الراسمالية تهمهم مصلحة طبقتهم بطبيعة الحال ، وكانوا يسنون الشرائع والقوانين باسم الشعب لمصلحة طبقتهم وليس لمصلحة الشعب ٠٠٠ يا لها من ديمقراطية !

ان هؤلاء التجار الراسماليين كانوا طلائع الاستعمار الحديث ٠ وكانت البرلمانات والجيوش وانظمة الحكم في بلادهم في خدمة مغامراتهم اللصوصية وقرصنتهم الاجرامية ٠

ان اكتشاف الطريق البحري الى الهند والشرق الاقصى بالدوران في المحيط الاطلنطي حول الساحل الغربي لافريقيا حتىراس الرجاء الصالح ثم الانطلاق من هناك ، فتح ابوابا واسعة للتجار والقراصنة ٠

وكانت اشد المنافسات بين الشركات التجارية الانكليزية والفرنسية التي اتخذت لها مواقع على الشواطىء الهندية ٠

وتحت شعار حرية التجارة وباسمها بدا الغزو الاستعماري للقارة الهندية بقرار اتخذه الملك جيمس الثاني عام ١٦٨٥ م وافق فيه على ان تقوم شركة الهند الشرقية بغارات على الموانىء التجارية الواقعة على سواحل الهند

الشرقية الفرنسية انتقاما من حكام الهند المغول الذيـن كانوا يعارضون مشروعاتها التجارية ويضعون امامها العراقيل، وتمكنت شركة الهند الشرقية الانكليزية من ان تكسب الجولة علـى الشركة الفرنسية . ثم تمكنت من احتلال البنغال (بنغلادش) وتدمير امبراطورية المغول واحتلال الهند كلها بعدئذ .

ان الحجة التي تذرع بها الاستعمار البريطانـي بضرب الاسكندرية بمدافع الاسطول وغزو مصر عام ١٨٨٢ م كانت تقليدا لما اتبعته شركة الهند الشرقية البريطانية في غـــزو البنغال والهند قبلئذ بمائة وستة وعشرين عاما .

كان مقتل بعض افراد الجاليات الاوروبية في الاسكندريـــة نتيجة صدام بينهم وبين ابناء الاسكندرية هو ذريعة الاستعمار البريطاني للتدخل ، حجته في ذلك انه يريـــد توفيـــر الحماية لارواح الجاليات الاوروبية . تماما كمــا تتخـــذ الولايات المتحدة الاميركية في عصرنا من النشاط الشيوعي ذريعـــة للتدخل في هذا البلد او ذاك .. اي ان الـــدول الاستعمارية المتسيدة تفرض نفسها على الشعوب باعتبار انها رجـــل البوليس !

كانت شركة الهند الشرقية البريطانية تملك منطقة كلكتا وتتخذها قاعدة انطلاق لنهب ثروات البنغال ! وكانت قـــد تجاوزت حدود الاتفاقيات المعقودة الامر الذي دفع بالزعيم البنغالي سراج الدولة عام ١٧٥٦ م الى محاولة التخلص من هذه القاعدة الاستعمارية فهاجمها بقواته واسر ١٤٦ جنديـــا بريطانيا .. ولم يعمد الى قتلهم كما كان يفعـــــل الجيش البريطاني بالشعب والاسرى الذين كانوا يقعون في قبضة يده . ولكن حدث ان مات منهم ١٢٦ جنديا في ليلة واحدة كانوا مع بقية الاسرى في قاعة واحدة في قلعة فورت وليم .

كيف يجوز ان يموت هؤلاء الجنود الانكليز ! ان مـــن حقهم ان يقتلوا عشرات الالوف بل مئات الالوف مـــن ابناء

الشعب البنغالي او من ابناء اي شعب افريقي او آسيوي ..
ولكن ليس من حق هذه الشعوب ان تقتل واحدا منهم ! من حق الغزاة ان يقتلوا الشعوب والاسرى وليس من حق الشعوب ان تقاوم الغزاة .. انه منطق الاستعمار في كل زمان ومكان !

ان شركة الهند الشرقية اياها ، باسم مبدأ حرية التجارة، منعت في عام ١٨٦٦ م افراغ احدى السفن المحملة قمحا كانت قد جنحت قرب شاطىء احدى الولايات البنغالية التي كانت تعاني من الجوع وعدم توفر القمح وتسببت بذلك في فساد حمولة السفينة وموت ثلث سكان ولاية اوريسا .

هذه الشركة استغلت موت الاسرى الانكليز الـ ١٢٦ واطلقت على الحادثة اسم « البلاك هول » (القاعة السوداء) لتكون ملائمة لتعبئة الرأي العام البريطاني وعلى الاخص القوى المؤثرة في اتخاذ القرارات وحملها على الاستجابة لرأي شركة الهند الشرقية الاستعمارية بضرورة ارسال حملة عسكرية بريطانية بحرية وبرية تتولى الانتقام لحادث البلاك هول . وتحقق ذلك في ذات العام . وتمكنت قوات الاستعمار البريطاني من استرداد المواقع التي كانت قد خسرتها قوات الشركة والحاق الهزيمة بالقوات البنغالية ، وغدت حادثة البلاك هول عنوانا بارزا في تاريخ الهند يدين الاستعمار بالعدوان والوحشية والاستغلال ، ويضع اسم القائد الاستعماري البريطاني كلايف في قائمة مجرمي الحرب الذين اقترفوا ابشع الجرائم ضد الشعوب .

ان حادثة « البلاك هول » مكنت الشركة الاستعمارية الرأسمالية من استغلال سيطرة رأس المال على الحكم وتوجيهه واستخدامه لخدمة اغراض الرأسماليين ، واثبتت بان الطبقة الرأسمالية لا تتورع عن اقتراف ابشع الجرائم واستخدام أحط الاساليب في سبيل اهدافها المتمثلة في الاستغلال .
وبعد ان تمت السيطرة التامة على البنغال عام ١٧٥٦ م

اتخذها الاستعمار البريطاني قاعدة انطلاق لاحكام سيطرته على شبه القارة الهندية ونجح في ذلك عام ١٨٥٧ م بعد حروب استمرت مائة عام اقترفت بريطانيا خلالها من الجرائم اكثر بكثير مما يخطر على بال احد ٠

غدت الهند بالنسبة للاستعمار البريطاني « درة التاج » ٠٠ ولكن الشعب الهندي كان عرضة لابشع انواع الاستغلال ٠٠ ان تجارة الملح على سبيل المثال التي احتكرتها شركة الهند الشرقية كانت وسيلة لابتزاز اخر درهم كان يملكه الفلاحون الفقراء ٠

ان المؤرخ الهندي « اورم » وصف البنغال في بداية الاحتلال البريطاني بانها « جنة » ٠٠ ولكنها اصبحت بعد سنوات قليلة في حالة يرثى لها من البؤس والفقر نتيجة الدمار الذي ألحقه البريطانيون بالتجارة الخارجية والداخلية ونهبهم الجشع لثروات البلاد ٠ ولقد وصفها احد الحكام البريطانيين انفسهم هو اللورد « كورنواليس » بقوله :

« استطيع ان اؤكد وانا مطمئن ان ثلث اراضي شركة الهند الشرقة في هندوستان قد اصبحت غابات غير مأهولة بالسكان ، ولا يعيش فيها سوى الوحوش » ٠ (ستراتشي ٠ نهاية الاستعمار)٠

ووصف الحاكم العام البريطاني للبنغال اللورد « وليام كافنديش بنتيك » حال البلاد بعد ثمانين عاما من الاحتلال البريطاني بقوله :

« ان عظام نساجي القطن جعلت سهول الهند تبدو بيضاء» والمقصود بهذا الوصف ان الاستعمار البريطاني خرب اقتصاديات البلاد ودمر صناعة النسيج الوطنية وسبب الجوع والموت للملايين ٠

ووصف « بيكر » وكيل شركة الهند الشرقية في عاصمة البنغال ، حال هذه البلاد بعد اثني عشر عاما فقط من الاحتلال

البريطاني بقوله : « انني اتذكر جيدا هذه البلاد عندما كانت التجارة فيها حرة وعندما كانت احوالها مزدهرة • واني لا يسعني الا ان اشعر بالقلق لما اراه فيها الآن من مظاهر الخراب »•

ويقول جون ستراتشي الوزير البريطاني السابق في مؤلفه « نهاية الاستعمار » :

« ان البنغال لم تكن تحصل على شيء مقابل البضائع التي كانت تبيعها للبريطانيين • كان ينبغي ان يحصل النساجون الهنود الذين ينسجون القطن والحرير على الانوال في اكواخهم على اثمان الاقمشة التي يبيعونها للشركة والا فانهم كانوا يموتون جوعا قبل ان يتموا عملهم • ولكن المال الذي يتقاضونه لم يكن يؤتى به من بريطانيا وانما كان يجمع من البنغال ذاتها على شكل ضرائب • وبعبارة اخرى فان البنغال كلها كانت ترغم على دفع قيمة صادراتها الى بريطانيا »•

ولم يقتصر امر الاستغلال على هذه النماذج،فان الاستعمار البريطاني عمد مع تقدم الصناعة وزيادة طاقة الالة الانتاجية الى تسخير الاقتصاد الهندي والطاقة البشرية الهائلة فيها لخدمة اهدافه الاستغلالية اللصوصية وتحويل مئات الملايين من الهنود الى مستهلكين للمنتوجات الصناعية البريطانية•

ان هذه النماذج من الامثلة والاساليب الاستعمارية في نهب ثروات الشعوب وتدمير اقتصادياتها كانت ضرورية للتدليل على ان الثروات الطائلة التي تكدست في العواصم الاستعمارية وتحولت الى صناعة متقدمة هائلة الانتاج كانت ثروات الشعوب نهبها الاستعماريون بأبشع الوسائل الاجرامية وأحط الاساليب اللا أخلاقية • كما كانت ضرورية للتدليل على مدى ردود الفعل العدائية من قبل الاستعمار تجاه جمال عبد الناصر الذي انتزع حجر الزاوية من البناء الاستعماري ودمر الهيكل كله !

ان الهند كانت قد استقلت بعد الحرب العالمية الثانية قبل سنوات قليلة من ظهور عبد الناصر ٠

ولكن الاقتصاد الهندي لم يكن قد تحرر من السيطـــرة الاستعمارية ٠

كما ان استقلال الهند لانه لم يرفق بثورة اجتماعية كتلك الثورة التي فجرها وقادها جمال عبد الناصر ، فانــه ـ اي استقلال الهند ـ لم يشكل خطرا مساويا للخطر الذي تجسد في عبد الناصر على الاستعمار العالمي ٠

ان ثورة عبد الناصر لم تستهدف التخلص من الاحتلال البريطاني فحسب ، انما استهدفت في نفس الوقت تحريــر الاقتصاد العربي المصري من السيطرة الاستغلالية الاجنبيـة والمحلية وبنائه من جديد على اساس صناعة متقدمة ٠ ومعنى هذا حرمان الاستعمار ومنعه من ممارسة النهب واللصوصية تجاه الثروة الوطنية ٠

ولم يكن الاستعمار على استعداد لان يتقبل ذلك تحت اي ظرف ، فلقد اعتاد على نهب الشعوب على مدى مئات السنين، وبنى امبراطورياته بالقتل والاجرام واللصوصية واصبـح وجوده مرتبطا بمستعمراته كما اصبحت رفاهيته مرهونةببقاء مستعمراته تحت سيطرته ٠

« لقد دمر البريطانيون الحضارة الهندية عن طريق نسف المجتمعات الوطنية واجتثاث الصناعة الوطنية من جذورها ، وبالقضاء على كل ما كان يعتبر عظيما وساميا في المجتمـع الهندي ٠ وان دورهم التاريخي في حكم الهند قلمـا يتجاوز حدود هذا التدمير » (١) ٠

لقد اجمع المؤرخون الهنود وبعض المؤرخين الاميركييـن والبريطانيين والماركسيين على « ان الثمار التي جناهـا

---

(١) جون ستراتشي ٠ نهاية الاستعمار ص ٣٩ ٠ مقتطفات من صحيفة « نيويورك ديلي تريبيون » ٠

البريطانيون من اعمال السلب والنهب في الهند في اواخر القرن الثامن عشر لعبت دورا جوهريا في توفير رؤوس الاموال التي مهد استخدامها حينئذ الى تحقيق الثورة الصناعية المعاصرة في بريطانيا ·

كذلك اجمع المؤرخون المنصفون على ان التقدم الكبير الذي احرزته الدول الاستعمارية في مجال الصناعة كان حصيلة عمليات النهب والسلب لثروات الشعوب التي نكبت بالاستعمار ·

ان الهولنديين الذين كانت مساحة مستعمراتهم ضعف مساحة هولندا ٦٢ مرة وعدد سكانها اكثر من تسعة اضعاف عدد سكان هولندا ، انتهجوا سياسة مرسومة استهدفت تحويل الشعب الاندونيسي وشعوب بقية المستعمرات في الشرق الى ايدي عاملة في المزارع دون ان يتقيدوا نحوها باية التزامات ادبية او قانونية ·

وانهمك الاسبان خلال فترة حكمهم للقسم الاكبر من اميركا اللاتينية في نهب الذهب والفضة وتكديسها داخل اسبانيا ، ولو عرف الاسبان كيف يستخدمون كميات الذهب والفضة التي نهبوها من مستعمراتهم لكانت اسبانيا الان في مقدمة الدول الراسمالية الصناعية في العالم ·

ولم يختلف الاستعمار الفرنسي عن الاستعمار البريطاني في ممارسة النهب والسلب لثروات الشعوب وتدمير مجتمعاتها وفرض التخلف عليها ذلك ان خصائص الاستعمار واحدة مهما اختلفت الوسائل والاساليب ·

★★★

ان هدف الاستعمار لم يكن محصورا في حدود النهب والسلب لثروات الشعوب · وانما كان يتجاوزه بحيث يشمل تدمير المجتمع لكي يضمن استمرار عمليات السلب والنهب · واستغلال الطاقة البشرية بابخس الاجور وتحويل المستعمرات الى اسواق استهلاكية ·

كان هدف الاستعمار اذن هو ضمان الاستمرار • وفي سبيل هذا الهدف عمد الى تدمير المجتمعات التي سيطر عليها• والعجيب انه مارس اجرامه تحت شعار حرية التجارة القائمة على مبدأ « دع كل شيء يمر » • اي انه لا يجوز لاحد ان يعترض طريق التجار الرأسماليين الاستعماريين • ولا يجوز لاية حكومة ان تضع القوانين التي يمكن ان تحد من هذه الحرية ! حتى لو كان الافيون هو سلعة الاتجار !

لقد فرض الاستعماريون على الصين حربين من ابشع الحروب في تاريخ الشعوب ذلك لان الهدف منهما كان ارغام الحكومة الصينية على فتح ابواب الصين لحرية تجارة الافيون وارغام الشعب الصيني على الاتجار به واستعماله !

والاعجب من ذلك ان الاستعماريين فرضوا على الصين بعد كل من الحربين معاهدة تتعلق بحرية تجارة الافيون • فكانت معاهدة ١٨٤٢ م التي تحقق بموجبها للاستعماريين الاوروبيين السيطرة على الموانىء الصينيةواستخدامها قواعد لتجارة الافيون • ثم كانت معاهدة ١٨٦٠ م التي تمكن الاستعماريون الاوروبيون بموجبها النفاذ الى داخل الصين واستخدام سلاح الافيون لتدمير المجتمع الصيني العريق وتعريض هذا البلد الهائل بطاقته البشرية الى ابشع الاساليب واكثر الوسائل اجراما في الاستغلال والتدمير •

ان المثير للدهشة حقا ان الاستعمار اقترف كل ما اقترف من جرائم باسم حرية التجارة وتحت مظلة الحضارة !

اية حضارة هذه • واية حرية هذه التي يفهمها الاستعماريون • ويستخدمونها مبررا لاقتراف كلّ انواع الجرائم والاستبداد والتسلط والتدمير • انهم يفهمونها على انها حريتهم في ان يمارسوا كل ذلك ويمنعوا الشعوب من الاستفادة من ثرواتها وممارسة ارادتها على ارض اوطانها !

ان بعض الاقتصاديين الرأسماليين اصابهم شيء من الاشمئزاز للظلم الواقع على شعوب المستعمرات وأبدوا استياءهم واستنكارهم لذلك باسلوبهم الخاص ٠

قال الاقتصادي الرأسمالي البريطاني الكبير جيمس ستيوارت ميل : « ان المستعمرات ليست سوى نظام كبير خلقته الطبقات الراقية خارج بريطانيا بقصد الترفيه عن نفسها »٠

وقال جون ستيوارت ميل : « ان الامبراطورية في الخارج تناقض الديمقراطية في الداخل »٠

والترفيه الذي اشار اليه جيمس ستوارت ميل كما تفهمه الطبقة الرأسمالية اينما كانت هو استغلال الشعوب بكافة الوسائل اللصوصية ونهب ثرواتها بكل الاساليب اللاأخلاقية٠ ذلك انه ليست هناك متعة للرأسمالي اكثر من ذلك ٠٠ فبالاستغلال والنهب يزداد الرأسماليون ثراء ٠٠ وتزداد الشعوب فقرا ٠٠ وبذلك تتحقق للطبقة الراقية كافة امكانات الاستمتاع والعبث واللهو ٠ بل لعل استمتاع هؤلاء لا يكتمل الا اذا اشبعوا نزواتهم بسحق انسانية الانسان وتدمير المجتمعات وامتصاص دم الفقراء وفرض الجهل والتخلف على الشعوب المنكوبة ٠

★★★

ورغم ان الاستعمار كان وما زال يمارس عمليات النهب والسلب لثروات الشعوب باسم الحرية ، الا انه كان يحرم جميع الشعوب التي وقعت تحت سيطرته من ابسط انواع الحرية ويفرض عليها حكما دكتاتوريا ارهابيا اشد قسوة وفظاظة من كل الاساليب التي عرفتها الشعوب الاوروبية في الحرب العالمية الثانية على يد النازية ٠

لقد حكم الاستعمار الكثير من الشعوب حكما ارهابيا مباشرا لفترات طويلة امتدت لعشرات السنين ، وامتد بعضها

لذات السنين قبل ان يتطور الى الحكم غير المباشر الـــذي يعتمد على العملاء وطبقة الاقطاعيين والرأسماليين المستغلين ·

وكان الرأسماليون اليهود بحكم سيطرتهم الرأسماليـــــة وتداخلها في الرأسماليات الوطنية عن طريق البنوك وشركات التأمين والنقل والشركات التجارية وغيرها ·· كانوا عنصرا رئيسيا من عناصر الاستعمار الرأسمالي تحركوا معه في كل اتجاه وتسببوا في الحاق اكبر الاضرار باقتصاديات الشعوب عامة ·

وبحكم العلاقة الوثيقة بين الرأسماليين اليهود والحركـة الصهيونية العالمية التي تلقى منهم التمويل والرعاية فانهـــم كانوا وما زالوا يضعون كافة المؤسسات التي يسيطرون عليها في خدمة اهداف سياسية متناقضة مع مصلحة الشعوب ·

كما ان العلاقة الوثيقة بين الرأسماليين اليهود والاستعمار جعلتهم يتواجدون في كافة المراكز الاقتصادية والتجاريـــة الرئيسية في المستعمرات · وهذا هو السر الحقيقي لانتشار اليهود في انحاء العالم · انهم يتحركون في اتجاه حركة رأس المال ويستقرون حيث يستقر ·· ويحتفظون بالولاء للحركـــة الصهيونية العالمية ومصالحهم الذاتية الضيقة ، ولذلك فانهـــم شركاء في الغنائم ليس الا ، بل انهم المستفيدون الرئيسيون من الحروب والويلات والنكبات ·

وبسبب الجشع الذي لا حدود له الذي تميز به اليهود في تعاملهم التجاري حيثما وجدوا فانهم تعرضوا الى الكراهية من جميع الشعوب ·

واذا كان النهب والسلب من خصائص الرأسماليـيــــــن الاستعمارييـــــــــن ، فـــان الرأسماليـيـــــن اليهـــود تجاوزوا ذلك بممارسة الربـا الـذي كان سبيلهـــــم فـــي الاستغلال وامتصاص دم الشعوب وتكوين الثروات الهائلـة واستخدامها في فرض المزيد من السيطرة والاستغلال ·

لقد كانت سلوكية الاستعماريين وتصرفاتهم مماثلة تماما

لسلوكية وتصرفات الاقطاعيين والرأسماليين والاستغلاليين ٠ ولا عجب في ذلك لان عقلية الاستعمار هي عقلية الاقطاعي والرأسمالي المستغل ، يتصرف تجاه الذين يقعون تحت رحمته تصرف الاقطاعي تجاه الفلاحين ، والرأسمالي تجاه العمال ، والتاجر تجاه المستهلك ٠٠٠ ويتجاوز الرأسماليون اليهود كل هؤلاء في انهم لا يقتربون من المائدة الا بعد اعدادها ٠٠ فالاستعمار هو الذي يقاتل رغم ان ابناء الطبقات الكادحة هم الذين يموتون ٠٠ الا ان اليهود كانوا يتجنبون الحروب ولا يشاركون فيها الا باموالهم يقرضونها لكافة الاطراف ويتاجرون بذلك بويلات الشعوب٠

★★★

اذا كان ما سبق ينطبق بوجه عام على الاستعمار في اسيا واميركا اللاتينية ويدلل على ان الرأسماليين عامة الذين يتحكمون بالاستعمار والمستفيدون منه كان لا بد من ان يعادوا جمال عبد الناصر اشد العداء لانه يشكل خطرا على مصالحهم ، فان سلوكية الاستعمار تجاه الشعوب الافريقية كان اشد قسوة وابشع اجراما وبالتالي فان عداءه لجمال عبد الناصر كان اشد ضراوة من عدائه لاية ثورة او شخصية ثورية في التاريخ ٠ وسوف ندرك ذلك بدقة اكثر في ضوء ما سنعرفه في الفصول التالية من التاثيرات التي احدثها عبد الناصر في الوطن العربي وافريقيا حيث كانت المعاقل الرئيسية للاستعمار ٠

ان ما قاسته الشعوب الافريقية على ايدي الرأسماليين الاستعماريين وفي مقدمتهم التجار اليهود يفوق في بشاعته اقسى ما عرفته الشعوب من ظلم وقهر ٠

ان الرأسماليين الاستعماريين حولوا اسيا الى اقطاعيات وراحوا يتعاملون مع شعوبها على هذا الاساس ، فكانوا ينهبون الثروات وخيرات الارض ويستغلون جهد الانسان ويعاملونه معاملة العبيد ولا يشفقون عليه شفقتهم على

الحيوانات ·· ولكنهم لم يستخدموه سلعة للاتجار كما استخدموا الانسان الافريقي ·

ان تعامل الراسماليين الاستعماريين وفي مقدمتهم التجار اليهود مع الشعوب الافريقية اختلف في بدايته شكلا وموضوعا عن تعاملهم مع الشعوب الاسيوية واللاتينية · ففي اسيا واميركا اللاتينية دمروا المجتمعات والحضارات ونهبوا الثروات واستغلوا الانسان وفرضوا سيطرتهم واحتلالهم ·· اما في افريقيا فقد ابتدعوا تجارة الرقيق · كان الانسان هو السلعة وليس خيرات الارض · وكان الانسان هو هدف الصيادين وليس حيوان الغابة ! وكانت السفن تبحر من الموانىء الافريقية على الساحل الغربي في اتجاه الولايات المتحدة الاميركية وهي ملأى بالالوف من ابناء افريقيا وليس بقطعان الماشية ولا بالثمار الاستوائية ·

كان البرتغاليون هم اول من مارس هذه التجارة الدنيئة واستمروا يحتكرونها من عام ١٤٤١ م حتى عام ١٥٨٠م(١)

ثم بدأ التجار االاوروبيون واليهود يشاركونهم · وبلغت هذه التجارة ذروتها في القرنين السابع عشر والثامن عشر·

ان المستوطنين الاوروبيين في الدنيا الجديدة وعلى الاخص في الولايات المتحدة الاميركية والبرازيل كان قد تحول عدد كبير منهم الىاقطاعيين فاصبحوا بذلك في حاجةللايدي العاملة، لاستخدامها في زراعة القطن وقصب السكر · كان المستوطنون الاوروبيون يكنون عداء شديدا للهنود الحمر اصحاب البلاد الاصليين · وكان هؤلاء بدورهم يدافعون عن انفسهم امام الهجمات التيكانت تستهدف ابادتهم كأنهم قطعان من الجاموس الاميركي البري الذي انقرض من شدة حملات الابادة التي تعرض لها ·

اذن كان هناك عداء متبادل بين المستوطنين الاوروبيين وبين

---

(١) و. ا. ب. دي بوا . العالم وافريقيا ص ٩٧ .

الهنود الحمر وكانت هناك مساحات واسعة مــــن الارض الاميركية الخصبة غدت في ايدي هؤلاء المستوطنين الذيـــن بهرتهم خصوبة الارض وملاءمة المناخ لاستثمارها في زراعة القطن في المناطق الجنوبية .. ولكنهم واجهوا مشكلة الايـدي العاملة .

وتولى الرأسماليون في اوروبا الغربية وغالبيتهم من اليهود البحث عن حل لهذه المشكلة ، اذ كانوا هم الذين يتعاملون مع المستوطنين الاوروبيين في الدنيا الجديدة ، ويسيطرون علـــى وسائل النقل البحري ويتحكمون في التجارة معهم .. فابتدعوا تجارة الرقيق ورفعوا راية«حرية التجارة » و« دع كل شيء يمر دون اعتراض او عراقيل » واتجهوا نحو الساحل الغربي الافريقي .

ولقد فعل هؤلاء التجار الرأسماليون ما فعلـــه زملاؤهـــم ابناء طبقتهم مع الشعوب الاسيوية تحت ستـــار الشركات التجارية البريطانية والفرنسية .. فأقاموا علـى امتـــداد الساحل الغربي الافريقي مراكز تجارية بقوة السلاح مماثلة لتلك المراكز التجارية التي اقامتها شركة الهند الشرقيــــة البريطانية في كلكتا وغيرها على الساحل الهندي مع فـــارق اساسي في نوعية التجارة ومادتها السلعية .

وكان السبب في اختيار الساحل الغربي الافريقي لمواجهتـه للساحل الشرقي والجنوبي لاميركا الامر الذي يختصر المدة الزمنية للرحلات البحرية خاصة في ذلك الوقت الذي كـــانت السفن تعتمد على الشراع واتجاه الرياح وليس على الالـــة والطاقة .

وحيث ان التعامل مع الدنيا الجديدة كان محصورا وقتئذ في نطاق الاقطار الاوروبية الغربية التي كان ينتمي اليهـــــا المستوطنون الاوروبيون ، فان الرأسماليين في هذه الاقطـــار الاوروبية وكانوا في غالبيتهم من اليهود هم الذين احتكـروا تجارة الرقيق .

وكانت المراكز التجارية التي اقاموها على الساحل الغربي الافريقي متخصصة بنوع معين من السلعة التجارية، وكان هذا النوع هو الانسان الافريقي .

ولقد حاول الرأسماليون الذين سيطروا فيما بعد على المطابع وكافة وسائل الدعاية واجهزة الاعلام ، وغالبيتهم من اليهود ، ابراء انفسهم والاساءة الى العرب لاغراض استعمارية دنيئة ، فاتهموهم بتجارة الرقيق ، وحاولوا من خلال السيطرة الاستعمارية على افريقيا ترسيخ ذلك في اذهان الافريقيين بهدف بذر وتنمية روح العداء لاخوانهم العرب الذين يشاركونهم في سكنى القارة الافريقية وتربطهم بهم روابط دينية وثقافية وحضارية وتاريخية عريقة قديمة .

واتهام العرب بتجارة الرقيق باطل من اساسه ، لان العرب يؤمنون بالمساواة ويمقتون العنصرية .. في حين ان الاوروبيين الاستعماريين أثبتوا عكس ذلك في افريقيا بالذات وما زالت اثارهم العنصرية الاجرامية باديةحتى الان في جنوب افريقيا وروديسيا .. ثم ان العرب وقتئذ لم تكن لهم علاقات تجارية بالدنيا الجديدة انما كانت هذه العلاقات محصورة مع الاقطار الاوروبية الغربية وعلى الاخص بريطانيا وفرنسا واسبانيا والبرتغال والمانيا ، وكان التجار اليهود هم الذين يسيطرون على تجارة هذه الاقطار الامرالذي يؤكد ان تجارة الرقيق كانت احتكارا لهؤلاء الرأسماليين . ثم ان اقامة مراكز تجارة الرقيق على الساحل الغربي الافريقي كان يعتمد على حماية الاساطيل البحرية .. وكانت السيادة البحرية وقتئذ للاستعماريين الانكليز والفرنسيين والبرتغاليين، الامر الذي يقطع بان تلك المراكز كانت لشركات رأسمالية اوروبية يهودية ، بالاضافة الى ذلك فان الدول الاوروبية هي التي قررت في مؤتمر فينا عام ١٨١٥ م تحريم تجارة الرقيق الامر الذي يدل على ان المجتمعات الاوروبية غدت تواجه

مشكلة من جراء هذه التجارة التي يمارسها التجار الرأسماليون وعلى الاخص اليهود منهم الذين لا يتورعون عن الانجار بكل القيم الاخلاقية وامتصاص دماء الذين يقعون في احابيلهم ٠٠ الذين صورهم الاديب الانكليزي العالمي شيكسبير اصدق تصوير في قصته الرائعة الشهيرة « تاجر البندقية »٠

ان تجار الرقيق هؤلاء من الرأسماليين الاوروبيين واليهود حولوا الانسان الافريقي الى سلعة ٠٠ لم يفرقوا بينه وبين الحيوانات التي كانت تباع وتشترى في الاسواق لاستخدامها في حمل الاثقال وحراثة الارض وجر العربات وما الى ذلك ٠

كانت المراكز المقامة على الساحل بمثابة مراكز تجميع لابناء الشعوب الافريقية الذين يتم شراؤهم من الوسطاء او يتم اصطيادهم في الغابات ٠٠ كانوا يوثقونهم بالحبال والسلاسل ويسوقونهم جماعات كقطعان الماشية ٠ ثم تتولى مراكز التجميع حشرهم في سفن خاصة معدة لشحن الرقيق تبحر بهم الى الدنيا الجديدة حيث يباع من يبقى منهم على قيد الحياة للاقطاعيين من المستوطنين الاوروبيين ٠

لم تكن بهؤلاء الافريقيين اية عناية على الاطلاق الامر الذي يؤكد ان التجار الرأسماليين كانوا يشترونهم بأبخس الاثمان ٠

ان التاجر الذي يتكلف كثيرا لسلعة ما يحافظ عليها بما يتناسب مع قيمتها ٠ ولكن ابناء الشعوب الافريقية لم يلقوا شيئا من العناية فكان الالوف منهم يموتون وهم في طريقهم الى مراكز التجمع ٠٠ ومئات الالوف منهم ماتوا في السفن التي كانوا يحشرون فيها حشرا ٠٠ وملايين منهم ابتلعهم المحيط الاطلنطي !

كانت تجارة الرقيق مصدرا للثراء الفاحش وسبيلا لتدمير المجتمعات الافريقية ، وسببا لمآس انسانية لا يمكن وصفها ٠٠ فلقد ادى التنافس الشديد بين التجار الرأسماليين من الاوروبيين واليهود على الرقيق الى ظهور نوع غريب من

الحروب المحلية بين القبائل الافريقية · كان زعماء القبائل الكبيرة والقوية يغيرون على القبائل الصغيرة والضعيفة·· وكان المنتصرون يستولون على افراد القبائل المهزومة ويبيعونهم رقيقا !

وتمادى امر الاقتتال بين الافريقيين من اجل ان يبيعوا بعضهم البعض رقيقا وغدت المدن تهاجم القرى . وغدت القرية تهاجم القرية المجاورة · بل اصبح الجار يغدر بجاره فيقيده ويبيعه لتجار الرقيق! ونتج عن ذلك خراب ماحق اصاب اجزاء واسعة من القارة الافريقية وتسبب في انهيار الحياة الاجتماعية ، وخلت المئات من المدن والالوف من القرى من السكان ، اذ انعدم الامن ودب الفزع في النفوس فلجأ الناجون من حروب وغزوات الرقيق الى الغابات ·

وغدت الغابات الافريقية مجالا واسعا لاصطياد الرقيق ·· وفي الغابة لا احد يطمئن على نفسه · فالغابة يحكمها قانون الغابة منذ الازل الى الابد · القوي هو السيد ·· ولكن الى جانب القوة هناك المكر والدهاء والخداع يلجأ لها الضعفاء لحماية انفسهم ·· وبذلك فان كثيرين من صيادي الرقيق كانوا يتعرضون الى الاصطياد ويباعون رقيقا ! انه قانون الغابة ·

وغدت الغابات الافريقية مسرحا لابشع انواع المطاردة ، وكانت تخرج منها القوافل متلاحقة ·· قوافل الرقيق او قوافل العاج · وكان المصير واحدا لهذه القوافل ·
كانت قوافل العاج تقسم الى جماعات · كل جماعة مؤلفة من خمسة افراد ·· كان في المعدل يموت اربعة من كل خمسة في الطريق · وكان الخامس الذي يصل بالعاج يباع رقيقا ··
ادى كل ذلك الى خراب افريقيا · ولكنه ادى بالمقابل الى تكديس الاموال الطائلة في بنوك الرأسماليين الاوروبيين واليهود وازدهار الكثير من المدن والموانىء الاوروبية ·

ان المؤرخين الذين اهتموا بدراسة تجارة الرقيق يقدرون عدد الافريقيين الذين بيعوا او هلكوا بسبب هذه التجارة بمائة مليون انسان،وعدد الذين اضيروا بسببها من الافريقيين بخمسين مليونا !

وكان معدل عدد الذين يصلون سالمين الى امريكا سنويا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر مائة الف افريقي ۰(۱)

كانت تكلفة الرقيق الواحد تتراوح ما بين ٧٠ و ٢٠٠ فرنك ۰ وكان ثمن بيعه لا يقل عن عشرة اضعاف الثمن .

تقول محفوظات « ليفربول » الميناء البريطاني الذي ازدهر على حساب تجارة الرقيق : ان تجارة الرقيق في افريقيا بلغت درجة هائلة ، فكانت موانىء اوروبا واسيا وافريقيا تعج باعداد متزايدة من الارقاء ، وابحر الى افريقيا في الفترة من ۱۷۸۳ م الى ۱۷۹۳ م ما لا يقل عن ۹۰۰ اسطول لجلب العبيد ۰ وفي اثناء هذه السنوات العشر نقل اكثر من ثلاثمائة الف رقيق على ظهر سفن تحمل اعلاما اوروبية ۰ وبلغ ثمن بيع هؤلاء الارقاء خمسة عشر مليون دولار في حين وصل الربح الصافي الى اثني عشر مليون دولار ۰

واذا ما عرفنا بانه كانت عشرات الموانىء المماثلة لميناء ليفربول على امتداد الساحل الغربي لاوروبا تعتمد في نشاطها التجاري وازدهارها المالي على تجارة الرقيق امكننا ان نعرف الحجم الهائل للجرائم التي اقترفها الرأسماليون الاوروبيون واليهود ضد الشعوب الافريقية ! وكذلك الحجم الهائل للارباح التي تكدست في خزائن هؤلاء وغدت حافزا لهم على مزيد من الاجرام سعيا وراء مصادر جديدة للربح !

اننا بهذه النبذة عن تجارة الرقيق لم نبتعد كما يتبادر الى الذهن عن موضوع هذا الكتاب ۰ ذلك ان الاستعمار الذي استباح افريقيا وشعوبها وأباح لنفسه اقتراف كل تلك

---

(۱) جان سوريت ــ كانال : افريقيا السوداء الغربية والوسطى .

الجزائر الحرة ، كان شديد الحرص على ان تبقى افريقيا وشعوبها حرة سيدة ، فكان بالتالي شديد الكراهية والعداء لرجال عبد الناصر الذي انتزع حجر الزاوية من البنيـــان الاستعماري وفتح ابواب الحرية للشعوب الافريقية التي كانت في نظر الرأسماليين الاستعماريين سلعة رخيصة !

* * *

ان الرأسماليين في اقطار اوروبا الغربية وعلى الاخص في بريطانيا الذين تكدست لديهم ارباح طائلة مـــن وراء تجارة الرقيق واستغلال الشعوب الاسيوية ونهب ثرواتها عمدوا الى الصناعة ليستثمروا اموالهم في مجالاتها الواسعة .

كانت بريطانيا اسبق دول العالم في استخدام الالة وبذلك فانها كانت الاسبق في الثورة الصناعية . ساعدها على ذلك توفر رؤوس الاموال المنهوبة من الشعوب الاسيوية والافريقية ، واستقرار اوضاعها الداخلية ، وانعزالها عن اوروبا وقدرتها بالتالي في التحكم بمدى تورطها في الحـــروب الاوروبية الطاحنة التي لم تكن تخمد نيرانها في منطقة حتى تندلع فـــي منطقة اخرى .

ان الصناعة هي حصيلة معادلة تشتمل على عناصر اساسية اهمها رأس المال والمواد الاولية والايدي العاملة والاسواق الاستهلاكية .

ولم يشكل رأس المال مشكلة للاستعمـــار البريطاني ، فالارباح الهائلة التي تكدست في خزائن الرأسماليين الانكليز واليهود كانت كافية لصنع الالات واستخدامها في الصناعة .. وتستحق الاشارة هنا ان التداخـــل في رؤوس الاموال هيأ الفرصة للحركة الصهيونية العالمية لان تتغلغل في الحكـــم وتصبح قوة مؤثرة فيه .. ولا يجوز ان ينظر الــــى دور الاستعمار البريطاني والامبريالية الامريكية من بعده بمعزل عن هذا التداخل في رؤوس الاموال .

اما المواد الاولية والايدي العاملة والاسواق الاستهلاكية فانها كانت وما زالت مشكلة كبرى للدول الرأسمالية الصناعية ٠ وكانت سببا رئيسيا من اسباب تطور الاستعمار لينتقل من مرحلة الاستعمار التجاري الى مرحلة الاستعمار الاحتلالي ٠

ان وفرة المواد الاولية في اسيا وافريقيا واميركا اللاتينية الى جانب وفرة الايدي العاملة بفعل الكثافة السكانية وانخفاض مستوى المعيشة ، جعل هذه القارات هدفا للذئاب الاستعمارية ، للرأسماليين اصحاب المصانع الناشئة ٠

اصبح ما يهم الرأسماليون هو ان تتوفر المواد الاولية بتكلفة رخيصة ٠٠ ولانه كان مستحيلا ان يحتكر رأسماليو اي بلد تجارة المواد الاولية فيتحكموا باسعارها لسبب بسيط هو انه كان هناك رأسماليون اخرون في البلدان الاخرى يسعون ايضا للحصول على المواد الاولية ، فان هؤلاء الرأسماليين ابتدعوا الاحتكار عن طريق الاحتلال ٠٠ وبذلك تطور الاستعمار الى شكل جديد ٠

كان هذا الشكل الجديد يقوم على اساس الاحتكار بأبشع معانيه ٠٠ فكان يشمل احتكار المواد الاولية والايدي العاملة والسوق وكل ما له علاقة بها ٠

وحيث ان التجارة ملازمة للصناعة ، فان الاستعمار لم يحصر اطماعه الاحتلالية في المناطق الغنية بالمواد الاولية والمكتظة بالسكان الذين يمكن استغلالهم في مجالات الانتاج والاستهلاك ، وانما استهدف في نفس الوقت السيطرة على طرق المواصلات الرئيسية والمواقع الاستراتيجية التي تضمن له استمرار احتلال المستعمرات والسيطرة على طرق المواصلات البحرية والبرية المؤدية اليها ٠

كانت مصر قد ازدادت اهمية استراتيجية بافتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ ، فلقد جاء شق القناة في الفترة التاريخية

التي امتدت فيها الثورة الصناعية الى عدة اقطار في اوروبا الغربية وعلى الاخص فرنسا والمانيا ٠

كان معنى اتساع مدى الثورة الصناعية ان الرأسماليين الذين يملكون المصانع ويسيطرون على الحكم بدأوا مرحلة جديدة من التنافس للسيطرة على مناطق المواد الاولية والايدي العاملة الرخيصة ومواقع طرق المواصلات ، ولقد ادى هذا التنافس الى حروب شرسة دامية لا تختلف في مشاهدها واهدافها عما يحدث في الغابة بين الوحوش المفترسة ٠٠ كان ابناء الطبقات الكادحة من الفلاحين والعمال هم وقود هذه الحروب ٠ وكان الضحايا هم الشعوب الافريقية والاسيوية واللاتينية ٠

ان قناة السويس اختصرت الى اكثر من النصف طريق الملاحة بين الدول الاستعمارية الاوروبية وبين مستعمراتها الغنية في الشرق ٠ وكانت بريطانيا وفرنسا هما القوتان الاستعماريتان اللتان تسيطران على القسم الاكبر من تلك المستعمرات ٠ ورغم ان هولندا كانت تحتل اندونيسيا ٠ كما كانت البرتغال تحتفظ ببعض الجزر ٠٠ الا ان بريطانياوفرنسا كانتا تمثلان القمة الدولية الاستعمارية ٠٠ وكانت المنافسة بينهما قوية السيطرة على مصر حيث قناة السويس ٠

***

ان القمة الدولية في معظم مراحل التاريخ تتمثل في دولتين رئيسيتين تملكان قوة متكافئة نسبيا ، وتحرصان بقدرالامكان على تجنب الصدام بينهما فتعمدان الى اقتسام مناطق النفوذ بينهما ، وتعملان جاهدتين على منع ظهور قوة ثالثة او قوة اخرى تنافسهما في السيطرة والاستغلال ٠

واذا كانت القمة الدولية تمثلت خلال الفترة التاريخية التي ظهر فيها جمال عبد الناصر في الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفياتي ، فان القمة الدولية قبلهما

وحتى الحرب العالمية الثانية كانت تتمثـــل في بريطانيـــا وفرنسا ٠

ان هاتين الدولتين الاستعماريتيـــن الطامعتين في مصر اشتركتا معا بعد شق القناة في مؤامرة دوليـــة تستهدف السيطرة عليها ٠ لقد استغلتا عجز الخديوي اسماعيل عـن سداد الديون التي تراكمت على مصر ، واتخذتا منه ذريعـة للتدخل بحجة حماية مصالح الدائنين الاجانب ٠

ان القسم الاكبر من تلك الديون كانت لافراد مـــــن الرأسماليين ولـم تكـــن للحكومات ٠٠ ولقد كان هؤلاء الرأسماليون يشجعون الخديوي اسماعيل على اغراق مصر في الديون التي كان يبذرها في الانفاق على مظاهر الحكـم دون ان يضع شيئا منها لمصلحة الجماهير ٠ بل انه كان يعمد الى ابتزاز ابناء الشعب بمزيد من الضرائب التي كـــان ينفقها على ملذاته وفي مجالات البذخ ويسدد منها بعـــض الفوائد المستحقة ٠٠ كان هؤلاء الرأسماليون يدركون بـــأن الديون اذا لم تستخدم في مشروعات انمائية وانتاجية فانهـا تكون بمثابة الطعم الذي يرمى للسمك او الشباك التي ترمى لاصطياد فريسة ما ٠٠ ولم يكن الخديوي اسماعيل يستعمل شيئا من تلك الديون في اي مشروع انمائي او انتاجي الامر الذي سبب انهيارا للاقتصاد المصري وجعله عاجزا عـــن سداد الفوائد المستحقة ٠

كانت الحكومتان الاستعماريتان تتحينان هـذه الفرصة ، فاستغلتا الموقف وتدخلتا في عام ١٨٧٦ م وفرضتا علـــى الخديوي قبول لجنة بريطانية فرنسية مشتركة تقيم في مصر وتتولى الاشراف على الشؤون المالية وتنظيم عملية سـداد الديون ٠

انتدبت بريطانيا من جانبها سير ايفلين بيرنج الذي عـرف فيما بعد باللورد كرومر ٠ ولقد عرف هذا الداهية الاستعماري

كيف يتخلص من الخديوي اسماعيل ويأتي بالخديوي توفيق ويكسب الجولة على فرنسا ويفتح ابواب مصر للاحتــــلال البريطاني ٠

يقول لورد كرومر في كتابه « مصر الحديثة » :

« ان المسألة المصرية في رحلتها الحالية يرجع اصلها الى اسباب مالية ٠ فالدين العام في مصر الذي عقد كله تقريبا فــي الخارج بلغ في عام ١٨٦٣ م ثلاثة ملايين وربع المليون مــن الجنيهات ووصل في عام ١٨٧٦ م الى نحو ٩٤ مليون جنيه انفق منها ستة عشر مليون جنيه على حفر قناة السويس ، وضاع القسم الاكبر من الباقي في التبذير والاسراف والرشوة وسداد فوائد الديون للدائنين الذين كانوا يتألفون من اشخاص عاديين ومؤسسات مالية في فرنسا وبريطانيا ودول اخرى »(١)

ويعترف كرومر بانه لم يسبق للسياسة البريطانية ان تدخلت لحماية الديون المستحقة للبريطانيين ، اذ انهم كانوا يستثمرون اموالهم في الدول الاجنبية على مسئوليتهم الخاصة ويدلل جون ستراتشي على ما اشار اليه كرومر « بأنه كانت هناك ديون مستحقة للبريطانيين على بعض الولايات الاميركية وجمهوريات امريكا اللاتينية ولكنها لم تدفع ولــم تستطع بريطانيا ان تفعل شيئا لانها وجدت انه ليس من مقتضيات السياسة ان تدخل في حرب مع الولايات المتحدة الاميركية او ان تنتهك قانون مونرو بالتدخل في شؤون اميركا الجنوبية من اجل تحصيل هذه الديون »٠

ولقد تغير الحال بالنسبة لمصر لانها كانت هدفا للاطماع الاستعمارية ولم تكن الامبراطورية العثمانية التي كانت مصر احدى ولاياتها مهابة الجانب ٠٠ فكان التدخل البريطانــي الفرنسي المشترك ٠٠ وبدأت حملة ارهابية واسعة لجمــع الاموال من الفلاحين الذين يتضورون جوعا ٠ وقال كرومر :

---

(١) جون ستراتشي . نهاية الاستعمار ص ٥٨ .

« ان المفضل في ذلك يعود الى اثنين من الباشوات المصريين ذوي القبضة الحديدية »٠

وفي عام ١٨٧٨ تمكن دزرائيلي رئيس الوزراء البريطاني اليهودي من شراء اسهم مصر في قناة السويس بأمـــوال روتشيلد اليهودي وتمت الصفقة اثناء اجازة مجلس العموم البريطاني ٠ (١)

وفي عام ١٨٨٢ تذرعت بريطانيا باوهى الاسبـــاب وقامت بالعدوان على مصر واحتلالها ٠

لقد كانت الديون المالية ذريعة التدخل ٠٠ ولكن الباعـث الحقيقي للتدخل والاحتلال هو باعث استراتيجي في الدرجة الاولى لانه يمر في مصر الطريق المائي والمواصلات التلغرافية المؤدية الى الهند والشرق الاقصى ٠٠ فكانت مصر في نظـر الاستعمار البريطاني هي « شريان حياة الامبراطورية »٠

***

بعد احتلال مصر احتدم الصراع والتنافس بين الـــدول الرأسمالية الاستعمارية للاستيلاء على افريقيا الغنية بالمواد الاولية والثروات الطبيعية والمواقع الاستراتيجية ٠٠ قبلئذكان عشرة في المائة فقط من مساحة افريقيا واقعا تحت الاحتـلال الاجنبي ٠ وفي خلال ثلاثين عاما بعدئذ سقطت افريقيا كلهـــا تحت نير الحكومات الرأسمالية ٠ وتمكنت جميع الانظمـــة الرأسمالية من افتراس اجزاء من هذه القارة اذ استباحـها الرأسماليون حكام اوروبا الغربيةوراحوا يتسابقون في وضع اليد عليها ويتقاسمونها بنسب تتكافا مع رصيد كل نظام مـن القوة والسطوة والنفوذ ، كأنها تركة ورثوها ، وترك لهم حق اقتسامها وتوزيعها على بعضهم البعض ٠

انطلق الاستعمار البريطاني من مصر ونجح في احتــلال

---

(١) من يريد المزيد عن تفاصيل هذه الصفقة وملابساتها يرجع لكتاب القضية الفلسطينية في الواقع العربي للمؤلف .

كافة الاقطار التي يمر بها نهر النيل من منابعه في اواسط القارة حتى مصبه على البحر الابيض المتوسط ٠٠ وتمكن من السيطرة على جنوب القارة واجزاء من شرقها وغربها ٠
وحصل على نصيب الاسد وضمن لنفسه السيطرة التامة على شريان حياة الامبراطورية ، وعمد فيما بعد الى وضع اساس الكيان الصهيوني في فلسطين ليكون احد عوامل استمرار السيطرة على هذا الشريان الحيوي ٠

ويبدو من حركة الاستعمار الفرنسي الذي كان يتقاسم القمة الدولية مع الاستعمار البريطاني انه كانت هناك اتفاقية غير معلنة لاقتسام مناطق النفوذ ٠ فقد انطلق الفرنسيون من السنغال في اتجاه الشرق حتى وصلوا « فاشودة » في السودان ثم انسحبوا منها لانها كانت على ما يبدو في اطار المناطق المحدودة للاستعمار البريطاني ٠

واتخذ الفرنسيون من الجزائر بعدئذ قاعدة انطلاق لاحتلال تونس عام ١٨٨١ م ، ثم المغرب في عام ١٩١٢ م ، بعد الاتفاقية المعلنة في عام ١٩٠٤ م لاقتسام مناطق النفوذ مع الاستعمار البريطاني ٠

ويصف لنا شاهد عيان اسلوب الاستعمار الفرنسي في حربه مع الشعوب الافريقية فيقول : اعقب الحصار الذي ضربه الفرنسيون حول مدينة تمبكتوه في السودان الغربي هجوم كاسح ٠ وصدر الامر باستباحة المدينة ٠ واخذ كل انسان اسيرا او صرع قتيلا ، وقيد الاسرى في السلاسل والاحبال جماعات ، واخذ القائد يوزع الغنائم ، فكتب شيئا في مذكراته ، ثم كف عن الكتابة وقال: «اقتسموا الغنائم فيما بينكم » ٠ وفي سبيل هذا الاقتسام دارت معارك ومشاجرات٠
« وفي طريق العودة سار الجنود ٢٥ ميلا يوميا وهم يجرون الاسرى وراءهم ويضربون الاطفال وكل من سقط على الارض من التعب والاعياء باطراف البنادق او الحراب حتى يموتوا ٠٠»

« وتناثرت الجثث على طول الطريق وسرعان ما قعدت امرأة القرفصاء وكانت حاملا فنخسها الجنود بطرف البندقية فوضعت طفلها على ساقيها ثم قضمت الحبل السري باسنانها ولفظت الطفل بعيدا عنها دون ان تعبأ بان تنظر اليه من طرف خفي »٠

« اما الافريقيون الذين جندوا على طول الطريل لحمل اكياس الدخن فلم يذوقوا الطعام طوال خمسة ايام ، ومن اجترأ منهم على تناول حفنة من الدخن من احد الاكياس كان جزاؤه خمسين جلدة بالسياط» ٠ (١) ٠

كانت الصناعة الالمانية بعد حرب ١٨٧٠ بدأت انطلاقة هائلة ، وكان من الطبيعي لالمانيا الرأسمالية ان تتجه الى افريقيا بحثا عن اجزاء تفترسها ٠٠ ونجحت في احتلال رواندا وبورندي وعقدت اتفاقية « هليجلاند » مع بريطانيا التي غدت نيجيريا بموجبها من نصيب الاستعمار الالماني وغدت كينيا من نصيب الاستعمار البريطاني ٠

وكانت الحصيلة النهائية للافتراس الرأسمالي الاستعماري قبيل الحرب العالمية الاولى على الوجه الاتي :

- ٤ر٧٠٠ر٠٠٠ ميل مربع مساحة الاراضي الافريقية الواقعة تحت الاحتلال البريطاني
- ٤ر١٦١ر٠٠٠ ميل مربع مساحة الاراضي الافريقية الواقعة تحت الاحتلال الفرنسي ٠
- ١ر٥٠٠ر٠٠٠ ميل مربع مساحة الاراضي الافريقية الواقعة تحت الاحتلال الالماني ٠
- ١ر٤٠٠ر٠٠٠ ميل مربع مساحة المستعمرات البلجيكية ٠
- ١ر٢٠٠ر٠٠٠ ميل مربع مساحة المستعمرات البرتغالية ٠

★★★

واذا كان سقوط افريقيا يعني ان القوى الرأسمالية

---

(١) جان سوريت ـ كانال « افريقيا السوداء الغربية والوسطى » ص ٢٤١.

الاستعمارية تقاسمت السيطرة على شعوب اسيا وافريقيا واميركا اللاتينية فانه لم يكن يعني نهاية الصراع بين هذه القوى الرأسمالية ..

ان الصراع من اجل السيطرة والاستغلال هو صفة ملازمة للرأسمالية .. وحيث ان السلاح النووي لم يكن قد إكتشف ، فان هذا الصراع ادى الى الحربين العالميتين الاولى والثانية ..

وفي كلتا الحربين ، لم يكتف الرأسماليون المتحاربون باستغلال ثروات الشعوب وانما تجاوزوا ذلك الى حد الاقتتال بابناء الشعوب المستعمرة .. وكانت ثروات هذه الشعوب وجنودها من اهم عوامل النصر للحلفاء في الحربين العالميتين يكفي ان نعلم على سبيل المثال: ان فرنسا جندت من الجزائر وحدها في الحرب العالمية الاولى ٨٤٥ر٠٠٠ جندي .

وقال لورد سالسبوري من عتاة الاستعماريين الانجليز : « لقد كان وجود امبراطوريتنا الاستعمارية الافريقية والمواد الاساسية التي امكننا الحصول عليها منها ، كان ذلك وحده هو الذي انقذنا من الهزيمة في الحرب العالمية الثانية .(١)

وكانت افريقيا هي المصدر الرئيسي للمواد الاساسية للصناعة الحربية البريطانية اثناء الحرب العالمية الثانية ، فانها حصلت منها على ٨٧ بالمئةمما يلزمهامن المطاط و ٨٠ بالمئة من البوكسيت و ٨٠ بالمئة مما يلزمها من الحديدالخام و ٧٥ بالمئة مما يلزمها من التنجستين . (٢)

وان ٨٥ بالمئة من نفقات حكومة بلجيكا اللاجئة اثناء الحرب العالمية الثانية حصلت عليها من الكونغو .

---

(١) شبيرت : افريقيا في الحرب العالمية الثانية ص ٢٥ .
(٢) المصدر السابق .

وان ٢٦٠ر٠٠٠ جندي من بين الاربعمائة الف جندي الذين كان يتألف منهم جيش فرنسا الحرة بقيادة الجنرال ديغول كانوا من الافريقيين ٠

كانت المستعمرات اذن بمثابة مستودعات ضخمة واقطاعيات واسعة يمتلكها الرأسماليون الاستعماريون ٠٠ ينهبون منها بالقدر الذي يقدرون على نهبه دون وازع من ضمير ، ودون ان يعوضوا شعوب هذه المستعمرات شيئا من قيمة ثرواتها المنهوبة او دماء ابنائها المسفوكة ٠ بل ان المنتصرين من هؤلاء الرأسماليين الاستعماريين كانوا يزدادون نهبا للثروات وبطشا بالشعوب واستغلالا لجهد الانسان ، فكانوا يتحكمون في نوع الانتاج كما يتحكم الاقطاعي في اقطاعيته ، وكانوا يحصلون على كل ما يحتاجون اليه للانتاج والتسويق بابخس الاثمان ويبيعون صادراتهم الصناعية للمستعمرات باعلى الاسعار ٠

★★★

كانت النتيجة لهذه السلوكية الرأسمالية اللصوصية ان تراكمت رؤوس الاموال لدى الرأسماليين ٠٠ وبموجب القانون الاقتصادي الرأسمالي فان الرأس المال المتراكم يتجه نحو مجالات جديدة للاستثمار ٠ وكانت المستعمرات ومناطق النفوذ تتمتع بجاذبية خاصة للرأسماليين الذين يسيطرون على كافة الحكومات الاستعمارية ، وذلك لتوفر الحماية اللازمة لرأس المال من جهة وضمان الارباح الطائلة بسرعة من جهة اخرى ٠٠

يعطينا البروفسور « كيرنكروس » في كتابه عن « الاستثمارات الاجنبية » في المستعمرات ارقاما تساعدنا على تفهم مدى هذه الاستثمارات وارباحها ٠

« في عام ١٩١٣ م كانت بريطانيا تستثمر في الخارج نصف مدخراتها الموجودة في بريطانيا ٠ وفي الخمسين عاما التي سبقت الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤ م كانت اوروبا

الغربية كمجموعة تستثمر في الخارج اموالا تفوق كل رؤوس الاموال الموجود في بريطانيا · وفي عام ١٩١٤ م كان ١/١٠ (عشر) الدخل الوطني البريطاني كله ناتجا عن ارباح الاستثمارات الاجنبية »·

ولكي نأخذ فكرة اكثر دقة عن الاستثمارات الاستعمارية وارباحها يعطينا البروفسور كيرنكروس المقارنة التالية:

« ان الولايات المتحدة الاميركية لكي تستثمر الان النسبة العالية من دخلها الوطني الذي كانت تستثمره بريطانيا في الخارج عام ١٩٠٠ م فان عليها ان تستثمر ثلاثين بليون دولار في العام الواحد مقابل بليون دولار في ذلك الحين ·· وهذه الثلاثين بليون دولار تعني ان مشروع مارشال كان ينفذ كل عامين ». (١)

الشيء الوحيد الذي حرصت عليه جميع الدول الاستعمارية وهي تمارس ابشع انواع النهب والاستثمار والاستغلال هو فرض الجهل والتخلف على شعوب المستعمرات وتركها عرضة لفتك الامراض لكي تبقى بذلك عاجزة عن التصدي لهؤلاء الرأسماليين ذوي القلوب المكدودة من الصخر ·

ان هذه الصورة بمقدار ما تبين لنا وحشية الاستعمار واجرام الرأسماليين فانها تعكس مقدار كراهيتهم وعدائهم لعبد الناصر الذي يسجل له التاريخ دورا عظيما في فضح لصوصيتهم والتصدي لهم وتصفية اقطاعياتهم !

***

في مطلع القرن العشرين الذي نعيشه تم اكتشاف البترول في منطقة الشرق الاوسط ·· واتجه الرأسماليون الاستعماريون في سباق محموم للسيطرة عليه ونهبه والاستفادة

---

(١) مشروع اميركي لانعاش اقتصاديات اوروبا الغربية بعد الحرب العالمية الثانية .

مقا في مضاعفة ثرواتهم وتنمية قوتهم العسكرية وحرمـــان الشعوب صاحبة هذه الثروة الاستراتيجية من عائداتهـــا ونعمتها الاقتصادية والعسكرية ٠

وجاء اكتشاف البترول ليكون عاملا جديدا ضاعف مــن الاهمية الاستراتيجية لمصر وقناة السويس في خلال فتـــرة زمنية وجيزة ٠

كانت الولايات المتحدة الاميركية اول دولة في العالـــم عرفت القيمة الاقتصادية للبترول واستخدمته في توطيـــد الطاقة وتطوير الالة ، وزادت أهميته بعد اختراع السيارة ثم الطائرة ٠ وكان اعتمادها على ابارها الخاصة المكتشفة في تكساس ٠٠ وتولت احتكار تجارته العالمية لمدة تقرب من ثلث قرن (١٨٦٧ ــ ١٩٠٠ م) وكان استعماله خلال هــذه الفترة مقصورا على الانارة وزيوت التشحيم ٠

كان اول اكتشاف للبترول في منطقة الشرق الاوسط فــي ايران عام ١٩٠٣ م ثم في العراق ٠٠ وكان الرأسماليون الانكليز هم اصحاب الامتيازات ، ساعدهم في هذا السبق انشغال الرأسماليين الاميركيين في استثمار اموالهم داخــل الولايات المتحدة الاميركية وفي اطار الخط الوهمي الـــذي حدده الرئيس مونرو للنفوذ الاميركي والذي كان يشتمــل على الاميركتين ٠

وتطورت قيمة البترول من مادة تجارية الى مادة حيوية استراتيجية عندما قررت الحكومة البريطانية في العــــام ١٩١٣ م تحويل الاسطول البريطاني من استعمال الفحم الى استعمال النفط ٠

كان معنى هذا القرار ان الاستعمار البريطاني اخذ يتجه نحو ابار البترول مسترشدا بكلمات ونستون تشرشل وزيـــر البحرية التي تضمنها خطابه في مجلس العموم البريطانـــي في ١٧ يناير ١٩١٣ م الذي عرض فيه خطة وزارة البحرية على الوجه الاتي :

« ان خطتنا النهائية هي ان وزارة البحـــرية يجب ان

تمتلك وان تنتج بصورة مستقلة ما تحتاج اليه من نفس... الوقود . يجب علينا ان نكون مالكين او على اي حال المسيطرين على الجزء الذي نحتاج اليه على الاقل من مرافق النفط الطبيعية في مصدرها .» (١)

منذ ذلك الحين اصبحت مصادر النفط هدفا للاستعمار البريطاني ، وبطبيعة الحال للدول الاستعمارية الاخرى .

واغتنمت بريطانيا الحرب العالمية الاولى لاحتلال مصادر البترول في ايران والعراق لان انتاج النفط الايراني ، وكان مقداره وقتئذ في حدود ٢٧٥ الف طن سنويا ، كان ضروريا لضمان استمرار تدفقه لتموين الة الحرب البريطانية «وعليه تم انزال الجنود البريطانيين في شط العرب الذين اتجهوا نحو البصرة يحملون التعليمات التالية : السيطرة على ولاية البصرة والمناطق المجاورة الضرورية للدفاع عنها . وتأمين سلامة حقول البترول والصافي وخط الانابيب ، واقتراح الخطط الملائمة لتأمين احتلال حقيقي فعال » (٢) .

ولقد علق الوزير البريطاني على اهمية البترول بقوله : لقد حمل الحلفاء الى النصر على موجةمن البترول»(٣) .

وبعد الحرب العالمية الاولى تقاسمت بريطانيا وفرنسا باعتبارهما القمة الدولية منطقة الشرق العربي ، وغدت الاستثمارات الرأسمالية البريطانية تسيطر وتتحكر اغنى مناطق البترول في العالم .

عمدت الشركات الرأسمالية الاحتكارية الى تغطية عمليات النهب للثروة البترولية باتفاقيات غير متكافئة مماثلة لاية اتفاقية يعقدها قوي استغلالي مع ضعيف .

---

(١) دور احتكار النفط الدولي في العراق . الفصل الرابع من تقرير لجنة التجارة الاتحادية الاميركة عن احتكار النفط الدولي . منشورات البيان ص.١
(٢) اندريه نوسشي . الصراعات البترولية في الشرق الاوسط .
(٣) هارفي اكونور . امبراطورية البترول . ص ١٠٦

لم تختلف هذه الاتفاقيات في مضامينها عن تلك المعاهدات التي عقدتها الدول الاستعمارية مع الدول المستضعفة ٠٠٠ ويكفينا للتدليل على ذلك المعاهدات التي فرضت على ايران في القرن التاسع عشر ٠

نصت معاهدة ١٨٠٠ م بين بريطانيا وايران على منح التجار الانكليز الحق في استعمال جميع الموانىء الايرانية بحرية وبدون ان يدفعوا ضرائب او رسوما جمركية على الاقمشة والمنتوجات المعدنية الانكليزية ٠

ونصت المعاهدة المعقودة بين فرنسا وايران عام ١٨٠٧ م على « انه يحق للرعايا الفرنسيين عدم الخضوع للقوانين الايرانية والمحاكم الايرانية » ٠ ومثل ذلك كان ممنوحا للاجانب في مصر (١) ٠

ونصت المعاهدة المعقودة بين الولايات المتحدة الاميركية وايران في العام ١٨٦٥ م ايام بدأت الاحتكارات الاميركية تتسلل خارج خط مونرو على « انه اذا منحت الحكومة الايرانية في المستقبل لهذه الدولة او تلك امتيازا او حقوقا تزيد على ما ورد في هذه الاتفاقية فستكون الولايات المتحدة الاميركية واتباعها مشمولين تلقائيا بذلك الامتياز وتلك الحقوق » ٠(٢)

وبموجب اتفاقية البترول المعدلة عام ١٩٣٣ م بين الشركات البريطانية والحكومة الايرانية تغير البند المتعلق بالارباح التي تدفع لايران من ١٦ في المائة من صافي الارباح الى ٤ شلنات عن كل طن مستخرج !

وبطبيعة الحال فان الشركات الاستثمارية هي التي كانت تحدد حسب اهوائها مقادير الكميات المنتجة والارباح المستحقة ٠

---

(١) حميد صفري . النفط يستعبد ايران . ترجمة عبد الرزاق الصافي .
(٢) ادوارد نلسون . العلاقات الدبلوماسية بين الولايات المتحدة وايران خلال الفترة من ١٨٨٣ ١٩٢١ م.

ولعل الجدول التالي يبين لنا جانبا من لصوصية الشركات البترولية العالمية : (١)

السنة	النفط المصدر بالاطنان	المبالغ المدفوعة لايران بالاسترليني
١٩٢٨	٤ر٧٨٥ر١٧٢	١ر٤٥٢ر١٦٣
١٩٢٩	٤ر٧٨٥ر١٧٣	١ر٥٧١ر٧٠٦
١٩٣٠	٥ر٥٧٦ر٦٠١	١ر٤٣٣ر٤٧٨
١٩٣١	٥ر٧٦٢ر٨٠٣	١ر١١٠ر١٦٩
١٩٣٢	٦ر٠٤١ر٥٠١	١ر٢٠٨ر٩٧٠

ما يستحق الملاحظة في هذا الجدول انه كلما ازدادت كمية الانتاج قلت المبالغ المدفوعة للحكومة الايرانية الامر الذي جعلها تسعى الى تعديل الاتفاقية لتحصل على دخل ثابت عن كل طن اتفق على ان يكون اربعة شلنات ، اي جنيه استرليني عن كل خمسة اطنان !

ومثل هذه الاتفاقيات فرضتها الشركات الاحتكارية على العراق والسعودية والكويت وقطر والبحرين وليبيا وغيرها ..

وشمل الاحتكار : الانتاج وتحديد السعر العالمي للبيع . والنقل والتكرير والتوزيع وانشاء مصانع البتروكيماوية وغير ذلك .. وفي كل مجال من هذه المجالات كانت ارباح الشركات الاحتكارية تتراكم وتتضاعف . ولم يكن يصيب الدول المنتجة غير النزر القليل تماما كما يتعامل الرأسمالي مع العامل او الاقطاعي مع الفلاح ، لا يعطيه اكثر من سد الرمق ليبقى حيا قادرا على الانتاج فحسب !

ورغم ان الرأسمالية طورت مفهومها « لسد الرمق »

---

(١) الاستثمارات الامبريالية في ايران . منشورات الثورة بغداد .

فجعلت اصنافا عديدة من الكماليات ضروريات حياتية ، وزادت من مدخول العمال لتزيد بذلك القدرة الشرائية للانتاج ، الا انها أبقت العمال في دائرة الحاجة . وكان السبب الرئيسي لهذا التطور هو لمواجهة الافكار الاشتراكية من جهة ، وزيادة الانتاج وتسويقه من جهة أخرى ، وجني المزيد من الارباح .

لا شك في ان البترول حقق للشركات الرأسمالية الاستعمارية ارباحا سنوية فاقت ، وما زالت ، الارباح التي جنتها دول الاستعمار من وراء الثروات الاخرى التي نهبها وسلبها من الشعوب على مدى قرون متتالية .

ويعتبر بترول الشرق الاوسط ، وغالبيته العظمى بترول عربي ، مدرا للربح اكثر من غيره بكثير ذلك لان تدفقه الغزير من الابار بقوة الضغط الطبيعية تجعل تكلفته لا تزيد عن عشرة في المائة من تكلفة انتاج الابار الاميركية ، في حين انه يباع في الاسواق العالمية حتى العام ١٩٧٣ بسعر البترول الاميركي !

اما الارباح الهائلة فانها للشركات الاستعمارية .. واما الشعوب فان نصيبها هو « سد الرمق » كما يبينه الجدول التالي : (١)

عائدات البترول في اقطار الخليج العربي بالدولارات

البلد	سنة ١٩٥٠	سنة ١٩٥٤	سنة ١٩٥٨
الكويت	١١ر٧٠٠ر٠٠٠	٢١٧ر٥٠٠ر٠٠٠	٢٨٠ر٠٠٠ر٠٠٠
السعودية	١١٢ر٠٠٠ر٠٠٠	١٨٠ر٠٠٠ر٠٠٠	٢٨٠ر٠٠٠ر٠٠٠
العراق	١٤ر٠٠٠ر٠٠٠	١٥٥ر٥٠٠ر٠٠٠	٢٢٣ر٤٠٠ر٠٠٠
قطر	١ر٠٠٠ر٠٠٠	٢٠ر٧٠٠ر٠٠٠	٣٦ر٧٠٠ر٠٠٠
البحرين	٢ر٠٠٠ر٠٠٠	١١ر١٠٠ر٠٠٠	٨ر٥٠٠ر٠٠٠

---

(١) هارفي اكونور . امبراطورية البترول ص ١٤٤ .

كان سعر برميل البترول خلال هذه السنوات ١٫٨٨ دولارا وكان قبل عام ١٩٤٩ يباع بـ ٢٫٢٢ دولارا، وكان تخفيضه لاسباب لا يعرفها غير الشركات الاحتكارية ولمصلحتها بكل تأكيد ٠

اما عائدات الشركات وارباحها فانها بلغت اضعاف ما قدمته للدول المنتجة ٠ اذ بلغت الاف الملايين من الجنيهات الاسترلينية والدولارات ٠

يعطينا اندرو ستونفيلد في مؤلفه « سياسة بريطانيا الاقتصادية منذ الحرب» مثلا عن ارباح الاستثمارات البترولية البريطانية في عام ١٩٥٦ ، عام العدوان الثلاثي الذي توقف فيه البترول لعدة اسابيع واغلقت قناة السويس لعدة شهور ٠٠ يقول ستونفيلد : « ان الاستثمارات البريطانية في البترول بلغت في العام ١٩٥٦ مبلغ ٣٢٣ مليون استرليني ! وان هذا المبلغ يعادل اكثر من نصف اجمالي ارباح الاستثمارات البريطانية في الخارج »٠

وقال بول جونسون في كتابه « رحلة في الفوضى » : ان استخراج زيت الشرق الاوسط الرخيص وتسويقه هما اضخم مورد في حوزة الكتلة الاسترلينية ٠»

وقال جون ستراتشي في كتابه « نهاية الاستعمار » : لا شك انه لم يكن في تاريخ الاستعمار شيء قط مثل نفط الشرق الاوسط من حيث الثروة المحض ٠

ومثل اخر من ايران :

« بلغ مجموع الاموال الموظفة في الكونسرسيوم الدولي وحده المسيطر على بترول ايران منذ تأسيسه عام ١٩٥٤ حتى عام ١٩٦٤ اكثر بقليل من ٣٦٣ مليون دولار ، وبلغت الارباح المحققة حتى ذلك التاريخ حوالي ثلاثة مليارات من الدولارات اي ثمانية اضعاف الرأسمال المستثمر في الصناعة النفطية»(١)

---

(١) الاستثمارات الامبريالية في ايران . ص ٣٥ .

وليس الربح هو العامل الهام الوحيد في البترول ، انما هناك عامل اخر ربما كان اكثر اهمية هو ان بترول الشرق الاوسط وعلى الاخص البترول العربي اصبح ضروريا للمجتمعات الراسمالية الصناعية ضرورة الدم لجسم الانسان • ثبت ذلك عمليا في حرب اكتوبر ١٩٧٣ عندما اوقفت الدول العربية تصدير البترول للولايات المتحدة الاميركية وهولندا دون سواهما من المجتمعات الراسمالية • ورغم انه لم ينفذ قرار وقف البترول هذا بدقة الا انه سبب ارتباكا شديدا للصناعة العالمية ، وكان يمكن ان يسبب دمارا للمجتمعات الراسمالية في حالة حرمانها منه •

قال وزير الدفاع الاميركي الاسبق جيمس فورستال في مذكراته :

« اذا لم تكن مستودعات نفط الشرق الاوسط في متناول يدنا، فلا مشروع مارشال يمكنه ان ينجح ولا نحن يمكننا ان نقوم باية حرب ولاان نحتفظ حتى بمستوى اقتصادنا في وقت السلم » •

وقال انطوني ايدن رئيس الوزراء البريطاني الاسبق في مذكراته :

« قلت لخروشوف اني اعتقد انه يجب علي ان اكون صريحا حتى الفظاظة فيما يتعلق بالنفط ، باننا سنقاتل من اجله ،لاننا لا نستطيع العيش بدون نفط ولن نسمح لاحد ان يميتنا خنقا »•

المهم بالنسبة لموضوع بحثنا ان الاستعمار فرض سيطرته الاحتلالية والاحتكارية على بترول الشرق الاوسط دون منازع، واصبح هذا البترول مصدرا للربح يفوق الخيال ، ومصدرا رئيسيا للطاقة المحركة للمصانع ، ومادة اساسية لانواع لا حصر لها من المنتوجات الصناعية التي لم يعد في مقدور الانسان الاستغناء عنها في عصر الفضاء اذ يحتاج اليها في سفن المحيطات كما يحتاج اليها في سفن الفضاء كما يحتاج

اليها في تغطية احتياجاته من الكساء والغذاء والدواء ومواد التجميل وحماية البيئة ٠

★★★

ان البترول العربي لم يأخذ مكان الصدارة والاهمية الاستراتيجية الا بعد الحرب العالمية الثانية ٠ قبلئذ كان العراق هو البلد العربي الوحيد بين دول العالم المنتجة بكميات تجارية للبترول ٠ اماالسعودية والكويت واقطار الخليج فقد بدأت الاكتشافات البترولية فيها واستخراج هذه المادةالحيوية وتسويقها عالميا بعد تلك الحرب ، وكان العام ١٩٥٠ نقطة تحول هامة في تاريخ المنطقة العربية اذ بدأت ابار البترول تتفجر هنا وهناك ٠٠ وغدت الارض العربية مخزنا هائلا لثلثي كميات البترول المكتشفة في جميع انحاء العالم خارج الكتلة الاشتراكية ٠

وبدأ البترول العربي بذلك يأخذمكان الصدارة كمورد رئيسي للطاقة بالنسبة للعديد من المجتمعات الرأسمالية وعلى الاخص اقطار اوروبا الغربية واليابان ٠٠ وزاد الاعتماد على البترول العربي فيما بعد بحيث اصبح يستحيل على المجتمعات الرأسمالية وفي مقدمتها الولايات المتحدة الاميركية الاستغناء عنه او الحياة بدونه ٠

وبسبب الموقع الجغرافي للوطن العربي فان بترول الشرق الاوسط بما في ذلك البترول الآيراني ليس امامه غير الممرات العربية يعبر منها للاسواق العالمية ٠

بذلك فان الاهمية الاستراتيجية للوطن العربي عامة ازدادت بعد الحرب العالمية الثانية ، ولم تقلل المنجزات العلمية الهائلة التي حققها الانسان في وسائل المواصلات وتطوير الاسلحة بانواعها من هذه الاهمية ، بل زادتها اهمية فوق اهميتها ٠٠ وفي نفس الوقت زادت الاهمية الاستراتيجية لمصر كممر حيوي لناقلات البترول بممر قناة السويس ولما يتمثل فيها من مركز الثقل للوطن العربي ٠

في هذه الفترة التي ازدادت فيها الاستثمارات الرأسمالية والمصالح الاستعمارية في الوطن العربي ، وتضاعفت فيها الاهمية الاستراتيجية لهذا الوطن الذي كان معظمه تحت الاحتلال وكله تحت السيطرة الاستعمارية ٠٠ ظهر جمال عبد الناصر ٠

★★★

لم يكن جمال عبد الناصر يملك قنابل ذرية وهيدروجينية واسلحة صاروخية متطورة يتفوق بها على الدول الاستعمارية٠ ولكنه كان يملك ما هو اكثر فاعلية من ذلك واشد خطرا من اي سلاح على الاستعمار ٠ لقد كان تجسيدا لارادة الامة العربية ٠ كان ثورة سياسية واجتماعية ٠٠ كان فكرا قادرا على النفاذ داخل قلاع الاستعمار واقطاعياته والتفاعل مع الجماهير فيها ٠٠ والاخطر من ذلك ان ظهوره كان في مصر التي كانت حجر الزاوية في البناء الاستعماري الضخم٠

كانت أهداف عبد الناصر تتلخص في الحرية والاشتراكية والوحدة وتحرير كامل تراب فلسطين ٠

كان مؤمنا بان معركة الحرية في العالم واحدة ٠٠ وان مصير الشعوب الافريقية والاسيوية واللاتينية هو مصير واحد ٠٠ وان الاستعمار هو عدو لحركة التاريخ وتقدم الشعوب ٠٠

كان مدركا لاهمية البترول العربي ، ولقد عبر عن ذلك مبكرا قبل التوقيع على اتفاقية الجلاء مع بريطانيا بقوله: « اننا لدينا قوة كامنة لا تغلبها قوة عسكرية ٠ فعندنا البترول الذي يتمون منه الجيش الاوروبي في بلاد الغرب ، فاذا منعناه عنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا ٠ اننا نقدر ان نعاملهم بنفس المعاملة ونكيل لهم الصاع صاعين ، كما يمكننا ان نشعرهم بانفسهم ونقف في سبيلهم ونفهم انهم اذا اعتدوا على مصالحنا اعتدينا على مصالحهم » (جريدة الاهرام القاهرة ١٤ـ١٢ـ١٩٥٣)٠

وقال في كتابه فلسفة الثورة التي اوجز فيه افكاره الثورية:
« بودي لو وقفت قليلا عند البترول · فلعل وجوده كحقيقة مادية تقررها الاحصائيات والارقام يصلح ليكون نموذجا للمناقشة في اهمية مصادر القوة في بلادنا »·

ولقد قرأت اخيرا رسالة طبعتها جامعة شيكاغو عن ظروف البترول وبودي لو كان كل فرد من افراد شعوبنا ان يقرأها ويتدبر معانيها ويسرح بفكره في المعنى الكبير الكامن وراء ارقامها واحصائياتها ·

تقرر هذه الرسالة ان رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت في اميركا هو ٧٨ سنتا · وفي اميركا الجنوبية ٤٣ سنتا وهو في البلادالعربية١٠ سنتات ·

ولقد ثبت ان نصف الاحتياطي المحقق من البترول في العالم يرقد تحت ارض المنطقة العربية ، والنصف الباقيموزع بين الولايات المتحدة وروسيا ومنطقة الكاريبي وغيرها من بلاد العالم ·

وثبت ايضا ان متوسط انتاج البئر الواحد في اليوم هو ١١ برميلا في الولايات المتحدة و ٢٣٠ برميلا في فنزويلا و ٤٠٠٠ برميلا في المنطقة العربية ·

واذن فنحن اقوياء حين نحسب بالارقام مدى قدرتنا على العمل ، وفهمنا الحقيقي لقوة الرابطة بيننا · هذه الرابطةالتي تجعل من ارضنا منطقة واحدة لا يمكن عزل جزء منها عن كلها ، ولا يمكن حماية مكان منها بوصفه جزيرة لا تربطها بغيرها رابطة »·

ان الثورة التي قادها جمال عبد الناصر كانت بمثابة الانفجار الهائل المفاجيء زلزل الكيان الاستعماري العالمي وأفسد كل مخططاته الاستراتيجية وبدد اماله وامانيه الوردية·

اصبحت هناك بظهور عبد الناصر معادلة لا يمكن التوفيق بين عناصرها لانها متناقضة غير قابلة للتفاعل مع بعضها او التعايش مع بعضها البعض في بيئة واحدة ·

ان الاستعمار الذي اقترف كل الجرائم التي قدمنا عينـات منها في هذا الفصل ·· الذي بنى امبراطورياتهبجماجم الملايين من ابناء الشعوب ، وزينها بلوحات من دمائهم ·· ولم يتورع عن ممارسة ابشع انواع اللصوصية والنهب والسلب علـى مدى اجيال وقرون ·· كان يستحيل عليه ان يتقبل عبدالناصر او يتعايش معه ·

وجمال عبد الناصر "الثائر من آجل حرية الوطن وكرامـة الانسان وحق الشعوبفي ثرواتها وسيادتها كان يستحيل عليه ان يتعايش مع الاستعمار او يستسلم له ··

كان اذن لا مفر من الصدام ·

* * *

الفصل الرابع

عالم المؤامرات

ان الضربة المبكرة التي وجهها جمال عبد الناصر للاقطاع بعد أقل من خمسين يوما على نجاح الثورة كان لها صدى ايجابيا واسعا في أوساط الجماهير العربية وشعوب المستعمرات ·· ورغم ان هذه الضربة كانت تستهدف انهاء الظلم الرهيب الواقع على جماهير الفلاحين منذ مئات السنين واستعادة الارض من الاقطاعيين الغرباء واعادة توزيعها على أصحابها الذين اغتصبت من اجدادهم وابائهم وكانت سببا في عبوديتهم وشقائهم وحرمانهم من حق الحياة ، الا أن قوى متعددة الاطراف خارج مصر اعتبرت الضربة موجهة اليهم ·

- الاستعمار البريطاني اعتبر الضربة موجهة ضده لانها دمرت قلاعه وجسوره وقضت على اعوانه واضعفت موقفه في المنطقة العربية وداخل مصر بالذات ·

- الامبريالية الامريكية ، أدركت من خلالها أن جمال عبد الناصر قائد لثورة سياسية واجتماعية سوف يكون لها تأثير على مستقبل الاستعمار اذا استمر واستمرت الثورة ·

- الحركة الصهيونية العالمية ، أيقنت ان عبد الناصر يهدف الى التغيير ووضع أسس التقدم وفي هذا خطر اكيد على قاعدتها اسرائيل ·

- الرجعية العربية متمثلة في الانظمة الاقليمية أحست بقلق شديد من احتمالات المستقبل بفعل مؤثراتها ·

- الاستعمار الفرنسي ، خاف من انعكاساتها على مستعمراته ، وعلى الاخص في تونس والجزائر والمغرب ··

ولكن انشغال فرنسا في حروبها وهزائمها في الهند الصينية قلل من سرعة تورطها في المؤامرات والمخططات الاستعمارية التي استهدفت جمال عبد الناصر ·

أما القوى الأخرى التي كانت قد بنت كل حساباتها على

اساس استمرار الواقع ، العربي بكل سلبياتـه ، من تجزئـة راقليمية وتخلف وتناقض بين الانظمة الحاكمة والجماهيـر ، فانها لم تنتظر حتى تتعرف على هوية الرجل الغامض الـذي ظهر فجأة كالوميض في ليلة حالكة الظـلام ، فان تصفيتـه للاقطاع واسقاطه للزعامات التقليدية ، وحرصه على التفاعل مع الجماهير ، كان كافيا في نظرها لان تنقض عليه وتشـل حركته وترهبه قبل ان يتمرس ويشتد عوده ، وتسرقه الـى حظيرة القطيع ٠

كان الحكام العرب قطيعا طيعا ، لا طموح للواحد منهم أكثر من رضى السفير البريطاني أو الفرنسي أو الامريكي ٠ فلقد كان كل واحد من هؤلاء السفراء هو الحاكم الفعلي في هذه العاصمة او تلك ٠

كان الوطن العربي بموقعه الممتاز في قلب العالم ، ومخزونه الهائل من البترول موضع الحرص الشديد من جانب الـدول الاستعمارية في أن يبقى على ما هو عليه ٠٠ فليس أفضل من ذلك الحال ، ولا أنسب منه للاحتكارات الرأسمالية العالميـة ، لممارسة هوايتها في نهب ثروات الشعب العربي ، وسلـب خيرات وطنه ، وامتصاص دم ابنائه ، ليبقوا غارقيـن فـي الجهل والمرض والتخلف ، لا يعرفون قيمة ثرواتهم المستباحة المنهوبة ، ولا يقوون على مقاومة الذين لا يريدون للوطـن العربي كرامة ولا قوة ٠

بل من أجل أن يبقى الوطـن العربي على حـاله ، عمـد الاستعمار العالمي الى خلق اسرائيل لتكون قاعدة متقدمة له تحمي مصالحه الهائلة ، وتضرب حركة التحرر ، وتمتص أولا بأول امكانات التنمية والتقدم ٠٠

كان الحكام في سبيـل رضى الدول الاستعماريـة لا يجترأون على اتخاذ موقف ، حتى ولو كان هذا الموقف في الامم المتحدة ولمصلحة قضية قومية كالقضية الفلسطينية ٠

كانت الوفود العربية في المنظمة الدولية تلهث وراء وفود الفلبين وكوبا وسيام وغواتيمالا ونيكاراغوا وهندوراس وغيرها من وفود الدول التي لا تملك ارادتها ، تستجدي صوتها ضد مشروع تقسيم فلسطين ، وتتحاشى أي اتصال بوفود الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية · بل بلغ الهوان مداه انها كانت تبتعد عن المصاعد اذا لمحت بعض مندوبي الوفود الاشتراكية متجها لاستعمالها ·

ربما كانت هذه الاتصالات لم تغير في موقف الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية من مشروع التقسيم ·

ولكن من يدري ، ربما كانت غيرت في ذلك الموقف وأحبطت مشروع التقسيم الذي نتجت عنه أبشع مأساة حلت بشعب في التاريخ ·

كان الامر يحتاج الى ان نغير واقعنا ، ونجعل الاخرين يقتنعون بأننا قادرون على ممارسة ارادتنا ، واتباع السياسة النابعة من مصالحنا الوطنية والقومية ، قبل أن نطالبهم بالوقوف الى جانبنا أو نلومهم لانهم لم يفعلوا ذلك . ولكننا لم نفعل ذلك ، ولم نكن كذلك ، واثرنا الاستجداء ممن لا يملكون شيئا يعطونه !

ان عضو الوفد السوري لدى الامم المتحدة أيام مناقشة مشروع تقسيم فلسطين ، الامير عادل أرسلان ، قدم لنا في مذكراته صورة دقيقة الملامح لقطيع الحكام العرب الذي كان يحرص الاستعمار العالمي على حمايتهم واستمرار نظمهم ضمانا لمصالحه في هذا الوطن ·

يحدثنا الامير عادل ارسلان انه خاطب رئيس وفد سيام من أجل تأييد الحق العربي فقال له المندوب السيامي : (١)

---

(١) كانت تايلاند تعرف باسم سيام .

« لا لزوم لاقناعي ، فاني اومن بعروبة فلسطين ، وسوف أصوت باسم حكومتي ضد قرار التقسيم · ولكن اسمع يا امير · انكم أيها العرب تبذلون جهودا ضائعة اذ تحاولون منافسة الولايات المتحدة الامريكية في اجتذاب وفود الدول بالامم المتحدة الى مناصرة قضيتكم العادلة · ان للامريكان نفوذا على دول العالم لن تفيد ازاءه محاولاتكم · انا لا أقصد بكلامي هذا تثبيط عزائمكم ولكني أصارحكم بالحقائق » ·

فقال له الامير عادل أرسلان :

« وماذا تنصحون لنا بأن نصنع · هل نستسلم نحن أيضا للضغط الامريكي !

أجاب المندوب السيامي قائلا :

« لا · لا · ابدا ما اردت تثبيط عزائمكم · ولكن لديكم أيها العرب ورقة قوية لم تلعبوها ، وهي الورقة الرابحة · فلماذا لا تلعبونها !

وسأل الامير عادل أرسلان عن هذه الورقة ، فأشار رئيس الوفد السيامي الى الامير فيصل ال سعود ، وزير خارجية السعودية يومئذ ، الذي كان جالسا في الصالون وقال :

« هل ترى هذا الامير بعقاله المذهب · انه يحمل الورقة الرابحة · فلماذا لا يستعملها · اذهب يا أمير عادل وقل للامير فيصل أن يشخص حالا ويقابل المستر جورج مارشال (وزير الخارجية الامريكية) وان يهدده بقطع البترول السعودي عن امريكا اذا استمرت في سياستها بمناصرة اليهود · قال له أن يبلغ المستر مارشال هذا التهديد شفهيا وان يستقل الطائرة ويعود الى الحجاز · وأنا اراهن بان كفة العرب ترجح على كفة اليهود » ·

واضاف المندوب السيامي قائلا :

« اني اؤكد لك باخلاص ان هذا هو الحل الوحيد · دعوا وفود الدول الاجنبية وشأنها · واذهبوا الى النبع ! »

ويقول الامير عادل ارسلان في مذكراته انــه نقل رسالة الامير السيــامي الى الامير فيصــل ال سعــود بنصها الحرفي ٠ (١)

كانت السعوديــة قد تحولــت الى اقطاعيــة للاحتكــارات الامريكية ٠ وكــان العراق قبلهــا قــد تحول الى اقطاعيــة للاحتكارات البريطانية ٠ ولم تكن ينابيع البترول قد تفجرت وقتئذ في غيرهما من اجزاء الوطن العربي ٠٠

ولم تعمد السعودية كما هو معروف ، ولا العــراق ، الى التهديد ، مجرد التهديد ، بوقف البترول ٠ ربما لان الارادة لم تكن متوفرة ٠ ولكن بكــل تأكيــد لان الانظمــة مرتبطــة بالاستعمار والامبريالية ، وكــان يهمهــا في الدرجــة الاولى رضى واشنطن ولندن !

ولم يكن نظام الحكم في مصر يختلف عن ذلك ٠٠ وكانت جميع الانظمة العربية من هذا النوع ٠

وكان الاستعمار مطمئنا الى أن كل شيء يسير على هواه متناغما بانتظــام في الوطــن العربي ٠ ولم يكن يشغله فيــه شاغل سوى تصفيــة الشعــب العربي الفلسطيني لتصفيــة القضية الفلسطينية وتحويل اسرائيل الى وجود قانوني بحمل الانظمة العربية على الصلح معها والاعتراف بها ٠

★★★

كان الوطن العربي كعربة الية يوجههــا الاستعمار كيفمــا يشاء ٠

وفجأة ظهر رجل في أرض الكنانة ٠٠ طويل القــامة كأنه المارد العربي حطم القمقم وانتصب ما بين الارض والسماء ليرآه كل عربي حيثما وجد في أرجاء الوطن العربي الواسع٠ قوي الارادة كأنه خالد بن الوليد او صلاح الدين الايوبي جاء

---

(١) نقولا الدر . هكذا ضاعت وهكذا تعــود ص ٢٢٧/٢٢٨ وعبداللـــه المشنوق . بيروت المساء ٢٤ــ٤ــ١٩٥٠ .

من أعماق التاريخ لينفث في هذه الامة روح الثورة والوحدة ويقودها ضد الغزاة المحتلين ، ناهبي ثرواتها وخيراتها ٠

اذن فانه بمقدار ما كان تجسيُدا لاماني وامال الجماهير العربية ، كان خطرا مفاجئا دهم الاستعمار والصهيونية والانظمة العربية الرجعية والاقليمية ٠٠

ان الاستعمار بتجاربه الواسعة وخبرته الطويلة لم يترك جمال عبد الناصر وشأنه ، ذلك مخالف لكل مفاهيم الاستعمار وقوانينه وتناقض مع مصالحه الهائلة في أهم منطقة استراتيجية في العالم تحتوي على اضخم موارد الطاقة التي غدت جميع المجتمعات الرأسمالية تعتمد عليها لضمان استمرار تقدمها ورفاهيتها ٠

انما عمد الاستعمار الى التصدي له بأساليب متعددة بهدف ان يصل في النهاية الى القضاء المبكر عليه ، أو على الاقل ، تحويل الثورة الى انقلاب ، وتحويل قائدها من ثائر الى مغامر ٠

وقد انحصرت اساليب الاستعمار في المرحلة الاولى في ثلاثة اتجاهات رئيسية :

الحصار ،
الاحتواء ،
التامر ،

وكانت الولايات المتحدة الامريكية باعتبارها قيادة الاستعمار العالمي تلعب دور المايسترو في تحديد ادوار جوقة المتامرين ، وتوجيه حركاتهم رغم ان بريطانيا حاولت الاستئثار بهذا الدور ٠

كان الهدف العاجل للولايات المتحدة الامريكية هو ان لا تقام صلة ودية او مصلحية بين عبد الناصر والاتحاد السوفياتي :

اولا : لكي يبقى جمال عبد الناصر بدون دعم ، فيسهل

عليها احتواؤه والقضاء عليه ، وبالتالي انتزاع مصر من الاستعمار البريطاني والسيطرة عليها ٠

ثانيا : لانها كانت مشغولة بتنفيذ مخطط استراتيجي بعيد المدى تستهدف به محاصرة الاتحاد السوفياتي وعزله ، فكان مهما بالنسبة لها ابقاؤه بعيدا عن مصر بالذات باعتبارها مركز الثقل في الوطن العربي الغني بثروته البترولية الاستراتيجية ٠

وكان للولايات المتحدة الامريكية في نفس الوقت هدف استراتيجي اخر ، تشكل مصر فيه أحد العناصر الاساسية ، هو أنها بدأت بعد الحرب العالمية الثانية في تنفيذ مخطط يقوم على أساس السيطرة على أوروبا الغربية وجميع مستعمراتها في العالم ٠٠ وكان الوطن العربي هو أهم أهدافها لانه أهم منطقة حيوية فيه ٠ وكانت مصر اعز امانيها لانها قلب هذا الوطن ٠

في نفس الوقت كانت بريطانيا سيدة الموقف بلا منازع وصاحبة الارادة النافذة في مصر والسودان والعراق والاردن والكويت ومنطقة الخليج واليمن الديمقراطية وسلطنة عمان، وكذلك في ايران بالاشتراك مع الولايات المتحدة الامريكية ٠

وكانت لبريطانيا مصالح واستثمارات بترولية أكبر مما كان للامبريالية الامريكية وقتئذ ٠ وكانت أرباحها من هذه الاستثمارات وما زالت تشكل أهم الدعامات الرئيسية لاقتصادها ٠

ورغم أنها كانت قد بدأت بعد الحرب العالمية الثانية تطور اسلوبها الاستعماري ، فركزت اهتمامها على الكومنولث ليكون اطارا يتسع لاستثماراتها ويحافظ عليها ، واتجهت الى الاعتماد على الحكومات العميلة تجنبا للصدام مع موجات التحرر النامية ٠٠ الا انها لم تشأ أن تتراجع بسرعة عن مواقعها في الوطن العربي ، فاحتفظت بجيوشها واحتلالها وقواعدها ومعاهداتها لمواجهة الزحف الامبريالي الامريكي والحفاظ على مصالحها ، والتصدي لتيار القومية العربية ٠

كان الاستعمار البريطـاني أكثر تفهمـا لحركـة التاريخ والمتغيرات الدولية التي نتجت عن الحرب العالمية الثانية من الاستعمار الفرنسي ·

لقد رفضت فرنسا بعناد غريب التراجع عن مستعمراتهـا رغم انها كانت تعتمد على مشروع مارشال الامريكي لاعادة بناء اقتصادها ·

وكانت عند ظهور جمال عبد الناصر تخوض حروبا دامية في الهند الصينية · ولقد دفعت ثمنا باهظا لعنادها ·

أما بريطانيا فانها بدأت تتراجع بدون قتال · ويبدو انهـا كانت قررت ان تتخذ من الوطن العربي خط دفاعها الاخيـر · وكانت مصر المحور الرئيسي لذلك · وكان سفيرها من مقـر السفارة البريطانية (قصر الدوبارة) يتحكم بمقدرات الشعب العربي المصري !

بذلك فان الصدمة التي أصابت بريطانيا يوم ٢٣ يوليـو ١٩٥٢ ثم يوم ٩ سبتمبر ١٩٥٢ جعلتها في ذهول وسببت لهـا ارتباكا شديدا ·

ولقد ترتب على الحكومة البريطانية ان تتعامل مع الواقع الجديد ·· مع رجل لا يهتم بالمظاهر ولا يأخذ بها · ولا يتقيد بالبروتوكول ولا يهتم بشيء سـوى تحقيـق الاهداف التي تضمنها بيان الثورة ·

ولم يكن امام الاستعمار البريطاني الا ان يتعامل مع جمال عبد الناصر الذي يحافظ على كرامته الشخصية والوطنيـة اكثر مما يحافـظ الاورستقراطي البريطـاني على أناقتـه ومظهره ·

واذا كان من عادة الاستعمار البريطاني ان يحني رأسـه للعاصفة ، فانه ليس من عادته ان يستسلم لقائد ثورة في بلد كان سفيره قبل أيام هو الحاكم المتحكم بمقدراته ·

كان من عادة الاستعمار البريطاني أن يستغل ثورات الشعوب للتدخل والاحتلال .

ولم يكن من عادته أن يستسلم ويحمل عصاه ويرحل ..
ولكنه ، وقد خسر الاعوان والعملاء والركائز والقلاع ، لم يجد سبيلا اخر غير ان يوقع معاهدة الجلاء .

ان جمال عبد الناصر لم يمهل الاستعمار البريطاني . ولم يعطه فرصة للمماطلة والتسويف والتهرب كما اعتاد أن يفعل على مدى سبعين سنة مضت مع مختلف الحكومات المتعاقبة. فلقد قضى على اعوانه وحلفائه وجعله غريبا معزولا محاطا بالكراهية والعداء من كل جانب . ثم لم يكتف بذلك وانما عمد الى تعزيز موقفه بأحكام القبضة على الجبهة الداخلية وتعبئة جماهير الشعب ضد الاحتلال ، والاستعداد لحرب استنزاف فدائية ضد القوات البريطانية في منطقة القناة .. وبعدئذ، عندما ايقن انه في الموقف الاقوى طلب من بريطانيا انهاء المعاهدة غير المتكافئة المعقودة بينها وبين مصر ، وانهاء كافة الاوضاع التي نتجت عن هذه المعاهدة وفي مقدمة ذلك : وجود القوات البريطانية على ارض مصر العربية .

ولم تجد بريطانيا غير الاستجابة لانها كانت في الموقف الاضعف ، فقبلت بالتفاوض ، وتولى جمال عبد الناصر قيادة الجانب المصري . ولم يكن مناصا امام الاستعمار البريطاني غير التوقيع على اتفاقية الجلاء في يوليو ١٩٥٤ .
كان عبد الناصر باصالته القومية حريصا على أن يحقق جلاء القوات البريطانية ايضا عن السودان الذي جعلت منه بريطانيا مشكلة معقدة متشابكة بينها وبين مصر . وتمكن من التوصل الى اتفاقية مبكرة بهذا الشأن (١٢ فبراير ١٩٥٣) حرص على ان تضمن ثلاث نقاط جوهرية :

● انهاء الاحتلال البريطاني وجلاء اخر جندي انجليزي عن ارض السودان قبل نهاية ١٩٥٥ .

● حق تقرير المصير للشعب العربـــي السوداني تحت اشراف دولـــي .

● وحـــدة أرض الســـودان .

وقد تحقق الجلاء فعلا عن السودان قبل نهاية ١٩٥٥ ، وفي الاول من يناير ١٩٥٦ ، اعلن استقلال السودان .

وبموجب اتفاقية الجلاء عن مصر تحدد يوم ١٨ يونيه١٩٥٦ موعدا لرحيل اخر جندي من قوات الاحتلال البريطاني .

أن الاستعمار البريطاني لم يوقع اتفاقية الجلاء بحسن‌نية، بدليل أنه حاول العودة لاحتلال القناة واسقاط عبد الناصر بعد أقل من أربعة شهور ونصف من الجلاء ، بالاشتراك في العدوان الثلاثي الاجرامي مع فرنسا واسرائيل . وانما كان التوقيع على اتفاقية الجلاء مناورة أراد من ورائها :

● مسايرة الوضع الجديد على أمل احتوائه .

● انهاء حدة التوتر بينه وبين عبد الناصر مستهدفا كسب الوقـــت وتهيئة مناخ اكثر ملائمة للتامر عليه .

● تفويت الفرصة على الولايات المتحدة الاميركية التيكانت تهيء نفسها لتكون السيد الجديد والوريث الشرعي لكافـــة الدول الاستعماريـــة .

ولكن مما لا شك فيه أن الولايات المتحدة الاميركية لعبـــت دورا مؤثرا في اقناع بريطانيا للجلاء عن قناة السويس تحت وهم التصور انها سوف تحتوي جمال عبد الناصر !

أن بريطانيا التي كانت تعتمد كفرنسا على مشروع مارشال الاميركي ، وكانت قد تراجعت عن الكثير من مستعمراتها في الشرق الاقصـــى لمصلحة الامبريالية الاميركية . كانـــت مصممة على الاحتفاظ بمواقعها في منطقة الشرق الاوســـط بسبب مصالحها واستثماراتها البترولية . . ولم يكن قبولها التوقيع على اتفاقية الجلاء الا لانها غدت عاجزة عن البقاء . ثم لانها أرادت أن تناور وتراهن على عامل الزمن .

في نفس الوقت اتجهت السياسة البريطانية في المنطقة الى:

ــ شن حملة واسعة من الدعاية ضد جمال عبد الناصر تحت رايات الحرية والديمقراطية ، متهمة اياه بالدكتاتورية، مستهدفة من وراء ذلك التشكيك به واقامة سدود من الخداع والتضليل لوقف زحف شعبيته التي بدأت تنتشر في ربوع الوطن العربي .

ــ تدعيم انظمة الحكم المرتبطة بها ، وتعزيز مواقعها التي تحكمها باحتلالها المباشر حيث مصالحها الاستراتيجية .

ــ محاولة امتصاص تأثير خطواته الثورية وعلى الاخص تصفية الاقطاع ، لمنع القوى القومية والتقدمية في المنطقة من الاستفادة منها في تعبئة جماهير الفلاحين والعمال ضد الانظمة الاقطاعية العميلة .

اراد الاستعمار البريطاني فوق كل ذلك استخدام سيطرته التامة على كافة الاقطار العربية المحيطة بمصر لفرض حصار خانق حول عبد الناصر وعزله عربيا ودوليا بهدف ارغامه على التعايش معه .

وقد بذل الاستعمار البريطاني جهدا هائلا ، واستخدم كل خبرته في شؤون المنطقة ، للتنسيق مع الامبريالية الاميركية لمحاصرة عبد الناصر وعزله والقضاء عليه قبل أن يدعم موقفه ، ويزداد نفوذه ويستفحل خطره .

وكان أبرز مظاهر هذا التنسيق .. اطلاق يد بريطانيا لتنظيم وقيادة حلف عسكري ، عرف بحلف بغداد ثم سمي بحلف المعاهدة المركزية . وكانت أميركا هي صاحبة فكرة هذا الحلف .

ولكن خبرة الاستعمار البريطاني لم تنفع للتعامل مع جمال عبد الناصر ، كما أن الحصار لم يحقق شيئا من أهدافه .

★★★

كانت الولايات المتحدة الاميركية مشغولة بالمعركة الانتخابية

لرئاسة الجمهورية عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .ولقد حرصت على تأمين سلامة الملك فاروق .. وتدخل سفيرها من اجل ذلك رغم انه لم يكن هناك مبرر للتدخل ، لان جمال عبدالناصر قائد الثورة كان ضد فكرة قتله او محاكمتهواعدامه لانه كان مصمما على ان يجنب الثورة التلوث بالدم !..ولكن الملك فاروق كان خائفا ومنهارا وطلب الحماية الاميركية .

الشيء الاخر الذي اهتمت به الولايات المتحدة الاميريكة وقتئذ هو انها كانت حريصة على عدم وجود صلة ، وعدم اقامة مثل هذهالصلة بين قائد الثورة والاتحاد السوفياتي . ولقد تولى الاتحاد السوفياتي نفسه هذه المهمة عن الولايات المتحدة الاميركية بشن حملة من التشهير والعداء ضد جمال عبد الناصر !

وفي ضوء مراقبة الامبريالية الاميركية للحملة التي كانت تشنها موسكو على قيادة الثورة العربية ، ومعرفتها لعمق العداء المتراكم في المنطقة ضد الاستعمار البريطاني ، وادراكها لحجم القضايا المعلقة بين مصر وبريطانيا ، فان تصور واشنطن كان قائما على أساس انه ليس أمام عبد الناصر غير الاتجاه نحوها سعيا وراء دعمها . وراحت تنتظر قدوم الرجل الغامض الذي ظهر فجأة على مسرح الاحداث وجذب انتباه الجميع اليه.

ورغم أن الولايات المتحدة الاميركية كانت شديدة الطمع في الاستيلاء على نصيب بريطانيا في استثمارات البترول ،وتأخذ مكانها في السيطرة على مصر والمنطقة العربية ، الا أن قيام الثورة بدون علمها واذنها ، ودون الاعتماد عليها ، جعلها تشك في نوايا قائدها .

وتحول الشك الى عداء وكراهية لجمال عبد الناصر يوم وجه ضربته للاقطاع .

ولكنها اثرت الانتظار ريثما تنتهي انتخابات الرئاسة . وقد فاز فيها قائد قوات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية

الجنرال ايزنهاور . وعهد الى جون فوستر دالاس مهمة وزارة الخارجية .

كان دالاس يؤمن بسياسة دفع الاحداث حتى حافة الهاوية. وتفنن في تصعيد الازمات الدولية ووضع الشعوب في جو الحرب الذرية المخيفة . وكان همه الاول تطويق الاتحاد السوفياتي من كل جانب بالاحلاف العسكرية ، واستغلال هذه الاحلاف لغرض السيطرة الاميركية على جميع الدول الراسمالية في العالم (أوروبا الغربية واليابان) ووراثة الدول الاستعمارية في مستعمراتها ..

كانت منطقة الشرق الاوسط موضع اهتمام خاص للامبريالية الاميركية في اطار استراتيجيتها العامة للسيطره على العالم. ورغم أن هذه المنطقة التي بدت في مطلع الخمسينات وكأنها جزيرة عائمة على بحر من البترول كانت كلها تحت السيطرة الاستعمارية ، الا انها كانت اكثر المناطق المسببة للقلق .

كان خلق اسرائيل في قلب هذه المنطقة هو السبب . فلقد ترتب على ذلك طرد الشعب العربي الفلسطيني من وطنه ودياره .. والولايات المتحدة الاميركية هي المسؤولة الاولى عن ذلك ، لانها بزعامة رئيسها هاري ترومان قادت حملة ارهابية لا اخلاقية لارغام الامم المتحدة على اقرار مشروع تقسيم فلسطين واباحة هذا الجزء الهام من الوطن العربي للعصابات الصهيونية . ونتج عن ذلك اضطراب الاوضاع وانعدام الاستقرار في منطقة تعتبر قلب العالم وأغنى أجزائه بالثروة البترولية الهامة .

كان طبيعيا أن تعطى الولايات المتحدة الاميركية عناية خاصة لازالة معالم جريمتها .. وكان اهتمامها مكثفا بالتعاون مع الاستعمار البريطاني على توطين اللاجئين الفلسطينيين ، وتمهيد الطريق بذلك للصلح بين الانظمة العربية واسرائيل..

ولكن أحداثا هامة بدأت تقع في الشرق العربي بشكل خاص

تحمل معاني الرفض لمخططات الاستعمار والتمرد على الواقع الذي سبب النكبــة .

ثم كانت الثورة تجسيدا لارادة الامة العربية ودليلا على حيويتــــها .

وأصبح جمال عبد الناصر مشكلة طارئة لم تكن في حسبان الاستعمار والامبريالية ولا كان العقل الألكتروني الاميركــي توقعه أو تنبــأ بــه ..

***

واتجه جون فوستر دالاس في مايو ١٩٥٣ بعد اربعة شهور فقط من تولي الرئيس ايزنهاور مهام منصبه في مهمة عاجلة الى القاهرة ومنطقة الشرق العربي حاملا في حقيبته ملايين الدولارات واضعا نصب عينيه هدفين رئيسيين :

الاول : احتواء جمال عبد الناصر .
الثاني : تصفية القضية الفلسطينية .

وكانت العلاقة بين هذين الهدفين ، علاقة تلازمية ، تؤكد طبيعة العلاقة بين مصر والقضية الفلسطينية . واذا كان التاريخ على مداه الطويل حافلا بالكثير من الادلة والشواهد على العلاقة المصرية منذ القدم بين هذين الجزئين من الوطن العربي باعتبار ان فلسطين تمثل بوابة رئيسية استراتيجية لمصر ، فان التاريخ الحديث يؤكد أن موقف مصر هو أهــم العوامل المؤثرة في مستقبل القضية بالفلسطينية والكيــان الصهيونــي .

تصور دالاس انه سوف يصيب الهدف بضربة واحدة .

وجاء الى القاهرة وهو لا يعرف عن عبد الناصر أكثر مــن أنه القائد الفعلي لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

وفي أول لقاء بينهما فاجأه عبد الناصر بأن امسك بزمــام المبادرة في الحديث ، وكان من عادته أن يسبق في اثــارة الموضوعات التي تهمه لكي لا يكون موقفه دفاعيا ، ولا يضيع

منه الموضوع الـــذي يريد الوصول اليه .

كان ما يهم عبد الناصر وقتئذ هو شراء أسلحة من الولايات المتحدة الاميركية ، وكسب التأييد الاميركي في ضرورة جلاء القوات البريطانية عن ارض مصر . وكان قد سبق مجــيء دالاس توقيع اتفاقية جلاء بريطانيا عن السودان .

لم يشأ أن ينتظر ريثمايستمع الى افكار دالاس ونواياه ، والهدف من زيارته . ربما كانت الاصول البروتوكولية تقتضي ذلك . ولكن جمال عبد الناصر لم يكن يتقيد بذلك فامســك بالحديث مستفسرا عن مصير الطلب الذي تقدمت به الحكومة المصرية لشراء أسلحة أميركية ، مشيرا الى ان المسؤولين في واشنطن كانوا أرجأوا هذا الطلب الى ما بعد الانتخابـــات الاميركية ليبت فيه الرئيس الجديد .

وكان تبرير دالاس « ان ونستون تشرشل رئيس الوزارة البريطانية انذاك اتصل تلفونيا بالرئيس الاميركي الجديــد المنتخب وحثه على أن لا يبيع الى المصريين سلاحا حتــى لا يبدأ رئاسته بتزويد مصر باسلحة قد تستخدم في قتل الجنود البريطانيين الذين خدموا تحت أمرة ايزنهاور اثناء الحرب العالمية الثانية ، وان الرئيس ايزنهاور تأثـــر بهذا الرجاء تأثـــرا عميقا . (١)

ولم يقبلْ عبد الناصر هذا التبرير ، ثم راح يناقش دالاس في اهمية الاستجابة لتزويد مصر بالسلاح بيعا وليس هدية ، واهمية جلاء القوات البريطانية عن قناة السويس لاستقرار الاوضاع وتنقية جو العلاقات بين مصر والغرب ..

وتظاهر دالاس بالاقتناع ، وأتخذ من ذلك مدخلا لحديثه الذي ضمنه اقتراحا بتشكيل حلف عسكري يسمى « منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط » تشترك فيه مصر .

---

(١) محمد حسنين هيكل . عبد الناصر والعالم ص ٦٥ .

« وسأله عبد الناصر : لماذا يجب أن تنضم مصر اليها ! ضد من ستدافع هذه المنظمة ؟ »

فرد دالاس : ضد الاتحاد السوفياتي ؟

ودهش عبد الناصر وقال متسائلا :

« ولماذا ؟ أن الاتحاد السوفياتي يبعد عنا خمسة الاف ميل، ولم تقم قط مشاكل معه ، كما انه لم يهاجمنا ابدا . ولم يحتل ارضنا اطلاقا . ولم يكن له قط قاعدة في مصر ، بينما لا تزال بريطانيا في مصر احتلالا استعماريا منذ سبعين عاماً » .

قال دالاس :

« لا بأس . لكن الانجليز الذي سيبقون هنا في ظل هذا الحلف سيبقون في القاعدة تابعين للحلف ، ولن يسمح لهم برفع العلم البريطاني ، انما سيكونون في ظل علم الحلف » .

وكان رد عبد الناصر :

« انني اذا اخبرت شعبي أن وضع البريطانيين هنا سيتبدل وأنهم سيتحولون من محتلين الى شركاء بمجرد تغيير العلم فانهم سيضحكون علي .

« انهم سيفقدون ايمانهم بي وسوف يقوم اناس اخرون يبدأون نشاطهم سرا تحت الارض . ويربحون ثقة الشعب . واذا توقفت عن قيادة شعبي كزعيم قومي فان قادة وطنيين آخرين سوف يقومون ، ويجب أن يقوموا ، وسوف يقودون المصريين وسيستثمرون مشاركتي وعضويتي في الاحلاف المعقودة معكم ليقولوا انني عميل لكم وصنيعتكم .

« وكيف استطيع ان اتوجه الى الناس واقول انني اغض الطرف عن قاتل في قناة السويس يسدد الي مسدسا من مسافة ٦٠ ميلا لانني قلق من شخص يحمل مدية على بعد ٥٠٠٠ ميل ؟

«انهم سيقولون لي : لنبدأ اولا بالامور الاولى والاهم .وان

على الشعب ان يملك استقلاله قبل ان يبدأ بالاهتمام في الدفاع عنـــه » .

ثـــم حسم الامر بقوله :

« اننا لسنا مستعدين للبحث فى الاحلاف او اية اجراءات دفاعية ما لم ندرس ذلك بارادتنا الحرة » (١) اي ما لم يتم جلاء الثمانين الـــف جندي بريطاني .

من سياق هذا الحوار يبدو واضحا ان دالاس فشـــل في مهمته . ولقد اثبتـــت الايام والوقائع فيما بعد ان الفشـــل لم يكن محصورا في موضوع منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط، وانما شمل ايضا موضوع تصفية القضية الفلسطينية . فلـــم يقبل عبد الناصر الاراء التي حملها الوزير الاميركي لانـــها لم تكـــن تستهدف مصلحة الشعب العربي الفلسطيني ، وانما كانت تستهدف كما هو حال السياسة الاميركية حتى وقتنـــا، المصلحة المشتركة للامبريالية والاستعمار والصهيونية .

ان جمال عبد الناصر وقتئذ كان مهتما في الدرجة الاولـــى بانهاء الاحتلال ليتخلص من الثمانين الف جندي بريطاني الذين كانوا يشكلـــون كابوسا ثقيـــلا وخطرا واقـــفا على مداخل القاهرة .. وكان يعرف انه يقف وحيدا في منطقة واسعة محاطة بالاعداء من كل جانب .. وكان يعلم جيدا انالولايات المتحدة الاميركية كانت تولت زعامة وقيادة المعسكر الراسمالي الاستعماري ، وانها كانت تزهو بذلك وتعمل من أجل فرض سيطرتها على العالم ! ولا تسمح للكبار ، فكيف للصغار ، ان يعترضوا سبيلها او يصموا اذانهم لكلماتها التي كانـــت تأخذ شكل الاوامر لمجرد انها صادرة من واشنطن وكـــان يتجنب الصدام المبكر مع السياسة الاميركية .. رغم ذلك فانه كان صريحا واضحا حاسما في رفض الافكار والمقترحات

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦٦ـ٦٧ .

التي طرحها أقوى وزراء الخارجية الاميركية في التاريخ الحديث ، جون فوستر دالاس .

كان فشل دالاس في مهمته مع عبد الناصر حدثا كبيرا .
لقد اعتادت الولايات المتحدة الاميركية منذ الحرب العالمية الثانية على ان تجد السمع والطاعة من الدول الكبيرة التي كانت قبل سنوات قليلة تتربع على القمة الدوليه وتتباهى بأن مستعمراتها مترامية على امتداد الكرة الارضية بحيث لا تغيب الشمس عنها ابدا .. لم يكن الامر يحتاج الى اكثر من مكالمة تلفونيةيجريها الرئيس الاميركي مع الرئيس الفرنسي أو رئيس وزراء بريطانيا ، لكي يصبح موقف الدولتين في مقدمة صف جوقة المصفقين للسياسة الاميركية ، أو رافعي الايدي تحية لـها ..

ومع الدول الراسمالية الاصغر كان وزير الخارجيةالاميركية هو الذي يعطي التوجيهات بالتلفون .

وفي الوطن العربي ، كان السفراء هم الذين ينقلون اوامر حكوماتهم للملوك والرؤساء العرب .. ولم يكن احد يعترض أو يرفض .. فالجميع يريد رضى واشنطن أو لندن أو باريس، ولا احد يفكر أو يسعى لكسب رضى الجماهير وثقتها .

والخطيئة القاتلة التي ارتكبها دالاس انه جاء الى القاهرة وفي ذهنه صورة التعامل الذي اعتادته بلاده والدول الاستعمارية مع العواصم العربية ، وكان في تصوره ولا شك، ان جمال عبد الناصر سوف يرهب بانتقال وزير الخارجية الاميركي من واشنطن الى القاهرة ويؤخذ بهيبة دالاس الذي كان محاطا بهالة كبيرة من الاضواء والدعاية .. ولكنه أيقن بعد لقائه مع عبد الناصر أن تصوره كان خاطئا ، وان أمانيه كانت مجرد احلام ، وان الطريق الى الشرق الاوسط لم تعد مفروشة بالورود العطرة .
كان ذلك الموقف لجمال عبد الناصر ثورة على واقع مهترىء،

وتمردا على تقاليد بالية استهدفمنهما رد الاعتبار والكرامة للحاكم العربـــي .

لم يكن هدف جمال عبد الناصر الاساءة للوزير الاميركي أو للولايات المتحدة الاميركية ، انمـــا كان هدفه الحفاظ علـــى مصلحة وطنه ، والقضيـــة الفلسطينية ، وكرامة الشعـــب العربـــي ..

وكان يستحيل على عبد الناصر ان يقف ذلك الموقف مـــن جون فوستر دالاس ، ويرده خائبا فاشلا ، لولا انه كـــان يسعى الى ثقة الشعب وليس الى رضى الاستعمار .

كان جميع الحكام العرب وقتئذ يسعون وراء رضى لندن وباريس وواشنطن .. بل وراء رضى سفراء بريطانياوفرنسا والولايات المتحدة الاميركية في العواصم العربية .. كانـــوا يفعلون ذلك لان كلا منهم متناقض مع جماهير شعبه ،فكانوا يلوذون بالاستعمار طلبا للحماية واستجداء الدعم !

ولم يشأ جمال عبد الناصر ان يكون مثل هؤلاء ، ولذلـــك فانه عندما تقابل مع دالاس لم يجلس للاستماع الى التوجيهات السامية كما يفعل الملوك والرؤساء والحكام الذين يعتمدون على حماية الاستعمار ودعمه لهم ، وانما واجه دالاس بما يريده الشعب وهو عكس مايريده الاستعمار .

بذلك تناقضت الارادتان .. وانتهت مهمة دالاس الـــى القاهرة بالفشل . وحزم حقائبه ، وتوجه الى الاردن حاملا مشروع تصفية القضية الفلسطينيـــــة تحت شعار توطين اللاجئين الفلسطينيين ، تداعبه امال وردية بتعويض الفشل الذي صدم به . ولعله كان واثقا كل الثقة في نجاح مهمتـــه لتصوره بأن جلوب باشا ، القائد البريطاني للجيش الاردني، المسيطر على مقدرات الامور وقتئذ ، قادر على تمهيد الطريق له وفرشها بالرياحـــين والياسمين .

والحق أن الجنرال البريطاني جلوب لم يدخر شيئا مـــن

جهده .. وكان ارهابيا مرعبا ، وسفاحا مفتونا بمطاردة الوطنيين الاحرار .

وبذلت السفارة الامريكية بالتعاون مع جلوب والسفير البريطاني وقطيع الاعوان جهودا هائلة لانجاح مهمة دالاس..

ولكن ما واجهه الوزير الامريكي في الاردن كان حدثا كبيرا اخرا .

★★★

كان في الاردن القسم الاكبر من أبناء الشعب العربي الفلسطيني عامة ، والقسم الاكبر من اللاجئين أبناء المناطق الفلسطينية التي أقيمت عليها اسرائيل عام ١٩٤٨ بشكل خاص ، وبذلك فان التوصل الى اتفاقية بشأن توطينهم يشكل مفتاح التصفية للقضية كلها ، ويمهد الطريق للصلح والاعتراف والتعامل مع اسرائيل ، ويعيد لهذه المنطقة الحيوية الاستقرار تحت مظلة الاستعمار والامبريالية .

كان ذلك وما زال من أعز أماني واهداف السياسة الامريكية الخارجية ، وكان اهتمام دالاس لبلوغ ذلك قد تضاعف .. لان الامر بالنسبة له اصبح بمثابة التحدي بعد أن فشل مع عبد الناصر . بل لعله كان مصمما على احراز النجاح فيهذا الجانب من مهمته لافهام عبد الناصر بأن هناك في المنطقة مسالك كثيرة يمكن من خلالها للسياسة الامريكية أن تصل الى غايتها ، وانه لا يمكن لاية ارادة في الوطن العربي ان تقف في وجه ما تريده واشنطن .

ان اللاجئين من ابناء الشعب العربي الفلسطيني الذين عصرتهم النكبة ولفتهم بستائر كثيفة من السخط واليأس ، كانوا أول من استبشر خيرا بثورة ٢٣ يوليو ، ورأوا فيهاأملهم في التحرير والعودة الى ديارهم ، ولم يترددوا فيالانجذاب اليها والتفاعل معها . كان المهم في نظرهم أن يتغير الواقعفي أي بلد عربي ، فكيف وقد تم التغيير في مصر ! وبدأتمنجزات

الثـورة تشـد الانتبـاه وتثير الاعجاب !

لقد احسوا بالانتعاش وارتفعت معنوياتهم وعادت نسبةمن الثقة الى نفوسهم ، واغتنموا مناسبة قدوم دالاس للتعبير عن ذلك بامكاناتهم المتاحة والاسلوب الذي كانوا قادرين على ممارسته .

جاء اليهم دالاس بمشروعات التوطين ، ممنيا كل لاجىء بالالوف وعشرات الالوف من الدولارات .

وردوا عليه بشعارات تقول : نريد العودة . لن نساوم على ديارنا . لن نبيع وطننا بدولارات أميركا والصهيونية . عد الى بلادك يا دالاس أيها الاميركي القبيح .

اندفع اللاجئون من مخيماتهم بمظاهرات صاخبة تهتف بالعودة وعروبة فلسطين وسقوط مشروعات التوطين ..

كانت مفاجأة لم يتوقعها جلوب ولا السفارة الاميركية ولا الحكومة الاردنية ..

وكانت المفاجأة كالصاعقة انقضت على دالاس ، فجعلته في ذهول ودهشة ..

ولم يجد أمامه غير أن يحزم حقائبه ويعود بالفشل في أول مهمة له خارج الولايات المتحدة الاميركية .

وبالعقلية الاميركية ، عقلية رعاة البقر ، لم يكن دالاس ممن يقبلون بالفشل أو يستسلمون للهزيمة . وكان من الطبيعي أن يعمد الى تقويم مهمته ، من اجل التعرف إلى أسباب الفشل ووضع المخططات التي تكفل تجاوز تلك الاسباب .

ولم يجد دالاس عناء في ان يكتشف بأن جمال عبد الناصر هو المسؤول عن افشال مهمته .. لانه رفض الاحتواء .ورفض تصفية القضية الفلسطينية . ورفض أن يصدق بأن الخطر الشيوعي الذي يبعد خمسة الاف ميل اقرب من الخطر الصهيوني الجاثم في قلب المنطقة ، واقرب من الاحتلال البريطاني المرابط في القناة . ثم لانه أقام واقعا جديدا في المنطقة العربية الهامة .

ثم كيف يجرؤ هذا الضابط على أن يقول لجون فوستر دالاس المفتون بالاحلاف : اننا لسنا مستعدين للبحث في الاحلاف .

اذن يجب أن نقضي عليه !

وترك مهمة ذلك لشقيقه الن دالاس رئيس جهاز المخابرات المركزية الاميركية .

★★★

ان الدول الكبرى الحليفة للولايات المتحدة الاميركية ،كانت في تلك الفترة التي ظهرة فيها عبد الناصر لا تقوي على تحدي السياسة الاميركية لانها كانت تعتمد على المعونات الاميركية في اعادة بناء اقتصادها وتوفير امكانات الاستمرار في محاربة الحركات التحررية في المستعمرات التي كانت تشمل كل افريقيا ، ومناطق واسعة من اسيا ، والاف الجزر المتناثرة في المحيطات .

وكانت جميع دول العالم باستثناء الدول الاشتراكية تلهث وراء المساعدات الاميركية .

وكانت الحرب الباردة على أشدها بين المعسكرين .

وكانت الامبريالية الاميركية وقوى الاستعمار العالمي مشغولة في مواجهة تأميم النفط الايراني الذي قادهمصدق . . وكان هناك تصميم على تطويق ومحاصرة ذلك الخطر والقضاء عليه لكي لا تمتد نيرانه الى المنطقة العربية المجاورة الغنية بمواد الاشتعال والمتفجرات معا .

وكانت المخابرات المركزية الاميركية تعربد في انحاء العالم ، تدبر مؤامرات هنا ، وتفجر انقلابات هناك ،وتضرب كل من يحاول الافلات من قبضة الدول الاستعمارية التقليدية ولا يتجه اليها .

كان الدولار وقتئذ هو احدث الاسلحة الاميركية لافساد الحكوماتوشراء العملاء والاعوان . . وكانت لهجاذبيةعجيبة!

ولقــد جاء دالاس بنفسه الى القاهرة ليضع الوف الملايين من الدولارات بين يدي عبد الناصر وتحت أقدامه ، ولكنــه فوجــئ بعبد الناصر يقول لــه :

« اننا لسنا للبيع ! ولــم نقم بالثورة من أجل ان نتخلص من احتلال بريطانيا لنرتمي في احضان أميركا أو غيرها » .

هــذا ولا شيء سواه ، كان معنى رفض الاراء التي حملها وزير خارجية الولايات المتحدة الاميركية ..

ترتب على ذلك أن تولت المخابرات المركزية الاميركية مهمة القضاء على جمال عبد الناصر بأية وسيلة ، وما أكثر الوسائل التي تستخدمها المخابرات الاميركية وكلها وسائل اجرامية لاأخلاقــــية .

ان العقلية الاميركية لا تعرف في التعامــل السياسي مع الاخريــن غير اسلوبين :

ـ اما التعامل بالدولار ، وقد فشل هذا الاسلوب مع عبــد الناصر لانه رفض أن يتحول الى سلعة ، وصمم علىاخراج مصــر مــن البورصـــة .

ـ واما التعامل بالتصفية ، بخــــلق المتاعب الداخلية او بالانقلاب العسكري ، أو بالقتل .

ولقد استعملت المخابرات المركزية الاميركية بالتعاون مــع القوىالاخرى المعادية للثورة كافة هذه الاساليب،وحدثتبسبب ذلك المواجهة الاولى بينها وبين عبد الناصر انتهت بهزيمتها.

لقد كانت المخابرات المركزية الاميركية في جنيف عام ١٩٥٣ منهمكة في استكمال المؤآمرة للقضاء على الدكتور مصدق رئيس وزراء ايران وبطل التأميم . أكدت ذلك فيما بعــد جريدة « ليبرتيه ديمانش » الفرنسية في عددها بتاريخ ١٥ اكتوبــر ١٩٦١ فقالــت :

« أن طغاة النفط الانجليز كانوا قلقين جدا من الاخطار التي تخيم على مصالحهم في ايران ، وقد هب الاميركيون لمساعدتهم

فورا . وأسرع ايدن لمقابلة ايزنهاور ومن ثم كتب في مذكراته يقول :

« اقلق وضع ايران ايزنهاور كثيرا . وقد ارتحت جدا للمفاوضات التي أجريتها معه التي قربت وجهات نظرنا . آن الوضع في ايران كان سيئا حقا. وقد اعتقدت أن من الافضل أن نزيح مصدق لا أن نرشوه . ونتيجة المحادثات تفاهمنا حول هذا الموضوع » .

وكان تقدير المخابرات الاميركية ان تصفية مصدق سوف ترهب عبد الناصر وتجعله يضعف ويستكين ويلتجىء لواشنطن طالبا العون والدعم ..

ورغم انها كانت أحست بخطره ، الا أن انشغاله بالمفاوضات مع بريطانيا للتوصل الى اتفاقية الجلاء ، ووجود عناصر يمينية في المناصب الرئيسية في القاهرة ، جعلها تقلل من أبعاد هذا الخطر وتعطي الاولوية لمشكلتها مع مصدق .

وتمكنت في اغسطس — اب ١٩٥٣ من الانقضاض على مصدق واسقاط حكومته ، والغاء التأميم ، واتاحة الفرصة أمام تكتل الاحتكارات البترولية الراسمالية في العالم ودعامتها الشركات الاميركية في اعادة السيطرة على البترول الايراني تحت اسم الكونسرسيوم .

بعدئذ تفرغت تماما للقضاء على جمال عبد الناصر . وخصصت له عام ١٩٥٤ الذي شهد أربع محاولات بارزة .

وقد كشفت تحقيقات الكونغرس الاميركي في صيف ١٩٧٥ في نشاط المخابرات المركزية الاميركية عن جوانب خطيرة من مؤامراتها لاغتيال عبد الناصر . كما كشفت دور مايلز كوبلاند مؤلف كتاب « لعبة الامم » في احدى هذه المؤامرات .

***

كانت ثقة جمال عبد الناصر في السيطرة على الجيش والتفاعل مع جماهير الكادحين جعلته يتجاوز عن امور كثيرة في سبيل تهيئة المناخ للتوصل الى اتفاقية الجلاء

مع بريطانيا . فلقد تحمل بقاء النظام الملكي والوصي على العرش ومحمد نجيب وعناصر يمينية كثيرة في سبيل أن يستدرج الطرف البريطاني للتوقيع على اتفاقية الجلاء ولا يعطيه أي مبرر للنفور ..

كان الاستعمار بدوره يحاول جاهدا الاستفادة من ذلك أيضا . فاذا كان عبد الناصر يتخذ من هؤلاء ستارا يخفي وراءه نواياه الحقيقية ويناور بهم لبلوغ هدف مرحلي محدد، فان المخابرات المركزية الاميركية التي كانتثملة بالنصر الذي حققته في ايران اتخذت من هؤلاء أنفسهم بالتعاون والتنسيق مع المخابرات البريطانية أدوات لتفجير الموقف الداخليوتمهيد الطريق لاسقاط عبد الناصر .

لم يكن الامر يحتاج الى عناء شديد لكي تتصيد المخابرات المركزية الاميركية اللواء محمد نجيب والزعامات التقليديةمن الاقطاعيين ، فلقد كان هؤلاء في خلافات مستمرة مع عبد الناصر وأعضاء مجلس قيادة الثورة بسبب التناقض في الاهداف والارادة والسلوك .

ودون أن يضع هؤلاء في اعتبارهم حساسية المفاوضات الجارية وخطورة المرحلة ، عمدوا الى الالتفاف حول محمد نجيب ودفعوه لافتعال أزمة ، وتفجير الخلاف ، واستغلال ذلك في اثارة الراي العام باسم الحرية والديمقراطية .

وفي الخامس من فبراير ١٩٥٤ بعد أن عبئت كافة القوى الرجعية بامكانات الامبريالية الاميركية بدأ محمد نجيب تنفيذ أول حلقات المؤامرة ، فأعلن استقالته من رئاسة مجلس قيادة الثورة مبررا ذلك انه يريد الحرية والديمقراطية !

وبأحكام متقن بدات حلقات المؤامرة تتوالى على مدى شهرين ، تعرضت خلالهما الثورة والبلاد الى أخطار داهمة كادت تعصف بكل شيء لولا حنكة عبد الناصر وجراته النادره.

كان هدف المؤامرة ، أن تحل الفوضى في أنحاء البلاد ،

وان ينقسم الجيش على نفسه ، فيتهيأ المناخ لتنفيذ اخر مراحل المؤامرة وهو الانقلاب على الثورة .

وادرك عبد الناصر ابعاد المؤامرة ، فلم يشا أن يدفع الخلافات الي نقطة الصدام ، وعمد الى تهدئة الموقف المتفجر بالمفاوضات ، لتفويت الفرصة على المتامرين . وتولى سليمان حافظ وكيل مجلس الدولة انذاك بدور الوسيط بين محمد نجيب وعبد الناصر فحمل ما سمي وقتئذ بطلبات محمد نجيب وهي كالاتي :

« ١ — ان يكون له حق الفيتو على قرارات مجلس الثورة مع اعطائه الحق في حضور جلساته .

٢ — أن يكون له حق الفيتو على قرارات مجلس الوزراء مع اعطائه الحق في حضور جلساته .

٣ — أن يكون له حق تعيين قواد الوحدات في الجيش ابتداء من قائد كتيبة وما يماثلها في باقي الوحدات .

٤ — أن تتم جميع تنقلات الضباط وانتداباتهم بواسطته .

٥ — على الجيش أن يحلف يمين الولاء لشخصه وأن يوقع الضباط ومجلس الثورة على وثيقة بهذا القسم .

٦ — أن لا يرشح مجلس الثورة عند عودة الحياة البرلمانية للبلاد احدا لرئاسة الجمهورية غيره ، وان يضمن له كرسي رئيس الجمهورية » . (١)

ان تقديم هذه الطلبات في وقت كانت السيطرة على الجيش لجمال عبد الناصر وتنظيم الضباط الاحرار لا تدل على أكثر من ان محمد نجيب كان أداة لتفجير أزمة طاحنة تعصف بالامن والاستقرار في البلاد .

•

ولقد تمكن عبد الناصر ، بعد معاناة قاسية ، من القضاء على الازمة والسيطرة على زمام الموقف . ثم راح يفضح المتامرين ويعبىء الشعب . وكان الشعب هو السلاح الذي

---

(١) انور السادات . قصة الثورة كاملة ص ٢٠ .

حارب به عبد الناصر في كل معاركه وهزم به كل المؤامرات التي استهدفته واستهدفت الثورة به .

كانت طلبات محمد نجيب تدل بوضوح على انه يريد أن ينصب نفسه دكتاتورا بموافقة جمال عبد الناصر ومجلس قيادة الثورة . ولم يحقق له عبد الناصر ذلك ، ولكنه تلافى الصدام معه حرصا على تماسك الجبهة الداخلية وتفويت الفرصة على الاستعمار محرك الازمة الذي كان يستهدف خلق حالة من عدم الاستقرار تبرر تدخله .

دبروا المؤامرة في الخفاء ، وحركوها باتقان ، ونجحوا في اثارة حملة من الاضرابات . وتصدى لهم عبد الناصر في وضح النهار في أوساط جماهير الشعب صاحبة الثوره والمستفيدة منـــها .

« ما دمنا متحدين متماسكين ، فلن يكون هناك مجال للافاعي لتطل برؤوسها ، وعلينا أن نتحد ونطمئن ولا نغفل مطلقا حتى لا تتمكن الرجعية منا ثانية . أن الثورة ثورة أهداف ومبادىء، وطالما كانت المبادىء والاهداف بخـير فلن تستطيع اية أفعى أن تطـل براسها » . (١)

وبعد أيام قليلة كانت نبرات صوته ووضوح كلماته تحمل معنى الانتصار على المؤامرة والمتامرين فقال في لقاء مع عمال القـوات الجويـة :

«في أوائل مارس وبعد ٥ مارس الماضي بأيام كانت هناك حملة مغرضة قام بها بعض محترفي السياسة السابقـين ، أو بالاحرى بعض مصاصي الدماء ومحتكري الاستغلال وسلب أقـوات الشعـب .

كان هؤلاء الناس يقومون بحملة مغرضة ضد الافراد وضد اعضاء مجلس قيادة الثـورة .

وكانوا يعتقدون أنهم سينتصرون كما فعلوا قبل قيـــام

(١) خطاب عبد الناصر ٣١ مارس ١٩٥٤ « الاهرام » ١-٤-١٩٥٤ .
(٢) خطاب عبد الناصر ١١ ابريل ١٩٥٤ « الاهرام » ١٢-٤-١٩٥٤ .

الثورة . واعتقدوا انهميستطيعون أن يضللوا الشعبويزلزلوا ايمانه بهذه الثورة ، وقد يستطيعون أن يهدموا الاشخاص ؛ ولكنهم لن يستطيعوا ان يهدموا مبادىء الثورة والمثل العليا ، ولن نمكنهم مرة اخرى من احتراف الخداع والتضليل ». (٢)

كانت تلك المؤامرة من أخطر المؤامرات التي استهدفت الثورة لان المخابرات المركزية الاميركية وقوى الاستعمار البريطاني اعتمدت على عناصر داخلية وعبأت لها كافة الفئات الاقطاعية والراسمالية والزعامات التقليدية التي لم يكن وقت فضحها وتصفيتها قد حان عند عبد الناصر .

وكان الانتصار عليها بفعل الاعتماد على جماهير الشعب هزيمة منكرة للمخابرات الاميركية والبريطانية والرجعية ، ليس فقط لان المؤامرة فشلت وانما لان الشعب ازداد وعيا لاهداف الثورة والتفافا حول قائدها .

ولم تستسلم المخابرات المركزية الاميركية للهزيمة .

★★★

كان من أهم نتائج الانتصار على مؤامرة فبراير ومارس ١٩٥٤ ان جمال عبد الناصر ازداد قوة . وانعكس ذلك على المفاوضات الجارية مع بريطانيا فعجل في حملها على توقيع اتفاقية الجلاء بعد اقل من أربعة شهور .

خلال هذه الفترة كانت المخابرات المركزية الاميركية تدبر مؤامرة جديدة ضد عبد الناصر وكان بطلها للمرة الثانية : محمد نجيب الذي كان ما زال يحتفظ بمنصب رئيس مجلس قيادة الثورة ورئيس الوزراء .

كانت المخابرات الاميركية قد وضعت تحت تصرف نجيبعدة ملايين من الدولارات . وكان قد تم تسليمه بالفعل ثلاثةملايين دولار « عبئت فى حقيبة وسلمت الحقيبة في الواقع الى

---

(١) محمد حسنين هيكل . عبد الناصر والعالم ص ٧٢ .

ضابط في المخابرات المصرية كان يعمل كضابط اتصال بين المخابرات المصرية ووكالة المخابرات الاميركية . وتمت عملية الدفع والاستلام في بيت العميل الاميركي في ضاحية المعادي الانيقة » . (١)

لقد فجع عبد الناصر وهو يمسك باداة الجريمة . كان يحس بالمؤامرات تنسج من حوله ولكنه لم يكن لديه الدليل المادي . كان يبرر الخلاف في الراي بينه وبين محمد نجيب ولكنه لم يبرر ابدا لمحمد نجيب ان يتحول الى اداة بيد المخابرات المركزية الاميركية !

ولم يكن من عادة جمال عبد الناصر ان يحارب خصومه بالتامر او يطعنهم من الخلف . ولذلك فانه بمجرد معرفته بحقيبة الثلاثة ملايين دولار توجه الى مجلس الوزراء وواجه نجيب بالامر وطلب منه تفسيرا لذلك !

ولم ينكر محمد نجيب . اعترف بالثلاثة ملايين دولار . وبرر قبوله للمبلغ « بانه مرسل من الرئيس ايزنهاور الذي خصص اعتمادات مالية لبعض رؤساء الدول ليتمكنوا من تجاوز مخصصاتهم المقيدة بالميزانية من اجل الدفاع عن انفسهم وعن بلادهم ضد الشيوعيه » . (١)

اكتفى عبد الناصر وقتئذ بتسجيل هذا الموقف على محمد نجيب وحرمانه من المبلغ ، واقامة نصب تذكاري يشهد على انتصار جمال عبد الناصر على المخابرات المركزية الاميركية ويفضح عملاءها واساليبها القذرة ، ولكنه كان قد قرر : انه ما دام الرجل قد سمح لنفسه وهو في اعلى منصب في الدولة بالتعاون مع مخابرات اجنبية وقبول اموال منها فانه لا بد من ابعاده حفاظا على كرامة الشعب والثورة والمنصب . . .

واذا كان برج الجزيرة الذي اصبح من المعالم السياحية البارزة في القاهرة يذكر المرء وهو يطل من ارتفاع ١٨٣ مترا على ارجاء القاهرة ونيلها الخالد وماذنها الالف بالمؤامرات

---

(١) المرجع السابق ص ٧٢ .

الاميركية وخيبتها وفشلها ، فان هذا البرج يرمز في نفس الوقت الى نهاية رجل اتيحت له الفرصة ليدخل التاريـــخ من اوسع ابوابه فأبي الا ان يدخله من باب المخابرات المركزية الاميركـــــية .

★★★

كانت اسرائيل قاعدة الامبريالية والصهيونية العالمية هـــي الاداة في المؤامرة الثالثة التى دبرتها المخابرات المركزيـــة الاميركية .. ومنذ ان اقيمت اسرائيل وهي اداة اميركية ولا يمكنها ان تكون أكثر من ذلك رغم كل الاطماع الصهيونيـــة ومحاولات التمرد وممارسة الارادة الذاتية .

لم تكن بريطانيا التي كانت وقعت في صيف ١٩٥٤ علـــى اتفاقية الجلاء النهائي خلال عامين هي المنزعجة والقلقـــة الوحيدة من احتمالات المستقبل اذا ما بقي جمال عبد الناصر . لقد عبر عن ذلك فيما بعد انطوني ايدن وهو رئيس لوزراء بريطانيا فقال بصراحة تامة : « لسنا في نزاع مع مصر ، وانما نحن في نزاع مع عبد الناصر » . (١)

كانت الولايات المتحدة الاميركية واسرائيل في مقدمة الدول والقوى الاخرى التي تشارك بريطانيا انزعاجها وقلقها اذا قدر لعبد الناصر أن يستمر في اندفاعه . السبب في ذلك بالنسبة لاسرائيـــل هو الخوف من احتمالات المستقبـــل .. وزيادة على ذلك بالنسبة للولايات المتحدة هو رفض عـــبد الناصر أن يدخل تحت المظلة الاميركيـــة !

ومنذ أن أقيمت اسرائيل وهي تدعى لنفسها بأنها أكفأ مـــن غيرها بما في ذلك الولايات المتحدة الاميركية في التعامـــل مـــع العرب !

وقد ارادت المخابرات المركزية الاميركية بعد فشل مؤامراتها ان تختبر الكفاءة الاسرائيلية ، فأطلقت يدها لتنفيذ مؤامرة لا شك في

(١) كرانجيا . كيف نجح عبد الناصر ص ٨٠ .

أن المخابرات الاميركية كانت طرفا رئيسيا في التخطيط لها وتوفير احتياجاتها .

كان هناك هدف مشترك .. فالولايات المتحدة تريد مبررات لرفض طلبات شراء الاسلحة التي كان عبد الناصر يبعث بها بالحاح الى واشنطن ، وتريد في نفس الوقت اضعاف مركز عبد الناصر داخل مصر ليسهل عليها احتواؤه او اسقاطه ، ولذلك فانها كانت تشجع وتدعم وتتبنى ايـة مخططات أو عمليات تخريبية داخل مصر حتى ولو كانت تستهدف السفارة الاميركية في القاهرة . وكانت اسرائيل من جانبها مهتمـة بتنفيذ سياستها الاستراتيجية القائمة على أساس أبعاد مصر واخراجها اذا أمكن من ساحة الصراع العربي الصهيوني ليسهل عليها هضم ما أغتصبته ، وتجميع قواها والانطلاق من جديد للسيطرة والتوسع . وكانت شديدة القلق مـن اتفاقية الجلاء التي سيترتب عليها تفرغ مصر لمواجهة الخطر الصهيوني على أبوابها .. ولذلك فانها — أي اسرائيل — كانت في حالة سباق مع الزمان لتنفيذ المؤامرة التي كانت تستهدف اظهار عبد الناصر بمظهر الرجل العاجز عن حماية السفارات الاجنبية وتوفير الامن والاستقرار في البلد .

كان من شدة حماس بن غوريون للمؤامرة أن استقال مـن منصب رئاسة الوزارة ليتفرغ للاشراف على الاعداد للمؤامرة تخطيطا وتنفيذا .

كان هدف المؤامرة : مهاجمة ونسف عدة سفارات اجنبيةفي القاهرة في مقدمتها السفارتان : الاميركية والبريطانية .

وعهد الى احد الضباط الاسرائيليين بقيادة المجموعة التي كلفت بتنفيذها . وكان عناصر هذه المجموعة من الشباب الصهيوني من افراد الجالية اليهودية في القاهره .

وتمكنت اسرائيل بمعونة المخابرات المركزية الاميركية من ادخال الضابط الاسرائيلي الى القاهرة .

ولكن يبدو أن عام ١٩٥٤ الذي كان حافلا بمؤامرات المخابرات المركزية الاميركية ضد عبد الناصر والثورة العربية كان عام نحس وفشل بالنسبة للمخابرات الاميركيةوالبريطانية والاسرائيلية على السواء .

كانت سلطات الامن المصرية في حالة تهيؤ لمواجهة أسوأ الاحتمالات ، ولذلك فانها لم تجد عناء في احباط المؤامرة والقاء القبض على قائد وافراد المجموعة الصهيونية وهم في مرحلة التنفيذ .

وقد نجحت اجهزة الاعلام المصرية في استغلال الحادث لفضح اساليب الصهيونية أمام الرأي العام العالمي الذي كان انجذابه في تزايد مستمر لعبد الناصر والثورة .

ورغم ان قائد المجموعة ، الضابط الاسرائيلي ، كان تمكن من الانتحار في سجنه اثناء المحاكمة ، الا أن انتحاره لم يقلل من اهمية اعترافات رفاقه الذين القى القبض عليهم معه.
وشنت الصهيونية العالمية والامبريالية الاميركية حملة واسعة في أنحاء العالم للتأثير على حكم القضاء العادل الذي توفر للمتهمين الذين ضبطوا متلبسين بالجريمة . وتصاعدت الحملة الى اقصى حد بعد ادانة المتهمين وصدور الحكم بأعدامهم شنقا حتى الموت . وقد تم تنفيذ الاعدام شنقا دون أي اكتراث لتلك الحملة الارهابية !

ولكن الامر لم ينته عند هذا الحد . فلقد تفجرت بسببها ازمة وزارية اسرائيلية حادة وتطورت الى فضيحة سياسية وعسكرية وأخلاقية بطلها بن غوريون .

كان بن غوريون ، لشدة الحرص والتستر على المؤامرة ، قد استقال من منصب رئاسة الوزارة ليتولى بنفسه الاعداد للمؤامرة . ولم يرعو عن تزييف توقيع وزير الدفاع الاسرائيلي انذاك « لافون » على كافة الاوراق والوثائق المتعلقة بها .

وعندما تكشفت بعض الحقائق المثيرة من خلال اعترافات المتهمين واثناء محاكمتهم عرف لافون أنه كان ألعوبة وضحية، فثار لكرامته ، وكشف التزوير الذي اقترفه بن غوريون زعيم المؤسسة العسكرية الاسرائيلية ، واستقال من منصبه احتجاجا على انعدام الحد الادنى من الاخلاق والشجاعة الادبية لدى سفاح مجرم خلقت منه الصهيونية العالمية اسطورة ! ولكنها مطرزة بالفضائح مكللة بفضيحه لافون .

★★★

مع تكرار فشل المؤامرات كانت المخابرات المركزية الاميركية تزداد حنقا وغيظا وحقدا ، ومع اقتراب عام ١٩٥٤ الى نهايته كانت المؤامرات تزداد حدة وعنفا ضد جمال عبد الناصر .

ويبدو ان المخابرات المركزية الاميركية كانت مصممة على تصفية ثورة ٢٣ يوليو خلال ذلك العام الذي اشتهر بكثرة مؤامراته !

وكانت مؤامرة القتل هي اخر البدائل التي أعدتها .

وكانت جماعة الاخوان المسلمين هي الاداة التي استخدمتها .

والقتل كالانتحار ، جريمة لا يقدم عليها غير اليائسين .

وكانت المخابرات المركزية الاميركية يئست من شراء عبد الناصر واحتوائه ، ويئست بعدئذ من القضاء عليه بالمؤامرات الانقلابية ، ولذلك قررت قتله ..

والمخجل أن تجد جماعة تحمل اسم الاسلام وتتستر بتعاليمه ومبادئه واخلاقياته السامية لتكون اداتها في تنفيذ الجريمة ضد رجل قاد ثورة أعزت الاسلام ، ورفعت شأن العروبة ، واستهدفت القضاء على الظلم واقامة العدالة التي دعا اليها الاسلام منذ بدأ النبي العربي محمد (صلعم) رسالته المقدسة .

وكانت جماعة الاخوان المسلمين قد يئست يأس المخابرات المركزية الاميركية من الوصول الى السلطة باثارة الفوضى وعدم الاستقرار من خلال نسف وتفجير الجبهة الداخلية التي شاركت فيها خلال احداث فبراير ومارس من عام المؤامرات ..

ولذلك فانها كانت معبأ حنقا وغيظا وحقدا وتعصبا شريرا ، وكانت مستعدة لاقتراف أبشع الجرائم ضد ذلك الرجل الثائر الذي رفض أن يهديها السلطة .

كانت هذه الجماعة تضم في صفوفها الخيرين والشريرين .
فقد كانت غررت بمظهرها الاسلامي بالكثيريـن مـن ذوي الكفاءات العلمية والخلقية . ولكنها كانت في نفس الوقـت تمرست في الارهاب وشكلت تنظيما من الارهابيين ، وكانـت قيادتها مشبوهة بعلاقات غير مقدسة مع المخابرات البريطانية ثـم مـع المخابرات المركزية الاميركية .
وشاءت الاحداث أن تفضح هذه العلاقة بالادلة القاطعة بعد ثبوت التورط في العمالة والتامر ، ولم يكن دورها أكثر مـن الاداة .
كان القرار : قتل جمال عبد الناصر .
وكانت أداة التنفيذ : جماعة الاخوان المسلمين .
وتولت قيادة الجماعة اختيار أحد الارهابيين المتعصبيـن وراحت تعده نفسيا لدوره الاجرامي ..
ولم يكن صعبا عليها تحديد المكان ، فقد كان جمال عـبد الناصر كثير التنقل والتلاقي مع الجماهير والخطاب فيهـا مستهدفا التفاعل معها وشد الوثاق بينها وبين الثورة ..
وقد وقع الخيار على تنفيذ الجريمة في الاسكندرية .
وفي يوم ٢٦ اكتوبر (تشرين الاول) من عام ١٩٥٤ ، بينما كان جمال عبد الناصر يلقي خطابا في جماهير حاشدة ، واذ بشاب كان متسللا الى المقاعد الامامية يطلق الرصاص من مسدس على قائـد الثورة .
وبرباطة جأش ، واجه جمال عبد الناصر الموقف ، مؤكدا أن مواقف الخطر هي أصدق امتحان للرجال ومحك لكفاءتهـم القياديـة .

لم يشأ أن تفتك الجماهير بالمجرم . ولم يشأ أن يتحـول اللقاء الجماهيري الى فوضى ، فاستمر في القاء خطابـه

ﻜﻨﻪ بسرعة البديهة استدار به الى الحادث قائلا :

« أيها الرجال ، أيها الاحرار ، اتكلم اليكم بعون الله بعد ن حاول المغرضون أن يعتدوا علـــيَّ . فدمـــي فداء لكم ، حياتـــي ملـــك لكـــم .

أيها الرجال ، أيها الاحرار . هذا هو جمال عبد الناصـــر نكم . قمت من أجلكم . من اجل عزتكم وحريتكم ، وعشت كم وسأعيش حتى الموت من اجلكم مكافحا في سبيلكم .

أيها المواطنون . كافحوا واحملوا الرسالة . فكلكم جمـــال بد الناصر تدافعون عن العزة عن الحرية وعن الكرامـــة . سيروا على بركة الله . لا تخافوا الموت فالدنيا فانية . والله معكـــم ولن يخذلكـــم . فلن تكون حياة مصر معلقة بحـــياة جمال عبد الناصر وانما معلقة بكم وبشجاعتكم وبكفاحكم . اذا مات جمال فليكن كل منكم جمال عبد الناصر متمسكـــين المبادىء والمثل العليا .

يا أخواني . دمي من دمكم . وروحي من روحكم . ومشاعري ـــــن مشاعركـــم .

أيها الرجال ، لقد أستشهد المخلصون في سبيل الله ، وانا ستعد للاستشهاد في سبيلكم وفي سبيل الله » . (١)

بذلك انتهت الى الفشل الحلقة الاخيرة من سلسلة مؤامرات عام ١٩٥٤ التي استهدفت تصفية الثورة من خلال تصفـــية قائدهـــا ..

★★★

أن عام ١٩٥٤ كان أخطر الاعوام على الثورة . فلقد اشتدت فيه وتلاحقت هجمات المخابرات المركزية الاميركية والبريطانية مستخدمة كل قوى الاستعمار والصهيونية والرجعية ..

---

(١) خطاب عبد الناصر بالاسكندرية ، القاهرة ، الاهرام ٢٧ـ١٠ـ١٩٥٤ .

ولئن كانت كل المؤامرات استهدفت جمال عبد الناصر ، وبلغت حد القتل ، الا انه لم يشأ أن يعزل نفسه يوما واحدا عن الشعب . كان يؤمن أن الثورة بالشعب . وان قائد الثورة لا يجوز له ان يخاطب الشعب من وراء اسوار القصور أو من خلال الاجهزة الاعلامية ، وانما من خلال الجماهير .

ارادوا أن يحاصروه ، وأن يعزلوه ، وأن يحتووه ، وأن يغرقوه في ملذات القصور . . ولما لم يتمكنوا ، ارادوا أن يقتلوه . وقاومهم بالشعب .

وبالشعب انتصر عليهم ونجا من مؤامراتهم .

وجعل من العام الذي ارادوا ان يكون نهايته بداية الانطلاق الكبير .

الفصل الخامس

الانطلاق الكبير

في الوقت الذي كانت المخابرات المركزية الاميركية تتصرف بعصبية بالغة لفشل كـل مخططاتها ومؤامراتها الأحتوائية والانقلابية والتصفوية التي استهدفت ضرب ثورة ٢٣ يوليـو قبل ان تضرب جذورها في أعماق الارض العربية ،كان جمال عبد الناصر يستعد للقيام بهجمات مضادة لتحطيم أسوار الحصار المفروضة عليـه بعد أن صمد في وجه المؤامرات والضغوط التـي تعـرض لـها .

واذا كان عام ١٩٥٤ هو عام المخابرات المركزية الاميركيـة امسكت خلاله بزمام المبادرة واستمرت تضرب وتتامر وتضغط بعنف لاسقاط جمال عبد الناصر ، فان عام ١٩٥٥ كان عـام عبد الناصر انتزع خلاله زمام المبادرة من قوى الاستعمـار والامبريالية والصهيونية والرجعية وشن هجمات مفاجئـة مذهلة حطم بها اسوار الحصار وجبروت الذين كانوا يتصورون ان اشارة من واشنطن كفيلة لان تغير الاوضاع في أي مكان في العالم خارج الكتلة الاشتراكية .

ولم يقف الامر عند حدود تحطيم الاسوار وجبروت «السادة الجدد » ، فلقد أعقب ذلك فتح أبواب واسعة أمام الشعوب سوف تبقى شاهدة على ان جمال عبد الناصر كان واحدا من أبرز رجال القرن العشرين الذين حولوا مجرى التاريـخ لمصلحة الشعوب الساعية وراء حقها في ممارسة ارادتهـا على ارضها والاستفادة من ثرواتها في بناء تقدمها .

كانت الولايات المتحدة الاميركية تتعامل مع جمال عـبد الناصر باسلوبين مختلفين من اجل الوصول الى هدف القضاء عليه بأية وسيلة بما في ذلك القتل !

وشاءت الاقدار أن يكون تعاملها معه بالاسلوبين المختلفين بواسطة شقيقين هما جون فوستر دالاس وزير الخارجيـة

والن دالاس رئيس ادارة المخابرات المركزية الاميركية ..
كان الاعتماد في الاسلوبين على القبضة الاميركية الفولاذية
.. كانت تضرب بها في الخفاء عارية تماما لكي تكون موجعة.
وبعد كل فشل في اصابة هدفها ، كانت ذات القبضة تمتـد لجمال عبد الناصر مغلفة بالحرير .

ولكن عبد الناصر كان يعرف ماذا يريد . وماذا تريد الولايات المتحدة الاميركية لسبب بسيط هو :

انـه كان يريد حرية حقيقة للوطن العربي والمواطن العربي، وبذلك فانه كان ضد الاستعمار والاحتواء والاستغلال ونهب الثـروات .

في حين كانت الولايات المتحدة الاميركية تريد عكس ذلك تماما ، اذ كانت تريد الاحتواء والاستغلال ونهب الثروات .

وبحكم طبيعة الراسمالية المسيطرة على الحكم فـي الولايات المتحدة الاميركية ، والمتحكمة بسياستها العامـة ، كان يستحيل أن تقف هذه الدولة وغيرها من الدول الراسمالية عكس ما وقفته من جمال عبد الناصر .

وبحكم طبيعة جمال عبد الناصر وأهدافه التي تجسدت فيها أهداف الامة العربية ، متمثلة في الحرية والاشتراكية والوحدة والتحرير الكامل لفلسطين ، كان يستحيل أن يقف من الولايات المتحدة الاميركية وغيرها من الدول الراسمالية الاستعمارية عكـس ما وقفه منها ..

ورغـم ذلك كانت هناك محاولات للتعامل بين هاتيـن الارادتين المتناقضتين .. ولكن كل هذه المحاولات فشلت في توفير جو من التعايش بينهما ، والمسؤولية في ذلك تتحملها الولايات المتحدة الاميركية ، لانها لم تكن ترضى بأقل من أن ينكمش جمال عبد الناصر على نفسه داخل مصر ، ويضـع نفسه ومصر معه تحت المظلة الاميركية .

أن مثل هذا الوضع ،كان بكل تأكيد ، يعني تمكين القـوى

المستغلة المحلية منها والاجنبية في مواصلة استغلالها لجهد الكادحين الذين يشكلون الغالبية العظمى من الشعب ، ومواصلة نهب ثروات البلد وحرمان جماهير الفلاحين والعمال والفقراء منها ، واعادة الحكم من جديد ليكون ارهابا للشعب واداة حماية لمستغليه .

كانت الولايات المتحدة الاميركية على استعداد لان تضع في خدمة جمال عبد الناصر ، لو انه ارتضى بذلك ، احدث واضخم اجهزة الدعاية .. وان تشتري له الكثيرين من الكتاب والصحفيين ، وتعبىء كل عملائها ليحرقوا البخور له ويملأوا الدنيا خداعا وتضليلا وتزييفا لمعاني الحرية والديمقراطية ارضاء له . فهذا اسلوبها مع الخاضعين لنفوذها .

ولكن جمال عبد الناصر لم يقم بثورته من اجل طبقة هؤلاء، وانما قام بالثورة من اجل طبقته هو ، طبقة الجماهير المسحوقة .

ومشكلة الولايات المتحدة الاميركية معه انه رفض أن ينتزع نفسه من طبقته ، ورفض أن يكون سلعة !

كان معنى ذلك بالنسبة لجمال عبد الناصر انه سيمضي عمره كله في صراع مرير مع الامبريالية الاميركيه وحلفائها واعوانها ..

كان يعرف انه بين الحكام وحيد في هذه المنطقة التي تاخذ مكان الصدارة في الاستراتيجية الاميركية .

ولكنه كان يعرف في نفس الوقت أن هذا هو قدره وقدر مصر .

لقد كان يدرك بثقافته العسكرية وذكائه الحاد انه ليس اخطر من أن يبقى داخل خندق يدافع منه .. او داخل قلعة محاصرة من كل جانب . كان معنى ذلك التاكل والضعف والسقوط .

ولذلك فانه قرر الخروج من الخندق والقلعة والتصدي للاخطار قبل أن تدهمه وهو جالس القرفصاء في مكان ضيق.

★★★

في بداية عام ١٩٥٥ كانت الاتصالات جارية لعقد مؤتمر يضم الدول الاسيوية والافريقية حديثة التحرر والاستقلال غير المنتمية للاحلاف العسكرية .. ولقد عرف ذلك المؤتمر بمؤتمر باندونج نسبة الى المدينة التي انعقد فيها في أندونيسيا في ابريل من ذلك العام .

كانت الولايات المتحدة الاميركية تعتبر نفسها الوريثة الشرعية للاستعمار العالمي ، متهيئة لان تأخذ مكان اية دولة استعمارية تضطرها ضغوط حركات التحرر الى الانسحاب من هذا الموقع او ذاك . ولذلك فانها كانت لا تطيق سماع فكرة الحياد الايجابي ، وتعتبر كل دولة لا تتجه اليها معادية لها . وكان دالاس يردد وقتئذ عبارته المشهورة : كل من ليس معنا فهو ضدنا .

والدول التي تتجه نحو الحياد الايجابي ، انما كانت تتجه بعيدا عن جانبية الدول الكبرى وتكتلاتها ، لقناعتها بأن الانضمام لتكتل تتزعمه احدى دولتي القمة ، بغض النظر عن الشكل والاسم والاطار ، يعني في جوهره انعدام ممارسة الصغار لارادتهم والخضوع لسيطرة مقنعة بالاحلاف أو المعاهدات غير المتكافئة كمعاهدة الأمن المتبادل بين الولايات المتحدة الاميركية وتايلاند على سبيل المثال والتي رفضها عبد الناصر عندما عرضها عليه دالاس عام ١٩٥٤ .

وما دامت السياسة الاميركية تقوم على اساس وراثة الاستعمار العالمي واحتواء الكتلة الاشتراكية بحزام متكامل من الاحلاف العسكرية فانها كانت شديدة الحساسية والنفور من فكرة مؤتمر باندونج والحياد الايجابي .

وكان اكثر ما يهم السياسة الاميركية وقتئذ هو جمال عبد الناصر ، لانه قوة آخذة في التصاعد السريع في اهم المناطق حيوية بالنسبة للاستراتيجية الامبريالية .
ولقد أرادت ان تتعامل معه من جديد بقبضتها المغلفة بقفاز

الحرير بعد أن فشلت في تعاملها معه بقبضتها الحديدية العارية !

ويبدو انها لم تكن قد عرفت حقيقة جمال عبد الناصر ، ولا فهمت افكاره التي اوجزها في «فلسفة الثورة» (١) وضمنها فقرة تقول :

« ثمة شيء يجب أن نتفق عليه أولا وقبل أن نمضي في هذا الحديث ، ذلك هو تعريف المكان بالنسبة لنا .

وان قال لي احد أن المكان بالنسبة لنا هو هذه العاصمة التي نعيش فيها فاني اختلف معه . »

« وان قال لي احد أن المكان بالنسبة لنا هو حدود بلادنا السياسية فاني ايضا اختلف معه » .

« ولو كان الامر كله محصورا في حدود عاصمتنا أو في حدود بلادنا السياسية لهان الامر ، ولاقفلنا على انفسنا كل الابواب وعشنا في برج عاجي نحاول أن نبتعد به بقدر ما نستطيع عن العالم ومشاكله وحروبه وأزماته تلك التي تقتحم علينا أبواب بلادنا وتؤثر فينا دون أن يكون لنا فيها دخل أو نصيب » .

« ولقد مضى عهد العزلة » .

« وذهبت الايام التي كانت فيها خطوط الاسلاك الشائكة التي تخطط حدود الدول تفصل وتعزل .

« ولم يعد مفر امام كل بلد من أن يدير البصر حوله خارج حدود بلاده ليعلم من اين تجيئه التيارات التي تؤثر فيه ، وكيف يمكن أن يعيش مع غيره وكيف .. وكيف .. »

« ولم يعد مفر امام كل دولة من أن تجيل البصر حولها تبحث عن وضعها وظروفها في المكان ، وترى ماذا تستطيع أن تفعل فيه ، وما هو مجالها الحيوي وميدان نشاطها ودورها الايجابي في هذا العالم المضطرب » .

---

(١) صدرت الطبعة الاولى في يونيو ١٩٥٣ .

أن جون كامبل الخبير في شؤون مصر والمنطقة العربية في وزارة الخارجية الاميركية لم يدرك الابعاد التي كان يرمي اليها جمال عبد الناصر من وراء أفكاره تلك ، ونتج عن ذلك خطأ في الدراسة والتقدير انعكس على موقف السياسة الاميركية عامة .

لقد عهدت اليه وزارة الخارجية الاميركية باعتباره المع خبرائها ، لدراسة أفكار عبد الناصر التي لخصها في «فلسفة الثورة » ولكنه لم يدرك جوهر التغير فكان من رأيه :

« أن حكومة عبد الناصر لم تختلف — في قضايا السياسة الخارجية — اختلافا كبيرا عن سابقتها » (١)

وبلغ قصر النظر وسوء التقدير في وزارة الخارجية الاميركية انها تصورت في نهاية عام ١٩٥٤ « أن مصر ستنضم الى نظام الاحلاف الغربية الذي كان العمل فيها يجري على قدم وساق على الحزام الشمالي » . (٢)

والمثير للدهشة والاستغراب حقا هو ازدواجية التفكير والتعامل مع عبد الناصر ، فالمخابرات الموكزية الاميركية عملت على مدى العام ١٩٥٤ كما رأينا في الفصل السابق على اسقاطه وقتله ! ووزارة الخارجية رغم الفشل الذي لحق بدالاس في رحلته المشهورة عام ١٩٥٣ أساءت فهم أفكاره وتقدير موقفه من الاحلاف التي رفضها مواجهة وبصراحة وحسم لدالاس شخصيا .

ليس هناك من تفسير لسوء تقدير وزارة الخارجية الاميركية سوى انها كانت تقيس الامور بالمنطق الرأسمالي الاستعماري القائم على التصور بانه مهما حاول جمال عبد الناصر الافلات من جاذبية الغرب فانه لن يتمكن من الحكم وحل المشاكل المزمنة المتراكمة الا بالاعتماد على الولايات المتحدة !.

---

(١) ر. ل. كارنجيا . كيف نجح عبد الناصر ص ١٦٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٨ .

ولكن وزارة الخارجية الاميركية رغم سذاجة اسلوب تعاملها مع عبد الناصر وسوء فهمها لافكاره كانت تدرك جيدا الاهمية الاستراتيجية لمصر ومدى التأثير الذي يمكنها احداثه في المنطقة العربية وافريقيا .

لذلك فانها اضطربت لدى سماعها الانباء تتحدث عن اشتراك جمال عبد الناصر في مؤتمر باندونج ، وسارعت الى تداول الامر مع بريطانيا التي كانت ما زالت تحتفظ بالمكانة الاولى في القسم الاكبر من الوطن العربي . واستقر الامر بين واشنطن ولندن على ضرورة بذل اقصى ما يمكن من جهد لحمل عبد الناصر على عدم المشاركة في ذلك المؤتمر . ولعلهما عندما فكرتا في اسلوب التعامل مع عبد الناصر كانتا اسيرتي عقلية ورواسب ما قبل الثورة .

وتولى السفيران الاميركي والبريطاني في القاهرة مقابلة عبد الناصر بهدف اقناعه بالحسنى لكي لا يذهب الى باندونج .

ولم يسمح عبد الناصر أن يكون هناك لاية دولة حق التأثير أو التدخل في السياسة الخارجية المصرية كما في الشؤون الداخلية .. وابلغ السفيرين بحسم انه ذاهب الى باندونج من اجل ان يتعاون مع كافة الدول والانظمة والقوى العالمية غير المنتمية للاحلاف العسكرية لارساء مبادىء الحياد الايجابي التي كان شديد الايمان بها .

وعندما ايقنت واشنطن أن عبد الناصر ذاهب لا محالة الى مؤتمر باندونج عمدت الى تحريك اسرائيل في محاولة يائسة .

★★★

لم تكن الغارة العدوانية التي قامت بها فرقة من الجيش النظامي الاسرائيلي على قطاع غزة يوم ٢٨ فبراير ١٩٥٥ بعيدة عن مخططات السياسة الاميركية وضغوطها التي كانت ترمي الى منع عبد الناصر من الذهاب الى باندونج والالتقاء

مع الزعماء الذين كانوا ينادون بالافكار والمبادىء التي كان ينادي بها ، ذلك أن اسرائيل لم تكن تمارس العدوان منذ قيامها وحتى يومنا الراهن بدون اطمئنانها المسبق لتأييد ودعم الولايات المتحدة الاميركية بالذات .

ولم يكن هناك اي مبرر لهذه الغارة سوى اصرار عبد الناصر على الانفلات من جاذبية الغرب الراسمالي الاستعماري .

ولما لم تنفع الجهود الدبلوماسية والضغوط السياسية الاميركية والبريطانية في التأثير على قراره ، عمدت واشنطن الى استخدام قاعدتها المتقدمة التي أوجدتها في قلب الوطن العربي لتكون سوطا بيدها وأداة تشغل بها الذين يحاولون ازعاج الاستعمار في المنطقة أو الخروج عليه والتخلص من تحكمه وسيطرته ..

لقد تحركت اسرائيل مرارا عدة على الجبهة الاردنية لتخفيف ضغط الحركة الوطنية الاردنية على الجنرال البريطاني جلوب قائد الجيش الاردني حتى عام ١٩٥٦ .

وتحركت مرارا على الجبهة السورية لاشغال الجيش السوري واضعاف مقاومته ومقاومة الشعب للاحلاف العسكرية ..

وفي هذه التحركات على مختلف الجبهات ارتكبت اسرائيل جرائم بشعة كان ابرزها وقتئذ عدوانها على قرية قبيا الفلسطينية الواقعة على خط الهدنة بين الاردن واسرائيل وقتذاك .

وكان الهدف من الاغاره على غزة متعدد الجوانب :

— من جهة كان القصد خلق حالة من التوتر على الجبهة لاشغال الرأي العام العربي والحكومة المصرية ، وترغم عبد الناصر على اعطائها أولوية الاهتمام والعدول عن المشاركة في مؤتمر باندونج .

ـ من جهة ثانية كان القصد : التأثير على المكانة التي بدأ يتبوأها عبد الناصر وامتصاص شعبيته التي بدأت تضرب جذورها داخل مصر وفي ارجاء متعددة في الوطن العربي.

ـ من جهة ثالثة كان القصد اضعاف مركز عبد الناصر داخل الجيش المصري من خلال اظهاره بمظهر العاجز عن الحصول على اسلحة حديثة يمكن بها ردع اسرائيل ومنع اعتداءاتها المتكررة على الجبهات العربية ، وبذلك تتهيأ الفرص من جديد لتدبير المؤامرات الانقلابية عليه .

ان هذه المقاصد مجتمعة كانت واضحة لجمال عبد الناصر وهو يقوم الموقف في ضوء تلك الغارة والاهداف المتوخاة منها . حدد ذلك بوضوح بقوله :

« كتب علينا أن ندخل معركة رابعة في حرب تثبيت الاستقلال وهي معركة تحديد معالم شخصيتنا الدولية ، ورسم مسلكنا في هذا العالم الذي زرعوه بالمشاكل من حولنا .

كنا نريد أن نكون أقوياء في وطننا ، ندافع بكفاية عن حدوده ، وكنا نريد أن يكون ضميرنا الدولي يقظا ، يشارك في الدفاع بكفاية عن سلام العالم .

لم نكن نريد أن نسمع ضربات التهديد تدق أبوابنا ، ولا نستطيع للخطر الداهم علينا دفعا ولا ردا .

وكذلك لم نكن نريد أن نرى نيران الفتنة تندلع في الارض من حولنا ، وتحرق غيرنا ، وتحرقنا معهم ، دون أن يكون لنا نصيب فعال ، يصدر في كل تصرفاته عن روح من عدم الانحياز ، تنشد العدل وتطلب السلام على أساسه . »

وهكذا تشابكت معركتان في حرب تثبيت الاستقلال : الحصول على سلاح ، والاشتراك في مؤتمر باندونج الذي جمع دول افريقيا واسيا . (١)

---

(١) كان ذلك في اليوم الخامس عشر من ابريل عام ١٩٥٥

لقد ارادوا من تلك الغارة العدوانية وتصعيد الموقف المتوتر على خط الهدنة تقييد حركة جمال عبد الناصر وارغامه على قبول المعونة العسكرية الاميركية المشروطة التي كان قد رفضها لانها مشروطة . وكان في تصور الذين خططوا للغارة الاسرائيلية في واشنطن أن جمال عبد الناصر بعدها سوف يحس بالضعف والحاجة الى الحماية الاميركية ، ولم يحاولوا أن يفكروا بعقلية عبد الناصر .

وخابت امال هؤلاء المخططين ، وتهاوت كل توقعاتهم أمام القرار الذي اتخذه جمال عبد الناصر للرد على تلك الغارة التي استهدفوا من ورائها اظهاره بمظهر العاجز ، وأراد من خلال رده عليها تصميمه على مواجهة تحدياتهم وتحطيم أسوارهم وقيودهم وجبروتهم .

ــ كان القرار في ظاهره : التصميم على المشاركة في مؤتمر باندونج لتأكيد الاستقلال .

ــ وكان القرار في جوهره : السعي سرا من خلال لقاءاته في مؤتمر باندونج للحصول على السلاح من الاتحاد السوفياتي .

***

في طريقه الى اندونيسيا حيث أنعقد المؤتمر التاريخي في مدينة باندونج الجميلة الواقعة في منطقة جبلية دائمة الاخضرار ، حرص على أن يلتقي مع الزعيم الهندي الكبير جواهر لال نهرو في نيودلهي والاستجابة لدعوة كان قد تلقاها لزيارة الهند .

كانت هذه اول مرة منذ قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ يغادر فيها عبد الناصر ارض الكنانة ، ولذلك فانه اغتنم الفرصة لزيارة الهند وبورما لتوطيد علاقات مصر الخارجية مع الدول التي كانت الى سنوات قليلة مضت مثل مصر تحت السيطرة الاستعمارية . وكان هناك طموح مشترك لزعماء هذه الدول

حديثة الاستقلال هو : حماية الاستقلال وتدعيمه بالابتعاد عن التكتلات والاحلاف التي تتزعمها الدول الكبرى .

ومنذ اول لقاء قبلئذ في القاهرة كانت توطدت الصداقة بين عبد الناصر ونهرو . ولذلك فان الزعيم الهندي نظم لصديقه العربي استقبالا رسميا وشعبيا حارا ، وسافرا معا الى رانجون عاصمة بورما حيث كان في استقبالهما بالمطار يونو رئيس وزراء بورما والزعيم الصيني شوان لاي وزير خارجية الصين الشعبية انذاك .

كان رفض عبد الناصر الانضمام للاحلاف العسكرية الغربية منذ مايو ١٩٥٣ قد بدأ يبلور شخصيته على المستوى الدولي كزعيم ثوري يناضل ضد الاستعمار ، وبذلك بدا موقف الدول الاشتراكية والاحزاب الشيوعية يتغير تجاهه ، ولكن ببطء وحذر .

توقفت الاتهامات الشيوعية الطائشة التي كانت توجه ضده في الاسابيع والشهور الاولى من الثورة والتي استمرت اكثر من عامين حتى أواخر ١٩٥٤ .

واصبح هناك اعجاب بشخصيته ومواقفه عبر عنه شوان لاي بحرصه على استقباله في مطار رانجون .

ثم عبر عنه ثانية عندما طلب الاجتماع اليه في امسية ذلك اليوم الذي اصبح فيما بعد بداية تحول في التاريخ الحديث، وفي علاقات الدول حديثة التحرر والاستقلال بالدول الرأسمالية الاستعمارية من جهة والدول الاشتراكية من جهة أخرى .

لم يسبق تمهيد لاجتماع عبد الناصر وشوان لاي ، ولذلك فانه لم يكن يخطر على بال الزعيم الصيني أن الزعيم العربي سوف يثير معه موضوعا بالغ الخطورة والحساسية والتعقيد . .

كان شوان لاي مهتما بالتيارات والمناقشات المتوقعة في مؤتمر باندونج ، وكان يهمه أن يتعرف الى موقف عبد الناصر تجاه الموضوعات الرئيسية في جدول اعمال المؤتمر .. كما كان شديد الاهتمام باستكشاف امكانات التعاون بين الصين ومصر وتمهيد الطريق لاعتراف مصر بالصين الشعبية ..

اما عبد الناصر فان الشغل الشاغل له الى جانب اهتمامه بحل المشاكل الداخلية المتراكمة ، كان واستمر حتى لحظة وفاته ، القضية الفلسطينية وما تفرع عنها من مشاكل شديدة التعقيد يستحيل حلها بدون حل القضيه الاصل على اساس الحفاظ على عروبتها .

وكان اخطر ما نتج عن هذه القضية هو خلق اسرائيل واستخدامها قاعدة للاستعمار والامبريالية ضد حركة التحرر العربي .. وعلى الاخص ضد الثورة العربية بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

كانت اصداء الغارة الاسرائيلية على غزة والمعاني الكبيرة المتمثلة فيها تتردد في أعماق قلبه ووجدانه وفكره .. كان موقفنا قبلها انه لا يمكن مواجهة الخطر الاسرائيلي الا بجيش قوي حديث التسليح ، واصبح موقفنا بعدها أن الولايات المتحدة الاميركية لن تعطيه سلاحا يمكن أن يتكافأ مع السلاح المتوفر لاسرائيل .. وانه ما لم تتوازن القوتان المتواجهتان فان الثورة تبقى معرضة للضرب والتصفية في اية لحظة ..

وفي قياسه للامور ، ودراسته لموازين القوى العالمية ، والاحتمالات المتوقعة ، توصل الى نتيجة حاسمه هي : انه ما لم يحصل على السلاح من الاتحاد السوفياتي ويحطم الاسوار العالية المقامة بين الثورة العربية والكتلة الاشتراكية فان القدرة على الصمود تحت ضغط الاستعمار والامبريالية والصهيونية والرجعية تبقى محدودة .

لذلك فان جمال عبد الناصر اغتنم أول لقاء مع شوان لاي في

امسية ذلك اليوم من منتصف ابريل ليوجه اليه سؤالا مباشرا: « عما اذا كان يعتقد أن الاتحاد السوفياتي على استعداد ان يبيع السلاح الى مصر » (١) .

كان رد شوان لاي مشجعا ، فقد ذكر لعبد الناصر أن لدى الروس فكرة رفيعة حسنة عن الحكومة المصرية . ووعد بأن ينقل السؤال الى الاتحاد السوفياتي بعد ان رد عبد الناصر على تحذيراته من التعقيدات المحتملة لهذه الخطوة بانه مستعد لمواجهة كل التعقيدات .

★★★

كان الاهتمام بالغا بمؤتمر باندونج على المستوى العالمي ، فقد انعقد في احتدام الحرب الباردة بين المعسكرين ، وازدياد الضغط الاميركي لتدعيم وتوسيع حلف بغداد (٢) الذي كان قد أعلن قيامه في شهر فبراير قبيل الغارة الاسرائيلية على غزة .

كانت السياسة الاميركية واجهزتها الدعائية بارعة في ارهاب الشعوب واثارة أعصابها ووضعها في ظروف دائمة الاضطراب والتوتر والخوف من شبح الحرب الذرية ، مستهدفة جذب الدول الصغيرة والضعيفة للاحتماء تحت مظلتها .

وكان العالم يبدو انذاك منقسما الى كتلتين تتبادلان الاتهامات والانذارات ، وتعلنان كل يوم عن مدى ما حققته كل منهما في تطوير الاسلحة الذرية والفاعلية الفورية المخيفة لهذه الاسلحة في تدمير كل اثار الحياة والحضارة على الكرة الارضية ، لذلك فان الشعوب كانت تتابع ذلك المؤتمر باللهفة والدعاء ، متمنية له النجاح على أمل أن يخفف من حدة التوتر

---

(١) محمد حسنين هيكل . عبد الناصر والعالم ص ٧٧ .

(٢) ضم هذا الحلف بريطانيا وتركيا والعراق وايران وباكستان وسمي بعد الثورة العراقية عام ١٩٥٨ بحلف المعاهدة المركزية .

العالمي ويقيم من الدول المشتركة فيه منطقة عازلة تفصل بين الكتلتين العملاقتين المتناقضتين .

ورغم اطماع دولتي القمة الدولية في السيطرة واحتواء اية دولة تتحرر من الاستعمار التقليدي ، الا ان نظرة كل منهما لمؤتمر باندونج كانت مختلفة تماما عن نظرة الاخرى .فالولايات المتحدة الاميركية كانت تعتبر المؤتمر تحديا لها لانه سيدعم افكارا واتجاهات مناقضة لافكارها واتجاهاتها الاحتوائية . وكان الاتحاد السوفياتي بدأ يشجع اتجاه الحياد وبالتالي اتجاه المؤتمر لانه يؤدي الى فك ارتباط الدول حديثة التحرر والاستقلال بالمعسكر الراسمالي الاستعماري وخروجها من نطاق جاذبيته ، وعلى الاخص من نطاق جاذبية الامبريالية الاميركية ، ويفتح بذلك أبوابا واسعة للتعامل على مستويات مختلفة وفي مجالات متعددة بينه وبين هذه الدول .

ومما ضاعف من حساسية هذا المؤتمر بالنسبة للامبريالية الاميركية ان غالبية الدول المشتركة فيه أن لم تكن جميعها ، كانت الى ما بعد الحرب العالمية الثانية تحت السيطرة الاستعمارية المباشرة ، بل ان بعض الدول المشتركة في مؤتمر باندونج مثل مصر لم تكن عند انعقاده قد تخلصت من قوات الاحتلال ، كما أن غالبية الدول المشتركة فيه كانت ما زالت مرتبطة اقتصاديا باقتصاديات الدول الاستعمارية الغربية . وكان يهم الولايات المتحدة الاميركية ولا شك استمرار ذلك الارتباط ليسهل عليها التسلل وبسط نفوذها وممارسة نشاطها من خلال القنوات الاقتصادية وكان أسهل عليها بطبيعة الحال أن تتعامل على حدة مع كل دولة من هذه الدول المدعوة الى المشاركة في مؤتمر باندونج ، دون أن يكون هناك اي نوع من الروابط تشد هذه الدول الى بعضها البعض ويشجعها على التمرد والثورة والخروج من نطاق الجاذبية الراسمالية .

وكانت تقديرات الولايات المتحدة الاميركية ، أن مثل هذا

الخروج أو التحرر من نطاق الجاذبية الغربية سوف يفسد مخططاتها التكتيكية والاستراتيجية التي كانت موضع التنفيذ للسيطرة على كافة الدول التي كانت خاضعة للاستعمار التقليدي ، وأحكام الاحلاف العسكرية حول الاتحاد السوفياتي والكتلة الاشتركية .

لذلك فان النظرة الاميركية لمؤتمر باندونج كانت عدائية بوجه عام ، وكان أشد العداء موجها لجمال عبد الناصر لحساسية الوطن العربي ، موقعا وتأثيرا وامكانات نفطية وغيرها ، وأهمية مصر في قلب هذا الوطن ، وعلاقة ذلك كله بالمصالح الاستراتيجية الاميركية وخشيتها من ان لا ينحصر الامر في مجرد فتح ثغرة من جراء انفلات مصر وخروجها من نطاق الجاذبية الاستعمارية ، بل يتعداه بحيث تجذب مصر معها اقطارا عربية اخرى ، الامر الذي يضاعف من الاخطار المهددة للاستراتيجية الاميركية ..

كان الامر الطبيعي اذن أن يكون الاهتمام بمؤتمر باندونج على مستويات الشعوب والحكومات وحركات التحرر في العالم ، وأن يكون التركيز في هذا الاهتمام على جمال عبد الناصر ، ليس لانه فجر ثورة في أهم مناطق العالم ، وانما لانه في أهم هذه المناطق يجسد الرفض للاحلاف العسكرية ومخططات الاحتواء ، والتصدي للخطر الامبريالي الصهيوني الممثل في اسرائيل ، والصمود في وجه سلسلة متصلة من المؤامرات .

لقد كان مؤتمر باندونج هو أول احتكاك لعبد الناصر بالعالم وبعض عمالقته ، وأول ممارسة له في المؤتمرات الدولية .. وتمكن بافكاره التقدمية وافاقه الواسعة ، ومواقفه الثورية من أن يكون واحدا من هؤلاء العمالقة وفي مقدمتهم ، ونجح في أن يكون واحدا من ألمع رجال المؤتمرات الدولية والسياسة العالمية .

وجسد بها ضمير وفكر ووجدان الشعوب المناضلة من اجل الحرية والتقدم ، المتطلعه الى افاق المستقبل ..

وكان عبد الناصر بهذا الحرص على أن تكون كلماته العاكسة لافكاره منسجمة تماما مع مواقفه ، أو بالعكس ، واحدا من القلائل من رجال السياسة والحكم الذين عرفتهم الشعوب ، كما انه بالاشتراك مع شوان اي ونهرو وسوكارنو ساهم مساهمة بارزة في تذليل العقبات التي اعترضت اعمال المؤتمر ، ولعب دورا كبيرا في بلورة مبادئه وافكاره ، وتهيئة عوامل النجاح له ، فكان من الطبيعي أن يلقى التقدير والاحترام لذلك ، وان يتم اختياره رئيسا للجنة تصفية الاستعمار ، وكانت أهم لجان المؤتمر .

ومن اجل أن يضع اعمال هذه اللجنة في الاتجاه الصحيح، استهل اجتماعاتها بالتأكيد على أن معركة الحرية في العالم واحدة ، وأن خطر الاستعمار على الشعوب واحد ، وان مصر الثورة في ضوء ذلك تتعهد بشن الحرب بكل ما لديها من طاقات ووسائل على الاستعمار والسيطرة الاجنبية ، وان تكشف الاقنعة كلها التي قد يختفي الاستعمار وراءها أو يتستر بها ، محاربة اياه في مواقعه والقلاع التي يحتمي بها.

ولقد أقر المؤتمر بناء على توصية لجنة تصفية الاستعمار التي رأسها عبد الناصر : ان ترتبط الدول الاعضاء في مؤتمر باندونج بالنضال المقدس ضد الاستعمار . وأن تعلن معارضتها لوصول الحرب الباردة وتسللها الى القارتين الاسيوية والافريقية . وكان معنى ذلك في الواقع :

دفع دول باندونج الى التصادم المباشر مع الدول الاستعمارية ورفض الاحلاف العسكرية ، وعلى الاخص ، الاحلاف العسكرية الغربية التي كانت تتزعمها الولايات المتحدة الاميركية ، وذلك أن حلف وارسو لم يكن يسعى الى استدراج اية دولة لعضويته من خارج المعسكر الشيوعي .

وانهى مؤتمر باندونج أعماله باعلان المبادىء العشرة التي ارتكزت على : الحياد الايجابي ، ومحاربة الاستعمار بكل اشكاله ومظاهره ، والتعايش السلمي بين كافة الانظمة على أساس الاحترام المتبادل وعدم التدخل في الشؤون الداخلية.

★★★

• واذا كان عبد الناصر قد لعب دورا عظيما في نجاح مؤتمر باندونج فان هذا المؤتمر هيأ الفرصه لعبد الناصر لكي يأخذ مكانه في مقدمه العمالقة الذين التقوا في باندونج..

واذا كان الاشتراك في مؤتمر باندونج استهدف في الدرجة الاولى تأكيد استقلال مصر وتصميمها على ممارسة ارادتها، فان الوصول المبكر الى مقدمة صف العمالقة كان يعني بالنسبة لعبد الناصر موجهة مسؤوليات وتحديات اكبر من مجرد ممارسة الاستقلال ، وبالتالي اكبر من اية مسؤوليات وتحديات بات يواجهها غيره من العمالقة ..

أن نهرو في الهند ، وشوان لاي في الصين ، وسوكارنو في أندونيسيا كان كل منهم يواجه مسؤوليات وتحديات ضخمة ولا شك ، ولكنها كانت بكل تأكيد اقل حجما وخطرا من تلك المسؤوليات والتحديات التي تحتم على عبد الناصر ان يواجهها .. السبب يرجع الى طبيعة منطقة الشرق الاوسط وحساسيتها البالغة بالنسبة للاستعمار البريطاني والفرنسي والامبريالية الاميركية والصهيونية العالمية والرجعية العربيه ، والامال المناقضة لمصالح كل هؤلاء التي تناضل جماهير الامة العربية من اجل بلوغها ، وتسعى جاهدة في البحث عن بطل يتولى قيادة نضالها .

ان ممارسة الاستقلال بحد ذاته بالنسبة للدول الادنى من القمة الدولية أمر بالغ الصعوبة ، وتكلف كثيرا ، فكيف يكون الحال اذن بالنسبة للدول الصغيرة المتخلفة .. بل كيف يكون بالنسبة لجمال عبد الناصر الذي لم يواجه مسؤولية ممارسة الاستقلال فحسب ، انما واجه معها مسؤولية محاربة

الاستعمار في اهم مناطق العالم حيوية للاستعمار والامبريالية والصهيونيـــة .
أن الصين الشعبية اضطرت الـــى الصــدام مع الاتحاد السوفياتي عندما قررت ممارسة استقلالها وارادتهابالكامل.
ولم تتمكن الهند ، رغم الدور التاريخي والمكانة الكبيرة التي كان يتمتع بها جواهر لال نهرو ، من فك ارتباطها الاقتصادي بالكومنـــــولث .

ولم يواجه سوكارنو ضخامة المسؤوليات والتحديات التي تحتم على عبد الناصر ان يواجهها .

أن الصين الشعبية لم تكن على عجلة من امرها لاسترداد جزيرة تايوان المعروفة باسم « فرموزة » والجــزر الصغيرة المحيطة بها التي كان تشان كاي تشيك قد اتخذها مــلاذا اخيرا له ولبقايا جيشه والكثيرين من الاقطاعيين والبرجوازيين الهاربين معه ، وجعلها دولة الصين الوطنية في حمايـــة الولايات المتحدة الاميركية ، فلقد كان الزعيم الصيني ماوتسي تونغ موقنا بأن تصفية الحكم العميل في تايوان واستعادتها مسألة وقت ليس الا ، وكانت الولايات المتحدة الاميركيةالتي لم تكن قد نسيت مرارة وقسوة الاشتباك المسلح مع القوات الصينية في كوريا ، منهمكة في تدعيم تشيان كاي تشيـك وتحويل تايوان الى قاعدة تامر ضد الصين الشعبية وأحكام الرقابة البحرية حول شواطئها ... وكانت العلاقات الصينية السوفياتية حسنة اذ لم يكن الصدام العقائدي الناتج أصلا عن تعارض النزعات والمصالح القومية قد تفجر بينهما بعد . بذلك فان الصين الشعبيه كانت بعيدة عن الضغط المكثف من جانب الامبريالية الاميركيه ، واستغلت ذلك في الاستفـــادة من طاقتها البشرية الهائلة لتحقيق تقدم سريع واعادة بنـــاء المجتمع الصيني على الاسس الشيوعية ، وتركيز اهتمامها على دعم قوات التحرير الشعبية التي كانت تقاتل الاستعمار الفرنسي في جنوب شرق اسيا الذي كان يقترب بسرعة من

نهايته .. وكانت مخططات الولايات المتحدة الاميركية جاهزة لوراثة الفرنسيين في المناطق التي لم تكن قد سقطت في يد الشيوعيين ، واستخدام هذه المناطق لحصار الصين الشعبية ومنع امتدادها جنوبا .

ورغم أن الامبريالية الاميركية تورطت فيما بعد في الحرب الفيتنامية ، الا أن أهمية جنوب شرق اسيا لم تكن في يوم من الايام في مستوى الوطن العربي بالنسبة لاستراتيجية الولايات المتحدة الاميركية .

ثم ، أن الهند بزعامة نهرو كانت مشغولة بمشاكلها الداخلية والمتراكمة ، ونزاعها مع باكستان حول مشكلة كشمير وحلف بغداد ، ولكنهما رغم ذلك كانتا عضوين في الكومنولث البريطاني . ولم تكن الهند بذلك متورطة في معارك مع الاستعمار ، ولعل موقعها وانشغالها بالمشاكل المعقدة التي خلفها وراءه الاستعمار البريطاني وطبيعة حكمها الليبرالي غير الثوري جعلها بعيدة نسبيا عن الاخطار والتحديات الامبريالية الاميركية .

كذلك الحال بالنسبة لاندونيسيا اذ لم يكن يشغلها غير صراعها بزعامة سوكارنو مع بقايا الاستعمار الهولندي في جزيرة ايريان الغربية ، ومشاكلها الاقليمية مع الملايو «ماليزيا» ، الى جانب المشاكل الداخلية التقليدية التي خلفها الاستعمار وراءه .

ورغم أن الولايات المتحدة الاميركية كانت طامعة في احتواء اندونيسيا وتعارض بشده سياسة سوكارنو الخارجية والداخلية على السواء وانجذابه نحو الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية ، الا أنها بحكم موقع أندونيسيا قد تعاملت معها بسياسة النفس الطويل ، مؤثرة احكام الحصار من حولها ، مستغلة وجود الاستعمار البريطاني في الملايو (ماليزيا) وسنغافورة ، ووجود الفلبين تحت سيطرتها المباشرة ، وكذلك استراليا العضو في حلف جنوب شرق

اسيا ، والاكتفاء بتدبير المؤامرات والمتاعب ضد سوكارنو.

هذه نماذج تعكس لنا حال اكبر ثلاث دول شاركت في مؤتمر باندونج .. كانت ضرورية للقياس بين ما كان يواجهه عمالقة العالم الثالث وما كان يتحتم على العملاق العربي الجديد أن يواجهه .

***

ان مصر الواقعة في قلب الوطن العربي ، الواقع كله انذاك تحت الاحتلال الاستعماري والسيطرة المباشرة او غير المباشرة ، الذي أقيمت فيه على جزء من الوطن العربي الفلسطيني دولة غريبة عنصرية لتفصل لاول مرة في التاريخ الامتداد الجغرافي بين مصر والمشرق العربي ..

مصر هذه بموقعها ومكانتها ومسؤولياتها ، فرضت على جمال عبد الناصر ، لانه قائد ثورة ، أن لا ينكمش على نفسه ويغلق الابواب عليه وينشغل في معالجة مشاكل مصر الداخلية ..

ان مصر الثورة في قلب الوطن العربي ، بفعل ما لهذا الوطن من اهمية استراتيجية بموقعه وموارده النفطية ، اخطر على الاستعمار والامبريالية من الصين الشعبية عام ١٩٥٥ ، ذلك لان الصين الشعبية وقتئذ كانت قد استقرت دولة شيوعية متناقضة مع الهند وباكستان في الجنوب الغربي واليابان شرقا ، ومحاطة بحزام من القواعد الاميركية شرقا وجنوبا وغربا . ولم يكن الاستعمار ولا الامبريالية الاميركية على استعداد لان تسمح لثورة ٢٣ يوليو بالاستقرار والنمو داخل مصر ناهيك عن امتدادها في ارجاء الوطن العربي . ولم تكن الهند بزعامة نهرو ، ولا اندونيسيا بزعامة سوكارنو بحكم موقعها تشكلا ما تشكله مصر الثورة بزعامة جمال عبد الناصر من اخطار على الاستعمار ومصالحه الاستراتيجية.

لذلك ، فان المسؤوليات التي تحتم على عبد الناصر ان

يتحملها ويواجهها كانت أكبر من تلك التي تحتم على عمالقة اكبر ثلاث دول اشتركت في مؤتمر باندونج أن يتحملوهـا ويواجهوهـا ..

لم تعد المشكلة أمام عبد الناصر هي تأكيد استقلال مصر وممارسة سياسة داخلية وخارجية نابعة من المصالح الوطنية المصرية .. ولكن المشكلة الرئيسية هي ان الاستعمار لا يريد ان تكون في مصر ثورة ، وعبد الناصر كان مصمما على ان تبقى الثورة وان تنمو ، وأن يصفي الاستعمار وينتهي من كل الوطن العربي ، لان وجوده ، بالاحتلال ، او بالسيطرة غير المباشرة ، يشكل تهديدا للثورة ومنجزاتها داخل مصر .

كان عبد الناصر قبل مؤتمر باندونج ، وقبل ان يتخلص من قوات الاحتلال البريطاني بدأ الاشتباك مع الاستعمار . تمثل ذلك بشكل رئيسي في توفير الامكانات اللازمة لتفجير الثورة في الجزائر في يوليو ١٩٥٤ ودعم حركات التحرر في تونس والمغرب ، وكان ذلك يعني الاشتباك المسلح مع الاستعمار الفرنسي . كما تمثل في بدء الاتصال بحركات التحرر في المشرق العربي ودعمهابكل الامكاناتالتي تحتاج اليها لتصعيد نضالها . وكان ذلك يعني الاشتباك مع الاستعمار البريطاني. والتناقض الحاد في الحالتين مع السياسة الاميركية وتهديد مصالحها الاستراتيجية .

وبعد مؤتمر باندونج ، كان عبد الناصر أصبح عملاقا بارزا في العالم الثالث .. وقد شاءت الاقداروالظروف التاريخيةأن يتحمل المسؤولية الكبرى في ارساء وتجسيد وترسيخ مبادىء الحياد الايجابي وعدم الانحياز ، فلم يتعرض أي زعيم من زعماء العالم قاطبة ، ما تعرض اليه عبد الناصر من حروب دامية ساخنة ، وحروب نفسية ومؤامرات اجرامية استهدفت حياته بالسم ، واستهدفت حياة الشعب العربي المصري بالتجويع وحرمانه من الدواء .. ومع ذلك ، وفي أشد ساعات الخطر ولحظات المصير ، تمسك بالحياد الايجابي وعـدم

الانحياز ليؤكد للشعوب قدرتها على ممارسة استقلالهاو الدفاع عنها ، ثم ليفتح بذلك عهدا جديدا في العلاقات الدولية قائما على اسس ومبادىء مؤتمر باندونج .

لقد كان من السهل جدا ، كما هي العادة في المؤتمرات الدولية والثنائية ، أن يتخذ مؤتمر باندونج قرارته ويعلن مبادئه العشرة . ولكن القيمة الفعلية لم تكن ابدا في اصدار القرارات واعلان المبادىء ، وانما كانت دوما في الالتزام بها والقدرة على تنفيذها . وهذا ما قام به عبد الناصر التزاما شجاعا وتنفيذا باقتدار فذ .

لقد كان يعني كل كلمة قالها يوم ١٩ مايو ١٩٥٥ بعد عودته من مؤتمر باندونج في اول لقاء له مع جماهير الشعب :
« انني لم اترك هذا الوطن ولم اغادره الى المناطق البعيدة، الا من أجل تحقيق اهدافكم ، وتثبيت مبادئكم ، واشعار العالم اجمع ان مصر اليوم لها كيان مستقل وشخصية مستقلة ، وانها حينما تتصرف من وحي هذا الاستقلال انما تتصرف في الداخل وهي كاملة الاستقلال ، وفي الخارج وهي تشعر انها كاملة الاستقلال » .

« لقد ذهبت لاعلن باسمكم ان مصر بعد ان ذاقت طعم الحرية ستعلن رايها مستقلا في سبيل الاستقلال وفي سبيل الحرية وفي سبيل تحرير الشعوب والانسان » .
كان معنى هذا القول : أن مصر لم تعد قطعة شطرنج يتحكم بحركتها الاستعمار البريطاني . وانها ترفض أن تصبح قطعة شطرنج في يد الذين يتطلعون الى وراثة بريطانيا وفرنسا وغيرهما من الدول الاستعمارية .

بل ان هذا القول ، بممارسته الفعلية والالتزام الصادق به ، وانعكاساته المستقبلية على الاقطار العربية والدول الافريقية والاسيوية انهى حقبة طويلة من التاريخ كانت الشعوب فيها قطعا صغيرة في لعبة الشطرنج يحركها الاستعماريون

حسب اهوائهم ومصالحهم .

ان العدوان الثلاثي البريطاني الفرنسي الاسرائيلي الذي استهدف عبد الناصر وثورة ٢٣ يوليو كان اكبر تحد للحياد الايجابي .

كانت هناك مبررات كثيرة لو ان عبد الناصر وهو يواجه لحظة الخطر والمصير انحاز قليلا نحو الاتحاد السوفياتي أو نحو الولايات المتحدة الاميركية لانقاذ الثورة من العاصفة المدمرة الدامية الهوجاء التي هبت عليه .. ولكنه لم يفعل ذلك معتمدا على صمود الشعب العربي المصري وتأييد جماهير الامة العربية والقوى المحبة للسلام في العالم ، لايمانه القوي بأن الانحياز يعني نهاية الثورة ، واشرف الف مرة للثورة أن تسقط وهي تقاتل من أن تسقط بالاحتواء .

واذا كان مما لا شك فيه أن جمال عبد الناصر هو القائد المظفر لذلك النصر التاريخي ، فانه مما لا شك فيه أيضا، ان ذلك النصر الذي حققه صمود الشعب العربي المصري وبطولته في المقاومة بقيادة عبد الناصر كان انتصارا لمبادىء مؤتمر باندونج . ولقد حرص عبد الناصر على أن يؤكدذلك في الذكرى الاولى لهزيمة العدوان الثلاثي ، فقال في احتفالات عيد النصر في بورسعيد في ٢٣ ديسمبر ١٩٥٧ :

« اليوم في بورسعيد نتجه الى العالمكله ، ونطالب بتثبيت قواعد العدالة وحق تقرير المصير ، نتجه من بورسعيد للعالم كله ، ونطالب بأن تعطىكل دولة مستعمرة استقلالها لتحكم نفسهابنفسها،ونطالب بالقضاء علىالتمييز العنصري فيافريقيا . وأن يكون لاهل افريقيا حق مساو لجميع السكان الموجودين في بلدهم .

« ومصر تطلب اليوم من العالم كله ، ان يعمل بكل طاقته من أجل دفع شبح الحرب . ننظر اليوم من بور سعيد للعالم ، ونجد ان المحاولات التي بذلت لاعطاء اسلحة ذرية

لدول أكثر ، ولتخزين الاسلحة الذرية في أوروبا وفي تركيا.. نقول أن هذا يعتبر تهديدا لنا . وأن مصر أيها الاخوة رغم ما قاسيناه تتبع سياسة عدم الانحياز. سياسة الحياد الايجابي، لكن توسع معسكر السلام .. لان العالم اذا انقسم الى معسكرين واصبحت دول العالم منقسمة ، جزء منها مع هذا المعسكر وجزء مع المعسكر الاخر فلا بد أن تقوم الحرب ولا بد أن تقاسي البشرية الاهوال » .

ان العدوان الثلاثي لم يكن هو الاختبار الوحيد لمبادىء مؤتمر باندونج التي تحمل عبد الناصر المسؤولية التاريخية في تثبيتها وتحديد مفهومها وأبعادها وسلوكها الدولي .. كانت قبله وامتدت الى ما بعده معركة بناء السد العالي ، وكانت حرب التجويع التي شنتها الولايات المتحدة الاميركية عام ١٩٦٤ ، ثم كان العدوان الامبريالي الصهيوني عام ١٩٦٧ ، وكانت النكسة والظروف القاسية التي احاطت بها واعقبتها.. ثم كانت معركة الصمود واعادة بناء القوات المسلحة ..ورغم دقة المواقف التي واجهها عبد الناصر في كل منها الا أنه لم يتخل للحظة واحدة عن مبدأ الحياد الايجابي ولا عن مبدأ محاربة الاستعمار . بذلك فانه كان كما قال عنه الزعيم الهندي الراحل جواهر لال نهرو أحد عمالقة ما بعد الحرب العالمية الثانية :

« لا ريب في أن الرئيس عبد الناصر ، من الرجال القلائل الذين حولوا مجرى التاريخ » .

★★★

الفصل السادس

التحدي التاريخي

لم يكن جمال عبد الناصر شيوعيا عندما قرر الحصول على
'سلحة من الاتحاد السوفياتي ، ولا كان يهدف من وراء
ـاره التاريخي ذلك أن يفتح أبواب مصر والوطن العربي
نفوذ السوفياتي والنشاط الشيوعي او للصراع بين دولتي
قمة والمعسكرين الغربي الاستعماري والشرق الاشتراكي ،
انما كان بذلك القرار يؤكد استقلال مصر وحقها في الحصول
لى الاسلحة الحديثة التي تكفل لها الدفاع عن ثورتها وأمنها
استقرارها وسلامة أراضيها ، وتمكنها من تأديه مسؤوليتها
قومية تجاه حركات التحرر المناهضة للاستعمار في الوطن
ـعربي .

ان الحصول على الاسلحة السوفياتية فتح ابواب التعاون
الصداقة بين مصر ومن بعدها الاقطار العربية وبين الاتحاد
لسوفياتي والبلدان الاشتراكية ، ولم يسمح عبد الناصر لاي
نشاط للشيوعيين في مصر أو في الجمهورية العربية المتحدة
عدئذ في ظل هذا التعاون .. بل انه عندما بلغ هذا التعاون
داه بعد النكسة عام ١٩٦٧ واقتضت الظروف أن يكون على
لارض العربية المصرية اكثر من خمسة عشر الفا من الخبراء
لسوفيات لم يعط للاتحاد السوفياتي اية امتيازات ماسة
السيادة الوطنية واحتفظ بحق انهاء عمل هؤلاء الخبراء .
وقد مارس هذا الحق الرئيس أنور السادات في شهر يوليو
من عام ١٩٧٢ فانهي وجودهم بقرار ، ولم يتردد الاتحاد
السوفياتي في سحب خبرائه العسكريين خلال اقل من اسبوع ،
استجابة لذلك القرار ، الامر الذي يؤكد أن جمال عبد الناصر
لم يفتح أبواب مصر للنفوذ السوفياتي وانما فتح أبواب
مصر للتعاون والصداقة مع الاتحاد السوفياتي واية دولة ترغب
في التعاون الصادق مع مصر على أساس الاحترام المتبادل
والمصالح المشتركة ودون التدخل في الشؤون الداخلية .

ولو لم تكن هناك صفقة الاسلحة فانه كان لا بد من أن يتجه جمال عبد الناصر نحو الاتحاد السوفياتي ، أو على الاقل ان يهيء المناخ الملائم للالتقاء بينه وبين الاتحاد السوفياتي ما دام ملتزما بسياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز ، ذلك لان الاتحاد السوفياتي هو احد دولتي القمة الدولية ويمثل وزنا كبيرا في المجتمع الدولي ، وليس من معاني الحياد الايجابي ولا من مصلحة الدول النامية حديثة التحرر والاستقلال أن تعزل نفسها عن احد المعسكرين أو تقيم سدودا بينها وبين احدى دولتي القمة ، لانها لو فعلت ذلك تكون هدمت معاني الحياد الايجابي وفرضت على نفسها أن تكون تحت رحمة المعسكر الاستعماري الامبريالي .

واذا كانت شاءت الظروف أن تكون صفقة الاسلحة هي بداية التعاون والصداقة بين عبد الناصر والاتحاد السوفياتي، فان المسؤولية في ذلك تتحملها الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا وفرنسا . ولعل الولايات المتحدة تتحمل العبء الاكبر من هذه المسؤولية :

● لانها هي التي قادت حملة ارغام الامم المتحدة على اقرار مشروع تقسيم فلسطين في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ ، الذي قامت دولة اسرائيل بموجبه في ١٥ مايو ١٩٤٨ ، ثم هي التي وفرت لاسرائيل اسباب البقاء والعدوان منذ ذلك الحين .

● ولانها رفضت بيع الاسلحة لعبد الناصر في حين كانت فرنسا وبريطانيا بتأييد منها ولا شك تزودان اسرائيل بالاسلحة الحديثة .

● ولانها كانت تستهدف احتواء عبد الناصر أو اشراكه في احلافها العسكرية وانهاء الثورة التي قادها .

● ولانها كانت مصممة على عدم تمكين عبد الناصر من تحقيق المشاريع الانمائية والانتاجية التي كان ينشدها لحل المشاكل الداخلية الاقتصادية والاجتماعية ورفع مستوى

المعيشة للطبقات الفقيرة الكادحة التي عانت من الحرمان والظلم اجيالا طويلة متعاقبة .

ولم يكن السعي وراء الاسلحة السوفياتية عملا انفعاليا ، ولا عفويا ، وانما كان سعيا مدروسا اقتضته الظروف واوجبته مقتضيات الدفاع عن النفس والحق . فعندما فوجىء شوان لاي بسؤال عبد الناصر له في اول اجتماع لهما في رانجون مساء الخامس عشر من ابريل ١٩٥٥ : عما اذا كان الاتحاد السوفياتي على استعداد لبيع السلاح لمصر . . كان رده مشجعا ، ولكنه وهو المتمرس في السياسة الدولية والمدرك بالتالي لخطورة الاقدام على مثل هذه الخطوة وما يمكن أن يترتب عليها من نتائج ، حاول أن يجعل عبد الناصر يعاود التفكير في الامر من خلال ما بين له من التعقيدات المتوقعة وردود فعل الدول الاستعمارية الامبريالية . ولكن رد عبد الناصر بانه مستعد لمواجهة كل التعقيدات يدل دلالة قاطعة على ان هذا الموضوع كان موضع الدراسة المستفيضة، وان اتخاذ القرار بشأنه كان مسؤولية تاريخية لم يكن امام عبد الناصر غير أن يتحملها رغم ما فيها من مجازفة خطيرة .

ولكن عدم الاقدام على هذه الخطوة ، واتخاذ ذلك القرار، كان ايضا مجازفة خطيرة . اذ كان المعنى الحقيقي لعدم الحصول على الاسلحة من الاتحاد السوفياتي هو سقوط الثورة او استسلامها للاحتواء تحت المظلة الامريكية . ولم يكن هناك بديل اخر .

بذلك فان عبد الناصر كان يواجه مجازفتين ، وعليه ان يختار واحدة منهما :

اما أن يبقى بدون سلاح مع ما يحمله من مخاطر اجهاض الثورة وتفريغها وتحويلها الى انقلاب .

واما أن يحصل على السلاح من الاتحاد السوفياتي مع ما يحمله ذلك من مخاطر انقضاض الاستعمار على الثورة وفي

هذه الحالة يتحتم أن تشق طريقها وسط الصعاب فيشتد عودها وتصبح أقدر على تحقيق اهدافها .

وعندما واجه عبد الناصر هذا الخيار الصعب لم يتردد في ان يختار ما يؤكد للمواطن العربي ، داخل مصر وخارجها ، بان ثورة ٢٣ يوليو احدثت تغييرا جوهريا في نوع الحكم واسلوبه . وان مصر بعد هذهالثورة تختلف اختلافا جذريا عن مصر قبلها .. والا فكيف يمكن أن يقتنع المواطن العادي بأن هناك ثورة فعلية وان هناك استقلالا فعليا وممارسة حقيقية لهذا الاستقلال !

ولم يكن امام عبد الناصر الا ان يختار الطريق الصعب انسجاما مع ايماننا بما قاله : « طريق النصر مخاطرة .وطريق النصر تضحيات . وطريق الامال الكبرى بذل كبير ، والا فان الشعوب ترضى على نفسها بالجمود وتقبل بالتخلف لانها لا تستطيع ان تتحرك ولا تقبل بالمخاطرة ولا تقبل على الحياة حلوها ومرها » .

لقد كان السلاح ضروريا للثورة ليس لحماية نفسها من إعدائها التقليديين في الداخل ، فمثل هذه المهمة في بلد مثل مصر يمتاز شعبها بحبه للاستقرار لامتياز طبيعته الجغرافية بانعدام الجبال والغابات ، يمكن أن تقوم بها بسهولة قوات الامن المزودة بأسلحة خفيفة .. ولكنه كان ضروريا لحماية الثورة من اعدائها في الخارج الذين اثبتت الاحداث والوقائع بعدئذ عدم ترددهم في الانقضاض عليها بكل الاسلحة والامكانات .. ناهيك عن ضرورة السلاح للثورة لكي تؤدي مسؤوليتها القومية في دعم حركات التحرر ضد الاستعمار .

وكانت الدول الغربية الاستعمارية وعلى الاخص بريطانيا وفرنسا واميركا ، هي المصدر الرئيسي للسلاح ، ليس للدول العربية فحسب ، بل لجميع دول العالم خارج الكتلة الشرقية الشيوعية . فكان هناك بذلك احتكار في تجارة

الاسلحة يفوق في احكامه وشدنه كل انواع الاحتكارات الاخرى التي عرفتها الشعوب في تطور التجارة الدولية .

وبسبب هذا الاحتكار الرهيب ، فان ميزان التسلح بـدأ يميل لمصلحة اسرائيل منذ قيامها .. ولم تكن الانظمة العربية قـادرة على أن تفعل شيئا لتعديل وضع ذلك الميـزان او مواجهة التحدي الاسرائيلي المتصاعد . فعلى الرغم مـن تبعيتها للدول الاستعمارية ، فانها لم تكن تقدر ، على فرض انها ارادت ذلك ، أن تحصل على السلاح من مصادر اخرى، لان هذه المصادر الاخرى ، تعني الكتلة الشرقية وعلى الاخص الاتحاد السوفياتي ، ولم تكن تلك الانظمة تجرؤ على اقامـة علاقات دبلوماسية ودية معه او مع اي من الدول الشيوعيه، فكيف كان يمكنها ان تتحدى اولياء نعمتها وتقفز مرة واحدة الى ما هو اخطر بكثير من العلاقات الودية ! لم تكن تلـك الانظمة مؤهلة لشيء من ذلك على الاطلاق .

ولو أن عبد الناصر ارتضى ان يبقى اسير ذلك الاحتكـار الرهيب لما تمكن من ان يستمر بالثورة ، بل ولكان تساوى مع تلك الانظمة في العجز وعدم القدرة على تحدي الاحتـكار الاستعمـار .

وعندما رفض ان يتساوى مع هؤلاء الحكام ، من رؤساء وملوك ، منذ ان رفض أن يكون انقلابيا اقليميا ، فانه اتـجه بطبيعة الحال للحصول على السلاح . ولم يكن اتجاهه نحو الاتحاد السوفياتي الا بعد محاولات مضنية فاشلة للحصول على السلاح من الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا استغرقت مدة عامين ونصف العام بذل خلالها جهدا كبيرا ، واستغـل اثناءها كل المناسبات للالحاح على المسؤولين الاميركييـن بالذات ، والانجليز الذين قابلوه واجتمعوا اليه ، للموافـقة على بيع الاسلحة التي يحتاج اليها الجيش المصري .

وكان عبد الناصر يفضل الاسلحة الغربية علـى الاسلحة

السوفياتية لان الجيش المصري كان معتادا على الاسلحة الانجليزية منها بالذات ، وكانت ثقافته العسكريه انجليزية ايضا وبالتالي فانه كان اقدر على استيعاب الحديث منها بسرعة اكبر ، اذ ان عدم الالمام المسبق باللغة الروسية الى جانب الاختلافات النوعية والهندسية المحتملة في الاسلحة السوفياتية كان يجعل المفاضلة في مصلحة الاسلحة الغربية.

ثم ان عبد الناصر لم يكن يعرف بالتحديد انواع الاسلحة المتوفرة في مخازن الاتحاد السوفياتي ، ولكنه كان يقدر بثقافته العسكرية ، انه لا بد من ان يكون لدي الاتحاد السوفياتي ، كدولة كبرى تواجه تحديات ضخمة ، من الاسلحة المتطورة ما يضاهي الاسلحة الاميركية ويتفوق على الاسلحة البريطانية والفرنسية .

الى جانب ذلك ، فان عبد الناصر رغم ايمانه بأهمية اقامة علاقات متينة مع الاتحاد السوفياتي انسجاما مع مبادىء الحياد الايجابي وعدم الانحياز والتعايش السلمي ، الا انه لم يكن يفضل أن تكون البدايه بصفقة الاسلحة في وقت كانت الحرب الباردة قد انتقلت الى منطقة الشرق الاوسط بسبب الاحلاف العسكرية ، وقبلها بسبب الصراع العربي الصهيوني والاعتداءات الاسرائيلية المتكررة على خطوط الهدنة العربية، ثم في وقت لم تكن فيه القوات البريطانية قد اكملت جلاءها عن منطقة قناة السويس ، ذلك لانه كان يعلم شدة التعقيدات التي ستنتج عن الصفقة ومدى انعكاساتها على موقف الدول الغربية الاستعمارية والانظمة العربية الرجعية الاقليمية منه .

ولكنه لم يكن أمامه خيار غير ذلك بعد ان تكشفت ، من خلال موضوع الاسلحة ، حقيقة نوايا الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا وفرنسا وبقية الدول الغربية الاستعمارية تجاهه .
لقد كان يريد السلاح من أجل أن تصبح الثورة قادرة على حماية نفسها والدفاع عن حدود الوطن .

وكانوا يريدون السلاح قيدا يشل ارادة الثورة ويحولهـا
ى انقلاب ويجرها الى حظيرة المعسكر الغربي .
وكان مما لم يكن منه بد بعد تجربة قاسية مرهقة .

★★★

كانت تقديرات السياسة الامريكية ان ثورة ٢٣ يوليو فـي
جاهها نحو انهاء الاحتلال البريطاني لمصر سوف تكون مهيأة
احتواء من جانب الولايات المتحدة الامريكية ، لان قادتـها
سوا شيوعيين ، وانهم بالتالي سوف يتجهون نحو واشنطن
سب ثقتها وتأييدها ، وبذلك تكون هناك فرصة نـادرة
سيطرة على اهم موقع مؤثر في الوطن العربي .
ولكن ما لم يكن في تقديرات السياسة الامريكية ان جمـال
بد الناصر سوف لا يكون اداتها الطيعة لتنفيذ مخططهـا
رامي الى تصفية القضية الفلسطينية بتثبيت وجود اسرائيل،
انه سوف يطالبها ببيعـه اسلحة ثقيلة دون قيد أو شـرط
واجه بها اسرائيـل !

والسياسة الامريكية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى
يمنا هذا ترمي الى هدفين رئيسيين في هذه المنطقة الحيوية
ـن العالـم :
الاول : خلق دولة اسرائيل (وقد تحقق هذا في ١٥ مايـو
١٩٤٨ على اساس مشروع التقسيم) ومن ثم تثبيت وجودها
ارغام الدول العربية على الصلح معها والاعتراف بـها
بحـدود امنة لها !

الثاني : احتواء الوطن العربي بانتزاعه من الاستعماريين
البريطاني والفرنسي على اساس أنها تعتبر نفسها الوريث
الشرعي لهما والامتداد التاريخي المتطور للاستعمار العالمي.
ولقد كان عبد الناصر العقبة الكأداء التي اصطدمـت بها
السياسة الامريكية ولم تتمكن من التغلب عليها أو تجاوزها . .
وكان موضوع شراء الاسلحة هو المحك الذي كشف النوايا

الاميركية واهدافها ، وكذلك النوايا البريطانية والفرنسية . ثم الى جانب ذلك ، كشف اخطر انواع الاحتكارات العالمية وابشع اساليب التحكم بمقدرات الشعوب .

لقد تحقق الجانب الاول من التوقعات الاميركية .. اما الجوانب الاخرى فقد ثبت قصر نظرها وفشلها .

ان عبد الناصر في ضوء تقديراته للموقف الدولي والعربي الداخلي انذاك وجد أن الشيوعيين يهاجمونه ويقفون مع الرجعية ضد الثورة ، ثم وجد انه ليس امامه للحصول على السلاح غير الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا .. وكان منذ البداية يستبعد فرنسا بسبب تورطها المبكر في صفقات اسلحة لاسرائيل ، ثم بسبب التناقض المبكر معها الناتج عن تاييده لحركات التحرر العربي في تونس والمغرب والجزائر التي كانت تستعمرها وتحتلها بقواتها العسكرية .

كان موضوع الاسلحة من اهم الموضوعات التي اهتم بها عبد الناصر اهتماما خاصا مبكرا ليس فقط للوفاء بما التزمته الثورة في المبادىء الستة التي اعلنتها يوم قيامها وكان احدها: بناء جيش قوي ، وانما من أجل ان تصبح الثورة قادرة على مواجهة التحديات الخارجية وفي مقدمتها العدوان الاسرائيلي.

وعندما قرر السعي مبكرا للحصول على الاسلحة فانه اتجه بالفعل الى الولايات المتحدة الاميركية ، وهذا هو الجانب الوحيد الذي تحقق من التقديرات والتوقعات الاميركية .. ولكن اميركا لم تكن تتوقع ان يكون موضوع الاسلحة هو اول واهم الموضوعات التي يثيرها معها عبد الناصر .

كان الامر مفاجئا للاميركيين عندما طلب عبد الناصر منهم في الايام الاولى للثورة ان يزودوه بالاسلحة .. كان الامر بالنسبة لهم مثيرا للدهشة حقا ان يكون هذا الاهتمام المبكر بالاسلحة. وكان ردهم عليه مثيرا للدهشة ايضا فقد اشاروا الى ان هناك اتفاقية سرية تم توقيعها في شهر فبراير ١٩٥٢ بعد

حريق القاهرة بايام قليلة تزود الولايات المتحده الاميركية مصر بموجبها باسلحة قيمتها خمسة ملايين دولار اميركي . وكانت تشتمل على اسلحة ومعدات تصلح لتجهيز الامن الداخلي .. في حين كان يسعى عبد الناصر وراء الحصول على طائرات ودبابات ومدافع ميدان ومدمرات بحرية وغير ذلك مما يحتاج اليه الجيش لحماية حدود الوطن .

كان هاري ترومان الذي قاد حملة خلق اسرائيل ، واول مجرم حرب ذرية في التاريخ ، هو رئيس الولايات المتحدة الاميركية انذاك ، وكان الامر البديهي أن يكون حرمان مصر من الاسلحة الثقيلة أحد محاور السياسة الاميركية . ولم يكن ذلك بعيدا عن ادراك عبد الناصر ، ولكن لم يكن أمامه انذاك سبيل آخر ، كما لم يكن على رجل الحكم ، بغض النظر عن طبيعته ، أن ييأس من المحاولة الاولى حتى ولو كان مصمما على سلوك طريق آخر .

لذلك فانه عندما اطلع على قائمة الاسلحة المتفق عليها في عهد فاروق ابعدها من أمامه وقال للسفير الاميركي جيفرسون كافري :

« ان واحدا من اسباب الثورة : ضعف جيش مصر ، وان هذا الجيش خاض معركة خاسرة في فلسطين عام ١٩٤٨ بذخيرة فاسدة اشتريت باسعار خيالية من اوروبا وقتلت من الجنود المصريين اكثر مما قتلت من جنود العدو . وان الثورة قامت بها عناصر من الجيش ، وانها برغم كونها ثورة شعبيه ، فان الجيش هو الذي قادها ، وان الضباط مصممون على أن يكون لهم جيش قوي ، ذلك انهم كانوا يريدون ان يكونوا اقوياء نفسيا وعمليا ، كذلك ليصبح في امكان مصر الدفاع عن نفسها » . (١)

بعدئذ باسابيع قليلة ، خلال شهر اكتوبر ١٩٥٢ ، بدات

---

(١) محمد حسنين هيكل . عبد الناصر والعالم ص ٦١ .

الولايات المتحدة الاميركية مع عبد الناصر سياسة المراوغة والمناورة والمساومة التي استمرت مدة عامين ونصف العام. فقد بعثت تطلب منه موافاتها بقائمة مفصلة بالاسلحة التي يريد شراءها . وتم أعداد القائمة بسرعة ، وتم تسليمها الى الملحق العسكري الاميركي ، وكانت تشتمل على معدات وتجهيزات لفرقة مدرعة واحدة بدباباتها ووسائل نقلها ومدفعيتها ، ومدافعها المضادة للطائرات ، وثلاثة اسراب من الطائرات النفاثة المقاتلة . (١)

كانت السياسة الاميركية وقتئذ تتجه في الخفاء الى تدبير المؤامرات الانقلابية لاسقاط عبد الناصر ، ولكنها لم تشأ الصدام المبكر معه لكي لا يتنبه لنواياها العدوانية ، ولذلك فانها انتهجت سياسة موازية تقوم على أساس الخداع والتضليل وكسب الوقت، فتظاهرت بالاهتمام الجاد باحتياجات مصر من الاسلحة وأوفدت مساعد وزير دفاعها « وليم فوستر » لمناقشة موضوع الاسلحة المطلوبة مع عبد الناصر مباشرة .

وفي اللقاء الذي تم بينهما تناول مساعد وزير الدفاع الاميركي قلما واشر على المواد التي يمكن بيعها .. ثم تناقش مع عبد الناصر حول كيفيه سداد الثمن .. ثم امعانا منه في الخداع والتضليل ، وبعد أن اعطى عبد الناصر انطباعا بأن هناك موافقة على بيع الاسلحة ، طلب منه ايفاد وفد عسكري مصر الى اميركا للقيام بجولة في القواعد العسكرية الاميركية والتحدث الى المسؤولين عن تزويد الاسلحة وتهيئة شحنها .

خلال أيام قليلة بعد اللقاء في شهر نوفمبر سافرت بعثة عسكرية مصرية الى الولايات المتحدة الاميركية برئاسة علي

---

(١) المصدر السابق ، ص ٦٢ .

صبري . وهناك تكشفت جوانب جديدة من النوايا الاميركية، وتأكد بأنه لا يمكن للولايات المتحدة بطبيعتها الامبريالية الاستعمارية ان تبيع السلاح لاية دولة بدون قيود ثقيلة واثمان سياسية باهظة .

كان الجنرال الاميركي اولمستد مدير برنامج المساعدة العسكرية الخارجية الاميركية من ابرز المسؤولين الاميركيين الذي قابلتهم البعثة العسكرية المصرية في واشنطن . . ولكن حديثه لهذه البعثة كان غريبا مريبا ، وبعيدا كل البعد عن طبيعة مهمتها ، اذ ركزه حول الحلف الاسلامي ! وامكانيات قيامه المتاحة ، والنتائج العظيمة التي ستسفر عنه اذا ما ضم ثلاث عواصم محددة هي : انقرة باعتبار انها عاصمة اكثر الدول الاسلامية تمدنا وعصرية ! وكراتشي عاصمة باكستان انذاك باعتبار انها عاصمة أكثر الدول الاسلامية كثافة للسكان ! والقاهرة باعتبار أنها عاصمة اقوى الدول الاسلامية نفوذا واعلاها مقاما .

والاكثر غرابة في حديث الجنرال اولمستد انه بعد ان ربط بين هذا الحلف والدفاع عن الشرق الاوسط راح يتحدث عن تأثيره الهائل المتوقع على مسلمي الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية، ثم عن امكانية الاستفادة منه في تشكيل طابور خامس في هذين البلدين . وكان ذلك يتمشى مع سياسة الولايات المتحدة الاميركية ولم يكن لمصر الثورة اية مصلحة منه ، ولذلك فانها لم تكن معنية بموضوع الحلف الاسلامي ، بل كانت تعارضه انسجاما مع موقفها المبدئي المعادي للاحلاف العسكرية ايا كانت وايا كان اسمها !

ولم يتوقف الجنرال اولمستد عند ذلك الحد من حديثه ، وانما اكمله بأن ازاح ستارا يغطي خريطة كبرى على حائط مكتبه ، وكانت الخريطة مليئة بالدبابيس والاعلام ، والتقط مؤشرا طويلا وبدأ يشرح معنى الدبابيس والاعلام ، ثم اشار

الى منطقة وضعت فيها دبابيس قليلة وقال :

« يجب أن نضع بعض الدبابيس والاعلام هنا . أن ثمة فراغا هنا » (١)

كان يشير بذلك الى منطقة الحلف الاسلامي الذي تقترحه الولايات المتحدة الاميركية .. وكان ذلك بلغة الامبريالية الاميركية اشارة واضحة للبعثة العسكرية المصرية بأن اميركا ليست في حاجة الى بضعة ملايين من الدولارات وبضعة الاف الاطنان من القطن المصري ثمنا للاسلحة التي يريد عبد الناصر ابتياعها ، وانما هي تريد قبول مصر الانضمام للحلف الاسلامي اذا رغبت في الحصول على الاسلحة التي تريدها.. وطالما أن الولايات المتحدة الاميركية لم تربط في المحادثات الرسمية التي أجراها مساعد وزير دفاعها مع عبد الناصر بين الحلف الاسلامي والاسلحة المطلوب شراؤها ، فانه لم يكن ما يبرر استدعاء البعثة العسكرية المصرية من اميركا احتجاجا على حديث الجنرال أولمستد ، خاصة وان علي صبري قابل بعدئذ الجنرال عمر برادلي رئيس أركان القوات الاميركية ، وتباحث معه فيما تطلبه مصر ، وتم تأليف لجان فرعية للبحث في التفصيلات الفنية .

ولكن رغم المكانة الكبيرة والسمعة العسكرية الطيبة التي كان يتمتع بها الجنرال برادلي منذ أيام الحرب العالمية الثانية، الا أن الجنرال اولمستد باعتباره مدير برنامج المساعدة العسكرية الخارجية كان أكثر دقة في تحديد ملامح السياسة الاميركية تجاه عبد الناصر والاسلحة التي كان يسعى وراء ابتياعها .. او ربما كان الجنرالان يتقاسمان الادوار .. اولمستد يشير الى الثمن السياسي المطلوب فعلا . وبرادلي يناقش الامور الفنية ويقترح لها لجانا فنية كسبا للوقت .

ولم يكن الامر يحتاج الى لجان فنية . فالمعروف عن مثل

(١) هيكل . عبد الناصر والعالم ، ص ٦٣ .

هذه اللجان بانها تستهدف اضاعة الوقت والمراوغةوالمناورة. وانما كان الامر يحتاج الى قرار سياسي ، وكان مطلوب من ترومان اتخاذ هذا القرار . ولم يكن ترومان ، بغض النظر عن تعصبه الاعمى للصهيونية واسرائيل ، وعدائه الشديد للامة العربية وثورة ٢٣ يوليو ، ولا اي رئيس امريكي اخر، على استعداد للموافقة على بيع السلاح لمصر او اي بلد اخر في العالم ما لم يتوفر شرط اساسي هو : ان يكون الحكم في مصر او في غيرها مقبولا ومرضيا عنه من البيت الابيض الاميركي .. ولم يكن عبد الناصر موضع القبول ولا موضع الرضى . لذلك مضت الاسابيع متلاحقة والبعثة العسكرية المصرية في دوامة المناقشات .

ثم قيل الى رئيس البعثة ، علي صبري ، انه لا بد من الانتظار ريثما يتسلم الرئيس الجديد دوايت ايزنهاور ،مهام منصبه ، اذ لا يمكن لحكومة تصفي اعمالها وتسلم السلطة لادارة جديدة ان تتخذ قرارات سياسية خطيرة ! هكذا بحجة انتقال السلطة من رئيس الى رئيس انهى الاميركيون بعثة علي صبري الى النتيجة التي كانوا يريدونها ، اذ كانوا يعرفون جيدا بأن حقيقة الامر ليس في انتقال السلطة من الرئيس ترومان الى الرئيس ايزنهاور .. فلا تتوقف الحياةفي الولايات المتحدة الاميركية ، ولا يحد من سلطة الرئيس الاميركي خلال فترة الانتقال . وانما حقيقة الامر هي انهم كانوا يريدون الثمن الذي اشار اليه الجنرال اولمستد وهو موافقة عبد الناصر على الانضمام للحلف الاسلامي أو الانضواء تحت المظلة الاميركية .. لو ان عبد الناصر وافق علىذلك، لما تردد ترومان في ان يختتم رئاسته بالتوقيع على قرار اهداء الاسلحة وليس ببيعها لمصر ، خاصة وان تلك الاسلحة لم تكن تقلب موازين القوى في المنطقة .

تجدر الاشارة هنا ان الرئيس الاميركي جونسون كان قد وقع في يناير ١٩٦٩ عشية تسليمه السلطة للرئيس المنتخب

انذاك ريتشارد نكسون على اضخم صفقة لاسرائيل من طائرات الفانتوم والسكاي هوك قدمتها الولايات المتحدة الاميركية للعدو الصهيوني حتى ذلك الحين . وهذا مثل يؤكد بطلان ما تذرعت به أميركا لقتل مهمة البعثة العسكرية المصرية التي كان سفرها باتفاق رسمي مع وليم فوستر مساعد وزير الدفاع الاميركي .

★★★

عندما عادت البعثة العسكرية المصرية لشراء الاسلحة من الولايات المتحدة الاميركية قبيل الاحتفال الرسمي بتسليم مقاليد السلطة للرئيس المنتخب الجنرال ايزنهاور ، ولم يكن علي صبري رئيس هذه البعثة يحمل معه لعبد الناصر غير قول الاميركيين له : أن الطلب المصري لشراء الاسلحة سوف يكون بين الامور الاولى التي ستعرض على الرئيس الجديد للبت فيها ! (١)

كان معنى هذا القول : أن الولايات المتحدة الاميركية لم تكن قد قررت بيع السلاح لعبد الناصر ، وان المبدأ ككل لم يتخذ بشأنه أي قرار ، وان زيارة وليم فوستر مساعد وزير الدفاع الاميركي للقاهرة والانطباع الذي أوحى به لعبد الناصر بأن هناك موافقة على بيع السلاح ، واقتراحه بارسال بعثة عسكرية تتولى الاشراف على شحن الاسلحة التي كان فوستر قد أشر عليها بالموافقة . . كل ذلك لم يكن في حقيقته كما تكشف خلال شهرين اثنين ، سوى محاولة ساذجة من جانب واشنطن لمراوغة عبد الناصر وخداعه وجس نبضه تجاه احلافها العسكرية التي تولى الاشارة اليها الجنرال اولمستد عند لقائه بالبعثة العسكرية المصرية .

لقد كانت الاحلاف العسكرية ابرز مظاهر وأهداف السياسة الخارجية الاميركية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، ولم

---

(١) المصدر السابق ، ص ٦٤ .

يكن انتقال السلطة من رئيس لاخر يعني ان هناك تغيرا أو تبدلا سوف يطرا على هذه السياسة . ذلك لان السياسة الاميركية ، شأنها في ذلك شأن الدول الكبرى والمستقرة ، الراسمالية منها والاشتراكية، نابعة من المصلحة القومية وترتكز عليها .. بذلك فان الخط العام للسياسة الخارجية الاميركية في عهد الرئيس الديمقراطي والجمهوري ، يبقى واحدا ، بل يبقى امتدادا طبيعيا له ، بحكم طبيعة المجتمع الاميركي الراسمالي ، وطبيعة القوى الراسمالية الحاكمة الفعلية له والمستفيدة الرئيسية منه ، ما لم تقع تطورات أو تحولات ومؤثرات تقتضي التعديل والتطوير ..

ولم يكن هناك عند انتقال السلطة في يناير ١٩٥٣ من ترومان الديمقراطي الى ايزنهاور الجمهوري ما يستدعي ادخال اية تعديلات على الخط العام للسياسة الخارجية الاميركية وعلى الاخص ما يتعلق منها بالاحلاف العسكرية.. لذلك فان جون فوستر دالاس وزير خارجية الادارة الجمهورية لم يأت بجديد بتعصبه الاعمى للاحلاف العسكرية سوى انه برع في صب الزيت على نار الحرب الباردة لتزداد اشتعالا وتأججا ، ثم استغلال ذلك في ارهاب الشعوب من الشيوعية واستدراجها للاحتماء بالمظلة الاميركية عن طريق ربطها بالاحلاف العسكرية او معاهدات الامن المتبادل !

وكانت منطقة الشرق الاوسط هي أضعف المناطق في سلسلة الاحلاف الاميركية . وكانت مصر بحكم موقعها ومكانتها وموقفها من الاحلاف واسرائيل ، هي اكثر بلدان هذه المنطقة مدعاة للاهتمام الاميركي ، وعلى الاخص بعد ثورة ٢٣يوليو، ولذلك كان من الطبيعي ان يتجه اليها دالاس في أول زيارة خارجية له .

تمت هذه الزيارة في شهر مايو ١٩٥٣ وكان هدفها الاستراتيجي احتواء ثورة ٢٣يوليو وتصفية القضية الفلسطينية. ولكنها انتهت بالفشل الذريع بسبب التناقض بين ما كان يريده

عبد الناصر وما كان يستهدفه دالاس .

حرص عبد الناصر على ان يستهل محادثاته مع دالاس باثارة موضوع الاسلحة التي كان قد طلب شراءها من أميركا مستوضحا عن اسباب التأخير . وكانت ذريعة دالاس : «ان ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني انذاك اتصل تلفونيا بالجنرال ايزنهاور ، بعد انتخابه رئيسا وقبل تسلمه سلطاته الدستورية ، وحثه على ان لا يبيع الى المصريين سلاحا حتى لا يبدأ رئاسته بتزويد مصر بأسلحة قد تستخدم في قتل الجنود البريطانيين الذين خدموا تحت امرته أثناء الحرب العالمية الثانية . وان ايزنهاور تأثر لهذا الرجاء تأثرا عميقا فطلب قائمة الاسلحة التي يريدها عبد الناصر ، وعندما درسها وجدها تحتوي في المقام الاول على اسلحة خفيفة ومدافع بازوكا ورشاشات . اي نوع الاسلحة التي يمكن استخدامها في حرب عصابات يمكن أن تشن على البريطانيين في منطقة السويس ، وبدا له أن مخاوف تشرشل لها ما يبررها فقرر الاحتفاظ بالطلب المصري في ملف « القضايا المعلقة » ! (١)

لم تكن تلك هي الاسلحة التي تضمنتها القائمة التي كان عبد الناصر قد قدمها للولايات المتحدة الاميركية وناقشها مع مساعد وزير الدفاع الاميركي .. ولم يكن الآمر بهذه البساطة والسذاجة لدولة كبرى بنت قوتها وتقدمها على الادارة والتنظيم لكي يلتبس عليها الامر فلا نميز بين قائمة الاسلحة التي تم التعاقد عليها مع حكومة فاروق وقائمة الاسلحة التي طلب شراءها عبد الناصر ..

ثم على فرض أن ايزنهاور كان قد اطلع فعلا على القائمة المقدمة من عبد الناصر ، هل كان موقفه تغير !

أذا كان رفض بيع الاسلحة الخفيفة التي لا تنفع لاكثر من

---

(١) المصدر السابق .

تدعيم أجهزة الامن الداخلي بحجة انه يمكن استغلالها في حرب عصابات ضد قوات الاحتلال البريطاني في منطقة القناة، فهل كان ايزنهاور يقبل بيع الاسلحة الثقيلة نسبيا التي يمكن استخدامها في ردع العدوان الاسرائيلي !

المؤكد ، أن السبب في قرار ايزنهاور الاحتفاظ بالطلب المصري في ملف القضايا المعلقة لا يرجع لان قائمة استبدلت بأخرى ، وانما يرجع لان الولايات المتحدة الاميركية تريد ثمنا لاسلحتها غير الدولارات والمحاصيل الزراعية ..

واذا كان « اولمستد » مدير برنامج المعونة العسكرية الخارجية قد اشار صراحة الى الثمن المطلوب للبعثة العسكرية المصرية ، فان جون فوستر دالاس وزير الخارجية الاميركية طلب الثمن صراحة ومباشرة من جمال عبد الناصر ..

الثمن الذي أشار اليه الجنرال « أولمستد » كان الحلف الاسلامي !

أما الثمن الذي طلبه دالاس فكان : انضمام مصر لمنظمة الدفاع عن الشرق الاوسط .

القيمة المطلوبة في الحالتين واحدة .. الانضواء تحت المظلة الاميركية . ولا يهم تحتاي اسمأو شعار او مبرر يكون هذا الانضواء ، فالمهم بالنسبة للولايات المتحدة الاميركية هو أن يقبل عبد الناصر الحماية الاميركية ! وبعدئذ لا خوف من السلاح الذي يوضع تحت تصرفه . فالجيوش العربية في عام ١٩٤٨ كانت تملك أسلحة اقوى وأكثر فعالية من الاسلحة التي كانت تملكها العصابات الصهيونية في فلسطين ، ولكنها لم تستخدمها للحفاظ على عروبة فلسطين .

ولكن عبد الناصر رفض أن يدفع الثمن الذي طلبه دالاس وبين له بوضوح وحسم انه لن يقبل ان يكون ثمن السلاح الذي يريده شيئا أخر غير المال !

أن ذلك اللقاء الذي تم بين دالاس وعبد الناصر في شهر

مايو ١٩٥٣ قبل ان تمضي عشرة شهور على ثورة ٢٣ يوليو أوضحت لقائد الثورة العربية كما أوضحت للولايات المتحدة الاميركية استحالة التلاقي والاتفاق بينهما بسبب تناقض الاهداف والغايات والاساليب .

ولقد خرج دالاس من لقائه مع عبد الناصر وفي ذهنه ولا شك نوايا عدائية وكراهية لا حدود لها لهذا الضابط الشاب الذي يحاور ويناقش ثم يقول « لا » لاعتى دولة امبريالية عرفها التاريخ البشري رغم أن وزير خارجيتها القوي استهل عمله الخارجي بزيارته ، ثم أنه يواجه متاعب داخلية يسببها الشيوعيون والاخوان المسلمون والوفديون والزعامات الاقطاعية التقليدية ، وتحاصره انظمة عربية بحكم اقليميتها وارتباطها بالاستعمار ، وتتربص به اسرائيل ، وتشن عليه الدول الشيوعية بقيادة الاتحاد السوفياتي هجمات ضارية ظالمة فتصفه بالدكتاتور الذي جاء ليسحق جماهير الشعب ! وتواجهه قبل كل ذلك قوات الاحتلال في منطقة القناة !

كان يتصور دالاس أن هذه الظروف التي كان يواجهها عبد الناصر والمحيطة به سوف تكون العامل الرئيسي في ارغامه على الاتجاه نحو الولايات المتحدة الاميركية طالبا عونها وحمايتها .. واستنادا لدراسته لهذه الظروف كان يعتقد بان مهمته في القاهرة سوف تكون سهلة وناجحة ، وانها ستنتهي بوضع حجر الاساس للنفوذ الاميركي في أهم المناطق حيوية للاستراتيجية الاميركية .

ولو لم يكن دالاس مطمئنا لنجاح مهمته لما أعطى السفر الى القاهرة للاجتماع بعبد الناصر الاهمية الاولى والعاجلة للسياسة الاميركية .

ولكن عبد الناصر وهو يواجه تلك الظروف الصعبة ،ويدرك جيدا أنه محاط بالاعداء من كل جانب ، طالب بشراء السلاح نقدا ، وجادل دالاس وناقشه ثم قال له : لا للاحلاف العسكرية . ولا لمعاهدة الامن المتبادل . ولا لتصفية القضية

الفلسطينية على حساب شعبها العربي .
في ذلك الموقف الرافض للسياسة الامبريالية الاميركية ،في تلك الظروف المحلية والعربية والدولية ، تتمثل ثورية جمال عبد الناصر وشجاعته ..

★★★

بعد ذلك اللقاء بين دالاس وعبد الناصر قررت الولايات المتحدة الاميركية دون اعلان ، عدم بيع السلاح لعبد الناصر، والعمل على محاصرته بكافة السبل السياسية والاقتصادية، والاستعجال بالقضاء عليه .. واوكلت مهمة التنفيذ للشقيقين جون والن دالاس كل فيمجال اختصاصه. اللهم الا اذا نراجع عن موقفه واسرع في الانضواء تحت المظلة الاميركية !
وكان عبد الناصر بعد ذلك اللقاء قد ايقن تماما انالولايات المتحدة الاميركية لن تبيعه السلاح ، وان بريطانيا وفرنسا ايضا لن تبيعه السلاح .. ولكنه مع ذلك لم يكن امامه غير ان يستمر في المحاولات مع اميركا وبريطانيا :

اولا : لان الاتحاد السوفياتي والاحزاب الشيوعية في مصر والوطن العربي كانوا ما زالوا يهاجمونه .. وبالتالي فان المناخ لم يكن ملائما للاتجاه نحو موسكو وطلب ابتياع الاسلحة منها .

ثانيا : لان المفاوضات لانهاء الاحتلال البريطاني كانت ما زالت في مراحلها الاولى ولم يشأ ان يقدم على اية خطوة من شأنها ان تسبب عراقيل او مبررات تعوق سير المفاوضات.
لذلك فانه خلال النصف الثاني من عام ١٩٥٣ الذي أعقب زيارة دالاس ، والنصف الاول من عام ١٩٥٤ الذي سبق توقيع اتفاقية الجلاء ، كانت الاتصالات بين القاهرة وواشنطن حول السلاح محصورة في الاطار الدبلوماسي بشكلرئيسي.
من جهة عبد الناصر ، وهو الطرف المعني بالحصول على السلاح ، اتخذ من موضوع الاسلحة التي طلب شراءهاسبيلا لاحباط المخططات والمقاصد الاميركية دون صدام مبكر ..

وكان يتحاشى مثل هذا الصدام المبكر مع الولايات المتحدة الاميركية رغم قناعته بأنه واقع لا محالة ، لكي لا يستفيد منه الاستعماري الداهية ونستون تشرشل فيعمد الى تعقيد المفاوضات الجارية انذاك بين الجانبين المصري والبريطاني.

وكان جمال عبد الناصر بنفسه يراس الوفد المفاوض المصري ، وكان قد ادرك نوايا بريطانيا من خلال وفدها المفاوض في المراوغة والمناورة وكسب الوقت باللف والدوران بعيدا عن جوهر الموضوع . لذلك فانه كان يكتفي باشارة موضوع الاسلحة بدون ثمن سياسي ودون اية شروط كلما اثار الاميركيون معه موضوع الاحلاف العسكرية او حاولوا استدراجه للاحتواء .

ومن جهة الولايات المتحدة الاميركية ، فانها بعد ان أيقنت، خاصة بعد زيارة دالاس للقاهرة ، أن عبد الناصر مصمم على رفض الاحلاف العسكرية والدوران في ألفلك الاميركي . .صار اهتمامها منصبا ومركزا على تدبير المؤامرات الانقلابية ضده، وكانت ترى بحكم تجاربها وخبرتها بعد الحرب العالمية الثانية ، أن الجو التصادمي والعلاقات المتوترة ، لا تصلح لتدبير المؤامرات وتنفيذها ، اذ تكون سلطات الامن في حالة حذر وتنبه ، او هذا هو المفترض على الاقل . . لذلك فانه لم يكن من سياسة الولايات المتحدة الاميركية اعلان رفضها لبيع الاسلحة لمصر ، وكانت تفضل على ذلك ، وهو ما كان متبعا ، ابتداع الذرائع والمبررات الوهمية ، كالتذرع بأن الموضوع قيد الدرس ، او أن الوقت غير ملائم للبت فيه نظرا لدقة وحساسية المفاوضات الجارية مع بريطانيا !

هكذا فان الجانبين كانا يتجنبان الحسم في موضوع الاسلحة ، رغم اقتناع كل منهما بأن هذا الموضوع بالذات سوف يكون احد النقاط الرئيسية التي ستحدد طبيعة العلاقات بين ثورة ٢٣ يوليو والولايات المتحدة الاميركية . .

ولم يكن عبد الناصر قد أثار خلال تلك الفترة ما بين منتصف

١٩٥٣ ومنتصف عام ١٩٥٤ موضوع شراء الاسلحة من بريطانيا ، حتى ولم يكن قد الح على المفاوض البريطاني لتنفيذ بيع ثمانين دبابة سنتوريون كانت بريطانيا قد وافقت على بيعها لمصر وحصلت على ثمنها بموجب اتفاقية رسمية منذ أيام العهد الملكي ، وذلك لكي لا يتخذ الجانب البريطاني من موضوع الاسلحة سبيلا للمساومة او تعقيد المفاوضات .كما أن الموضوع كمبدأ كان بالغ الحساسية لبريطانيا ، اذ انها كانت تواجه احتمال حرب استنزافية لا تقوى عليها كان عبد الناصر يهدد بها ويتخذها مادة للضغط عليها .. وبذلك فانه كان امرا عقيما اثاره موضوع ابتياع الاسلحة من بريطانيا خلال تلك الفترة الزمنيه .

ولعل مما عزز راي عبد الناصر في ضرورة تجنب اثارة موضوع شراء الاسلحة وقتئذ ، ما تذرع به دالاس لعبد الناصر لتبرير تأجيل موافقة ايزنهاور على بيع السلاح له . فاذا كان تشرشل قد اتصل بالرئيس ايزنهاور ورجاه بعدم بيع السلاح للمصريين لكي لا يستعملوه في حرب عصابات يشنونها ضد الجنود البريطانيين في منطقة القناة.. فهل يعقل ان يقبل تشرشل بيع الاسلحة لهؤلاء المصريين ، وبالتالي هل خطر على بال قائد اتصف ببعد النظر كعبد الناصر أن يثير الموضوع مع البريطانيين قبل التوصل الى انهاء احتلالهم لمصر!

ان تلك الفترة كانت شديدة التعقيد بالنسبة لعبد الناصر . فقد كان يواجه نشاطا معاديا من جانب الشيوعيين والاخوان المسلمين والوفديين والزعامات الاقطاعية .. وكان يفاوض البريطانيين لانهاء احتلالهم . وكان في حاجة ملحة للسلاح لكي يرفع به الكفاءة القتالية للجيش .. ثم كان يواجه ضغطا قويا من الولايات المتحدة الاميركية لربطه بأحلافها العسكرية .. وكان عليه وسط هذه التعقيدات ، أو المعادلة المعقدة، أن يتحرك بهدف ابطال التعقيدات وحلها ،وليس بهدف تعقيدها بطبيعة الحال .

لم يكن أمامه غير أن يعطي الاولوية للجبهة الداخلية والمفاوضات مع بريطانيا .. ونجح في ذلك باقتدار وكفاءة .

وبعد اتفاقية الجلاء في يوليو ١٩٥٤ كان عليه أن يواجه ما أمكنه تأجيل البت فيه من تلك المعادلة المعقدة الصعبة وهو : موضوع الحصول على الاسلحة من جانبه . وموضوع الاحلاف العسكرية المرتبط بالاسلحة من جانب الولايات المتحده الامريكية .

★★★

بعد التوصل الى الصيغة النهائية لاتفاقية الجلاء والتوقيع عليها يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٤ ، بدات المرحلة الحاسمة لتحديد طبيعة العلاقات بين عبد الناصر والمعسكر الغربي بزعامة الولايات المتحده الامريكية .

أن قناة السويس لم تفقد قيمتها بالنسبة للاستعمار البريطاني بعد استقلال شبه القارة الهندية وتقلص الامبراطورية البريطانيه . ذلك لان أهمية هذه القناة بقيت مرتبطة بالمصالح البترولية الهائلة في منطقة الشرق الاوسط ، ولبريطانيا فيها نصيب كبير ، كما أن مصر بموقعها في قلب الوطن العربي حيث كانت بريطانيا تسيطر سيطرة مباشرة عن طريق وجود مباشر وحكومات من صنعها على القسم الاكبر من مشرق هذا الوطن ، لم تفقد ، بل ولم تقل أهميتها الاستراتيجية بالنسبة للاستعمار البريطاني ومصالحه الضخمة .. ولذلك فانه اذا كانت بريطانيا قد أرغمت على توقيع اتفاقية الجلاء عن منطقة قناة السويس في موعد أقصاه منتصف يونيو ١٩٥٦ فانها كانت تتمنى أن يكتفي عبد الناصر بهذا الانجاز الضخم ، وينصرف لمعالجة المشاكل الداخلية المتراكمة، ويتجنب التحرش بها واثارة المتاعب ضدها ، خاصة انه بعد أن يقرر الشعب العربي السوداني مصيره بالاستفتاء الذي كان مقررا اجراؤه في نهاية العام ١٩٥٥ بموجب الاتفاقية الخاصة التي أمكن التوصل اليها مبكرا في ١٢ فبراير من العام ١٩٥٣ تكون

المشاكل الثنائية المسببة للاحتكاك والتوتر قد سويت .

اكثر من ذلك ، كانت تتمنى بريطانيا ولا شك أن يتم القضاء على ثورة ٢٣ يوليو وعبد الناصر قبل أن يتم الجلاء .. او ان تتمكن الولايات المتحدة الاميركية في اسوا الحالات من احتواء عبد الناصر واستدراجه لمنطقة نفوذها وربطه بأحلافها العسكرية التي كانت بريطانيا تلعب دورا رئيسيا فيها في منطقة الشرق الاوسط .

وكانت الولايات المتحدة الاميركية بدورها أكثر طمعا من بريطانيا في الاستحواذ على مصر ، ليس فقط لانها كانت تخطط لوراثة الاستعمار في اي جزء يضطر الى الجلاء عنه او الانسحاب منه تحت ضغط حركات التحرر . ولا لانها كانت تخطط لاحتواء الوطن العربي حماية لمصالحها واستئثارا بثرواته البترولية الهائلة التي كانت تعرف مبكرا وقبل غيرها اهميته الحيوية المصيرية بالنسبة للمجتمعات الرأسمالية عامة ، وانما لان مصر بالذات هي أنسب موقع لتنفيذ مخططاتها وسياستها الاستراتيجية تجاه الوطن العربي والشرق الاوسط وافريقيا واسيا واوروبا ، وكذلك تجاه الاتحاد السوفياتي والكتلة الاشتراكية . . لذلك فانها كانت شديدة الطمع والجشع في أن يصبح عبد الناصر بعد الانجاز التاريخي الذي حقق به أمنية الشعب العربي المصري بانهاء الاحتلال البريطاني سهل الانقياد والانجذاب نحو جاذبية الدولارات الاميركية ! فيقبل بالتالي الانضمام لحلفها العسكري لمنطقة الشرق الاوسط الذي كانت تعده لاحكام سلسلة احلافها حول الاتحاد السوفياتي ..

ولكن تفكير عبد الناصر كان مناقضا لتفكير واطماع بريطانيا والولايات المتحدة الاميركية ..« لان اي تحالف مع الدول الكبرى يعني السيطرة . ولان أحلافها هي احلاف الذئب مع الحمل ولا بد ان يأكل الذئب الحمل » . (١)

---

(١) عبد الناصر . جريدة الاهرام . من خطاب له يوم ٩ يوليو ١٩٥٧ .

ثم أن عبد الناصر كان يريد بعد ان تخلصت مصر من كابوس الاحتلال أن تستمتع بممارسة الاستقلال بارادة حرة بعد ان تحكم بها الغزاة والغرباء مئات متلاحقة من السنين .. وفي المجتمع الدولي ،، الاقرب في كل مراحل التاريخ الى مجتمع الغابة حيث يأكل القوي الضعيف ، تبقى ممارسة الاستقلال بالنسبة للدول الصغيرة والنامية عملية شاقة وان لم تكن مستحيلة ما لم تتوفر القوة الذاتية القادرة على حماية هذا الاستقلال .

وبالنسبة لعبد الناصر ، القومي التفكير والسلوك ، الـذي اكد عروبة مصر وأزال عن وجهها كل رواسب الاقليمية ،وكان شديد الايمان بضروره أن تتحمل مسؤوليتها القومية في تحرير الوطن العربي من الاحتلال الاجنبي والسيطرة الاستعمارية ، وتمهيد الطريق للوحدة العربية ، وتحرير فلسطين من الاحتلال الصهيوني ، فانه لم يكن يريد القوة لحماية الاستقـلال فحسب ، وانما كان يريد القوة لكي تتمكن مصر العربية من اداء واجبها القومـي ..

واذا كان الجيش يشكل احد العناصر الرئيسية للقوة الذاتية ، فان السلاح الحديث يشكل العنصر الاساسي للجيش القوي ، وبالتالي للقوة الذاتية ..

اذن كان من الطبيعي أن يكون الاهتمام الاول بالنسبة لعبد الناصر بعد اتفاقية الجلاء هو الحصول على السلاح .. في حين أن الاهتمام الاول بالنسبة للولايات المتحده الاميركيـة وبريطانيا كان : احتواء عبد الناصر وربط مصر بالاحلاف ، وجعلها حجر الزاوية للمصالح الامبريالية والاستعماريـة والصهيونيـة في هذه المنطقة .

بسبب هذا التناقض في الاهداف فانه كلما كان يثير عـبد الناصر مع اميركا أو بريطانيا موضوع الاسلحة كانوا يشترطون عليه الانضمام للاحلاف العسكرية ، ثم صاروا بعدئذ بشهور قليلة يشترطون فوق الاحلاف تصفية القضية الفلسطينيـة

والصلح مع اسرائيل .. وكان عبد الناصر بالمقابل كلما اثاروا معه موضوع الاحلاف يثير معهم موضوع الاسلحة غير المشروطة .

وكان لرفضه القوي المستمر الانضمام للاحلاف العسكرية المقترحة من اميركا وبريطانيا تأثيرا على موقف الاتحاد السوفياتي والكتلة الاشتراكية منه .. فبداوا يخففون الحملات ضده نتيجة مواقفه العدائية للاستعمار والاحلاف . وما أن اقتربت نهاية عام ١٩٥٤ حتى كان الاتحاد السوفياتي قد اوقف نقده لعبد الناصر ، وصار ينظر اليه بمنظار اخر ، ويشيد بدوره النضالي لاحباط الاحلاف العسكرية الاستعمارية .

وبسبب هذا التحول في موقف الاتحاد السوفياتي والكتلة الاشتراكية الذي احدثته مواقف عبد الناصر ، بدأ المناخ يتهيأ لصفقة الاسلحة التي حطم بها عبد الناصر الاحتكار الرهيب للسلاح .

***

ان كثيرين ممن كتبوا عن عبد الناصر وصفقة السلاح مع الاتحاد السوفياتي ربطوا بين هذه الصفقة وبين الغارة الاسرائيلية على قطاع غزة .. ولكن الحقيقة غير ذلك ، رغم ان تلك الاغارة جعلت عبد الناصر اكثر تصميما على الاستعجال في السعي وراء تلك الصفقة .

ان تلك الاغارة كانت بمثابة التذكير لعبد الناصر بالخطر الاسرائيلي واطماع التوسع الصهيونية ، وجعلته يقول للزعيم الصيني شوان لاي في لقائهما التاريخي مساء يوم ١٥ أبريل ١٩٥٥ : « بعد الثورة خفضنا ميزانية الجيش واستخدمنا السبعين مليون دولار التي صادرناها من فاروق لبناء المستشفيات والمدارس والطرقات ، ولكننا لا نستطيع ان ندافع عن انفسنا بالمستشفيات او المدارس .. فكل ما

نفعله هو اننا نهيئها للاسرائيليين كي يحتلوها ». (١)

ولكن المؤكد ان تلك الاغارة لم تكن هي التي جعلت عبد الناصر يتجه نحو الاتحاد السوفياتي .. انما الذي ارغمه على ذلك هو احتكار السلاح ، وامتناع الدول الغربية الاستعمارية عن بيعه له ، بينما هو في أشد الحاجة للسلاح، لحماية الثورة والدفاع عنها .

ولقد تأكد عبد الناصر ، واصبحت قناعته تامة بعد سلسلة المؤامرات الفاشلة التي استهدفته في عام ١٩٥٤ ، وكذلك بعد المحاولات التي بذلها مع واشنطن ولندن في الشهور التي اعقبت اتفاقية الجلاء ، بأن لا اميركا ولا بريطانيا سوف تبيعه السلاح ولا اية دولة غربية أخرى .

كانت بريطانيا ترفض تسليمه الدبابات المتعاقد عليها قبل الثورة ، وتشترط عليه الموافقة على الانضمام للحلف الذي اعلن فيما بعد باسم حلف بغداد . ولكنه رفض الشرط .. ولم يحصل على السلاح البريطاني .

واشترطت عليه الولايات المتحدة قبيل نهاية عام ١٩٥٤ ان يقبل بعثة عسكرية أميركية تقيم في مصر مقابل بيعه اسلحة في حدود العشرين مليون دولار .. ولكنه رفض الشرط ، ولم يحصل على السلاح الاميركي ..

في ذات الوقت ، في الاسابيع الاخيرة من عام ١٩٥٤ ،بينما امتنعت الولايات المتحدة وبريطانيا عن بيعه السلاح بدون ثمن سياسي باهظ وشروط تلغي الاستقلال وتكبل الارادة وتقيد الحرية .. « اعلن عن توقيع وزيري دفاع فرنسا واسرائيل لاتفاقية بين البلدين تحصل اسرائيل بموجبها على طائرات ودبابات ومدافع واجهزة رادار » . (٢) وكانت المخابرات المصرية قد حصلت قبل الاعلان عن هذه الاتفاقية

---

(١) محمد حسنين هيكل . عبد الناصر والعالم ص ٧٧ .
(٢) روبرت سيتفنس . ناصر ص ١٥٧ .

على معلومات تؤكد تزويد فرنسا لاسرائيل بكميات كبيرة من الاسلحة المتنوعة . وكانت ذريعة فرنسا فيما بعد انها فعلت ذلك ردا على دعم عبد الناصر للثورة الجزائرية ، ولارغامه على وقــف ذلك الدعم !

وفي ضوء الظروف التي كانت تواجهها فرنسا بسبب تورطها في حروبها الاستعمارية في الهند الصينية والجزائر ، وانهيار اقتصادها ، وارتباطها بحلف الاطلنطي ، وحاجتها للعــون الاميركي ، فأنها لم تكن تقدر على تزويد اسرائيــل بالسلاح دون موافقة مسبقة ، ان لم يكن بدون اشارة مسبــقة من الولايات المتحدة الاميركيـــة .

كانت تلك الصفقة استفزازا لعبد الناصر ولا شك ، وكان هو المقصود بها ، ولكن الاكثر استفزازا منها أن بريطانيـــا التي رفضت مجرد تسليمه الدبابات المدفوع ثمنها منذ حوالي الثلاثة أعوام عمدت الى بيع السلاح سرا لاسرائيل ..

كان الهدف من الصفقتين الفرنسية والبريطانية : اظـــهار عبد الناصر بمظهر الضعيف العاجز أمام اسرائيل ، واحكام الحصار من حوله ، وارغامه على مهادنة الاستعمار .

ولكن عبد الناصر واجه الموقف باسلوبه الخاص ، وهـــو الاسلوب الذي اعتاد أن يفاجيء به الاستعمار والقوى المناوئة له ، ويتجاوز به كل المخططات والتوقعات . فاستدعى في الثامن من يناير ١٩٥٥ سير الف ستيفنسون السفير البريطاني في القاهرة ، وفاجأه بمعلومات توفرت للمخابرات المصرية عن صفقة اسلحة بريطانية لاسرائيل تشتمل على مائة دبابة شيرمان وسوبرشيرمان ومائة مدفع عيار ٧٥ ملم ، تم شحنها بالبحر الى ميناء حيفا . وانه بهذه الاسلحة سوف يصبح لدى اسرائيل قوة ضاربة قوية ، ولذلك فانه ما لم يحصل علـــى السلاح فانه لا يمكنه أن يضمن استمرار تأييد الجيش له . ثم خاطبه قائلا : سوف تتذرعون بالادعاء أنكم تحافظون على توازن التسلح بيننا وبين اسرائيل .

في ذلك اللقاء تذرع ستفنسون بأن فرنسا هي التي خرقت التصريح الثلاثي الصادر في عام ١٩٥٠ لحفظ السلام في المنطقة ، وان الاسلحة البريطانية المشار اليها ذهبت لاسرائيل عن طريق فرنسا .

ولكن عبد الناصر لم يقتنع بهذه الحجج ، ولذلك فانه انهى اللقاء مع السفير البريطاني بما يشبه الانذار النهائي لكل من بريطانيا والولايات المتحدة الاميركية ، فطلب منه ارسال رسالة شخصية لايدن يقول فيها : « انه ما لم يحصل على السلاح من بريطانيا فانه سوف يسعى للحصول على السلاح من أى مصدر اخر » .

كان ستيفنسون متأكدا بعد ذلك اللقاء من ان عبدالناصر جاد في قوله ، ويعني ما يقول . (١)

اذن ، منذ الثامن من يناير ١٩٥٥ قبل الاغارة الاسرائيلية على قطاع غزة بستة اسابيع كان عبد الناصر قد قرر الاتجاه نحو الاتحاد السوفياتي في محاولة للحصول على السلاح . ولكنه ، رغم قناعته بعدم جدوى الاتصالات مع الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا وبقية الدول الغربية لتزويده بالاسلحة ، الا انه لم يشأ وقف هذه المحاولات قبل أن يتحقق من موقف الاتحاد السوفياتي ومدى استعداده لبيع الاسلحة لمصر .

وكانت النتيجة للاتصالات والمحاولات التي جرت مع واشنطن ولندن وغيرهما من العواصم الغربية قبل الاغارة الاسرائيلية على غزة وبعدها وامتدت حتى منتصف ابريل ، لا تختلف عما سبقها .

كان اخر رد اميركي حتى ذلك الحين في شهر فبراير ١٩٥٥، وكان بالرفض لتزويد مصر بأسلحة أميركية قيمتها سبعة وعشرون مليون دولار بحجة أن مصر لا تقدر على دفع ثمنها . (٢)

---

(١) روبرت ستيفنس . ناصر ص ١٥٧ استنادا الى اقوال ستفنسون شخصيا .
(٢) المصدر السابق ص ١٥٨ .

وكان اخر رد بريطاني بعد التحذير الذي وجهه عبد الناصر للسفير البريطاني بالرفض أيضا ، اذ ربطت بريطانيا منجديد بين بيع الاسلحة لمصر وموقف عبد الناصر من حلف بغداد .

ولم تسفر المحاولات التي بذلت مع العواصم الغربيةالاخرى وخاصة بروكسل عن اية ايجابيات رغم انه لا يمكن الاعتماد على هذه العواصم بحكم ارتباطها بالعجلة الاميركية ، ثم لان اسلحتها تقليدية غير متطورة ، ولا يمكن بالتالي ان تكون متكافئة مع الاسلحة التي كانت تتدفق على اسرائيل من فرنسا وبريطانيا بموافقة الولايات المتحدة الاميركية بطبيعة الحال .

لذلك ، فان عبد الناصر عندما سافر في ابريل ١٩٥٥ لحضور مؤتمر باندونج كان قد استنفد كل المحاولاتوالجهود، وقرر أن يدق ابواب موسكو عن طريق بكين . وكانت الاغارة الاسرائيلية على قطاع غزة والتوتر المتصاعد على خط الهدنة ، واشتداد هجمة الاحلاف العسكرية الاستعمارية على المنطقة العربية بعد اعلان حلف بغداد في فبراير قبيل تلك الاغارة الوحشية ، والمحاولات المستميتة لمحاصرة مصر الثورة وعزلها عربيا ودوليا .. كانت كلها من العوامل التي زادت من تصميم عبد الناصر على الاتجاه نحو الاتحاد السوفياتي .

وقد تمت الخطوة الاولى في رانجون عاصمة بورما مساء يوم ١٥ ابريل ١٩٥٥ في اللقاء الثنائي الذي تم بينه وبين شو ان لاي .

وتمت الخطوة الثانية في القاهرة . ففي حفلة للسفارة السودانية مساء يوم ١٨ مايو ١٩٥٥ التقى السفير السوفياتي دانييل سولود بعبد الناصر وبادره بالقول وهو يصافحه : « لقد تلقيت تعليمات بطلب عقد اجتماع معك يا سيادة

الرئيس» (١) وتم الاجتماع بينهما في مكتب عبد الناصر يوم ٢١مايو ١٩٥٥ وكان موضوع الحديث : الاسلحة التي طلب عبد الناصر شراءها من الاتحاد السوفياتي بواسطة شو ان‌لاي الذي كان قد نقل بأمانة الى زعماء موسكو ، بولجانيين وخروشوف ، رغبة عبد الناصر في شراء الاسلحة من الاتحاد السوفياتي ، ولا شك في أن الزعيم الصيني كان مؤيدا لذلك .

كانت المقابلة التي تمت بين عبد الناصر والسفير السوفياتي ايجابية ، اذ اعقبها ارسال احد العسكريين السوفيات الكولونيل « تيمو شنكا » الى القاهرة لاستكمال محادثات صفقة الاسلحة خلال ما تبقى من شهر مايو وشهري يونيو ويوليو .

ثم اقتضت تطورات السياسة الدولية في صيف ذلك العام ان تكون الخطوة الثالثة والاخيرة في صفقة الاسلحة في براغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا ، ففي الفترة ما بين ١٨ و ٢٥ يوليو ١٩٥٥ عقد مؤتمر القمة الدولية في جنيف حضره : بولجانين وخروشوف عن الاتحاد السوفياتي والرئيس الاميركي ايزنهاور والرئيس الفرنسي ادجار فور ، ورئيس الوزراء البريطاني ايدن .

كان الهدف من ذلك اللقاء تخفيف حدة التوتر في العالم ومعالجة المشاكل الكبرى بالحوار المباشر .. ورغم أنه لم يتم التوصل في ذلك المؤتمر الى حلول للقضايا المعلقة ، ولا الى وضع أساس للوفاق الدولي ، وكان من الطبيعي أن لا يحدث ذلك في مؤتمر واحد ، بفعل التناقضات الحادة بين المعسكرين ، وأزمة الثقة القائمة بينهما ، والتراكمات الكبيرة التي سببتها الحرب الباردة ، فان المصلحة المشتركة بين الاطراف المشتركة في ذلك المؤتمر اقتضت الاتفاق على العمل من اجل تخفيف حدة التوتر والحرب الباردة ..

(١) محمد حسنين هيكل . عبد الناصر والعالم ، ص ٧٨ .

وانسجاما مع ذلك ، وكي لا يتحمل الاتحاد السوفياتي أمام المجتمع الدولي مسؤولية تدمير روح مؤتمر جنيف ، فانه اقترح ان تتم صفقة الاسلحة بواسطة تشيكوسلوفاكيا ، وان يتم انهاء التفاوض بشأنها في براغ .

وهكذا انتقلت المفاوضات من القاهرة الى العاصمة التشيكية بعد مؤتمر جنيف ، وتم التوصل الى الاتفاق النهائي حول نوع الاسلحة والثمن وطريقة الدفع في شهر اب ــ اغسطس ١٩٥٥ ، أما التوقيع على الاتفاقية فتم في ٢٠ سبتمبر .

وفي الايام الاولى من شهر سبتمبر ١٩٥٥ بدأت الانباء عن هذه الصفقة تتسرب الى الصحافة الغربية ، وقد أثير موضوعها في اللقاء الذى تم بين عبد الناصر والسفير البريطاني رالف ستيفنسون .

كان ستيفنسون منقولا من القاهرة ، وكانت مقابلته لعبد الناصر من اجل توديعه ، كما تقضي الاعراف الدبلوماسية .. وكان السفير الاميركي هنري بايرود قد اجتمع في شهر يونيه بعبد الناصر الذي أبلغه أن لديه عرضا للحصول على الاسلحة من الاتحاد السوفياتي ، وانه ما لم توافق أميركا على تزويده بالاسلحة فانه سوف يقبل ذلك العرض . (١) « وقد عمد بايرود فيما بعد الى ابلاغ ذلك لزميله البريطاني الذي اغتنم مقابلة الوداع ليقول لعبد الناصر « انه بلغه أن مصر تفكر في شراء الاسلحة من الاتحاد السوفياتي ، وانه لذلك يحذر بمنتهى الجد من الاقدام على هذه الخطوة كآخر عمل أقوم به في بلادكم » « ذلك أن شراء الاسلحة من روسيا سيكون عملا محفوفا بالاخطار الجسام ، وسيؤدي الى كثير من الصعوبات » . (٢) وقد غضب عبد الناصر لذلك . (٣)

في تلك الفترة بينما الانباء تتواتر عن صفقة الاسلحة

(١) ستيفنس روبرت ، ناصر ص ١٥٩ .
(٢) هيكل : عبد الناصر والعالم ، ص ٧٩ .
(٣) ستيفنس روبرت ، ناصر ، ص ١٥٩ .

السوفياتية لمصر ، وهجمة حلف بغداد على المنطقة تزداد ضراوة ، كانت اسرائيل تصعد من اعتداءاتها على خط الهدنة مع مصر ، وخاصة على منطقة قطاع غزة المكتظ بالسكان .. وبلغت تلك الاعتداءات ذروتها بالهجوم الغادر على مركز الشرطة في خان يونس في ٣١ اغسطس ، وقصف مدينة غزة بقنابل المدفعية لتفتك بالكثير من المدنيين .

كانت مصر ترد على تلك الاعتداءات بحملة واسعة من عمليات الفدائيين الذين كانوا يوجهون ضرباتهم الموجعة في اعماق اسرائيل ، ويسببون الذعر الشديد لسكانها ، ويلحقون الدمار في أهم منشآتها العسكرية ، وكان اهمها المفاعل الذري في روبين وميناء أسدود الذي كان في مرحلة التنفيذ .

ومع اقتراب شهر سبتمبر من نهايته كانت التكهنات الغربية حول صفقة الاسلحة قد بدأت تعزز بالمعلومات .. وبناء على ذلك تلقى السفير البريطاني الجديد همفري تريفليان تعليمات من لندن لمقابلة عبد الناصر والاستفسار منه عن صحة ما يتردد عن صفقة الاسلحة .. وقد تمت المقابلة يوم ٢٧ سبتمبر .

وذكر روبرت ستيفنسون استنادا الى السفير البريطاني ذاته « أن عبد الناصر أكد له أنه وقع اتفاقية أسلحة عن طريق براغ . (١) وكان من الطبيعي أن يعمد تريفليان الى نقل هذا التأكيد لحكومته في لندن .. وتلقفت وزارة الخارجية البريطانية ذلك ، وبادرت دون استئذان من عبد الناصر ودون التشاور أو الرجوع للسفير البريطاني في القاهرة ، الى اصدار بيان صحفي في اليوم التالي مباشرة ٢٨ سبتمبر كشفت فيه تلك الصفقة .. وغضب عبد الناصر لذلك ، لان السفير البريطاني غدر به وخان الثقة ، ثم لان المحاولة البريطانية كانت تستهدف احراجه ووضعه في الزاوية . » (٢)

وقبل أن يصدر من القاهرة أو براغ أو موسكو اي بيان

---

(١) روبرت ستفنس ناصر ص ١٦٠ .
(٢) المصدر السابق ص ١٦٠ .

حول الموضوع ، وبناء على بيان وزارة الخارجية البريطانيه، عمد دالاس وزير الخارجية الاميركية الى ايفاد كيرمت روزفلت، الذي لعب دورا بارزا في تدبير الانقلاب علي مصدق في ايران ، كمبعوث شخصي له في مهمة فورية عاجلة وصفت بأنها كانت تستهدف حمل جمال عبد الناصر على وقف تلك الصفقة.

ولكن عبد الناصر قرر تفويت الفرصة على مبعوث دالاس قبل ان يصل القاهرة ، ووجد ان افضل سبيل الى ذلك هو الاعلان عن صفقة الاسلحة لكي لا يبقى لدى المبعوث الاميركي اي مبرر للحديث عنها ، اذ أن الحديث عنها بعد اعلانها يصبح تدخلا في شؤون مصر الداخلية ، وهذا ما لا يسمح به عبد الناصر ، ولم يسمح به ابدا .

كان لا بد من مناسبة يتكلم فيها عبد الناصر ويعلن النبأ الخطير ، ولم يجد غير معرض فني للقوات المسلحة ، فاغتنم المناسبة ، وذهب لزيارة ذلك المعرض يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٥٥ ، وخطب على الفور في زواره الذين كانوا اقل من مائة شخص ، وأعلن في ذلك الخطاب : ان مصر وقعت اتفاقية سلاح مع تشيكوسلوفاكيا .

كان هذا الاعلان بصفقة الاسلحة، من أهم واخطر الاحداث والانباء التي وقعت بعد الحرب العالمية الثانية، لانه كان اعلانا بانهاء مرحلة في العلاقات الدولية ، وبدء مرحلة جديدة كبيرة الاهمية في اندفاعة حركة التاريخ وتصفية الاستعمار العالمي .. وكان ذلك الاعلان في نفس الوقت تحطيما لاحتكار السلاح ، وفتح الابواب أمام الشعوب لكي تثق في نفسها وقدراتها ، وتجتاز الحاجز الوهمي للخوف ، وتمارس ارادتها وفق مقتضيات مصالحها .

لقد أصبح الحديث عن صفقة الاسلحة المعلنة موضع الاهتمام الاول في السياسة الدولية عامة ، وبالنسبة للولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا على وجه الخصوص .. ذلك ان كل مخططات الاستعمار والامبريالية الاحتوائية تجاه مصر اسقطها

عبد الناصر وبددها بضربة واحدة .

لقد كانــت ضربة مذهلة ..

كان تأثيرها في الوطن العربي : انها فجرت موجا تعارمة من التأييد والالتفاف حول جمال عبد الناصر ، وجعلت منــه بطلا قومياً وقائدا ثوريا للامة العربية كلها ، واملا كبيرا لجميع الشعوب الافريقية والاسيوية المناضلــة ضد الاستعمـــار والسيطـــرة .

وقد قابلتها حكومات وشعوب الدول الاشتراكية وغــير المنحازة بحماس وترحيب شديدين لانها كانت انتصارا لارادة الشعوب ، وهزيمة للاحلاف العسكرية الاستعمارية .

اما الولايات المتحدة الاميركية، زعيمة المعسكر الاستعماري، فقد ارادت ان تمارس ارهابها وقوتها ، مشحونة بانتصارها على « اربنيز » في غواتيمالا ، ومن قبل على مصدق فــي ايـــران ..

ولكن عبد الناصر الذي كان قد رمى قفاز التحدي فــي وجهها ، عرف كيف يوقفها عند حدها ، ويمنعها من التدخل في شؤون مصر الداخلية ، ويفرض عليها وعلى مبعوثهااحترامه والحفاظ على كرامته ، احتراما لمصر وشعبها العربــي ، وحفاظا على كرامة الامة العربية .

كان كيرمت روزفلت المبعوث الاميركي قد وصل القاهـــرة صباح ٢٩ سبتمبر ، بعد ساعات قليلة من خطاب عبد الناصر، وكان حاملا معه رسالة تحمل في سطورها ومعانيها غضب دالاس الشديد ، وانذارا انفعاليا لعبد الناصر لالغاء صفــقة الاسلحة ، والا فان الولايات المتحدة الاميركية تعتزم اتـــخاذ التدابـــير الاربعة الاتية :

١ ــ ايقاف كل المساعدات الاميركية لمصر .

٢ ــ ايقاف كل التجارة مع مصـــر .

٣ ــ قطع العلاقات الدبلوماسيــة .

٤ ــ محاصرة مصر ومنع اي سفينة تحمل سلاحا مـــن

الوصول اليـــها . (١)
ولكن كيرمت روزفلت لم يسلم تلك الرسالة لعبد النـاصـــر بناء على نصيحة السفير الاميركي بايرود الذي اشار عليه ان يكون دبلوماسيا رقيقا .
وقد عمل روزفلت بنصيحة السفير الاميركي ، فلم يسلم الرسالة لعبد الناصر وحاول اقناعه في محادثات استمـــرت يومين بالعدول عن اتمام الصفقة مقابل اغراءات ووعودامیركية كبيرة ، ولكن عبد الناصر لم يتزحزح عن موقفه . وكان ذلك يعني فشل مهمة روزفلت ومزيدا من التحدي للولايات المتحدة الاميركيـــة .
ورغم ان دالاس غضب غضبا شديدا لان روزفلت لم يسلم رسالته لعبد الناصر ، ثم لان مهمته فشلت في القاهرة ، الا انه لم يشأ ان يستسلم لهذا الفشل ، فقرر ايفاد وكيلوزارة الخارجية الاميركية « جورج الن » ومعه رسالة هامة تحيطه حملة اعلامية ارهابية ضخمة بقصد التأثير على موقف عبـــد الناصر ! وكان اخطر ما نقلته وكالات الانباء وقتئذ واثر بالتالي على مهمةالمبعوث الجديد، ان جورج الن يحمل انذارا الـــى عـــبد الناصـــر .
ولم يضعف عبد الناصر امام تلك الحملة الارهابية رغـــم خطـــــورة الموقـــف ودقتـــه وحراجته ، ثـــم رغم انه لم يكـــن قـــد استلـــم بـــعد قطعـــة واحـــدة مـــن صفقـــة الاسلحة السوفياتية .. وانما عمد الى قطع الطريق علـــى جورج الن ، فاستدعى كيرمت روزفلت واطلعه علىبرقيات وكالات الانباء الاميركية والعالمية وقال له :
« اذا صحت هذه الانباء وقدم اليه الن انذارا ، فانه سيدق الجرس الموضوع على مكتبه ، ويأمر رئيس تشريفاتالرئاسة بان يطرد الزائر الاميركي ، ومن ثم سيخرج شخصيا ويبلغ مراسلي الصحف انه قطع العلاقات الدبلوماسية معالولايات المتحدة . انه لن يسمح بتوجيه تهديد اليه » (٢) .

---

(١) هيكل . عبد الناصر والعالم ص ٨٢ .
(٢) المصدر السابق ص ٨٣ .

حدث ذلك بينما جورج الن ما زال طائرا في طريقه الى القاهرة.
هنا ، ليقف القارىء لحظة تأمل في شخصية جمال عبد الناصر واسلوبه في ارغام عمالقة القمة الدولية على احترامه، احتراما لاستقلال مصر الثورة وحريتها في ممارسة ارادتها.

ان كيرمت روزفلت ، بعد خروجه من مقابلة عبد الناصر تداول الامر مع اركان السفارة الاميركية ثم توجه الى المطار ومعه السفير الاميركي « بايرود » « واريك جونستون »صاحب مشروع استغلال مياه نهر الاردن الذي كان موجودا وقتئذ في المنطقة لمناقشة مشروعه مع حكوماتها المعنية.

كانوا قد قرروا الاتصال بجورج الن وهو في الطائرة لتفادي وقوع كارثة مدمرة .. فوجهوا اليه رساله بواسطة برج المطار طلبوا فيها اليه أن لا يدلى بأية تصريحات للمراسلين الصحفيين المتجمعين في انتظار وصوله .. كان الامر مفاجئا للمبعوث الاميركي ، ولكنه عمل بالنصيحة .

وفي طريق العودة من المطار اشاروا عليه بأن الموقف بلغ من التوتر حدا يقتضي منه ان لا يتقدم الى عبد الناصر بالرسالة المكتوبة ، وان عليه أن يتكيف مع الوضع ، وان يسرد شفويا بعض محتويات هذه الرسالة ، لكن دون توجيه اي انذار بأي حال من الاحوال .

واقتنع « الن » بحجج زملائه واحتفظ في جيبه بالرسالة ، واجرى حديثا طويلا مع عبد الناصر ، لكنه لم يصل معه الى شيء . وعندما قال للرئيس : أن دالاس متضايق أجاب الرئيس : فليكن ، أنه متضايق ، ولكن شعبي مهدد . وقال الن انه في حالة قيام الرئيس بالغاء الصفقة الشيوعية فان من شأن الولايات المتحدة ان تتطلع بايجاب الى قضية امداده بالسلاح !

واجابه عبد الناصر قائلا :

لقد فـــات الاوان . (١)

نعم ، لقد فات الاوان . لم تعد مصر اقطاعية للغرباء ، ولا اقطاعية للاستعمار يتصرف بها السفير البريطاني من قصر الدوبارة كما يتصرف الاقطاعي بعزبته من قصره المشـــــاد بجماجم وعظام الفلاحين .

أن تحطيم احتكار السلاح ، لم يكن فتحا لابواب مصروالوطن العربي للشيوعية ولا للنفوذ السوفياتي ، وانما كان تأكيدا للاستقلال ، وممارسة للارادة المستقلة .. فالكتلة الاشتراكية موجودة ، والاتحاد السوفياتي يتربع بجوار الولايات المتحدة الاميركية على القمة الدولية ، ولم يكن من مصلحة الشعوب التعامي عن هذه الحقيقة وابقاء التعامل امتدادا لعـــــهد الاستعمار ، محصورا في اطار المعسكر الغربي الاستعماري.

لقد كان احتكار السلاح من اخطر الاسلحة الخفية التيكان يستخدمها الاستعمار لابقاء الدول حديثة التحرر والاســـتقلال ضعيفة لا تقوى على التمرد عليه أو الثورة ضده ، فتبقـــي مجالا لاستثماراته واحتكاراته اللصوصية .. وهذا هو بيت القصيد بالنسبة للاستعمار والامبريالية .

بذلك فان عبد الناصر عندما حطم احتكار السلاح انما حطم أقوى واخطر اسلحة الاستعماريين ، وفتح ابوابا واســـعة للشعوب تجتاز منها الحاجز الوهمي للخوف ، وتنطلقلممارسة ارادتها وتأكيد استقلالها وحريتها وبناء علاقاتها الدولية وفق مصالحها الوطنية والقومية .

***

أن مصر الثورة بتحطيم احتكار السلاح ، أكدت استقلالها ، وحررت نفسها من جاذبية الاستعمار ، وغدت قادرة علـــى اتباع السياسة النابعة من مصالحها الوطنية والقوميـــــة

---

(١) المصدر السابق ص ٨٦ .

والانسانية ، واصبحت بذلك رائدة للدول والشعوب المناضلة من اجل الاستقلال الحقيقي ، واكثر تأثيرا في السياسة الدولية ، وموضع احترام فعلي على كافة المستويات ..

ولم يكن تحطيم احتكار السلاح يعني أن أبواب ترسانة الاسلحة السوفياتية غدت مفتوحة على الاخر ، أو أن التعامل مع الاتحاد السوفياتي في هذا المجال كان هينا دون عقد أو تعقيدات .

ان عبد الناصر كان يعلم جيدا بأن الاتحاد السوفياتي لن يمكنه من الحصول على السلاح الذي ينهي به الدولة الصهيونية .. فسياسته منذ التصويت على مشروع تقسيم فلسطين في الامم المتحدة في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ ، ثم منذ سباقه مع الولايات المتحدة الاميركية في الاعتراف باسرائيل في ١٥ مايو ١٩٤٨ ، تقوم على أساس الابقاء على الدولة الصهيونية العدوانية وتثبيت وجودها واعطائها الصفة القانونية .. ورغم ذلك فان عبد الناصر اتجه الى الاتحاد السوفياتي للحصول على السلاح لان كل الابواب الاخرى اقفلت في وجهه .. وكان في حاجة الى السلاح لحماية الثورة والدفاع عنها ومواجهة التحديات الصهيونية الامبريالية .

وكانت وجهة نظر عبد الناصر : ان هزيمة اسرائيل وتحرير فلسطين واعادة شعبها العربي لدياره سوف تبقى مرتبطة بالقدرة العربية الذاتية .. وان هذه القدرة تبقى مرتبطة بتحرير الوطن العربي من السيطرة الاستعمارية وتحقيق وحدته ، وانه بالتالي اذا لم يتمكن بالسلاح السوفياتي من تحرير فلسطين مباشرة فانه بهذا السلاح يحمي الثورة ، ويعمق جذورها ، ويمكنها من اداء مسؤوليتها القومية في تصفية الاستعمار وتمهيد الطريق امام الوحدة العربية ، فتتحقق القدرة العربية الذاتية القادرة على هزيمة اسرائيل وتحرير فلسطين ..

والاتحاد السوفياتي الذي لم يسبق له قبل صفقة الاسلحة

مع مصر ان باع سلاحه لغير الدول الشيوعية ، لم يوافق على بيع السلاح لمصر حبا بعبد الناصر ، وانما تقديرا له واحتراما لمواقفه الشجاعة ضد الاحلاف العسكرية التي كانت تستهدف الاتحاد السوفياتي نفسه في الدرجة الاولى ..

ولو لم تكن هناك مصلحه ذاتية للاتحاد السوفياتي تلتقي مع الخط السياسي والنضالي الذي كان ينتهجه جمال عبد الناصر لما وافق على بيعه السلاح ..

اذن ، كانت صفقة الاسلحة السوفياتية نتيجة تلاق مرحلي اساسه العداء للاستعمار والاحلاف العسكرية .

ولقد امكن اقامة جسور من الصداقة والتعاون المثمر على اساس هذا التلاقي المرحلي تحققت من جرائه فوائد مشتركة للطرفين ، رغم التناقض الاستراتيجي بينهما الناتج أساسا عن الموقف الشيوعي الذي يتزعمه الاتحاد السوفياتي من القومية العربية ، والوحدة العربية ، ومبدأ وجود اسرائيل والحق العربي في فلسطين ..

كان هناك ادراك واع من عبد الناصر وقادة الاتحاد السوفياتي لهذا التناقض الاستراتيجي .. رغم ذلك كان هناك حرص من الطرفين على ضرورة الاستفادة من نقاط التلاقي بينهما واقامة جسور الصداقة والتعاون عليها ، وبذل الجهود المشتركة لتقويتها وتطويرها ، والاستفادة من ذلك في تخفيف حدة التناقضات الاستراتيجية وتوفير المناخ الملائم للتعايش والتعاون في ظلها .

واذا كان هذا التلاقي والتعاون ممكنا بين عبد الناصر والاتحاد السوفياتي في ظل التناقضات الاستراتيجية ، فانه لم يكن ممكنا مع الولايات المتحدة الاميركية والدول الاستعمارية الغربية ، لانعدام نقاط التلاقي ، ثم لان التناقضات العدائية معها تبدأ من أول نقطة في خطها السياسي حتى اخر نقطة في بعدها الاستراتيجي .

ومما لا شك فيه أن الاتحاد السوفياتي من جانبه تأثر بمواقف عبد الناصر المعادية للاستعمار وأحلافه ووجد فيه نقاطا كثيرة للتلاقي فقرر الانفتاح عليه والتعاون معه .

بذلك تمكن عبد الناصر ، بما كان يتمتع من ثقة وتقدير واحترام ، ان يحصل من الاتحاد السوفياتي على كميات ضخمة من الاسلحة وانواع متطورة منها لم تمتلكها الدول الشيوعية الاعضاء في حلف وارسو .. ورغم ذلك فان السلاح الذي كان أحد أسباب تفجر التناقضات والعلاقات بين عبد الناصر والمعسكر الرأسمالي الاستعماري ، كان أيضا سببا في توتر خفي للعلاقات بين عبد الناصر والاتحاد السوفياتي ، ذلك لان عبد الناصر لم يحطم احتكار السلاح الاميركي البريطاني الفرنسي ليصبح تحت رحمة الاتحاد السوفياتي !

كانت سياسة الولايات المتحدة الاميركية والدول الغربية، وما زالت ، تقوم على أساس ابقاء اسرائيل متفوقة في السلاح الهجومي وخاصة الطائرات منها على جميع الدول العربية ! ورغم أن كثيرا من الحكومات العربية بحكم اقليميتها وطبيعة نظمها ودورانها في اطار الجاذبية الاميركية والغربية ، لا تشكل خطرا على اسرائيل ، الا أن السياسة الاستعمارية الامبريالية كانت تستغل الكم العربي لتغطية صفقات السلاح الفرنسية والبريطانية والالمانية الغربية ، ثم الاميركية ، لاسرائيل ..

وكان أحد الاهداف الاستراتيجية الاميركية من وراء ابقاء اسرائيل متفوقة في السلاح على الدول العربية مجتمعة هو استدراج عبد الناصر في سباق غير متكافيء في التسليح لاستنزاف قواه وموارد مصر وعدم تمكينه من الاستفادة منها في مشروعات التنمية وبناء المصانع وحل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية ..

ورغم انه كان يتعين على عبد الناصر ان يحصل على السلاح

بثمن ، في حين كانت اسرائيل تحصل على السلاح بصفة معونات في أغلب الاحيان ، الا انه كان يواجه متاعب جمة ومصاعب كبيرة في اقناع الاتحاد السوفياتي لبيعه السلاح الذي يجعله متكافئا مع اسرائيل وخاصة في سلاح الطائرات النفاثة المتطورة .

أن الاتحاد السوفياتي بفعل تمسكه بحق اسرائيل في البقاء، ثم بفعل مقاييسه الخاصة الدقيقة للسياسة الدولية ، وادراكه لطبيعة العلاقة شبه العضوية بين الولايات المتحدة الاميركية واسرائيل ، فانه كان يحرص على ابقاء القوة الدفاعية المصرية متكافئة مع القوة الهجومية الاسرائيلية ، وبذلك فان الاتحاد السوفياتي كان على استعداد لتلبية احتياجات مصر الدفاعية في حين كانت الدول الغربية متأهبة لاهداء اسرائيل المزيد من الاسلحة الهجومية التي تجعلها ممسكة بزمام المبادرة .

وبفعل التناقض بين نوع السلاح الهجومي الذي كان يريده عبد الناصر ، وبين السلاح الدفاعي الذي كان يسمح الاتحاد السوفياتي ببيعه له ، وقعت خلافات استمرت حتى لحظة وفاته وتفاقمت بعدئذ .. ولكن كان هناك حرص من جانب عبد الناصر على معالجة هذه الخلافات بهدوء واتزان ، وايجاد الحلول المتطورة لها في ضوء علاقات الصداقة والحرص على تدعيمها وتنميتها بمزيد من التعاون في مجالات الصناعة والاقتصاد والتجارة وتصفية الاستعمار العالمي .

وتمكن عبد الناصر رغم كل خلافاته وتناقضاته العقائدية مع الاتحاد السوفياتي من أن يستدرجه بعد حرب ١٩٦٧ الى قلب المنطقة الملتهبة ، فتحمل السوفيات مسؤولية الدفاع عن الاجواء المصرية ، واتاحوا الفرصة بذلك للقوات المسلحة المصرية لاعادة بناء وحداتها . ثم حصل منه على الاسلحة المتطورة وعلى الاخص الصواريخ المضادة للطائرات التي مكنت القوات المسلحة المصرية من خوض حرب الاستنزاف،

ومن ثــم حرب اكتوبر ١٩٧٣ وتسجيل بطولاترائعة بعبور قناة السويس وتحطيم خط بارليف وهزيمة العدو علـــى ارض سينـــاء .

واذا كان عبد الناصر استعان بالخبراء السوفيات بعد حرب ١٩٦٧ فانه لم يكن يقصد من وراء ذلك خوض معركة التحرير بالجنود السوفيات ، ولم يعط الاتحاد السوفياتي ايةامتيازات تمس السيادة الوطنية مقابل ذلك . وانما كان هدفه وبالاتفاق مع السوفيات ، هو حماية الاجواء المصرية من غارات العمق التي كانت بداتها اسرائيل بطائرات الفانتوم والسكاي هوك الاميركية بضرب الاهداف المدنية متمثلة في مدرسة بحـــر البقر ومصنع ابي زعبل بجوار القاهرة ، ثم للاسراع في تدريب الضباط والجنود المصريين على الاسلحة الحديثة .

ان عبد الناصر كرر القول المعلن اكثر من مرة : انه يرفض أن يقاتل معركة التحرير بغير القوات المسلحة المصريـــة ، وبالاستعانة بجنود من الاتحاد السوفياتي او غيره .. وانه ليس في نيته شيء من ذلك على الاطلاق .

ولكنه بينما كان يحرص على تأكيد ذلك للاتحاد السوفياتي كان شديد الالحاح عليه ليبيعه السلاح الذي تحتاج الـــيه القوات المسلحة المصرية وتتمكن به من تصفية العـــدوان الامبريالـــي الصهيوني .

وكانت فجوة كبيرة بينما كان يريده عبدالناصروماكان يسمح الاتحاد السوفياتي ببيعه لعبد الناصر .. ونتج عن ذلـــك بطبيعة الحال خلافات وتناقضاتيمكن اضافتها الى التناقضين الرئيسيين من الحق العربي فيفلسطين ومن الوحدة العربية .

لقد تعرض عبد الناصر بسبب اقدامه على تحطيم احـــتكار السلاح الى ضغوط هائلة من الولايات المتحدة الاميركيةوالدول الاستعمارية الغربية والانظمة العربية اليمينية الاقليميـــة ، والقوى الرجعية والراسمالية والصهيونية في العالم كله .. وما كان لقائد غير عبد الناصر يقدر على الصمود في وجههذه

الضغوط التي أرفقت بسلسلة من المؤامرات الاجراميـــة ، ودعمت بأحد عشر محطة اذاعة سرية ، الـــى جانب اجهزة ووسائل الدعاية والاعلام الغربية والعربية العميلة ، تولت شن حرب نفسية شرسة لم يتعرض لمثلها قائد اخر فـــي التاريـــخ .

كانت محاولاتهم تستهدف ايهام الرأي العام العربي ، فـــي مصر وفي أرجاء الوطن العربي ، بأن عبد الناصر شيوعي ! وكانت حجتهم : أن الاتحاد السوفياتي لا يعطي السلاح لغير الشيوعيين . وكان هدفهم الآبعد من وراء ذلك هو : خلخلة الجبهة الداخلية وعزله عن الجماهير التي يستمد منها قوته.

ولقد صمد عبد الناصر في وجه تلك الهجمات ، واكد بالقول والممارسة « ان الذي يستورد السلاح من بلد لا يستـــورد المبادىء . أن السلاح نتيجة حاجة مادية محددة اليه تقتضيها ظروف عابرة . اما المبادىء فهي نتيجة تيارات ابعد عمـــقا من مقتضيات الظروف العابرة » . (١)

ورغم أن الهجمات والضغوط التي استهدفت عبد النـــاصر تصاعدت حتى بلغت حد العدوان المسلح ، الا انه صمـــد وانتصـــــر ..

★★★

أن صفقة الاسلحة السوفياتية الاولى التي بدا بها عـــبد الناصر تحطيم احتكار السلاح وجعلت العواصم الغربيـــة تتخبط في تقدير حجمها وثمنها اذ قدرتها واشنطن بـــ ١٠٠ طائرة ميغ مقاتلة وما بين ٣٥ ــ ٤٥ ــ طائره اليوشن ٢٨ قاذفة خفيفة و ١٠٠ دبابة ستالين وت ٣٤ وعده مئات مـــن ناقلات الجنود المصفحة والمدافع المتنوعة والعربات والذخيره، وقدرت ثمنها ما بين ٩٠ و ٢٠٠ مليون دولار . وكان ثمـــن هـــذه الصفقة وفق التقديرات البريطانية يتراوح بين ١٥٠

---

(١) مجموعة خطب وتصريحات وبيانات عبد الناصر : المجلد الثاني ص ٤٥٣

و ٢٠٠ مليون دولار وتشمل بالاضافة الى التقديرات الاميركية علـــى مدمرتين و ٢٠ قـــارب طوربيـــد ، وكاســـحات الغام . (١) هذه الصفقة كان ثمنها الفعلي حوالي الثمانين مليون دولار ، واشتملت بشكل رئيسي على الاسلحة التـــي تضمنتها القائمة المقدمة للولايات المتحدة الاميركية ، مضافـــا اليها انواعا من الاسلحة اقتضتها احتياجات القوات المسلحة المصريـــة .

ولكن التعامل التجاري في السلاح مع الاتحاد السوفياتي الذي بدأ بصفقة الثمانين مليون دولار ارتفع بفعل سبـــاق التسلح الذي فرضته الدول الاستعمارية حتى بلغ الاجمالـــي عدة آلاف الملايين من الدولارات واشتمل على أنواع مـــن الاسلحة لم يسبق استعمالها في الحروب العالمية .

ورغم هذا الحجم الهائل والاستنزاف الكبير للموارد ، فان عبد الناصر لم يسمح أن يكون التسليح على حساب التنمية، ولا على حساب الاستقلال الوطني .

ففي ظل التسليح ، تحققت المنجزات الاشتراكيه الضخمة ، واقيم أكثر من الف مصنع ، وتم بناء الاساس القوي للصناعة الثقيلة ، وبدات مصر تحولها الهام ، لاول مرة في التاريخ ، من بلد زراعي متخلف الى بلد صناعى زراعي يشق طريقه نحـــو التقـــدم .

وفي ظل التسليح ، تمكنت مصر الثورة من اداء مسؤوليتها القومية في محاربة الاستعمار وتصفيته تصفية كاملة كوجود احتلالي وسيطرة مباشرة من الوطن العربي كله ..

وما كان يمكن للوطن العربي أن يحقق تحرره بهذه السرعة الزمنية بـــدون الدور الذي أدته مصـــر .

وما كان لمصر أن تؤدي دورها في محاربة الاستعمار بدون

---

(١) ستيفنس روبرت . ناصر . ص ١٦٠

ثورة ٢٣ يوليو بقيادة جمال عبد الناصر .

وما كان لهذه الثورة الام ان تحقق كل ما حققت بدون تحطيم احتكار السلاح الذي حمل مسؤوليته جمال عبد الناصر .

واذا لم تتهيأ لعبد الناصر الظروف العربية والدولية الملائمة للاستفادة من الاسلحة السوفياتية في هزيمه العدوان الصهيوني واستعادة الحق العربي في فلسطين .. فان عبد الناصر استعان بهذه الاسلحة في حماية الثورة ، وتمكن باستمرار الثورة وتفاعلها مع حركات التحرر والجماهير العربية من طرد الاستعمار من كل الوطن العربي وازالة اخطر العقبات من طريق الوحدة سبيل الامة العربية لبناء القوة الذاتية القادرة على هزيمة العدوان الامبريالي الصهيوني وتحرير كل فلسطين ..

بهذا فان تحطيم احتكار السلاح ، رغم كل المضاعفات التي ترتبت عليه ، سوف يبقى نقطة تحول ، صنعها جمال عبد الناصر ، في تاريخ العلاقات الدولية واندفاع حركة التاريخ لمصلحة الشعوب .

★★★

الفصل السابع

الايام الخالدة

في مطلع الخمسينات مع ظهور عبد الناصر المفاجيء على المسرح الدولي ، كان الهدف الاستراتيجي للسياسة الامبريالية الاميركية :

● محاصرة الاتحاد السوفياتي والكتلة الاشتراكية عامة ·

● فرض السيطرة الامبريالية الاميركية على العالم قاطبة · •

ولم يكن ممكنا تحقيق الشق الاول من هذا الهدف الاستراتيجي بدون تحقيق الشق الثاني · اي انه من اجل ان تتمكن الامبريالية الاميركية من محاصرة الاتحاد السوفياتي والكتلة الاشتراكية التي ظهرت كأحدى نتائج الحرب العالمية الثانية كان لا بد لها من فرض سيطرتها على أنحاء العالم خارج الكتلة الاشتراكية بما في ذلك الدول الاستعمارية ومستعمراتها وكافة الدول المستقلة او حديثة التحرر والاستقلال ·

وقد ابتدعت الامبريالية الاميركية في أعقاب الحرب مشروع مارشال لانعاش دول اوروبا الغربية واليابان واعادة بناء اقتصادها المنهار على اسس رأسمالية متطورة لمواجهة احتمالات الثورة العمالية ، وحققت نجاحا ملحوظا في ذلك كان من ابرز مظاهره ، تغلغل الرأسمال الاميركي اليهودي في كافة المشروعات الرأسمالية الكبرى في جميع الدول التي تدفقت عليها اموال مشروع مارشال · ولم يكن لمشروع مارشال أن يستمر عدة سنوات ويحقق اهدافه بنجاح لولا اعتماد الامبريالية الاميركية على موارد النفط العربي ·

وكانت « المكارثية » حلقة جديدة في السياسة الامبريالية الاميركية متصلة بمشروع مارشال ومكملة له · فلقد تسبب ذلك المشروع في زيادة الضرائب ومضاعفة الاعباء المباشرة وغير المباشرة التي يتحملها المواطن الاميركي ، الامر الذي أدى الى ارتفاع أصوات كثيرة تنتقد بشدة السياسةالخارجية

الاميركية التي بات يدفع ثمنها دافع الضرائب والمستهلك ، وتطالب بالانكماش وراء خط مونرو ، اي في اطار نصف الكرة المغربي ، وعدم التورط في ازمات خارجية او التدخل في الشؤون الداخلية للدول الاخرى خارج ذلك الخط الوهمي .

كان هؤلاء الناقدون يشكلون خطرا على السياسة الاميركية الخارجية ، لذلك كان لا بد للقوى الرأسمالية الحاكمة من اسكاتهم . ولم يكن الاسكات ممكنا بدون قانون . وكان السناتور الاميركي « مكارثي » بطل ذلك القانون الظالم الذي اقره الكونغرس وأصبح سوطا تطارد به السلطة جميع الافراد والعناصر الليبرالية بحجة حماية البلاد من الشيوعيين ! ولقد تعرض مئات الالوف من المواطنين الاميركيين الى الطرد من الوظائف والاعتقال والاضطهاد ، تحت مظلة حماية البلاد من الخطر الشيوعي . وتسببت « المكارثية » في تفجير موجات متلاحقة من الارهاب والبطش لا مثيل لهما في بلد متحضر يصف نفسه ببلد الحريات ، ويضع على مدخل اكبر موانئه اكبر تمثال للحرية في العالم !

ولم يكن الشعب الاميركي وحده في المعاناة من المكارثية ، وانما عانت من « المكارثية » شعوب العالم .

فلقد كانت « المكارثية » تجسيدا مكثفا للسياسة الامبريالية الاميركية الداخلية والخارجية على السواء . وكان شعارها : حماية المجتمع الاميركي الحر ، والعالم الحر من الشيوعيين والخطر الشيوعي ! والشعار زائف ولا شك . وقد اتخذته الولايات المتحدة الاميركية ستارا لتنصب من نفسها رجل البوليس الوحيد في العالم ، وتبرر تدخلها في الشؤون الداخلية والخاصة للافراد على مستوى المجتمع الاميركي ، وللدول والمجتمعات الاخرى في انحاء العالم .

وتحت ستار الدفاع عن الحريات والديمقراطية ، وبحجة حماية المجتمعات الحرة من الشيوعية ، اباحت الامبريالية الاميركية لنفسها حق خنق كل صوت أو قلم ينتقد سياستها

الاستعمارية العدوانية ، وقتل كل مناضل حر يهب للدفاع عن حق بلاده في الحرية الحقة والاستقلال الحقيقي ، وقلب كل نظام حكم يفكر ، مجرد التفكير في التحرر من السيطرة الاستعمارية والافلات من جاذبية الاحتكارات الرأسمالية ، واقامة انظمة حكم عميلة تستمد قوتها من الدعم الاميركي لها ٠

واستغلت الامبريالية الاميركية انكماش الكتلة الاشتراكية على ذاتها ، وحاجة اقطار اوروبا الغربية الاستعمارية لمعونتها الاقتصادية والمالية ، بل ولحمايتها العسكرية ، لتحقق مكاسب استراتيجية كبيرة تمثلت في السيطرة على الدول الاوروبية الغربية والانطلاق بشراهة نحو مستعمراتها في القارتين اسيا وافريقيا لابتلاعها واحدة وراء الاخرى ، متذرعة بحمايتها من الخطر الشيوعي ! دون ان يكون هناك مثل هذا الخطر ، اذ كانت حركات التحرر الوطني والقومي من الاستعمار الاوروبي والامبريالية الاميركية هي السائدة وقتئذ في معظم الاقطار الاسيوية والافريقية واللاتينية ٠

ولم تكتف الامبريالية الاميركية بالهيمنة العسكرية والاقتصادية التي فرضتها على اوروبا الغربية،ولا بالاحتكارات الهائلة في انحاء العالم التي كانت تمارس من خلالها ابشع انواع السلب والنهب لثروات الشعوب ، وانما ارادت المزيد٠ وهذا المزيد الذي ارادته كان يعني وما زال ، احتواء العالم كله ٠

★★★

من اجل ان تنتظم عملية الاحتواء هذه ، ابتدعت الامبريالية الاميركية الاحلاف العسكرية لتكون اداتها ووسيلتها في تحقيق هدفها الاستراتيجي بشقيه المرتبط الواحد منهما بالاخر ، اذ انها بهذه الاحلاف تربط الجميع بسلسلة واحدة مركزها الرئيسي واشنطن لتضمن بذلك استمرار الهيمنة

والسيطرة والتدخل في الشؤون الداخلية ٠
وكان من الطبيعي ان تبدأ الولايات المتحدة الاميركية بحلف الاطلنطي الذي ضم اقطار اوروبا الغربية ، واهمية ذلك :
اولا : لانها متاخمة للاتحاد السوفياتي والكتلة الاشتراكية الاوروبية ٠
ثانيا : لانها اكثر بلدان العالم تقدما في كافة مجالات الحياة وخاصة الاقتصادية منها ٠

ثالثا : لانها ، وعلى الاخص بريطانيا وفرنسا ، صاحبة المستعمرات المترامية في اسيا وافريقيا والمحيط الهادىء ، والاستثمارات والاحتكارات البترولية في الوطن العربي ٠
وكانت تقديرات السياسة الامبريالية الاميركية انها من خلال حلف الاطلنطي سوف تنفتح امامها كافة السبل لربط اقطار القارتين اسيا وافريقيا باحلاف مكملة لحلف الاطلنطي من خلال العلاقات والروابط الاستعمارية التي غدت اول ضحايا شبكة الاحلاف العسكرية الاميركية ٠

وكانت بريطانيا اكثر الدول الاوروبية حماسا للتوسع في الاحلاف العسكرية ، مستهدفة من وراء ذلك الاحتفاظ باستثماراتها واحتكاراتها في مستعمراتها عامة وفي الوطن العربي بوجه خاص ٠ ولذلك نجد بريطانيا شريكة اساسية في سلسلة الاحلاف التي مرت بالشرق الاوسط وجنوب شرق اسيا حتى استراليا ونيوزيلندة ، ولكنها لم تكن تتحرك او تتصرف في هذا المجال بمعزل عن السياسة الامبريالية الاميركية ٠

ولم تكن بريطانيا في حقيقة الامر وهي تؤدي دورها في السمسرة للاحلاف العسكرية اكثر من اداة بيد السياسة الاميركية تحاول استغلال تبعيتها لتأمين مصالحها الاستعمارية ٠

وكان اكثر ما تستهدفه السياسة الاميركية من وراء الاحلاف هو السيطرة على الدول حديثة التحرر والاستقلال،

ولذلك فاننا نرى هذه الاحلاف تبتعد عن المستعمرات باعتبار انها فاقدة الارادة ومشمولة بالاحلاف عن طريق ارتباط سادتها الاستعماريين المرتبطين بحلف الاطلنطي الواقع تحت السيطرة الاميركية ٠

وكانت السياسة الامبريالية الاميركية تتحرك بسرعة كبيرة لاستكمال سلسلة الاحلاف واقامة حزام اميركي خال من الثغرات حول الاتحاد السوفياتي والكتلة الاشتراكية بحيث يكون الستار الحديدي للامبريالية الاميركية تخنق به كل الحريات وتقتل كل حركات التحرر في ارجاء العالم بحجة الدفاع عن الحرية والديمقراطية في وجه الخطر الشيوعي !

ولقد كان الوطن العربي هدفا رئيسيا للاحلاف العسكرية الاميركية لمجاورته للاتحاد السوفياتي من جهة ، ولاحتوائه على موارد بترولية هائلة من جهة اخرى ، ولاهمية موقعه وتأثيراته في القارتين افريقيا واسيا من جهة ثالثة ، ثم لضمان استمرار « اسرائيل »من جهة رابعة٠

وكان ظهور جمال عبد الناصر في تلك الفترة التي كانت فيها الولايات المتحدة الاميركية مندفعة بأقصى سرعتها لاستكمال سلسلة احلافها واحتواء العالم بذلك ٠

★★★

بعد ستة شهور من ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التي قادها عبد الناصر ظهر على المسرح الدولي جون فوستر دالاس وزير خارجية الرئيس ايزنهاور المنتخب حديثا وقتئذ ٠ ولقد اشتهر دالاس بسياسة حافة الهاويةوالتعصب الشديد للاحلاف العسكرية والكراهية الى ابعد حدود الكراهية للاتحاد السوفياتي والشيوعية وحرية الشعوب ٠

ولقد حاول دالاس ان يستغل هجمات الاتحاد السوفياتي والاحزاب الشيوعية ضد عبد الناصر من جهة ، وسعى عبد الناصر لانهاء الاحتلال البريطاني لمصر من جهة اخرى ،

وحاجته الى امكانات وموارد اضافية تمكنه من التغلب على المشاكل الاقتصادية والاجتماعية المتراكمة من جهة ثالثة... لاحتواء ثورة ٢٣ يوليو ، وربط مصر بالاحلاف العسكرية ، وتصفية القضية الفلسطينية . ومن اجل تحقيق ذلك لم يتردد دالاس في القيام بزيارة القاهرة للاجتماع بعبد الناصر بعد اربعة شهور من توليه منصبه الكبير الهام .

ورغم المصاعب الجمة التي كان يواجهها عبد الناصر على المستويين الداخلي والخارجي من جراء :

● تلاقي قوى اليمين واليسار متمثلة في الاخوان المسلمين وقيادات الاحزاب الاقطاعية والشيوعيين ضده !

● وتعرضه الى حملة ظالمة من الاتحاد السوفياتي واقطار الكتلة الاشتراكية تصفه بالدكتاتور الفاشستي الذي يسعى لسحق الجماهير !

● ووجود الخطر الصهيوني على الحدود وقطاع غزة في ظل حماية ثمانين الف جندي بريطاني لهذا الخطر في منطقة القناة .

● ووقوع الوطن العربي قاطبة من المحيط الى الخليج تحت الاحتلال الاستعماري المباشر ، او غير المباشر عن طريق حكومات وانظمة اقطاعية او عائلية او برجوازية عميلة .

● وعدم القدرة على شراء قطعة سلاح واحدة بفعل احتكار تجارة السلاح من جانب الدول الرأسمالية الاستعمارية .

● وعدم وجود تنظيم جماهيري يشق الطريق امام الثورة في صفوف العمال والفلاحين وكافة اوساط الشعب .

● ووجود عناصر يمينية في اعلى مناصب الدولة تحاول العبث وتفجير الخلافات في مجلس قيادة الثورة واوساط الجيش ..

رغم كل هذه المصاعب التي كان يواجهها عبد الناصر ويراهن عليها دالاس عند قدومه الى القاهرة ، فان جمال عبد

الناصر رفض الاستجابة للعرض الذي تقدم به وزير الخارجية الاميركي بشأن الانضمام للاحلاف العسكرية · وجادله في ذلك جدالا عميقا استند فيه على انه لا يمكنه ان يغض الطرف عن قوات الاحتلال البريطاني في قناة السويس على بعد عشرات الاميال فقط من القاهرة ، ولا عن الخطر الاسرائيلي الجاثم في قلب الوطن العربي ، وينشغل بخطر وهمي يبعد خمسة الاف ميل ولم يسبق له ان استعمر جزءا من الوطن العربي ولا استحوذ على ثرواته !

لقد كان هذا الرفض في مفهوم عبر الناصر الثائر انعكاسا وتجسيدا للارادة المستقلة الحرة التي كان قد صمم على انتهاجها منذ لحظة انتصار الثورة رغم المتاعب والمشاكل الكبيرة التي ستترتب على ذلك ·

ولكن هذا الرفض في مفهوم جون فوستر دالاس وامثاله من الاستعماريين والامبرياليين ، كان يعني تمردا وعصيانا وتطاولا من جانب ضابط صغير اسمه جمال عبد الناصر ضد الاستعمار العالمي بقيادة الزعيمة الجديدة التي تمثل أعتى واقوى دولة امبريالية عرفها التاريخ ·

ولم يكن دالاس من الرجال الذين يستسلمون للهزيمة او يرضون لزعيم ناشىء في بلد صغير مثل مصر التي تحتل موقعا ممتازا في اهم منطقة حيوية للامبريالية الاميركية والاستعمار العالمي ، ان يتمادى في الجرأة الى حد مجادلة وزير خارجية اميركا ورفض ارائه ومقترحاته ·

لقد فعل ذلك جمال عبد الناصر في تلك الظروف الصعبةالتي كان يواجهها داخليا وعربيا ودوليا ليؤكد بذلك ثوريته الحقة· فالثورية الحقيقية ليست مجرد الانقلاب على الواقع المرفوض والعمل على تغييره فحسب ، وانما بالقدرة على مواجهة التحديات والصمود في وجه الضغوط الدولية التي تحاول احتواء الثورات ووأدها جنبا الى جنب مع ممارسة ارادة التغيير ·

كان عبد الناصر وهو يرفض اقتراح دالاس بانضمام مصر الى منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط انما يرفض معونات سخية كان في حاجة ملحة لها ٠

لقد كان في حاجة الى معونات اقتصادية ومالية للاستعانة بها في مواجهة المشاكل والتحديات الداخلية ، وكانت الولايات المتحدة الاميركية وقتئذ هي البلد الوحيد في العالم القادر على تقديم تلك المعونات ٠٠ ولكنها لم تكن ، كما حالها الان ، على استعداد لان تقدم اي نوع من العون لاي نظام بدون ثمن سياسي ٠٠

ولم يكن عبد الناصر من جانبه على استعداد لان يقبل اي نوع من المعونات مقابل ثمن سياسي ، بغض النظر عن شكل هذا الثمن ، لانه يعني الانتقاص من السيادة والاستقلال، ولذلك فانه رفض الاحلاف ورفض معها بالطبيعة كل المعونات الاميركية !

وكان عبد الناصر وقتئذ في حاجة شديدة للسلاح ، ولم يكن امامه كذلك غير ابواب الولايات المتحدة الاميركية ٠٠ ولكنها اشترطت الانضمام للاحلاف ٠٠ ورفض ذلك ، ورفض مع ذلك امكانية حصوله على اي نوع من السلاح ، اللهم غير ذلك المسدس الفضي الذي اهداه دالاس للواء محمد نجيب اثناء زيارته للقاهرة في مايو ١٩٥٣ !

غير ذلك المسدس الفضي لم تحصل مصر طوال فترة حكم عبد الناصر منذ لحظة قيام الثورة حتى وفاته على اي نوع من السلاح الاميركي !

كذلك لم يقم بين عبد الناصر والولايات المتحدة الاميركية في عهود رؤسائها المتعاقبين : ترومان وايزنهاور وكنيدي وجونسون اي مقدار من الثقة مهما كان طفيفا ٠٠ والسبب في ذلك يرجع الى رفض عبد الناصر للاحلاف العسكرية وسياسة الاحتواء الاميركية ٠

وكان من البديهي والطبيعي ان تعمد الولايات المتحدة الاميركية الى اتباع شتى السبل والوسائل ، الاجرامية منها واللااخلاقية ، لتضييق الخناق عليه ، ومحاصرته وعزله ، واثارة المشاكل والعقبات في طريقه ، وتدبير المؤامرات ضده في محاولات متلاحقة للتخلص منه او على الاقل لارغامه على الاستسلام لسياستها وارادتها ..

وكان الضغط الامبريالي الاميركي على عبد الناصر يزداد مع ازدياد قوة تيار الثورة العربية الذي انطلق من القاهرة واخذ يتغلغل في اعماق الوطن العربي ... فاندفاع هذا التيار كان يعني تفجير طاقات القومية العربية ، وتهديد المصالح الاستعمارية ، والانظمة الاقليمية والاقطاعية والعائلية المرتبطة بالاستعمار البريطاني بشكل خاص . الامر الذي كان يجعل تلك الانظمة دائمة الصراخ والاستغاثة من بريطانيا والالحاح عليها من اجل ان تشدد الضغط على عبد الناصر واسقاطه .

لم تكن تلك الانظمة قد ادركت الحقيقة بعد ، ولا حقيقة ما انتهت اليه بريطانيا ..ولم يكن من مصلحة بريطانيا ان تكشف لتلك الانظمة الجاهلة العمياء عن حقيقة امرها ولا حدود طاقتها ، فكانت تغطي عجزها باللجوء الى الولايات المتحدة الاميركية الزعيمة الجديدة للاستعمار العالمي .. وكانت اميركا بدورها تقف عاجزة امام عبد الناصر ، فلا هي قادرة على اغرائه بمعوناتها المجبولة بالسم الزعاف ، ولا هو راض باحلافها .

ومضت المؤامرات تباعا ، مرفقة بالمحاولات والمداورات على مدى تسعة وعشرين شهرا متتالية ، حتى جاءت نهاية ١٩٥٤ دون ان يتحقق اى مقدار من النجاح للسياسة الاستعمارية الامبريالية الامر الذي كان يعني بالمقابل تعميق جذور الثورة العربية ثورة ٢٣ يوليو وازدياد قوة ونفوذ جمال عبد الناصر ومع نهاية ذلك العام ، ١٩٥٤ ، كانت سياسة النفس

الطويل التي حاولتها الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا لاحتواء عبد الناصر واستدراجه للاحلاف العسكرية قد نفدت وسقطت ، اذ ان الانتظار لفترة اخرى دون ربط اقطار منطقة الشرق الاوسط في سلسلة الاحلاف كان مجازفة غير مضمونة النتائج ، بل مضمونة الفشل ، وينبىء باخطار كبيرة قد تتحول الى كارثة تصيب سياسة الاحلاف كلها ، ذلك لان تيار الثورة العربية اخذ يهدد الانظمة الاقليمية العميلة ، ويفجر طاقات النضال في ارجاء الوطن العربي الذي كان وما زال اهم المناطق الاستراتيجية في العالم بالنسبة للاحتكارات الرأسمالية العالمية · بذلك ، تحركت الولايات المتحدة آلاميركية وبريطانيا لمواجهة هذا الخطر لربط اقطار المنطقة بحلقة جديدة من الاحلاف ثلاثية الهدف : اذ كانت تستهدف تطوير السيطرة على دول المنطقة ، ومحاصرة عبد الناصر وثورة ٢٣ يوليو ، واستكمال الحزام الحديدي حول الاتحاد السوفياتي والكتلة الاشتراكية ·

حتى ذلك الحين ، رغم ان الاحلاف العسكرية والاستعمارية كانت تستهدف الاتحاد السوفياتي استراتيجيا ، كان عبد الناصر يقاوم الاحلاف بضراوة ويواجه في نفس الوقت التكتل غير الواعي وغير المخطط له على الاغلب بين الشيوعيين والاخوان المسلمين وقيادات الاحزاب الاقطاعية !

★★★

لقد تداخلت الاحداث والمؤامرات والمواقف المتناقضة في صيف عام ١٩٥٤ بشكل شديد التعقيد بحيث غدت تنذر باحتمالات شتى في منطقة الشرق الاوسط وعلى الاخص في مصر والمشرق العربي ، وكذلك في ايران وتركيا ·

كان عبد الناصر في يوليو ١٩٥٤ ، قد انتزع موافقة بريطانيا على انهاء احتلالها لمصر والجلاء النهائي عنها خلال عامين ، وقد تم الجلاء فعلا في الحادي عشر من شهر يونيه ١٩٥٦ م

في ذات الشهر ، يوليو ١٩٥٤ ، شهدت القاهرة والاسكندرية مؤامرة اجرامية دبرتها الصهيونية العالمية بالاشتراك مع المخابرات الاميركية والبريطانية تمثلت في تفجير القنابل في عدة دور عرض سينمائية اودت بالعديد من الابرياء واستهدفت خلخلة الجّبهة الداخلية واثارة الفوضى ، على امل ان يؤدي ذلك الى عرقلة مفاوضات الجلاء في مرحلتها الاخيرة ، وايجاد مبرر للمفاوض البريطاني لتأجيل توقيع الاتفاقية التي كانت وقتئذ في طور الاعداد ، واضعاف موقف عبد الناصر امام القوى المناوئة له . ولكنه واجه الموقف بقوة ورباطة جاش ، ونجح في احباط المؤامرة والقبض على منفذيها من اليهود الصهيونيين واستفاد من ذلك على عكس ما كانوا يستهدفون ، فتعزز موقفه امام المفاوض البريطاني وحصل منه على وثيقة انهاء الاحتلال الذي كان قد استمر اكثر من سبعين عاما .

في ذات الشهر ، في الذكرى الثانية لثورة ٢٣ يوليو ، اعلن عبد الناصر في خطابه التقليدي الذي اعتاد على القائه في هذه المناسبة دون انقطاع ، ان هدفه هو تحرير كل الوطن العربي ومحاربة الاستعمار اينما كان ، وجعل العرب قادرين على الدفاع عن انفسهم من خلال تقوية روابط الوحدة بينهم وأبعادهم عن الاحلاف العسكرية ومناطق النفوذ .

وفي ذات الشهر ايضا ، يوليه ١٩٥٤ ، التزاما من عبد الناصر بدعم حركات التحرر في العالم بدأ في دعم حركة الماوماو التي كانت تقاتل الاستعمار البريطاني في كينيا ، وتولت اذاعة القاهرة توجيه اذاعة خاصة باللغة السواحيلية لتحض شعوب شرق افريقيا على الثورة ضد المستعمرين ناهبي الثروات وجلادي الشعوب .

واذا اضفنا الى ذلك قرار عبد الناصر التاريخي الذي اكد به تحمله لمسؤولياته القومية بتوفير كل ما تحتاج اليه ثورة الجزائر من امكانات ، وشحن اول دفعة من السلاح من

الاسكندرية بواسطة اليخت «فخر البحار» وتأمين وصولها قبل انطلاق الثورة في الاول من نوفمبر بعدة اسابيع ، أمكننا ان نلمس وندرك بأن عبد الناصر جعل من مصر الثورة قاعدة للنضال ضد الاستعمار في ارجاء الوطن العربي وانحاء القارة الافريقية ٠

كان معنى ذلك ، ان القاهرة تغيرت تماما في اقل من عامين ٠ كانت قاعدة للاستعمار ، انطلق منها لغزو الجانب الشرقي من القارة الافريقية ، ثم انطلق منها بعدئذ في الحرب العالمية الاولى لاحتلال فلسطين والمشرق العربي ، ثم استغل فترة احتلاله لها لتوفير الظروف الملائمة لاقامة دولة اسرائيل في قلب الوطن العربي في فلسطين ٠٠ ثم بدأ التغير الجذرى الذي صنعه جمال عبد الناصر لتصبح القاهرة قاعدة تنطلق منها الثورة لتصفية الاستعمار من الوطن العربي وافريقيا ، وتساهم مساهمة ايجابية فعالة في تصفية الاستعمار في العالم وتعرية الامبريالية الاميركية واداتها اسرائيل قاعدة الصهيونية العالمية ٠

ان هذا التغير الجذري الذي طرأ على وضع القاهرة زاد من عداء الاستعمار العالمي لعبد الناصر وتصميمه على احتوائه بأى شكل من الاشكال وبأسرع وقت ممكن ٠

ولان الاستعمار البريطاني كان اكثر الاطراف الاستعمارية تعرضا للخطر ، واول المتضررين مباشرة من عبد الناصر ، فانه اصبح اكثر المتحمسين لتنفيذ اية سياسة تستهدف الاطاحة به ، او احتوائه للتقليل من خطورته ٠٠ ولم يجد في يده وقتئذ غير ورقة الاحلاف العسكرية ٠

★★★

كان الامر الطبيعي ان يعيد الاستعمار البريطاني توزيع قواته في المنطقة العربية في ضوء المتغيرات الناتجة عن جلائه من منطقة قناة السويس مستهدفا من وراء ذلك :

اولا : حماية وجوده ومصالحه ·
ثانيا : تدعيم وحماية الانظمة المرتبطة به ·
ثالثا : احتواء عبد الناصر وثورة ٢٣ يوليو وتمهيد الطريق لضربهما ·

وقد استقر رأى واضعي ومخططي سياسة الاستعمار البريطاني ، بالتعاون والتنسيق مع الامبريالية الاميركية ، على ضرورة الاسراع في اقامة حلف عسكري يضم منذ البداية بعض اقطار المشرق العربي · وكان العراق هو المهيأ لهذا الدور بحكم العلاقة بين نظام حكمه الملكي وبريطانيا ووجود نوري السعيد الذي كان شديد الايمان والحماس ليس فقط لربط العراق بالمعسكر الغربي الاستعماري ، وانما لربط كل الدول العربية بهذا المعسكر ·

كان العراق وقتئذ تحت السيطرة الاستعمارية البريطانية الكاملة عن طريق معاهدة غير متكافئة مماثلة لتلك المعاهدة التي كانت تربط مصر ببريطانيا ، ومماثلة ايضا للعديد من المعاهدات الجائرة غير المتكافئة التي كانت تربط الكثير من الاقطار والامارات والمشيخات العربية ببريطانيا · وكان للاستعمار البريطاني في العراق استثمارات هائلة اهمها البترول · كذلك الحال في الكويت ومنطقة الخليج وغيرها ·
وكان يهم بريطانيا بطبيعة الحال ان تبقى قوية في هذه المنطقة الحيوية الغنية بالبترول ، لتبقى محتفظة بدور الشريك مع الولايات المتحدة الاميركية المهتمة من جانبها بالاسراع في استكمال الاحلاف العسكرية من حول الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية والكتلة الاشتراكية ·

ولذلك ، فانها بينما كانت تواجه مصيرها المحتوم في مصر ، كانت تنقل ثقلها الى العراق ، مستعينة برجلها الارهابي نورى السعيد ، مستهدفة تفجير الخلافات العربية ليسهل عليها ممارسة سياسة «فرق تسد» ، ثم لاقامة محاور عربية متصارعة وجعل بغداد مناوئة للقاهرة ·· ثم للمشاركة مع الولايات

المتحدة الاميركية القوية في تركيا وايران وباكستان في صنع الحلف العسكري لمنطقة الشرق الاوسط الذي كانت اميركا مهتمة في ان يضم بعض الاقطار العربية منذ لحظة البداية ليسهل ابتلاع الدول العربية بعدئذ دولة وراء دولة ٠

وقد علم عبد الناصر مبكرا بالاتصالات السرية الجارية بين بريطانيا والحكومة العراقية برئاسة نورى السعيد ، ولم يشأ ان يفضح هذه الاتصالات ولا ان يهاجمها قبل ان يحاور العراقيين ويستطلع رايهم وموقفهم من مبدأ الاحلاف ، بانيا الامال على ان يكون نداء المصلحة العربية القومية فوق المصالح الذاتية والشخصية ٠ فأوفد عضو مجلس قيادة الثورة ووزير الارشاد صلاح سالم ليقوم بمهمة الحوار في صيف ١٩٥٤ بعد ايام قليلة من توقيع اتفاقية الجلاء ٠

ولقد حرص الملك فيصل وخاله الامير عبد الاله ورئيس الوزراء نورى السعيد على ان يكون الحوار بعيدا عن بغداد الملتهبة ، فجعلوه في سرسنك المصيف الجبلى الواقع في شمال العراق ٠ وفي الاجتماعات التي تمت هناك اوضح صلاح سالم وجهة نظر عبد الناصر ومجلس قيادة الثورة من الاحلاف العسكرية ، ولمادا ترفض مصر انضمام العراق لهذه الاحلاف باعتبار ان الانضمام لها يعني الانضمام لحلف الاطلنطي ، وطالبهم بعدم التسرع وضرورة اعطاء الوقت الكافي لتأمين سياسة بريطانيا والغرب تجاه العرب ، مشيرا الى انه ليس من الحكمة التورط في اية التزامات خارجية ، وانه من الافضل للدول العربية ان تتجه الى تقوية الجامعة العربية ومنع الدول الغربية من التلاعب بالدول العربية واستخدام الواحدة منها ضد الاخرى ، ولكن نورى السعيد رفض هذا المنطق بحجة ان هناك خطرا شيوعيا يهدد العراق وان العراق لا يمكنه ان يعتمد على الدول العربية لمواجهة هذا الخطر ! (١)

---

(١) ناتنج انطوني . ناصر ص ٧٨ ، الطبعة الانجليزية . لندن ١٩٧٢ .

وقبل ان يعود صلاح سالم الى القاهرة عقد مؤتمرا صحفيا في اعقاب اجتماعاته مع العراقيين اجاب فيه كما اوردت وكالات الانباء على سؤال يتعلق بموقف مصر من الوحدة بقوله : «اذا رغب شعبان او اكثر من الشعوب العربية الاتحاد فيما بينها بأى شكل من الاشكال فان مصر لا تعترض على ذلك» ٠

كان المطروح وقتئذ مشروع الهلال الخصيب ٠ وكان زعيم الفكرة منذ الاربعينات نوري السعيد يؤيده في ذلك اقطاب حزب الشعب في سوريا . وقد تلقفت اجهزة الدعاية الاستعمارية والعميلة المناوئة لعبد الناصر هذا التصريح لتشوه معناه وتصوره بأنه يحمل معنى الموافقة على مشروع الهلال الخصيب المشبوه ٠٠ بل ان بعض اجهزة الدعاية الاستعمارية ذهبت الى ابعد من ذلك ، فوصفته بانه موافقة على الانضمام للاحلاف العسكرية ٠

وكان رد الفعل لهذه الحملة الدعائية المستغلة لذلك التصريح ، قويا في اوساط الجماهير الرافضة للاحلاف في المشرق العربي ، وعلى الاخص في سوريا ، ولذلك انهالت الاف البرقيات على عبد الناصر مما اضطره الى تأكيد رفضه لمبدأ الاحلاف ، واستدعاء سفير نورى السعيد في القاهرة وابلاغه ذلك رسميا وتصعيد الحملة الاعلامية ضد عملاء الاستعمار والاحلاف بشكل عام ٠

كان ذلك مسببا للقلق والذعر لدى نورى السعيد ٠ فقد كان يأمل ان يكون ثمن الحفاوة بصلاح سالم وقف الحملة الاعلامية واستغلال ذلك في اتمام محادثات الحلف المقترح مع بريطانيا ٠٠ولذلك اسرع في السفر الى القاهرة والاجتماع مع عبد الناصر الذي اكد له رفض الاحلاف العسكرية بوجه عام ، وطالبه بعدم توريط العراق في الانضمام لاي حلف ، وبين له خطورة ذلك على العراق وعلى الامة العربية ، وكيف ان المستفيد هو الاستعمار واسرائيل ، ودحض له الادعاء القائل بان انضمام العرب للاحلاف سوف يجعل بريطانيا

والولايات المتحدة الاميركية تؤيدان الدول العربية ضد اسرائيل لان هاتين الدولتين الاستعماريتين هما اللتان خلقتا اسرائيل ولا يمكنهما ان تتخليا عنها بل انهما سوف تستغلان الاحلاف العسكرية لتهيئة الانظمة العربية المنضمة لها للصلح مع اسرائيل والاعتراف بها · وانه افضل للعرب ان يعتمدوا على انفسهم بتدعيم روابط الوحدة بينهم لمواجهة الخطر الحقيقي المهدد لهم المتمثل في الاستعمار واسرائيل وعدم اشغال انفسهم بالخطر الشيوعي الوهمي الذي يبعد عنا الاف الاميال ، في حين ان الاستعمار جاثم على صدورنا ، وان اسرائيل موجودة في قلب وطننا بقوة الاستعمار · وانه اذا كان هناك احتمال الخطر الشيوعي فانه ناجم عن الظلم الواقع على جماهير الشعب من الفلاحين والعمال وسوء الاحوال والاوضاع الاقتصادية والاجتماعية الناجمة عن الاستعمار والاحتلال الاجنبي ، وان علاج ذلك لا يتم بمزيد من الارتماء في احضان الاستعمار واحلافه العسكرية ، وانما بتحقيق العدالة الاجتماعية ، وازالة اسباب الظلم والفقر والجوع والحرمان ، وتصفية الاستعمار ·

لم يقتنع نورى السعيد بهذا المنطق ، وكان من الطبيعي ان لا يقتنع العملاء بمنطق الثورة العربية . بل ان الغيرة من عبد الناصر كانت تاكل احشاء نورى السعيد ، ولذلك فانه لم يشأ ان يستوعب ما قاله عبد الناصر ، فكان رده في نهاية ذلك الاجتماع المفاجىء الذي سعى اليه نورى السعيد «بأنه لا يمكنه الاعتماد على العرب للدفاع عن العراق، وان بريطانيا فقط هي التي يمكنها تقديم العون · ومع فهمه لشكوك مصر في الانجليز الا انه قرر قبول مقترحاتهم الجديدة وعدم التراجع عن موقفه» · (١)

كان ذلك الموقف من نورى السعيد استفزازا متعمدا لعبد

---

(١) المصدر السابق ، ص ٧٩ .

الناصر استهدف منه تفجير الخلاف معه واستدراجه مبكرا لمعركة الاحلاف اثناء مناقشة البرلمان البريطاني لاتفاقية الجلاء ، مؤملا ان يتزايد عدد المعادين لعبد الناصر فيتزايد بالتالي عدد المعارضين لمبدأ الجلاء عن منطقة قناة السويس بدون مقابل وينتهي الامر بعدم التصديق على معاهدة الجلاء .

ولكن عبد الناصر لم يخش ذلك . وبدأ في شن حملة ضد الاحلاف والعملاء ، وضد نورى السعيد بالذات . ولقد انتصر كثيرون من النواب لنورى السعيد . وتباكى كثيرون منهم على مستقبل بريطانيا العظمى ومصالحها واستثماراتها في المنطقة العربية اذا تم الجلاء عن مصر .. ولكن الاغلبية البرلمانية ادركت انه لا مفر من التصديق على اتفاقية الجلاء لان البديل سوف يكلف بريطانيا اكثر من ذلك بكثير ولا يحول دون المصير المحتوم .

وبعد التصديق على اتفاقية الجلاء في اكتوبر ١٩٥٤ حاول نورى السعيد بتخطيط من الاستعمار مراوغة عبد الناصر واستدراجه للمهادنة ووقف الحملات الاذاعية والاعلامية التي كانت نارا تلهب ظهر اكبر واذهى عملاء الاستعمار في الوطن العربي ، وتحرق الارض تحت اقدامه .

واشترط عبد الناصر ان تعلن الحكومة العراقية رفضها للاحلاف العسكرية ، لانه بذلك يكون قد تحقق الهدف الذي من اجله تشن القاهرة حملاتها الاداعية اللاهبة وتدعو الجماهير الى الثورة .

في تلك الفترة تعرض عبد الناصر للاغتيال على يد جماعة الاخوان المسلمين في الاسكندرية . ورغم انشغاله في مكافحة واستئصال جذور هذه الجماعة الارهابية الرجعية الا انه لم يتوقف عن متابعة ما يدبره الاستعمار وعملاؤه في الخفاء ضد الامة العربية ،كما لم يتوقف عن شن هجماته المكثفة ضد الاحلاف العسكرية ودعاتها من العملاء .

وفي تلك الفترة ايضا ، ونحن الان في الاسابيع الاخيرة

من عام ١٩٥٤ ، انعقد في القاهرة في شهر ديسمبر مؤتمر وزراء الخارجية العرب ، وحاول موسى الشهبندر وزير خارجية العراق آنذاك ذر الرماد في العيون واستدراج عبد الناصر الى وقف الحملات الموجهة ضد حكام العراق باعتبارهم اداة الاستعمار في تشكيل حلف يضم اقطارا عربية ، فاعلن في مؤتمر صحفي في القاهرة في اعقاب ذلك المؤتمر الذي لم يتوصل الى اية نتيجة محددة «بان العراق لم يقرر الانضمام للحلف التركي الباكستاني ، وانه عوضا عن ذلك يريد تعديل المعاهدة مع بريطانيا باتفاقية مماثلة للاتفاقية المصرية البريطانية بحيث تشتمل على اعطاء بريطانيا حق استخدام القواعد الجوية العراقية في حالة تعرض ايران لاى هجوم» !

كان القصد من هذا الاعلان التظاهر امام الرأي العام العربي بان وزراء الخارجية العرب توصلوا الى اتفاق ، وان العراق لم يعد يتجه نحو الانضمام للاحلاف العسكرية ، وبالتالي لم يعد هناك مبرر للاستمرار في الحملة الموجهة ضد حكام بغداد من جانب القاهرة .

ولقد تأكد هذا القصد بعد ايام قليلة عندما اعلن نورى السعيد بنفسه في مجلس النواب العراقي في الاول من يناير ١٩٥٥ : «بان حكومته تريد الدخول في اتفاقية ثنائية مع بريطانيا تضع في الاعتبار امن تركيا وايران ولكن دون التورط في اية التزامات غير مقبولة من الدول الاعضاء في جامعة الدول العربية» . (١)

ولم يؤخذ عبد الناصر بهذا الكذب المفضوح الذي حاولت لندن وواشنطن تدعيمه بتصريحات خادعة . بل ان هذا الكذب افتضح بعد اربعة أيام فقط ، وسقطت عندئذ كل الاقنعة ، وبدأت معركة رهيبة طويلة بين عبد الناصر المعتمد على جماهير الامة العربية وبين قوى الاستعمار العالمي

---

(١) المصدر السابق ، ص ٨١ .

وزملائه دون انقطاع مدة ١٢٨٥ يوما وانتهت بسقوط حلف بغداد وقلاعه وعملائه ٠

★★★

في السادس من يناير ١٩٥٥ ، بعد خمسة ايام فقط من البيان الكاذب الذي اعلنه نوري السعيد في مجلس النواب العراقي بصفته رئيس مجلس الوزراء ، بدأ رئيس وزراء تركيا عدنان مندريس ، وبرفقته وفد كبير ضم بين اعضائه وزير الخارجية ووزير المواصلات ، زيارة رسمية للعراق ٠

كانت هذه الزيارة تعكس في الحقيقة ارادة لندن وواشنطن اذ كانت تركيا في مجال النفوذ الاميركي ، والعراق في مجال النفوذ البريطاني ، ولم يكن نوري السعيد وعدنان مندريس اكثر من عميلين لا يملك الواحد منهما شيئا من الارادة الوطنية ، ولم يكن دورهما اكثر من تنفيذ تعليمات واشنطن ولندن ٠

وقد انتهت الزيارة ببيان رسمي في الثاني عشر من يناير تضمن الاعلان عن موافقة العراق وتركيا على توقيع معاهدة دفاع مشترك بينهما في اسرع وقت ممكن ، وعن املهما في ان تنضم اليهما الدول الاخرى في المنطقة التي تلتقي معهما في الراي والغرض ، ومحاولة اقناع هذه الدول للتوقيع معهما في وقت واحد على المعاهدة المتفق عليها » ٠

كان هذا البيان هو حجر الزاوية في حلف بغداد ، وهو الادانة الدامغة لحكام العراق بانهم يجرون هذا الجزء الهام من الوطن العربي الى الاحلاف الاستعمارية ، وينفذون سياسة خطيرة تتناقض مع مصلحة الامة العربية عامة والشعب العربي العراقي على وجه الخصوص ٠

وكان معناه ان نوري السعيد لم يستوعب شيئا مما قاله له عبد الناصر ، ولم يشأ ان يسجل موقفا يذكر له بالحسنى في التاريخ ، شأنه في ذلك شأن جميع العملاء الذين يستمدون قوتهم ومناصبهم من الاستعمار وليس من الشعب ٠

كان نورى السعيد وقتئذ قد ملأ سجون العراق ومعتقلاته بالالوف من الشباب المناضل الذين كانوا ينتظمون في احزاب سياسية عقائدية سرية ابرزها حزب البعث العربي الاشتراكي ٠

وكان تصوره انه ما دام قادرا على اعتقال جميع الحزبيين المعروفين والمناضلين المكشوفين ، وممارسة الارهاب ضد جماهير الشعب ، فانه بدلك قادر على وقف حركة التاريخ ومنع الناس في عهد الترانزستور من الاستماع الى جمال عبد الناصر ٠

كان عبد الناصر وقتئذ يشق طريقه الى اعماق الانسان العربي ، فقد بدأت تتجسد فيه ارادة وامال هذا الانسان ، بل ارادة واما ل الامة التي ينتمي اليها هذا الانسان ٠٠ وبذلك فان كل العقول والقلوب والافئدة غدت مفتوحة له اللهم غير عقول وافئدة طبقة العملاء والاقليميين والرجعيين الذين كانوا قد فقدوا الشرف والكرامة الوطنية ٠

وكان عبد الناصر وقتئذ كما كان دوما ، منذ لحظة تأسيسه لتنظيم الضباط الاحرار وتفجير ثورة ٢٣ يوليو ، في مستوى المسؤولية القيادية القومية ٠ فبادر الى التحرك في ثلاثة مجالات :

فعمد اولا الى فضح الخفايا الاستعمارية الصهيونية الكامنة وراء البيان العراقي التركي الذي اشتهر باسم بيان نورى ـ مندريس ٠

ثم عمد ثانيا الى اجراء اتصالات فورية واسعة ومكثفة مع القيادات الوطنية في اقطار المشرق العربي ، وعلى الاخص مع قادة حزب البعث العربي الاشتراكي في سوريا والاردن ، ونجح في وضع اسس التنسيق والتعاون مع هذه القيادات لتوحيد جهودها وتعبئة قواها الجماهيرية ضد الاحلاف العسكرية ٠

ثم عمد ثالثا الى دعوة رؤساء الوزارات العربية الى عقد اجتماع طارىء في القاهرة وكان هدفه من وراء ذلك :

محاولة استكشاف موقف الانظمة العربية من مبدأ الاحلاف ومحاولة التعرف الـــى الانظمة المتعاطفة مـــع موقف نورى السعيد ·· ثم محاولة افساد ذلك وخلق جبهة عربية ضاغطة على العراق لكى يتراجع عن موقفه ضمانا لوحدة الصـــف العربي ·

كان عبد الناصر بتحركه ذاك يواجه تحديا مكثفـــا للاستعمار في دمشق وبيروت وعمان بالذات ، ازداد بشكل ملحوظ بعد بيان نورى ـ مندريس · بل ان نورى ومندريس رميا بثقلهما الشخصي لانجاح خطوتهما لان فشلها سوف ينعكس عليهما ويفقدهما المنصب وربما الحياة السياسية !

ونجح عبد الناصر وقتئذ في الاستفاده من الصـــراع العنيف الذي كان محتدما بين السعودية وبريطانيا حـــول واحة البريمى · ولذلك فان الملك سعود ، نكاية منه ببريطانيا والهاشميين وليس حبا بعبد الناصر ، كان اول من استجـاب بحماس لدعوة عقد مؤتمر رؤساء الوزراء العـــرب فـــي القاهرة ·· وكان العراق هو البلد الوحيد الذي تردد فـــي قبول الدعوة ·

وقد انعقد ذلك المؤتمر في الثاني والعشرين من يناير بعد عشرة ايام من اعلان نورى ـ مندريس ·· ولم يحضـــر نورى السعيد متذرعا بالمرض كذبا ، اذ كان يدبر لخطـــوة جديدة على طـــريق الحلف ·· ومضت اربعة ايام دون ان يحضر احد من بغداد · ولم يتمكن المؤتمر بسبب ذلك مـــن الخوض في جوهر الموضوع الذي من اجله كان الانعقاد · وفي اليوم الخامس في ٢٧ يناير حضر الى القاهرة فجأة للمشاركة في المؤتمر الدكتور فاضل الجمالى رئيس الوزراء الســـابق على رأس الوفد العراقي ·

ولم يتوصل ذلك المؤتمر الى قرار حاسم ، وكان مـــن الطبيعي في ظل ظروف الواقع العربي انذاك ان لا يتوصـــل المؤتمر الى قرار ضد موقف العراق او ضد الاحلاف · ورغـم

ذلك ، فقد كان المؤتمر مفيدا لعبد الناصر اذ تعرف من خلاله الى الموقف الحقيقي للانظمة العربية من مشروع الحلف الذي كان الاعداد له يتم بسرعة كبيرة ٠

كان المجتمعون في ذلك المؤتمر رؤساء وزراء مصر وسوريا ولبنان والاردن والسعودية (مندوب عن الملك) واليمن وليبيا والعراق ، اذ كانت هذه الاقطار هي وحدها الاعضاء في الجامعة العربية انذاك ٠

وكان الضغط الاستعماري وقتئذ مركزا على اقطار المشرق العربي (سوريا ولبنان والاردن) كي تلحق بالعراق ٠ وكان موقف رؤساء وزراء هذه الاقطار مثيرا للريبة والشكوك وكان من الطبيعي ان يكون كذلك ، اذ كان الحكم في دمشق ما زال بيد الطبقة الاقطاعية البرجوازية رغم المعاناة القاسية التي عاشها الشعب العربي السوري من جراء الانقلابات العسكرية الاربعة (حسني الزعيم وفوزي سلو وسامي الحناوى واديب الشيشكلى) وكان حديث التخلص من اخرها ، وعدم استقرار الحكم اذ كانت قد تغيرت احد عشر وزارة خلال اخر ثلاثة اعوام ٠٠ وكان حزب الشعب المؤيد للعراق وجماعة الاخوان المسلمين المعادين لعبد الناصر هما الدعامة الرئيسية لذلك الحكم ٠ في نفس الوقت كان كميل شمعون المعروف بميوله وارتباطاته بالغرب هو رئيس الجمهورية اللبنانية ٠ في حين ان قائد الجيش الاردنى الجنرال البريطاني جون باجوت جلوب كان هو القوة الفعلية في الاردن ، اذ انه الى جانب سيطرته على القوة المسلحة كان هو القناة الوحيدة التي تمر بواسطتها المعونة المالية والعسكرية البريطانية للاردن الى جانب وجود قواعد عسكرية بريطانية بمقتضى المعاهدة الاردنية البريطانية غير المتكافئة ٠ وكان الاردن وقتئذ يعتمد اعتمادا كليا على المعونة البريطانية ٠

ان ذلك الواقع كان يوحى للاستعمار العالمي بأن الحكم في هذه العواصم الثلاثة مهيأ للانضمام للحلف العسكري ، او

على الاقل اللحاق بالخطوة التي قرر ان يخطوها نورى السعيد ولكن المقاومة العنيدة التي ابداها جمال عبد الناصر وجماهير الشعب لهذه الاحلاف ارغم رؤساء الوزراء على مواقف عائمة ولكنها غير متناقضة مع المخطط الاستعماري ... وكـــان هؤلاء الرؤساء ارادوا ان يجنبوا انفسهم من ثورة عبـــد الناصر والجماهير دون ان يتورطوا في موقف معاد للاستعمار والاحلاف !

ان فارس الخوري رئيس وزراء سوريا الــذي عــرف برجاحة العقل وقوة الحجة حدد الموقف السوري من الاحلاف على الوجه التالي :

« ان السوريين انفسهم لا ينوون الانضمام للاحـــلاف العسكرية ، ولكن من الحماقة ان يطالبوا هذا المؤتمر بارغام العراقيين على عدم الانضمام لهذه الاحلاف ! ثم اضاف الى ذلك قوله : ان هذا الموقف غير ملزم لاية حكومة سورية اخرى»

وكان منطق توفيق ابو الهدى الذي عـــرف بالارهاب والبطش بالمناضلين الاحرار : «ان الاردنيين يكرهون الاحلاف الاجنبية ولكن لا يمكن للحكومة الاردنية ان تستنكر موقـــف العراق ما دامت تعتمد على المعونة المالية البريطانية !» وكان في ذهن ابو الهدى عندما قال ذلك ما سمعه في لندن قبل شهور قليلة عندما ذهب في عام ١٩٥٤ للتفاوض من اجل تعديـــل المعاهدة الاردنية البريطانية ، فقد اوضحوا له وللملك حسـين وكان معهما انور نسيبه وزير الدفاع « انـــه اذا كان الاردن راغبا في استمرار المعونة المالية البريطانية ودفعها مستقبـلا للحكومة الاردنية وليس عن طريق الجنرال جلوب ، فانـــه لا بد من الانضمام للحلف التركى العراقي » . (١)

وعندما تكلم سامى الصلح رئيس وزراء لبنان كشـــف النقاب عن الضغط الاميركي والتركى الذي كانت تتعرض لـــه

---

(١) المصدر السابق ص ٨٣ .

الحكومة اللبنانية فقال في مؤتمر رؤساء الوزراء العرب «ان الولايات المتحدة الاميركية حذرته من ان العرب لن يحصلوا على المساعدات الاميركية اذا هم استمروا في معارضتهم الانضمام للاحلاف العسكرية الغربية ! وان عدنان مندريس رئيس الوزراء التركي توقف في بيروت بعد انتهاء محادثاته مع نوري السعيد في بغداد وعرض عليه انضمام لبنان للحلف التركي العراقي . وانه ازاء الضغط الاميركي والتركي فان لبنان يمتنع عن استنكار موقف العراق» .

ودافع فاضل الجمالي عن موقف نوري السعيد والحكومة العراقية متذرعا بالخطر الشيوعي المهدد للحكم العراقي ! مدعيا بان الاشتراك في الاحلاف العسكرية الغربية سوف يفيد الدول العربية في درء الخطر الشيوعي عنها ، وفي تحسين اوضاعها الاقتصادية بالمساعدات التي ستحصل عليها ، وفي تقوية جيوشها بالاسلحة الثقيلة التي ستتزود بها من اميركا وبريطانيا ، ثم في تحويل موقف اميركا وبريطانيا من اسرائيل لمصلحة القضية العربية .

ولم يكن في ذلك المؤتمر غير عبد الناصر يفند كل الادعاءات الخادعة ويسقط كل التذرعات والمواقف السلبية . فأوضح :

اولا : انه يجب التفريق بين الخطر الشيوعي من الخارج والخطر الشيوعي من الداخل . فمن حيث الخطر الخارجي فان الاتحاد السوفياتي لا يشكل خطرا على اية دولة عربية ، اذ ليست له اطماع احتلالية للوطن العربي ، كما انه لم يسبق له احتلال اي جزء من الارض العربية . وليست بينه وبين اية دولة عربية حدود مشتركة ، ويبعد عن الوطن العربي الاف الاميال ، في حين ان الاستعمار موجود في جميع انحاء الوطن العربي ، وانه هو الذي اوجد اسرائيل وشرد شعب فلسطين ، وبالتالي فان الخطر الواقع على العرب ليس من الاتحاد السوفياتي وانما من الدول الاستعمارية واسرائيل . واما

الخطر الشيوعي من الداخل او خطر الشيوعيين داخل الدول العربية ، فانه يمكن مواجهته والتخلص منه بازالة اسباب الفقر والجهل والمرض والحرمان والظلم التي تعاني منها الجماهير وتهيء مناخا ملائمـا لنشاط الشيوعيين ، وليس باستمرار الارتماء في احضان الاستعمار · وانه اذا تمت اصلاحات وتغييرات جدرية في المجتمع فاننا كشعب نؤمن بالله ورسوله وانبيائه سوف ننبذ الشيوعيين ونتخلص من خطرهم ·

ثانيا : ان المساعدات التي سوف تحصل عليها الاقطار المنضمة للاحلاف ثمنا لحريتها وارادتها لن تكون من اجل تغيير واقع المجتمع ولا من اجل تحسين احوال الفلاحين والعمال ، وانما سوف تكون من اجل تمكين الطبقات الحاكمة الاستمرار في حكمها واستغلال الطبقات المحرومة · وضرب لهم مثلا بجميع الاقطار والدول الواقعة تحت السيطرة الاستعمارية ، وكيف ان واحدة منها لم تحقق اى تقدم لانه لا يمكن احراز تقدم في ظل الاستعمار ·· واوضح لهم ان الاعتماد على الامكانات العربية الذاتية سوف يبقى افضل الف مرة من الاعتماد على الاستعمار · لانه لن يعطى شيئا يفيد الشعوب · ولا يعطى شيئا دون مقابل ·

ثالثا : على فرض صحة الادعاء بان اميركا وبريطانيا سوف تزودان الجيوش العربية المنضمة للاحلاف باسلحة حديثة ثقيلة ، فان ذلك لا يعنى ان هذه الجيوش سوف تصبح حرة الارادة ويمكن الاستفادة منهافي محاربة العدو الاسرائيلي · فالدول المنضمة للاحلاف سوف تكون دولا تابعة مسلوبة الارادة ، اذ تكون اراده الدول الكبرى هي النافذة · وهذه لا يمكنها ان تزود الجيوش العربية باسلحة حديثة وثقيلة لتقاتل اسرائيل ، وانما هي تفعل ذلك من اجل استخدام هذه الجيوش في الدفاع عن مصالح الاستعمار وليس عن مصالح الامة العربية · وتعرف الدول الاستعمارية بطبيعة الحال كيف تتحكم بفعالية اسلحة الجيوش التابعة لها .

رابعا : لا يمكن ان تكون الاحلاف العسكرية سبيلا لتحويل او تبديل موقف اميركا وبريطانيا من اسرائيل · فلقد خلقتاها بينما كان الوطن العربي كله تحت السيطرة الاستعمارية ولا يمكن ان تضحيا بها مقابل انضمام الدول العربية للاحلاف العسكرية ·· ان هذا المنطق مناقض لتفكير الاستعمار وللاسباب التي من اجلها عمل الاستعمار على صنعها وحمايتها ودعمها . ومصلحة الاستعمار ، وهو صاحب الارادة الاقوى في الاحلاف ان تبقى اسرائيل وليس ان تزول ، وان تصلح معها الدول العربية وليس ان تقاتلها وتحاربها ، وبذلك فان الاستعمار سوف يستخدم الاحلاف العسكرية لتثبيت وجود اسرائيل وارغام الدول العربية على الاعتراف بها ··· وسوف تعرف اميركا وبريطانيا كيف تستخدمان الاحلاف العسكرية والدول العربية المنضمة لها لبلوغ هذا الهدف وهذه الغاية ·

خامسا : ان الاجدى و لانفع للدول العربية ان تعتمد على نفسها لبناء قوتها وليس على الاستعمار · وسبيل القوة هو المزيد من خطوات الوحدة بين الدول العربية · والشرط الاول لذلك هو رفض الاحلاف العسكرية الاجنبية ، والتوجه لتدعيم الجامعة العربية وميثاق الدفاع العربي المشترك ·

واختتم عبد الناصر كلامه بمطالبة مؤتمر رؤساء الوزراء العرب باتخاذ قرار برفض الاحلاف العسكرية الاجنبية ، وبدعوة العراق بالتراجع عن موقفه ضمانا لوحدة الصف العربي وانسجاما مع ميثاق الجامعة العربية والمصلحة العربيه العليا ·

كان كلام عبد الناصر هو منطق الثورة العربية · وكان مطلبه تجسيدا لارادة الشعب العربي · ولكن لم يكن رؤساء الوزارات العرب من طينة عبد الناصر ولا من نوعيته · وحيث انه لا يقبل بمنطق الثورة غير الثوار · ولا يتبنى مطالب الشعب غير الحكومات النابعة اصلا من ارادة شعبية ، فان رؤساء الوزراء العرب خذلوا عبد الناصر ، ولكنهم من حيث

لا يدرون كشفوا انفسهم له ، وبالتالي للجماهير العربيــــة ، وكشفوا كذلك ، من حيث لا يدرون ايضا ، جانبا هاما مـــن مخططات الاستعمار وضغوطه الموجهة ضد دمشق وعمـان وبيروت لربطها بعجلة الاحلاف ٠

ان بهي الدين باش اعيان وزير خارجية نورى السعيد الذي كان عضوا في وفد فاضل الجمالى ، حاول ان يستغل المؤتمر ويحول اتجاهه ، فاقترح ان توقف القاهرة حملتهــا الاذاعية والاعلامية ضد الاحلاف والحكومة العراقية ليتسنى له ــ اى لباش اعيان ــ محاولة اقناع نورى السعيد بالعدول عن الحلف مع تركيا والاستعاضة عن ذلك بتعديل المعاهــدة مع بريطانيا وجعل مدتها الزمنية سبعة اعوام ! وكان عبــد الناصر يعرف ان باش اعيان لم يكن اكثر من دمية بيد نورى السعيد ، ولذلك فان رده كان : انه لا يساوم على المبادىء وانه اذا كان مهتمابوقف الحملات الاذاعية فان السبيل الى ذلــك هو ان يعلن نوري السعيد تراجعه عن الاحلاف ٠

بذلك استمر المؤتمر في جـــو مـــــن الانفعال والتوتـــر الشديدين تظلله حملة اعلامية مكثفة تبثها كافة اجهزة الاذاعة المصرية القوية القادرة دون سواها من الاذاعات العربية على تغطية كل الوطن العربي ٠

وعندما اختتم المؤتمر اعماله دون نتيجة حاسمة فـــي اليوم السادس من فبراير ١٩٥٥ ، كانت الحملات الاذاعية بدات تطارد كافة اعوان الاستعمار في المنطقة ابتداء من نـــورى السعيد وعدنان مندريس ، ومرورا بالحكومة السورية انذاك التي كانت تستند الى حزب الشعب والاخوان المسلمين ، وانتهاء بكميل شمعون في بيروت وتوفيق ابو الهدى وجلوب في عمان ولم يكن الهدف من وراء تلك الحملات الضارية فضح هؤلاء العملاء ، ولا مجرد فضح مخططات الاستعمار التي تستــهدف شعوب المنطقة كلها ، وانما كان الهدف الـى جانب ذلــك هو تعبئة الجماهير وتصعيد نضالها وتوفير كل الامكانات اللازمة

لذلك من اجل اسقاط الاحلاف ومخططات الاستعمار واعوانه وعملائه في المنطقة كلها ٠

ان هذه الحملات التي تولتها باسم الثورة وجماهير العربية اذاعات القاهرة وحدها لم تكن من جانب واحد ، فلقد كانت الاذاعات الاستعمارية ابتداء من اذاعة صوت اميركا الى اذاعة الشرق الادنى وكافة الاذاعات الاميركية والبريطانية الى جميع اذاعات الحكومات العميلة في المشرق العربي ، تساندها اذاعات سرية تولاها احمد ابو الفتح وامثاله من الاقليميين الرجعيين الهاربين ٠٠ كل هذه الاذاعات ومعها بطبيعة الحال اذاعة العدو الصهيوني ، راحت تصب انهارا متدفقة من السموم وانواعا لا حصر لها من الحرب النفسية ضد عبد الناصر ٠٠ ولكنها لم تكن مؤثرة كما كانت تفعل اذاعات القاهرة ، الامر الذي جعل ايدن يحرص على زيارة القاهرة وهو في طريقه الى بانكوك للاشتراك في مؤتمر حلف جنوب شرق اسيا لمطالبة عبد الناصر وقف حملاته الاذاعية ضد نورى السعيد بالذات ومناقشته في موقفه من الاحلاف العسكرية ٠

★★★

لقد تمت هذه الزيارة في العشرين من فبراير بعد اسبوعين اثنين من انتهاء مؤتمر رؤساء الوزراء العرب وقبل اربعة ايام فقط من اعلان حلف بغداد ٠

وفي اللقاء الذي تمبين عبد الناصر وايدن اثناء وبعد حفل العشاء الذي اقامه السفير البريطاني ستيفنسون تطرق الحديثالى ثلاث نقاط رئيسية :

كانت النقطة الاولى حول العلاقات الثنائية المصرية البريطانية وقد حرص عبد الناصر على التأكيد بان تنفيذ اتفاقيه الجلاء يجعل العلاقات الثنائية بين البلدين حسنة ٠ واشار

الى خطورة الدور الذي تلعبه بريطانيا لفرض حلف بغـــداد على المنطقة على مستقبل هذه العلاقات . اما ايدن فانه «ابدى استعداد بلاده للتفاوض مع مصر في المشكلات المصرية ، الا انه لن يقبل بالموقف المصري حيال الوضع العربي كله» . (١)

وكانت النقطة الثانية حول الاحلاف العسكرية ، وقد دار نقاش طويل حولها . وقد حرص عبد الناصر خلال هـــذا النقاش على تأكيد رفضه الانضمام لاية احلاف مـــع الـــدول الكبرى ، ومعارضته القوية لانضمام اية دولة عربية لاى نوع من هذه الاحلاف لانها تؤدي الى تجزئة الوطن العربي ، وتفجر الخلافات بين حكوماته ، ثم لان انضمام العراق لهذا الحـــلف سوف يشجع سوريا والاردن ولبنان علـــى الانضمام اليـــه ، وبذلك تبقى مصر وحدها فـــي مواجهة الخطر الاسرائيلي ، وكانت وجهة نظر ايدن : «ان في وسع مصر ان ترفض الانضمام الى الحلف اذا كانت تلك مشيئة حكومتها ، لكنه لا يستطيـــع مع ذلك ان يفهم السبب الذي يحدو مصر الى ان تفرض تفكيرها على بقية الدول العربية ».. وقد اوضح له عبد الناصر هذا السبب بقوله : « اننا لا نفرض تفكيرنا على احد . وان كـــل ما نفعله هو اننا نوضح ونشرح وجهة نظرنا فقط . امـــا التأييد الذي نلقاه في بقية العالم العربي فمرده الى ان وجهة نظرنا نتفق مع مشاعر الجماهير وامالها المشروعة »(٢) ولقد تضايق ايدن من كلام عبد الناصر واسلوبه في النقاش معه ، وسبب الضيق ان الاستعماري البريطاني ايدن نائب رئيـــس الوزراء ووزير الخارجية انذاك ، كان معتادا على التعامـــل مع رؤساء الوزراء العرب ، بل ومع الملوك والرؤساء العـــرب الذين يعتبرون كلام رئيس الوزراء البريطاني او وزير الخارجية او وزير المستعمرات البريطاني بمثابة توجيهات سامية ، فلا كانوا يناقشون ولا كانوا يترددون في التنفيذ ، فكان ينظـــر

---

(١) محمد حسنين هيكل . عبد الناصر والعالم ص ١١٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١١٨ .

اليهم على اساس انهم موظفون بمناصب اسمية في خدمة التاج البريطاني ! ولكنه عندما قابل عبد الناصر وجد نفسه لاول مرة امام مسؤول عربي يعامله بندية ، ويفرض عليه ان يتناقش معه بموضوعية ، ولا يكتفي بالدفاع عن وجهة نظره بل يحاول اقناع ايدن بها ٠

ولم يكن ايدن الارستقراطى الاستعماري المتعجرف المتعالى على استعداد لان يتقبل وجهة نظر عبد الناصر ولا ان يقتنع بها ،

كما ان عبد الناصر الثائر ، الذي تجسدت فيه ارادة الامة العربية ، لم يكن على استعداد لان يتقبل وجهة نظر ايدن ولا ان يقتنع بها ٠ وكان حاسما في رفض مبدأ الاحلاف العسكرية ٠

وكانت النقطة الثالثة تتعلق بالهجوم العنيف الذي كان عبد الناصر يشنه على الاحلاف العسكرية وعملاء الاستعمار في المنطقة ، وعلى الاخص الحكم الهاشمي ونورى السعيد ٠ ولعل زيارة ايدن للقاهرة استهدفت هذا الموضوع بالذات ، لانه كان يعلم علم اليقين موقف عبد الناصر الرافض بقوة للاحلاف العسكرية ، وكان يدرك جيدا بانه اذا كان دالاس فشل تماما في اقناع عبد الناصر بالانضمام للاحلاف في عام ١٩٥٣ عندما لم يكن قد تم التوصل الى اتفاقية الجلاء ، وفي فترة كانت قوى كثيرة مناوئة له في الداخل ، فانه لا يمكنه ان ينجح في ما فشل فيه دالاس ممثل زعامة وقيادة الاستعمار العالمي ، خاصة وان عبد الناصر كان في ١٩٥٥ قد تغلب على المتاعب الداخلية وعمق جذور الثورة في صفوف الفلاحين والعمال ٠ ولكن ايدن كان يامل في ارهاب عبد الناصر وحمله على وقف الحملات ضد اعوان بريطانيا في المنطقة ٠

كان ايدن قد بنى حساباته على اساس ان عبد الناصر كان الرافض الوحيد بين الانظمة العربية للاحلاف العسكرية ،

وان مؤتمر رؤساء الوزراء العرب الذي كان قد انهى اجتماعاته قبل اسبوعين ، خذل عبد الناصر في موقفه الرافض وبالتالي جعله يشعر بان استمراره في موقفه الرافض سوف يؤدي الى عزله عربيا ! وان استمرار تصديه لهذه الاحلاف سوف يؤدي به الى العزلة دوليا ، باعتبار ان المجتمع الدولي في نظر ايدن هو المعسكر الغربي الاستعماري ، مسقطا من حسابه المعسكر الاشتراكي الذي لم يكن قد فتح ابوابه بعد للتعاون مع عبد الناصر ٠٠ بذلك في ضوء هذه الحسابات تصور ايدن ان عبد الناصر سوف يكون مستعدا لوقف الحملات ضد الاحلاف ٠ واذا تحقق ذلك فان ايدن يكون قد هيأ المناخ الملائم لولادة حلف بغداد في ظروف ملائمة واجواء هادئة ٠٠ ولكن عبد الناصر لم يكن ذلك الرجل الذي يمكن ان تنطبق عليه حسابات ايدن ، كما لم تنطبق عليه حسابات دالاس والعقل الالكتروني الاميركي ، ولذلك فانه جادل ايدن في هذه النقطة ايضا ، وبين له ان مهادنة دعاة الاحلاف من العرب تعني مهادنة الاحلاف ، وهذا يتناقض مع موقفه المبدئي من الاحلاف ، ولذلك فانه لا يقبل به ٠٠ هنا نفد صبر ايدن فقال وقد بدا يحس بالفشل وخيبة الامل : «ان نورى السعيد حليف لبريطانيا وان الهجوم عليه لا يمكن وضعه في اطار الخلافات الداخلية العربية ، وانه اذا كان توقيت الحلف الجديد سيئا بالنسبة لمصر فانه حيوى بالنسبة لبريطانيا» ٠ (١)

وانتهى ذلك الاجتماع دون اية نتيجة ودون اى اتفاق على اية نقطة من نقاط البحث ٠ وكان طبيعيا جدا ان تكون النتيجة كذلك ٠ فقد كان ايدن يتصور نفسه استاذ السياسة الاول في العالم ، وبناء على ذلك « فانه تساءل وهو يستمع لوجهة نظر عبد الناصر ماذا يمكن لهذا الضابط الصغير ان يقول لي عن السياسة الدولية» ! (٢) وكان عبد الناصر في

---

(١) ناتنج انطوني : ناصر ، ص ٨٩ ٠

(٢) المرجع السابق ، ص ١١٨ ٠

الجانب الاخر يعرف جيدا انــه يناقش ايدن الارستقراطي الاستعماري وانه بناء على ذلك كان يعتبر اية اراء او مقترحات يتقدم بها ايدن في مصلحة الاستعمار البريطاني دون سـواه ، وضد المصلحة العربية ، ولذلك فانه كان محتما للقائهمـا ان ينتهي دون اية نتيجة اللهم سوى تصميم كل منهما على تصفية الاخر . وقد تمكن عبد الناصر من تصفية ايدن ومعه جـي مـوليـه الفرنسي وتصفية الاستعمارين البريطاني والفرنسي معهما ٠

كان ايدن يعرف جيدا وهو يتحاور مع عبـد الناصر ان التعليمات النهائية لاعلان حلف بغداد رسميا صدرت لعدنـان مندريس في انقره ونوري السعيد في بغداد قبل توجهه الـى القاهرة في طريقه الى بانجكوك عاصمة تايلاند للمشاركة في اجتماعات حلف جنوب شرق اسيا ٠ وان ترتيبات التوقيع على معاهدة الحلف كانت تتخذ بسرية بينما كان ايدن مجتمعا مـع عبد الناصر في محاولة اخيرة لوقف هجومه المكثف الواسع على الاحلاف ودعاتها .

وبعد اربعة ايام فقط من ذلك الاجتماع ، في ٢٤ فبرايـر ١٩٥٥ تم التوقيع الرسمي على الحلف وسمي بحلف بغـداد لكي تكون له جاذبية خاصة للدول العربية الاخرى ٠

وكانت بداية حلف بغداد في ذلك اليوم بين تركيا والعراق ليبدو الحلف في مظهر خادع ، بعيدا عـن الدول الكبرى ، وبذلك يمكن التقليل من فعالية هجوم عبد الناصر عليه ومقاومة الجماهير له ٠

ولكـن الضغط القوي الـذي تعرضت له الحكومتـان العراقية والتركية جعلهما تلحـان علـى بريطانيا واميركـا للانضمام الرسمي للحلف لكـي يصبح لهما مبـرر التدخـل لحمايتهما في حالة تعرضهما للخطر ٠٠ ولم يكـن الخطـر خارجيا ، وانما كان داخليا من جماهير الشعب ٠ وبترتيب مع الولايات المتحدة الاميركية اعلنت بريطانيا انضمامها للحلـف

في الرابع من شهر ابريل ، اى بعد اقل من شهرين من قيامه وقبل اليوم الاخير من الحياة السياسية لرئيس الوزراء الاستعمارى الداهية ونستون تشرشل الذي برر هذا الانضمام في مجلس العموم في جلسة ٤ ابريل ١٩٥٥ بقوله : «ان حلف بغداد يمكننا من تدعيم نفوذنا في الشرق الاوسط ويجعل لنا القدرة على ان نرفع صوتنا عالياً في كل مشكلة » .. وفي اليوم التالي استقال تشرشل وتولى نائبه انطوني ايدن منصب رئيس الوزراء في السادس من ابريل .

وبعد شهور قليلة من ذلك العام ١٩٥٥ ، انضمت للحلف ايران وباكستان ، وبذلك اصبح حلف بغداد متصلا ومكملا لحلف الاطلنطي من خلال تركيا العضو فيه ، ولحلف جنوب شرق اسيا من خلال الباكستان العضو فيه . ثم انضمت اليه اميركا بصفة عضو مراقب .

ولان هذا الحلف منذ لحظة التفكير باقامته كان جزءا من مخطط استعمارى امبريالي بعيد المدى استهدف بين ما استهدف محاصرة عبد الناصر والثورة العربية وعزلهما داخل الحدود الاقليمية لمصر وتشديد الضغط لاسقاطهما ، فان اسرائيل التي اقامها الاستعمار والامبرياليه لتكون قاعدة متقدمة لهما في قلب الوطن العربي كان لها دور مكمل لحلف بغداد في محاصرة عبد الناصر والثورة العربية ، ولذلك فانها كجزء من المخطط الاستعمارى ، تحركت بعد اربعة أيام فقط من قيام الحلف ، اى في ٢٨ فبراير ١٩٥٥ ، بغارتها الشهيرة على قطاع غزة . وكان من اهدافها : تخفيف ضغط عبد الناصر على حلف بغداد باظهاره امام الجماهير العربية بمظهر العاجز غير القادر على مواجهة اسرائيل . ولكن عبد الناصر ابطل فعالية هذا المخطط بتحويل قطاع غزة الى قاعدة للفدائيين الذين وجهوا ضرباتهم المتلاحقة في اعماق مواقع العدو الصهيوني ، وحرموه من الامن والاستقرار ، وسببوا له شللا في مجالات كثيرة من اوجه الحياة .. ولقد ادى رد فعل

عبد الناصر ذاك الى ازدياد شعبيته عربيا والتفاف الجماهير حوله ، وبالتالي ازدياد مقاومة الجماهير ورفضها للحلف الاستعماري ٠

وكان حلف بغداد قد بدأ ضغطه على سوريا لتهيئة المناخ الملائم لحكومتها الاقطاعية البرجوازية ، المستندة لحزب الشعب والاخوان المسلمين ، لاختلاق مبرر الانضمام له ٠٠ وجاء هذا الضغط في شهر مارس ١٩٥٥ بعد الغارة الاسرائيلية على قطاع غزة دليلا على تنسيق الادوار بين حلف بغداد واسرائيل ولا غروة في ذلك ، فالسيد واحد . ففي ذلك الشهر حشدت تركيا قواتها على الحدود السورية وتولى نورى السعيد الضغط على الحكومة السورية لكي تستغل الفرصة وتتذرع بالتخلص من احتمال خطر الهجوم التركي بالانضمام لحلف بغداد ٠٠ وكان موقف سوريا وقتئذ صعبا ، فلم يكن في وسعها ان تسحب قواتها عن خط المواجهة مع العدو الصهيوني ، كما لم يكن جيشها كافيا لمواجهة الخطر الصهيوني من الجنوب الغربي ، والخطر التركي من الشمال ، والخطر العراقي من الشرق

كان ضغط الجماهير بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي ومشاركة الشيوعيين قويا على الحكومة لكي لا تستسلم لضغط حلف بغداد وتقع فريسة له ٠٠ ولكن احتمال سوريا كان محدودا ، وكان يمكن ان تسقط لولا ان عبد الناصر رمى بكل ثقله وثقل مصر الثورة دفاعا عن سوريا فحذر تركيا من اى تدخل، وطالبها بسحب حشودها، وذكرها بان لها جارا اقوى منها ٠

كما ان الاتحاد السوفياتي الذي ادرك وقتئذ الدور البطولي لعبد الناصر في مقاومة حلف بغداد والتصدى للمخططات الاستعمارية وقف الى جانب الثورة العربية والشعب العربي السوري ، فوجه تحذيرا شديد اللهجة للحكومة التركية من عواقب اية اعمال استفزازية يمكن ان تقوم بها ضد سوريا

هكذا بدأت الاحداث تتلاحق ، والصراع يزداد احتداما بين عبد الناصر وجماهير الشعب العربي في جبهة وبين قوى الاستعمار وحلف بغداد واسرائيل والانظمة الاقليمية الرجعية في جبهة اخرى ٠

ورغم ان الاحلاف كانت مغلفة بشعارات الحماية من الخطر الشيوعي ، وتستهدف احتواء الثورة العربية والكتلة الشيوعية ٠٠ الا ان العبء الاكبر في محاربتها وهزيمتها تحمله جمال عبد الناصر ٠٠ ولم يفعل عبد الناصر ذلك دفاعا عن الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية والاقطار الاشتراكية وانما تحمل ذلك دفاعا عن حق الامة العربية في الحرية والاستقلال والخلاص من السيطرة الاستعمارية ٠

وبفعل هذا العداء للاحلاف والاستعمار ، بدات نظرة الكتلة الاشتراكية وفي مقدمتها الصين الشعبية والاتحاد السوفياتي تتغير تجاه عبد الناصر ، فاختفت الهجمات الموجهة ضده من الاذاعات والصحف والنشرات الشيوعية ، واصبح هناك استعداد لفتح ابواب الستار الحديدى بل وباب الكرملين له فدخلها قائدا ثوريا للقومية العربية ٠

واغتنم عبد الناصر الفرصة ليقيم جسور الصداقة والتعاون بين مصر الثورة والاتحاد السوفياتي وبقية الاقطار الاشتراكية ، وبفتح الابواب واسعة امام الامة العربية لتتخلص من احتكار الاستعمار لها وتحكمه بمقدراتها ٠

كانت هذه الفرصة في شهر ابريل ، في ظل التوتر الذي كان يخيم على المشرق العربي بسبب الحشودات التركية وضغوط حلف بغداد على سوريا ، عندما ذهب الى مؤتمر باندونغ ووضع اساس صفقة السلاح مع الاتحاد السوفياتي التي حطم بها احتكار الدول الرأسمالية للسلاح وتحكمها من خلال ذلك بمصائر الشعوب ٠

وعلى الرغم من وجود شواين لاى ونهرو وسوكارنو في

ذلك المؤتمر فان عبد الناصر كـــان موضع الاهتمام الاول ، والاحترام الاكبر لانه كان يجسد ارادة الامة العربية فيمحاربة الاستعمار والصهيونية ، بل وكان يجسد ارادة جميع الشعوب في مقاومة الاحلاف العسكرية ·· ولقد استفاد عبد الناصـر من ذلك في فضح اسرائيل والتدليل على انها قاعدة للاستعمار تهدد السلام العالمي ، وتمكن من الحصول على قرار اتخــذه المؤتمر بالاجماع بتأييد حقــوق الشعب العربي الفلسطيني ، وتنفيذ قرارات الامم المتحدة · ولم يكن من السهل الحصول على مثل هذا القرار في ظروف تلك الفترة لولا المكانة المرموقة التي صار يتمتع بها عبد الناصر والتي صنعها من خلال كفاحه البطولي ضد الاستعمار والاحلاف ·

لم يكن هدف عبد الناصر في مؤتمر باندونج هــو مجــرد الحصول على مثل ذلك القرار او غيــره مــن القرارات التــي تدعو بكلمات قوية الـــى تصفية الاستعمار ورفض احلافه ، وتؤيد بعبارات بليغة حق الشعوب في الحرية والاستقلال ·· انما اراد وناضل من اجل تلك القرارات للاستعانة بها فـــي تصعيد النضال ضد الاستعمار واحلافه وعملائه مدركا بـــان القيمة الفعلية للقرارات لا تتمثل باتخاذها وانما تتمثل بالقدرة على تنفيذها والالتزام بها ·

ولقد كان عبد الناصر ، وهذه احدى ميزاته الثـــورية الكثيرة ، امينا في الالتزام تجاه اى قرار يقبل به ويوقع عليه وصادقا في النضال من اجل تنفيذه ، لذلك فانه عندما عاد الى الوطن استند الـــى قرارات باندونغ وراح يجسدها نضـــالا متواصلا ضد حلف بغداد والاستعمار العالمي ·

ترتب على ذلك مزيد من العداء المتبادل بينه وبين الدول الاستعمارية انعكس على موضوع السلاح الذي سعى عبـــد الناصر لشرائه مــن الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا ، فاشترطتا عليه الانضمام لحلف بغداد وحاولتا اغراءه بالكثير من المساعدات ولكنه رفض ، ثم فاجأهما وفاجأ جميع الـــدول

الاستعمارية وعملائها بضربة مفاجئة حطم بها احتكار السلاح واحدث تحولا تاريخيا عميق الاثر لمصلحة الشعوب الافريقية والاسيوية واللاتينية . بعد صفقة الاسلحة التي لم يكن يقدر عليها ويتحمل نتائجها غير عبدالناصر، تصاعد عداء الاستعمار والرجعية والصهيونية ضده الى ابعد نقطة يمكن ان يصلها العداء ضد قائد ثورة .. بل ان العداء لعبد الناصر اصبح منذ ذلك الحين اشد واعنف من عداء الامبريالية الاميركية للاتحاد السوفياتي . والسبب في ذلك يرجع الى ان عبد الناصر بمواقفه الثورية القومية اصبح زعيما للجماهير العربية وقائدا للنضال العربي التحرري ومفجرا لطاقات القومية العربية في اهم مناطق العالم حيوية للامبريالية والاستعمار .

والقومية العربية في هذه المنطقة الغنية بالنفط والهامة بموقعها وتأثيرها اشد خطرا على الامبريالية الاميركية والاستعمار العالمي من الشيوعية المتورطة في مواقف معادية للمشاعر والاماني القومية العربية ابرزها تأييد تقسيم فلسطين واقامة دولة صهيونية غازية على انقاض الشعب العربي الفلسطيني .

اذا اضفنا الى ذلك ما احدثه عبد الناصر من خلخلات قوية وثغرات واسعة في مخططات واستراتيجية المعسكر الاستعماري الغربي بقيادة الولايات المتحدة الاميركية ، امكن ان ندرك اكثر واكثر مدى العداء والكراهية له والحقد عليه . وللتدليل على ذلك يكفينا ان نشير الى ما يلي :

● ان الولايات المتحدة الاميركية كانت تنفذ سياسة تستهدف محاصرة الكتلة الشيوعية وعزلها عن العالم . وجاء عبد الناصر ليحبط ذلك بصفقة السلاح واقامة الجسور بين القاهرة وموسكو وبكين .

● ان الولايات المتحدة الاميركية كانت تنفذ مخططات اقامة الاحلاف العسكرية لتكون اداتها في السيطرة على جميع

انحاء العالم خارج الكتلة الشيوعية واقامة قواعد عسكرية فيها لاستخدامها في محاصرة الاتحاد السوفياتي · وجاء عبد الناصر ليحطم هذه المخططات مبتدئا بحلف بغداد الذي استهدف احتواء الثورة العربية والسيطرة على الوطن العربي ·

● ان الاستعمار العالمي بنى سياسته تجاه الوطن العربي على اساس التجزئة والاقليمية والتخلف · وجاء عبد الناصر ليفجر تيارات القومية العربية بأهدافها : الحرية والاشتراكية والوحدة · ويوفر امكانات النضال لحركات التحرر العربي في الجزائر وتونس والمغرب وفي ارجاء المشرق العربي ·

● ان الامبريالية والاستعمار عملتا من اجل اقامة اسرائيل لتكون لهما قاعدة متقدمة في قلب الوطن العربي يستخدمانها في ضرب حركات التحرر فيه وتمكين سيطرتهما على احتكاراتهما واستثماراتهما الواسعة في ارجائه · وجاء عبد الناصر ليتصدى لمؤامرات تصفية القضية الفلسطينية ويطلق العمل الفدائي ضد اسرائيل ، ويحصل على السلاح من الاتحاد السوفايتي ليبني جيشا حديثا لمواجهة الخطر الصهيوني الجاثم ·

ورغم ان عبد الناصر لم يكن قد بدأ في تصفية المصالح والاحتكارات الاجنبية الا ان الاستعمار العالمي بات يدرك مبكرا ،بأن قائدا ثوريا يقف كل هذه المواقف السياسية ، وعمل قبلها على تصفية الاقطاع وحكم الطبقة الاقطاعية البرجوازية والملكية الفاسدة ، وانهى الاحتلال وجعل الحكم في خدمة الجماهير الكادحة ·· لا يمكنه بهذا الخط السياسي الثوري ، وبهذا الرصيد من المواقف والاعمال التقدمية والنضالية الا ان يوجه ضرباته ان عاجلا او اجلا ضد كافة المصالح الاستعمارية ·

لذلك فان العداء لعبد الناصر كان قد بلغ الذروة في شهر سبتمبر ١٩٥٥ ،

وكان معنى هذا العداء توجيه الحملات العاتية ضده وشن

الهجمات عليه من كل الجهات وبكافة الوسائل والاسلحة . فاشتدت الحرب النفسية والدعائية ، ونشطت اسرائيل في تصعيد اعتداءاتها الاجرامية .

غير ان اكثر ما اهتم به الاستعمار وقتئذ هو : ضرورة توسيع حلف بغداد عربيا بتشديد الضغط على احد اقطار المشرق العربي للانضمام اليه . وكان الهدف من ذلك تخفيف الضغط على نوري السعيد والحكم الهاشمي في العراق ، وفي نفس الوقت من أجل الحاق هزيمة بعبد الناصر يمكن استخدامها في التقليل من شعبيته الجارفة التي غدت تقلق كافة الانظمة العربية الرجعية الاقليمية ، وتهدد امن واستقرار اسرائيل والمصالح الاستعمارية في المنطقة كلها .

كان اذن لا بد من عمل سريع ، لامتصاص تأثير صفقة الاسلحة ومواجهة الزعامة القومية التي اخذت تبرز بسرعة لاول مرة منذ ثمانية قرون في الوطن العربي .

واستقر رأي الاستعمار بعد ان فشل في ضم سوريا لحلف بغداد على ان يركز ضغطه على الاردن ، فالمهم وقتئذ ان يحرز اي نصر على عبد الناصر ، ويكسب اي قطر عربي لحلف بغداد ، ولكنه لقي في الاردن هزيمة نكراء . وخسر حلف بغداد هناك معركة حاسمة فاصلة قررت مصيره مبكرا .

***

كان يفضل الاستعمار بعد اقامة حلف بغداد ان يضم سوريا اليه قبل غيرها من اقطار المشرق العربي ، لانها كانت وما زالت مركز الثقل فيه ومفتاحه الرئيسي ، كما ان حركة القومية العربية تفجرت فيها قبل غيرها منذ ايام الاستعمار العثماني ، وكان نشاطها في الاربعينات والخمسينات مصدر قلق بالغ للدوائر الاستعمارية والصهيونية ، ولذلك كان التركيز والضغط عليها قويا ، ورغم ذلك فانه فشل في احتوائها بفعل تفاعل الحركة الوطنية فيها مع عبد الناصر .

ولو ان سوريا سقطت في قبضة حلف بغداد وقتئذ لسقطت بعدها بقية اقطار المشرق : الاردن ولبنان والسعودية ، فقد كانت انظمة الحكم فيها مهيأة للانضمام لذلك الحلف تنتظر لحظة سقوط سوريا ، بل كانت ادوات بيد الاستعمار وقواعد له استخدمها للضغط على سوريا ٠

وكان عبد الناصر ببصيرته الثورية مدركا لما كان سوف يترتب على سقوط سوريا وغيرها من اخطار حددها بقوله:
« لو ان جميع الدول العربية استجابت لهذه الدعوة الموجهة اليها وقبلت الانضمام الى هذا الحلف ؟ اذن لكان معنى ذلك ان اهتمام هذه الدول جميعا سوف يتجه الى خطر محتمل قادم ، ولا يقاتل عن خطر محقق رابض في قلب المنطقة العربية نفسها وهي اسرائيل »٠

« ولو ان ذلك حدث لكان معناه تصفية قضية فلسطين في صالح اسرائيل اولا ، ثم كان معناه ترك مصر وحدها تواجه اسرائيل ومطامعها التوسعية ، ثم تستدير بعد مصر الى باقي اجزاء الوطن العربي تلتهم منه جزءا بعد جزء »، ثم تكشفت حدود المؤامرة كلها عندما وقف رئيس وزراء بريطانيا في جلسة مجلس العموم البريطاني في يوم ٤ ابريل ١٩٥٥ يقول ما نصه : « ان حلف بغداد يمكننا من تدعيم نفوذنا في الشرق الاوسط ويجعل لنا القدرة على ان نرفع صوتنا عاليا في كل مشكلة » ٠

« هنا خرجنا نقاوم الدعوة الى الحلف الجديد باعتباره خطرا كبيرا علينا كشعب عربي اولا وكشعب مصري ثانيا » (١)

ولقد نجحت هذه المقاومة في حمايةسوريا من السقوط تحت اقدام ذلك الحلف ٠٠ ولم ييأس الاستعمار فحول اتجاهه نحو الاردن٠٠

---

(١) خطاب عبد الناصر في افتتاح مجلس الامة في ٢٢-٧-١٩٥٧ ٠

كان الاردن منذ تكوينه امارة في عام ١٩٢٢ ، ثم تطويره الى مملكة في عام ١٩٤٦ ، يشكل قاعدة رئيسية للاستعمار البريطاني في منطقة المشرق العربي لتنفيذ مخططاته واستراتيجيته .. وكان حاله كذلك عند قيام حلف بغداد مع فارق اساسي هو ان الفلسطينيين بعد نكبة ١٩٤٨ الذين صاروا يشكلون اكثر من سبعين في المائة من مجموع سكان المملكة الاردنية الهاشمية ساهموا مساهمة ايجابية فعالة في سرعة تطوير الحركة الوطنية الاردنية واصبحوا يشكلون العنصر الاساسي في مقاومة المخططات الاستعمارية ، خاصة ما يتعلق منها بالقضية الفلسطينية التي كانت تتعرض الى مؤامرات التصفية ٠

وقد وكان ايمانهم بعبد الناصر وحماسهم له اشد واعمق من ايمان وحماس الشعب العربي في اى جزء اخر من اجزاء هذا الوطن ، لانهم رأوا فيه المنقذ لهم من مأساتهم المروعة والمحرر لوطنهم المحتل ٠٠ وكانت رؤيتهم لحلف بغداد منسجمة تمام الانسجام مع رؤية عبد الناصر لهذا الحلف الاستعمارى ٠ ولم يكن ذلك بخاف على الاستعمار ، ولذلك فانه كان يستعجل الخطى لاحتواء الاردن تحت مظلة حلف بغداد وتصفية القضية الفلسطينية قبل استفحال خطر التفاعل بين جماهير هذا الشعب المنكوب وبين جمال عبد الناصر ٠

كان الاردن وقتئذ مقيدا بالمعاهدة الاردنية البريطانية التي كانت قد عقدت في عام ١٩٤٨ لمدة عشرين عاما تنتهى في عام ١٩٦٨ ٠

وبموجب هذه المعاهدة كانت بريطانيا تسيطر ما يشبه السيطرة الكاملة المباشرة على مقدرات هذا البلد رغم وجود راية استقلال ونشيد وملك ومجلس وزراء ومجلس نواب واخر للاعيان ٠

كانت بريطانيا تعتبر الجيش الاردني : الفرقة العربية في الجيش البريطاني ٠ وكان قادة هذا الجيش من الضباط

الانجليز منذ انشائه · فقد كان الكولونيل بيك باشا اول قائد انجليزي له · وخلفه الجنرال جلوب في ابريل عام ١٩٣٩ ، وكان جميع قادة الالوية ومعظم الكتائب في هذا الجيش من الضباط الانجليز ، وكان لهم ولقائدهم الاعلى جلوب دور اجرامي في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ بتسليم اللد والرملة ايام كان الجيش المصري يتعرض الى هجوم غادر ويحاصر في الفالوجا ، ثم بالامتناع عن تحرير القدس ومقاتلة العدو بحجة ان الذخيرة لا تكفي لمعركة مدتها ساعة واحدة ·· وكانت سياسة بريطانيا ان تبقى اسلحة الجيش الاردني بدون ذخيرة كافية لكي لا يشكل خطرا على الهاغاناه والعصابات الصهيونية اذا ما تمرد ضباطه العرب على قادتهم من الضباط الانجليز ، وبالتالي لكي لا يشكل هذا الجيش خطرا على المخطط الاستعماري الجاري تنفيذه وقتئذ بخلق اسرائيل وتأكيد وجودها ·

وعندما زحف حلف بغداد على الاردن عام ١٩٥٥ كان جلوب هو القوة الفعلية هناك ، فقد كانت له السيطرة الكاملة على الجيش والامن العام اللذين كانا وحدة واحدة تحت قيادته المباشرة · وكان بفعل بقائه في منصبه مدة تزيد على الستة عشر عاما قد اشرف على كل صغيرة وكبيرة تمت في الجيش والامن العام ، وكان على صلة شخصية وثيقة بجميع الضباط ومعظم الجنود الذين كانوا في غالبيتهم من البدو يعرفهم بالاسم واحدا واحدا ·

وكانت المعونة المالية البريطانية ومقدارها ١٢ مليون جنيه استرليني تأتي عن طريقه ، وكانت هذه المعونة هي عماد ميزانية الاردن ·

وبفعل هذه السيطرة المباشرة على الجيش والامن العام والميزانية ، فان جلوب كان هو القوة الفعلية · وكان رجال السياسة يعرفون هذه الحقائق ولذلك فانهم كانوا يسعون الى رضاه ليضمنوا الوصول الى المناصب العليا · بل ان

صغار الموظفين كانوا يسعون الى رضاه وكان يتدخل في كل شيء حتى تعيين المخاتير عمداء القرى !

وكانت القوانين في خدمة جلوب ، بل كان يتجاوز القوانين اذا كانت هناك ضرورة تقتضي هذا التجاوز ٠٠

وكان بكل هذه القوة التي كانت بين يديه وطوع ارادته يشكل ارهابا متواصلا ضد الحركة الوطنية التي كانت قد رفعت شعار تعريب الجيش منذ اقترفت اسرائيل جريمتها البشعة في قرية قبيه ليلة ١٤ سبتمبر ١٩٥٣ تحت سمع وبصر الجيش الاردني ٠٠ وكان المئات من العناصر المناضلة في الحركة الوطنية الاردنية في معتقلات جلوب باستمرار ٠

وفوق ذلك كان هناك بموجب المعاهدة قوات بريطانية في عمان والمفرق ومعان والعقبة مع ضمان وضع كافة التسهيلات التي تحتاج اليها ٠

بطبيعة الحال كان الاستعمار يعرف جيدا ان جلوب هو القوة الفعلية في الاردن ٠ وكان تقديره في ضوء هذه المعرفة ان الاردن سوف يكون لقمة سائغة لحلف بغداد لا عناء في ابتلاعها ٠ وانه اذا تفجرت مقاومة غير متوقعة بفعل تأثير عبد الناصر فان جلوب كفيل بان يقضي عليها خلال ساعات ٠

وكان الامر يحتاج الى براعة في الاخراج ، وتولى المخطط الاستعماري الاعداد له ٠ فقامت اسرائيل من جانبها بتصعيد عملياتها العدوانية ضد القرى الامنة على امتداد خط الهدنة ، في حين قام جلوب بحملات ارهابية متصلة ٠٠ وكان القصد هو ان يبدو الاردن امام خطر لا يقوى على مواجهته لتبرير الانضمام لحلف بغداد الذي كانت اجهزة الدعاية الاستعمارية والرجعية تصوره بانه سبيل القوة والحماية للعرب في مواجهة الاعتداءات الاسرائيلية ٠٠ وفي نفس الوقت لاضعاف الحركة الوطنية وجعلها عاجزة عن المقاومة ٠

في ظل الارهاب الاسرائيلي من جانب وارهاب جلوب من جانب اخر ، بدأ زحف حلف بغداد سريعا بعد صفقة

الاسلحة التي حطم بها عبد الناصر احتكار السلاح وغرور الدول الاستعمارية وجبروتها ٠

وقد اقتضى الاخراج ان تطلب الحكومة الاردنية اجراء محادثات لتعديل المعاهدة مع بريطانيا ٠ فتم توجيه مذكرة للحكومة البريطانية بتاريخ ١٦ـ١١ـ١٩٥٥ للدخول في محادثات لتحديد نوع العلاقة بين البلدين وتطوير الجيش الاردني بحيث يصبح قوامه «فرقة مشاة، وفرقة مصفحة، ومدفعية ثقيلة، ولواء مظليين ومجموعة كوماندوز ، وقوة جوية تشمل القاذفات والمقاتلات وقوة بحرية في العقبة والبحر الميت» ٠ (١)

وابدى عبد الناصر اهتماما بالغا بموضوع هذه المذكرة بمجرد ان علم بأمرها ، اذ كانت السحب كلها تتجمع فوق الاردن ، فأوفد المشير عبد الحكيم عامر قائد القوات المسلحة المصرية الى عمان لمناقشة الملك حسين وحكومته في الاهداف التي ترمي اليها هذه المذكرة وعلاقتها بالانباء المتوافرة عن احتمال انضمام الاردن لحلف بغداد ، مؤكدا حرص مصر الثورة على تحمل مسئوليتها القومية في الدفاع عن الاردن باعتبار ان خطوط الهدنة مع العدو في نظر عبد الناصر تشكل خطا واحدا ، وان الاعتداء على اى جزء منها يشكل عدوانا على مصر نفسها ٠٠ وموضحا في نفس الوقت خطورة حلف بغداد والاسباب التي تدعو الى رفضه ٠ وقد انكر المسؤولون الاردنيون للمشير عامر انهم يفكرون في الانضمام لحلف بغداد ، وبرروا ارسال المذكرة بسعيهم الى تطوير وتوسيع الجيش الاردني ، مدللين على ذلك بقائمة الاسلحة التي تضمنتها المذكرة كحد ادنى لهذا الجيش ٠

ولكن ، بعد ايام قليلة من مغادرة عبد الحكيم عامر لعمان ، وصلها فجأة في السابع من شهر ديسمبر ١٩٥٥ الجنرال تمبلر رئيس اركان حرب القوات البريطانية على راس

---

(١) الحسين بن طلال ، ص ٤٤ .

وفد بريطاني كبير . وقد غطى وصوله المفاجيء بانه استجابة للمذكرة الاردنية بهدف اجراء مفاوضات حول ما تضمنته . ولم يكن ذلك صحيحا ، وانما كان الصحيح هو من اجل اجراء ترتيبات اعلان انضمام الاردن لحلف بغداد .

ان عبد الناصر انزعج انزعاجا شديدا لوصول «تمبلر» الى الاردن ، ولذلك فانه بادر الى ايفاد انور السادات الى عمان ليبذل جهدا اخيرا لمنع الاردن من السقوط والانهيار ثم ليكون على مقربة من الاحداث والتطورات التي باتت تنذر باوخم العواقب .

كان مقدرا لمحادثات الجنرال تمبلر ان تنتهي خلال ثلاثة ايام على الاكثر يتم بعدها اعلان انضمام الاردن للحلف . ولكن ما ان علم الوزراء الفلسطينيون المشتركون في وزارة سعيد المفتي بأن المحادثات مع تمبلر تتجه الى ضم الاردن لحلف بغداد حتى بدأوايثيرون العراقيل والمتاعب . واصروا على ضرورة استشارة الرئيس عبد الناصر بالمذكرة التي اعدتها لجنة المفاوضات الذي كان هزاع المجالي ابرز اعضائها لتقديمها الى الجنرال تمبلر . واصروا كذلك على ان تتم الاستشارة قبل تقديمها لتمبلر . وكانت هذه «المذكرة بعنوان «مشروع موضوع اتفاقية» . وفيما يلي نصها الحرفي :

«توافق حكومة المملكة الاردنية الهاشمية على الانضمام لحلف بغداد شريطة تحقيق ما يلي :

١ ــ تؤمن حكومة صاحبة الجلالة ملكة بريطانيا الوحدات العسكرية التالية لقوات حضرة صاحب الجلالة ملك المملكة الاردنية الهاشمية .

أ ، ب ــ زيادة عدد قوات الجيش الاردني بنسبة ٦٥ ٪ عما هو عليه الان .

ت ، ث ــ اسلحة متنوعة ومتوسطة قيمتها ستة ملايين جنيه استرليني .

٢ ــ تؤيد حكومة صاحبة الجلالة البريطانية وجهة نظر الاردن لدى اللجنة العسكرية بالنسبة لحاجاته وذلك من اجل

تمكينه من القيام التام بمسئولية الدفاع عن الاردن وفـــ
برنامج عسكرى يوضع لذلك ٠

٣ ـ تشرع حكومة صاحبة الجلالة البريطانية بالمب
في مفاوضات مع حكومة صاحب الجلالة الاردنية وذلك ،
اجل استبدال معاهدة ١٩٤٨ ، الاردنية البريطانية باتفاقي
خاصة وذلك بموجب المادة الاولى من ميثاق بغداد على
تتضمن الاتفاقية ما يلي :

أ ـ توكيد الصداقة والسلم بين البلدين المتعاقدين ٠
ب ـ انهاء المعاهدة الاردنية البريطانية وملاحقهـــ
والرسائل المتبادلة بموجبها والمعقودة عام ١٩٤٨ ٠
جـ ـ قيام تعاون بين الحكومتين للدفاع عن الاردن ويشـ
ذلك وضع الخطط العسكرية والمساعدات المتبادلة والتدريـ
المشترك وتتضمن هذه المساعدات ما يلي :
١ ـ تدفع حكومة صاحبة الجـــلالة البريطانية لخزيـ
حكومة صاحب الجلالة الاردنية مساعدة مالية من اجل نفقا
القوى الاردنية وتأمين مستلزماتها ويتفق على حد ادنى لها
٢ ـ تقدم حكومة صاحب الجلالة الاردنية التسهيـــلا
اللازمة لاقامة وحدات الطيران البريطانية في عمان والمفرق
٣ ـ الاعتراف بان الاتفاقية الجديدة لا توجب على حكو
صاحب الجلالة الاردنية اية التزامات خارج المملكة ٠
هـ ـ تتعهد حكومة صاحبة الجلالة البريطانية بان تباد
فورا لمساعدة حكومة صاحب الجلالة الاردنية في حالة وقو
اعتداء مسلح عليها وان تتشاور حكومتا صاحبي الجلالـــ
في حال احتمال وقوع خطر ٠
و ـ توفير التسهيلات اللازمـــة لطائـــرات الدولتـ
المتعاقدتين داخل بلد كل منهما ٠
ز ـ لا تخل هذه الاتفاقية بالالتزامات المترتبة او التـــ
ستترتب على اى من الفريقين المتعاقدين وفقا للاتفاقات الدولـ
المرعية والمعاهدات وميثاق الامم المتحدة ٠
ح ـ يبقى هذا الاتفاق نافذ المفعول طيلة مدة بقـــ

الطرفين المتعاقدين اعضاء في ميثاق بغداد» · (١)

لم يكن هناك غير معنى واحد لهذه المذكرة هو الموافقة على الانضمام لحلف بغداد ·

ولم يكن لدى المتحمسين من اعضاء الوزارة الاردنية للانضمام لهذا الحلف اى شك في ان عبد الناصر لن يوافق على ذلك لان موقفه الرافض للحلف منذ البداية ولمبدأ انضمام اية دولة عربية له واضح وضوح الشمس ·· ولذلك فانهم عارضوا فكرة الوزراء الفلسطينيين الذين طالبوا باستشارة عبد الناصر ·

كان عبد الناصر قد ضاعف من الحملة ضد حلف بغداد بكافة الوسائل المتاحة منذ لحظة وصول تمبلر لعمان · وكان معنى هذا انه ضد انضمام الاردن لهذا الحلف · بل وكان هناك اشعار بهذا الرفض للمسؤولين الاردنيين ·

في نفس الوقت ، بالتجاوب والتفاعل مع عبد الناصر ، كانت الحركة الوطنية الاردنية بجماهيرها الواسعة بدأت مقاومتها لفكرة انضمام الاردن لحلف بغداد منذ بدأت الوزارة الاردنية مفاوضاتها مع الجنرال تمبلر ·

وتحت ضغط عبد الناصر ومقاومة الحركة الوطنية الاردنية ، استقال الوزراء الفلسطينيون ، وترتب على ذلك استقالة الوزارة برئاسة سعيد المفتى في ١٤ ديسمبر ١٩٥٥ بعد اسبوع كامل من وصول تمبلر والمفاوضات معه ·

وتشكلت على الفور وزارة جديدة برئاسة هزاع المجالى الذي كان من اشد المتحمسين لحلف بغداد · وارفق جلوب ذلك بحملة واسعة من الارهاب اذ امر قوات الجيش وخاصة قوات البادية بالمحافظه على الامن في المدن والقرى ومخيمات اللاجئين ·· وعزز ذلك باعتقالات واسعة شملت جميع العناصر القيادية المناضلة في صفوف البعثيين والشيوعيين ·

ولكن كل هذه الاجراءات الارهابية الصارمة لم تحد من

---

(١) الحسين بن طلال ص ٤٧ــ٤٩ .

مقاومة الجماهيرلحلف بغداد،بل انها كانتبمثابةالوقود الذي يصب على النار فيزيدها اضراما ·

وافلت زمام الامر من يد جلوب ، وعمت ارجاء الاردن المصادمات الدامية والمظاهرات الصاخبة ، وقـام اللاجئون الفلسطينيون في منطقتي اريحا ونابلس بقطع طرق المواصلات بين الضفة الغربية وعمان ، ثم تفاقم الخطر عندما اصبحت جموع الشعب في الاردن ، الرجال والشيوخ والنساء والاطفال تهتف بحياة عبد الناصر وسقوط حلف بغداد ووزارة هـزاع المجالي ·

كانت ارادة الشعب الاعزل اقـوى مـن ارادة جلـوب والاستعمار والعملاء · وتحت ضغط هذه الارادة الشعبيـة المتفاعلة مع عبد الناصر المتأثرة بمواقفه الثورية ، والمؤمنة بقيادته القومية الشجاعة ، بدأ الانهيار في صفوف دعـاة حلف بغداد ·

اضطر تمبلر الى مغادرة الاردن سرا ليضمن النجـاة لنفسه ·

واضطر هزاع المجالى الى الاستقالة يوم ١٩ ديسمبر ١٩٥٥ بعد خمسة ايام فقط من تشكيله الوزارة ·· ثم لم يجد مكانا امنا يلوذ اليه غير عشيرته في الكرك ··

ولم تهدأ ثورة الشعب الاعزل الا باعلان صريح مـن رئيس الوزراء الجديد ابراهيم هاشم بعدم التفكير في الانضمام لحلف بغداد .

وعندما تولى سمير الرفاعي من بعده رئاسة الـوزارة في الثامن من يناير ١٩٥٦ لم يجد لتهدئة مخاوف الجماهير غير الاعلان في بيانه الوزاري امام مجلس الامة في ٢٦ـ١ـ٥٦ بانه «ليس من سياستنا ان ندخل او نرتبط باية احلاف جديدة»

هكذا ، لقي حلف بغداد هزيمة منكرة في الاردن ، وخسـر معركة حاسمة فاصلة ،

وهكذا ، بفعل التلاحم بين القيادة القومية الثوريـة متمثلة في جمال عبد الناصر وبين الجماهير الشعبية تحقق

في الاردن اكبر انتصارات الامة العربية ضد الاحلاف العسكرية ٠

***

ان تلك الهزيمة القاسية التي لحقت بحلف بغداد ودعاته في الساحة الاردنية حطمت هيبة الاستعمار وزعزعت اركان حلفه البغيض ، ولكنها لم تنه الوجود الاستعماري في الاردن ولا اسقطت حلف بغداد ، اذ بقي جلوب والضباط الانجليز يسيطرون سيطرة تامة على الجيش والامن العام ، وبقي الاردن يعتمد على المعونة المالية البريطانية ، وبقيت القوات البريطانية موجودة وفق ما نصت عليه المعاهدة المشتركة في عمان والمفرق ومعان والعقبة ٠٠ كما ان حلف بغداد بقي قائما رغم التصدع الكبير الذي اصابه ٠

كان معنى ذلك ان الهزيمة لم تكن قاضية ٠وانه لا بد من جولة ثانية ٠ فليس من عادة الاستعمار ان يستسلم اذا ما تعرض لهزيمة حتى ولو كانت قاسية ، وانما من عادته بعد كل هزيمة ان ينكمش ويستجمع قواه وينقض من جديد لاستعادة المواقع التي يكون قد خسرها ٠

ولم تكن من عادة عبد الناصر ايضا ان يطمئن لهزيمة تلحق بالاستعمار ولا تنه وجوده تماما ٠٠ وكان يدرك جيدا ان الاستعمار البريطاني بالذات لم يكن على استعداد لان يخسر اية مواقع جديدة في المنطقة العربية بالذات ، حيث يمتلك نصيبا كبيرا من ثرواتها البترولية ٠

ولم يكن العدو الصهيوني ايضا على استعداد لان يتقبل نصرا كبيرا للحركة الوطنية الاردنية ضدحلف بغداد ،

كما ان الامبريالية الاميركية مبتكرة الاحلاف العسكرية وسيدتها الاولى لم تكن بدورها تسمح بالمهانة التي اصابت حلف بغداد وباتت تعرض الاحلاف الاخرى لمهانات واخطار اشد ،

بذلك فان الاسابيع التي تلت هزيمة حلف بغداد في

العشرين من ديسمبر ١٩٥٥ كانت اسابيع استعداد وتحفز لجولة ثانية ٠

وكان معنى الجولة الثانية وقتئذ :

● اما ان يقوم عبدالناصر والحركة الوطنية بهجوم جديد على مواقع الاستعمار ،

● واما ان تقوم القوى الاستعمارية والصهيونية والرجعية بهجوم مضاد لاسترداد هيبتها وتحقيق ما عجزت عن تحقيقه في هجومها الاول ٠

كان الاستعداد من الجانبين للجولة الثانية يتم وسط اجواء مشحونة بالتوتر والهجمات الاذاعية ٠ فقد كانت اذاعات القاهرة وعلى الاخص اذاعة صوت العرب تعمل دون انقطاع في فضح مخططات الاستعمار ، ودعوة القوى الوطنية الى التكتل وتوحيد الصفوف ، في حين كانت احدى عشرة اذاعة سرية يعمل فيها امثال ابو الفتح تصب سمومها بشكل هستيري ضد عبد الناصر الذي كان يصل الليل بالنهار في اتصالات مع قادة الحركات الوطنية في المشرق العربي حيث كانت تتجمع سحب الجولة الثانية ٠

في تلك الاثناء ، ونحن الان في نهاية شهر فبراير ١٩٥٦ بعد عشرة اسابيع فقط من هزيمة حلف بغداد في الاردن ، كان سلوين لويد وزير خارجية بريطانيا في زيارة للقاهرة لاجراء محادثات مع عبد الناصر تستهدف تلطيف الجو ٠

وشاءت الاقدار ان تحين ساعة الصفر للجولة الثانية اثناء تلك الزيارة وان يتلقى سلوين لويد وهو في القاهرة نبأ كان وقعه عليه اشد قسوة ومرارة من نبأ هزيمة تمبلر وحلف بغداد في الاردن ٠ كان النبأ : طرد جلوب والضباط الانجليز من الجيش الاردني وترحيلهم من الاردن . وكان معنى ذلك سقوط قلعة من اهم قلاع الاستعمار البريطاني في منطقة المشرق العربي وانهيار احد خطوط الدفاع الرئيسيه التي كان يعدها الاستعمار للوقوف في وجه عبد الناصر وتيارات

القومية العربية ، ويحمي بها وجود اسرائيل ٠

كان الرجلان ، عبد الناصر وسلوين لويد ، يتناولان طعام الغداء مع اعضاء وفديهما في المحادثات عندما كانت الاحداث الكبيرة تجرى في عمان في الاول من مارس ١٩٥٦! وكانت المحادثات قد دارت حول صفقة عرضها الوزير البريطاني على عبد الناصر وخلاصتها ان تعمد بريطانيا الى تجميد مساعيها لتوسيع حلف بغداد مقابل وقف الحملات الدعائية المصرية ٠٠ وكان من الطبيعي ما دام الحديث عن حلف بغداد ومساعى توسيعه ان يكون الاردن وجلوب محورا له ٠٠ ولم يكن هناك اتفاق في الرأي بينهما ، فقد كان سلوين لويد واثقا من قوة جلوب محاولا التلويح من خلال ذلك بقدرته على توجيه الاردن نحو حلف بغداد مرة اخرى ٠٠٠ وكان رد عبد الناصر : «بان عليه الا يصدق تقارير اناس من امثال جلوب باشا اذا قالوا له ان شعب الاردن يحبذ الحلف فانني ـ اى عبد الناصر ـ اعرف الشعوب وهي ضد الحلف ٠ ان امثال جلوب فقدوا الصلة بالناس وباتت ايامهم معدودة»(١)

تذكر سلوين لويد هذه الكلمات عندما ابلغه السفير البريطاني همفري تريفليان وهما في طريقهما من قصر الطاهرة الى مبنى السفارة ذلك النبأ الصاعق الذي تبلغه السفير من احد موظفي السفارة اثناء مادبة الغداء فتصور ان عبد الناصر هو الذي حدد توقيت طرد جلوب ليتم اثناء اجتماعهما امعانا في الهزء من الاستعمار البريطاني والسخرية بوزير خارجية بريطانيا العظمى ٠ ولم يشأ لويد ان يتخلص من هذا التصور ، فقد كان مقتنعا بان ما حدث كان نتيجة لدور عبد الناصر في المنطقة ٠ وهذا صحيح ٠

وكان من الطبيعي ان يكون طرد جلوب هو محور الحديث بين الرجلين في اللقاء التالي والاخير بينهما ٠٠ كان سلوين

---

(١) محمد حسنين هيكل . عبد الناصر والعالم ص ١٢٥ .

لويد في حالة لا مثيل لها من الكآبة والتعاسة وكان عبد الناصر في حالة لا مثيل لها من الانشراح والسرور .. ولم يصدق لويد ما قاله عبد الناصر له من أنه لم يسمع باقالة جلوب باشا الا في هذا الصباح فقط .. وتصور عندما بدأ عبد الناصر يضحك من سخرية الموقف انه يضحك منه فازداد تعاسة فوق تعاسته . وقد وصف عبد الناصر موقف سلوين لويد بانه « بدا كسمكة تملكتها الحيرة والارتباك ذلك الصباح ولقد عجزت عن اقناعه ببراءتي وفي الوقت ذاته عجزت عن كبح نفسي عن الضحك مما حدث ومن مظهره » (١)

ويبدو أن سلوين لويد كان في تلك الايام في برج النحس فقد شاء حظه العاثر ان ينتقل من القاهرة الى البحرين ، المحمية البريطانية وقتئذ ، حيث كانت توجد قاعدة رئيسية للقوات البريطانية في منطقة الخليج . وهناك أستقبل بمظاهرات صاخبة رجمته بوابل من البيض والطماطم وهتفت في وجهه بحياة عبد الناصر وسقوط الاستعمار .

ايقن لويد وقتئذ ان عبد الناصر ازداد قوة ونفوذا واصبح موجودا في كل مكان في الوطن العربي ، وصار خطره مهددا للاستعمار عامة ، ولذلك فانه عاد من رحلته وهو مقتنع بما اقتنع به ايدن ودالاس من قبل بان الاستعمار يخوض ضد عبد الناصر معركة مصير ووجود .. فالمنطقة لا يمكن ان تتسع للاثنين معا .

***

ثم جاء الصيف الساخن باحداثه الكبيرة التي واجهها عبد الناصر بارادة ثورية واعية ، فصنع الملحمة البطولية الخالدة المتمثلة في تأميم قناة السويس التي ضاعفت من زعامته على كافة المستويات الاقليمية والقومية والدولية الى آماد ابعد من قدرة العقول الالكترونية الامبركية على تحديدها .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

كان ذلك النصر الكبير الذي حققه عبد الناصر ، مثل كل نصر حققه قبلئذ وبعدئذ .. قوة للحركات الوطنية في الوطن العربي والعالم ، ولقد استفادت منه الحركة الوطنية الاردنية في تدعيم اندفاعها الذي بداته بعد هزيمة حلف بغداد ، وعززته بطرد جلوب ، وتمكنت من احراز نصر جديد بفوزها في الانتخابات النيابية التي جرت في الاردن في ٢١ اكتوبر ١٩٥٦ وسط اجواء عالمية مشحونة بالتوتر الشديد ، وتشكلت وزارة ائتلافية ضمت مختلف القوى الوطنية قبيل العدوان الثلاثي الغادر بينما كانت سحب الحرب تتجمع فوق سماء المنطقة . ثم ما لبث ان وقع العدوان الاجرامى .

وما ان سكتت المدافع وانهزم المعتدون واضطروا الى الانسحاب قبيل نهاية عام ١٩٥٦ ، حتى بدات الامال الوطنية والقومية الطموحة تتصادم مع غزوة استعمارية جديدة زحفت على المنطقة تحت شعار «مبدأ ايزنهاور» بحجة ملء الفراغ الذي احدثه سقوط الاستعمارين البريطاني والفرنسي .
ارادت الامبريالية الاميركية ان تقوم بهجمتها في اعقاب ذلك العدوان مباشرة لكي لا تتاح الفرصة لعبد الناصر لالتقاط انفاسه .

كانت الحرب قد اثقلت كاهل الاقتصاد المصرى والحقت دمارا كبيرا في مدينة بور سعيد وقناة السويس والمطارات . وكانت اموال مصر في الخارج وعلى الاخص في بريطانيا والولايات المتحدة الاميركية مجمدة . وكانت مصر في حاجة ملحة لهذه الاموال ولاضعافها لتخفيف حدة الحصار الاقتصادي المفروض عليها وشراء كميات من الادوية اللازمة لعلاج الجرحى وتوفير الحد الادنى من احتياجات المواطنين . ولم يكن الاستعمار يتورع عن استعمال سلاح الدواء وتعريض حياة شعب بأسره للخطر في سبيل الضغط على عبد الناصر .
على اساس هذه الوقائع التي كانت الولايات المتحدة الاميركية تدركها جيدا ، تصور مخططو السياسة الاميركية ان عبد الناصر بعد العدوان الثلاثي كالاسد الجريح في

قفص حديدي ، سوف يكون مضطرا الى الانكفاء على نفسه يضمد جراحه ، وانه اضعف بكثير من ان يتصدى للسياسة الاميركية ٠٠ بل بلغ بهم التصور انه لا بد من ان يكون مستعدا وقتئذ للانضواء تحت المظلة الاميركية والحصول على المساعدات التي يحتاجها لاعادة بناء الاقتصاد المصري وتعمير ما دمره العدوان الغادر ، واستيراد كمية من الدواء الذي كان مفقودا ولم يكن متاحا شراؤه بدون توقيع الولايات المتحدة الاميركية !

اذن فان عبد الناصر ، في تصور الامبريالية الاميركية وقتئذ كان في وضع الذي لا يقوى على المقاومة ٠٠ وانه بدون عبد الناصر فان الحركات الوطنية في المشرق العربي وعلى الاخص في سوريا والاردن هي ايضا في وضع الذي لا يقوى على المقاومة ٠٠

معنى ذلك انه لاحت للولايات المتحدة الاميركيه فرصة ذهبية كانت تمنى النفس بها ٠ فقد كان من اعز امانيها واهدافها الاستراتيجية منذ الحرب العالمية الثانية ان ترث الاستعمارين البريطاني والفرنسي في هذه المنطقة العائمة على بحار من البترول ٠٠ وتصورت وهي تشاهد سقوط هذين الاستعمارين انها غدت وجها لوجه امام اغلى الاماني ٠

ولم تتردد في الاقدام ، فاعلنت عن مبدأ ايزنهاور لملء الفراغ الذي احدثه سقوط الاستعمارين ٠٠ مستهدفة احتواء الوطن العربي وربطه بأحلافها ٠

وكانت المفاجأة المذهلة التي لم تكن تتوقعها ، ان عبد الناصر تصدى بالرفض لهذا المبدأ ٠٠ فليس هناك فراغ في هذه المنطقة ، ولن يكون هناك فراغ في اي مكان يصفى فيه الاستعمار ٠٠ فالقومية العربية هي وحدها التي تملأ كل فراغ في الوطن العربي ٠

بذلك سقطت كل حسابات العقول الالكترونية الاميركية ٠٠ ولم تتعظ الولايات المتحدة الاميركية من المصير الذي

واجهه حلف بغداد في الاردن ، ولا من مصير الاستعماريين البريطاني والفرنسي في مصر ، ولم تحاول ان تفهم عبد الناصر على حقيقته ، كما لم تحاول ان تتفهم المعاني المتمثلة في صيحته المبكرة الرافضة لمبدأ ايزنهاور .

وبعناد رعاة البقر ورعونتهم ، بدأت الولايات المتحدة الاميركية هجوما شاملا على المنطقة العربية مستعينة بكل ادواتها وامكاناتها وعملائها ، مستهدفة ارغام الاقطار العربية ، قطرا وراء قطر ، على قبول مبدأ ايزنهاور . وتصورت ان قبول كميل شمعون المبكر لهذا المبدأ سوف يكون مشجعا لسوريا والاردن لقبوله .

ان السياسة الامبريالية الاميركية وقتئذ ركزت هجومها على سوريا والاردن ، واضعة حساباتها على اساس ان نجاحها فيها سوف يؤدي الى عزل مصر ومحاصرة عبد الناصر ، اذ كانت مطمئنة لموقف السعودية ، وكان العراق في حلف بغداد ، ولم يكن السودان يقوى وهو حديث الاستقلال على مقاومة الزحف الاميركي ، اما بقية الوطن العربي فكان تحت الاستعمار المباشر او غير المباشر .

كانت الحركة الوطنية في كل من سوريا والاردن قوية ، وكان التنسيق تاما بين عبد الناصر وحزب البعث الذي كان شريكا في الحكم في دمشق وعمان ، ويشكل العمود الفقري في تينك الحركتين ..

ولم يكن ذلك سرا ، ولكن الامبريالية الاميركية بنت تقديراتها على اساس ان انعدام الصلة الجغرافية بين مصر والمشرق بسبب وجود اسرائيل ، ثم بسبب الازمات الاقتصادية التي سببها العدوان الثلاثي لمصر ، سوف يجعل عبد الناصر لا يقوى على اكثر من تقديم العون الدعائي ، ولذلك فانها شددت هجومها بتنسيق متكامل مع حلف بغداد واسرائيل .

هنا برزت قومية عبد الناصر وعبقريته ..

لقد مد يد العون لكل من الازدن وسوريا ومكنهما من الوقوف في وجه الغزوة الامبريالية الجديدة والحاق الهزيمة بمبدأ ايزنهاور ·

كانت الحكومة الاردنية قد التزمت بانهاء المعاهدة البريطانية ، ولم يكن ممكنا انهاء هذه المعاهدة بدون تامين معونة مالية بديلة عن المعونة المالية البريطانية ·

ولم يكن امام الحكومة الاردنية غير عبد الناصر ·· ولم يتردد عبد الناصر في تحمل مسئوليته القومية :

اولا : ليمكن هذا الجزء الهام من الوطن العربي الذي يشكل مقتلا لاسرائيل من التحرر من السيطرة الاستعمارية ·

ثانيا : ليحول دون سقوط الاردن في قبضة «مبدأ ايزنهاور» ويجعل منه قاعدة لاحباط ذلك المبدأ ، بدل ان يصبح قاعدة للانقضاض على الثورة العربية ·

ثالثا : لكي يكسب قوة الى جانب مصر ، فتزداد قوتها وتصبح اقدر على مواجهة الهجمات والمؤامرات التي تستهدفها

ولم يكن غير عبد الناصر بفكره القومي الثوري الذي يمكنه ان يرى هذه الاماد البعيدة .. ولذلكفانه تبنى مسئولية تأمين معونة مالية عربية للاردن مساوية للمعونة المالية البريطانية ومقدارها اثنا عشر مليونا ونصف المليون من الجنيهات · فدعا الملك سعود والملك حسين والرئيس السوري شكرى القوتلي (١) الى اجتماع عاجل في القاهرة تقرر فيه توقيع اتفاقية التضامن العربي في ٩ يناير ١٩٥٧ وقد نصت على ما يلي :

مادة ١ ـ تؤكد الحكومات المتعاقدة ايمانها بضرورة التضامن والتعاون لتدعيم الكيان العربي واستقلاله ، وتعلن تقديرها لما يتطلبه هذا من المشاركة في المسؤولية المترتبة عليه.

مادة ٢ ـ تشترك حكومات الجمهورية السورية والمملكة

---

(١) لم يحضر شكري القوتلي ذلك الاجتماع لانه كان في زيارة خارج سوريا واناب عنه رئيس الوزراء صبري العسلي .

العربية السعودية وجمهورية مصر في تكاليف الالتزامات التي تقع على عاتق حكومة المملكة الاردنية الهاشمية نتيجة لسياسة التعاون والتضامن في تدعيم الكيان العربي واستقلاله بمبلغ اجمالي قدره اثنا عشر مليونا ونصف المليون من الجنيهات المصرية سنويا أو ما يعادلها (ويطلق عليه تعبير الالتزامات العربية) . وينظم الملحق لهذه الاتفاقية الذي هو جزء متمم لها ، توزيع هذه المساعدات على الحكومات المشتركة وكيفية تقديمها .

مادة ٣ ـ تخصص حكومة المملكة الاردنية الهاشمية المساعدات العربية للقوات المسلحة الاردنية الهاشمية بما فيها قوات الحرس الوطني واعدادها .

مادة ٤ ـ عقدت هذه الاتفاقية لمدة عشر سنوات من تاريخ نفاذها ، واذا لم تعدل قبل انتهاء هذه المدة باتفاق الحكومات المتعاقدة تظل نافذة المفعول الى حين انتهاء اجلها وبعد ذلك بانقضاء سنة من تاريخ تقديم احدى الحكومات المتعاقدة للحكومات الاخرى بالطرق الدبلوماسية اخطارا بالانتهاء .

مادة ٥ ـ يصدق على هذه الاتفاقية وفقا للاوضاع الدستورية المرعية في كل من الدول المتعاقدة وتصبح نافذة من تاريخ تبادل وثائق التصديق على أن يتم تبادل هذه الوثائق في القاهرة . (١)

اما الملحق بهذه الاتفاقية والمنصوص عليه في المادة الثانية منها فقد نص على ان يكون نصيب كل من مصر والسعودية خمسة ملايين جنيه سنويا ونصيب سوريا مليونين ونصف المليون جنيه سنويا .

وقد تم التصديق على هذه الاتفاقية وملحقها خلال ايام ووضعت موضع التنفيذ فورا . ولقد حرص عبد الناصر على اشراك السعودية بهذا الالتزام ليقلل من اندفاعها نحو أميركا

---

(١) الحسين بن طلال ص ١٣٨

وانجذابها لمبدأ ايزنهاور · وكان الملك سعود وقتئذ في طريقه الى واشنطن ·

بعد ان اطمأنت الحكومة الوطنية الاردنية الى المعونة المالية قررت انهاء المعاهدة البريطانية والتخلص من القواعد البريطانية . ونجحت الحكومة الاردنية في تحقيق هدفها في ١٣ مارس (اذار) ١٩٥٧ ·

واستنادا لهذه المعونة ، فان الحركة الوطنية الاردنية متمثلة وقتئذ في الوزارة انذاك صمدت في وجه الضغط الاميركي ورفضت مبدأ ايزنهاور ··

بذلك فان عبد الناصر ، بالمعونة المالية التي أمنها للاردن ، ودعمه القوى للحركة الوطنية الاردنية ، افسد كل تقديرات ومخططات الامبريالية الاميركية ومكن الاردن من النجاة من تهلكة ايزنهاور · ولو لم يفعل عبد الناصر ذلك ، لسقط الاردن مبكرا وتحول الى قاعدة ضد الثورة العربية ·

***

اما الدعم الذي قدمه عبد الناصر لسوريا فكان من نوع اخر ، مهد الطريق أمام الوحدة العربية ، وحطم به نظرية الحاجز الاسرائيلي العازل بين مصر والمشرق العربي ·

كان الضغط الاميركي على سوريا اشد واعنف من ضغط حلف بغداد في عام ١٩٥٥ · والمعروف عن الامبريالية الاميركية انها عندما تضغط ترمي بكل ثقل الولايات المتحدة الاميركية لتضمن أفضل النتائج بأسرع وقت .. فحركت عملاءها للقيام بنشاط هستيري في الداخل · وحركت قوى حلف بغداد لتضغط بالقوات التركية من الشمال والقوات العراقية من الشرق ، ثم حركت القوات الاسرائيلة على خط الهدنة لتضغط من جانبها . وحولت لبنان الى قاعدة تآمر . وغدت سوريا تحت ذلك الضغط تواجه خطرا حقيقيا لم يسبق ان واجهت مثله من قبل اذ لم يكن في مقدور الجيش السوري

أن يتوزع على ثلاث جبهات ، يواجه الحشود الكثيفة ويتولى في نفس الوقت مسؤولية حماية الجبهة الداخلية من المؤامرات الاميركية والرجعية العميلة ٠

ولو ان سوريا بقيت وحدها تحت ذلك الضغط القوى لما صمدت طويلا ٠٠

ولكن عبد الناصر الذي كان يعرف جيدا القيمة الاستراتيجية لسوريا فانه واجه مسؤوليته القومية تجاهها بالمبادرة الى ارسال قوات من الجيش المصري بالاسلحة السوفياتية الحديثة ، لمعاونة الجيش السوري في مواجهة الحشود ، والتأكيد بان اى عدوان على سوريا هو عدوان على مصر ، وان خطوط الهدنة مع العدو الصهيوني هو خط واحد ٠

كان معنى هذا الموقف الثوري الذي وقفه عبد الناصر انذاك ممارسة ايجابية لمعنى القومية العربية وثورة على التجزئة الاقليمية وتأكيدا الى وحدة المصير العربي ٠٠

وبفعل ذلك ، صمدت سوريا ، وانتصرت الحركة الوطنية فيها ، ولحقت الهزيمة الساحقة بمبدأ ايزنهاور ٠٠ فسقط مبكرا ٠ ونجت الامة العربية من خطر دق ابواب عواصمها بكل قوة وعنف وشراسة الامبريالية الاميركية ٠

★★★

لم تمض اسابيع قليلة على هزيمة مبدأ ايزنهاور حتى وقعت انتكاسة الحركة الوطنية في الاردن في ٢٥ ابريل ١٩٥٧ ولكنها لم توقف اندفاعة القومية العربية بقيادة عبد الناصر ٠٠ فاستمرت في تقدمها السريع الى ان بلغت هدف الوحدة الام بين مصر وسوريا في فبراير ١٩٥٨ ٠

واندفع تيار القومية العربية من عاصمة الامويين في اتجاه عاصمة العباسيين فبلغه في الرابع عشر من تموز يوليو ١٩٥٨ ٠

في ذلك اليوم شديد الحرارة في بغداد تفجرت الثورة في

موقع من اعتى مواقع الاستعمار ، وقلعة من اقوى قلاعه في المنطقة · وكان ذلك تأكيدا الى ان كل اجراءات القمع والاضطهاد التي احالت، العراق كله الى سجن كبير تمارس فيه ابشع واقسى انواع التعذيب والاغتيال والقتل لم تقدر على وقف حركة التاريخ · ذلك لان حركة التاريخ اقوى بكثير من عوائق الحكومات الارهابية ·

كان المقرر في ذلك اليوم ان يجتمع رؤساء حلف بغداد في العاصمة التركية انقره ، وكان هناك اطمئنان تام من جانب الاستعمار الى ان الاوضاع في عواصم الحلف ، وعلى الاخص في مركزه الرئيسي، تدعو الى الارتياح التام وتسير على ما يرام حسب المخططات الموضوعة · وكان الرئيس التركي جلال بايار ورئيس وزرائه مندريس قد وصلا الى المطار مبكرا ليستقبلا ضيوفهما ملك العراق فيصل الثاني وشاه ايران ورئيس باكستان ورئيس وزراء بريطانيا ووزير خارجية اميركا ، ولكن الذي وصلهما في ذلك الصباح من بغداد كان نبأ الثورة فأصيبا بذهول شديد ·

وكان الذهول الذي اصيبت به واشنطن ولندن اشد بكثير ، وقد سبب للمسؤولين فيهما حالة من الانفعال العصبي الهستيري جعلتهم يقدمون على تحركات انفعالية الهبت جو المنطقة وجعلته يبدو وكأن كل ما في باطن الارض من نفط اندفع الى السطح واشتعلت فيه النيران وتصاعدت منه سحب كثيفة غطت العالم كله بالتوتر الشديد وفرضت عليه حالة من الخوف والارتعاد من احتمالات الحرب الذرية التي سبق ان واجهها قبل اقل من عامين منذ ذلك الحين ايام العدوان الثلاثي الذي عكس رعونة الاستعمار وتهوره وكراهيته الحاقدة لعبد الناصر والقومية العربية الاشد من كراهيته للشيوعية لانهما الاكثر خطرا على مصالحه في هذه المنطقة الاكثر حساسية بالنسبة له من اية منطقة في العالم ·

ورغم ان الثورة في العراق كانت تجسد ارادة الشعب

العربي هناك ؛ الا انها كانت انتصارا لعبد الناصر والقومية العربية ، ولانها كذلك فان الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا قررتا التدخل الفوري ودون اي تردد في محاولة مستميتة لقمعها انقاذا لحلف بغداد المتهاوي ، ودفاعا عن مصالحهما الاحتكارية ، وحماية للانظمة العربية الرجعية الاقليمية التي غدت تترنح بفعل تأثيرات اندفاع تيار القومية العربية في المنطقة، ثم، وهذا الاهم وقتئذ في نظر الاستعمار العالمي، من اجل الحاق هزيمة ساحقة بعبد الناصر والقومية العربية فتعود المنطقة بعدئذ الى الوداعة والاستكانة والاستسلام !

كانت سياسة دالاس المشهورة : ان يكون الضرب قويا وفوريا لارهاب عبد الناصر ، والتأكيد على كل من يعنيه الامر بان هناك تصميما على تصعيد الموقف حتى ولو ادى ذلك الى اشعال الحرب العالمية الثالثة في سبيل اجهاض الثورة العراقية . وكان المقصود هو الاتحاد السوفياتي ، بهدف التأثير على موقفه وتحييده ، ليسهل الانفراد بمن تأثروا بعبد الناصر وغامروا بالثورة .

وكان دالاس بارعا في تصعيد المواقف ووضع العالم على حافة الحرب .. وكان مصمما وقتئذ على ان يقود الحملة ضد عبد الناصر بانيا حساباته ولا شك على ان الاتحاد السوفياتي لن يزج بنفسه وسط النيران المشتعلة .

كان معنى سياسة دالاس ان المواجهة الساخنة سوف تكون هذه المرة بين قوى الاستعمار العالمي بقيادة الولايات المتحدة الاميركية مباشرة ، وبين القومية العربية بقيادة عبد الناصر الذي اسقط كل حسابات ومخططات الامبريالية وغدا خطرا يفوق كل الاخطار التي واجهتها .

ولم ينتظر دالاس مدة شهرين لتوجيه ضربته لعبد الناصر والثورة العربية كما فعل ايدن وجي موليه عام ١٩٥٦، معتمدا على الامكانات الهائلة المتوفرة لبلاده ... ففي خلال ساعات اندفع الاسطول الاميركي السادس لانزال القوات الاميركية في

لبنان المتاخم للاقليم الشمالي (السوري) من الجمهورية العربية المتحدة · كما اندفعت في نفس الوقت عبر اجواء اسرائيل الطائرات البريطانية لانزال قوات بريطانية في الاردن، وتحركت القوات التركية والايرانية والاسرائيلية للاحتشاد الكثيف بكامل اسلحتها الثقيلة على الحدود العراقية والسورية لتطبق عليها من كل اتجاه ··

في تلك الساعات تدافعت الاحداث بشكل مجنون ·· وخيم شبح الحرب الذرية ·

كان عبد الناصر وقتئذ في زيارة رسمية ليوغوسلافيا ·وقد قرر انهائها فور سماعه لانباء الثورة والعودة الى المنطقة المشتعلة ليخوض المعركة النهائية المصيرية في صراعه مع حلف بغداد والاستعمار العالمي ·

لقد وجد ان الباخرة اسلم من الطائرة ، وحرص تيتو على تخصيص مدمرتين يوغوسلافيتين لتعزيز القوة البحرية المصرية المرافقة لليخت الحرية الذي استقله عبد الناصر ·واتخذ من ذلك اليخت مقر قيادة عائم له · فمنه اصدر قرار ارسال العون العسكري الذي تدفق من دمشق الى بغداد في ارتال من القوافل وصلت بين المدينتين واستمرت دون انقطاع على مدى ايام بلياليها ·· ومنه ايضا اصدر قرار اعلان حالة الطوارىء القصوى للقوات المسلحة في اقليمي الجمهورية العربية المتحدة استعدادا لمواجهة اكبر التحديات واسوأ الاحتمالات ·

وكان التصاعد السريع للموقف في المنطقة وحسابات احتمالاته هو الشغل الشاغل لفكر عبد الناصر · وقد لمعت في ذهنه فكرة استطلاع رأي الاتحاد السوفياتي ومناقشة التطورات الخطيرة الناتجة عن التدخل العسكري الاميركي والبريطاني والمتصادمة مع الاماني القومية العربية والمهددة للسلام العالمي · ووجد وهو يناقش هذه الفكرة مع مرافقيه الدكتور محمود فوزي ومحمد حسنين هيكل ان هناك ضرورة

للذهاب الى موسكو ومقابلة خروشوف « بحيث استوثق من موقف الروس واعرف على وجه التحديد ما ينوون عمله وما هم مستعدون له وما ليسوا مستعدين له • ذلك اننا سنكون في الظلام اذا عدت الى القاهرة دون استقراء الموقف السوفياتي واستكشافه » •(١)

لذلك قرر العودة الى يوغوسلافيا وكان تيتو قد بعث له ببرقية نصحه فيها بذلك •• واستقل الطائرة بسرية تامة من مطار « برلا » وكان برفقته ثلاثة رجال فقط : الدكتور فوزي وهيكل وسكرتيره الخاص • وتولى تيتو اخطار الروس بموعد وصول عبد الناصر وتهيئة الترخيص للطائرة بالطيران عبر سماء بلغاريا •

لقد كان العالم كله بما في ذلك الاتحاد السوفياتي يعرف بان عبد الناصر في طريقه الى بلاده من يوغوسلافيا ، ولذلك فان الزعماء السوفيات فوجئوا عندما ابلغهم تيتو بان عبد الناصر في طريقه اليهم •

وحرص السوفيات من جانبهم على احاطة هذه الزيارة بالسرية التامة لذلك ، فانهم عمدوا الى ايفاد مكويان ومدير المخابرات الجنرال سيروف ومترجم لاستقبال عبد الناصر في المطار فجر اليوم السابع عشر من يوليو •

لم يكن الاتحاد السوفياتي قد اتخذ حتي ذلك الحين اي موقف في مواجهة عمليات الانزال الاميركية والبريطانية في لبنان والاردن والحشود العصبية على الحدود العراقية والسورية من قبل ايران وتركيا واسرائيل •

وفي احدى ضواحي موسكو امعانا في السرية تمت المحادثات بين عبد الناصر وخروشوف واستمرت في ذلك اليوم ثماني ساعات •

كان خروشوف مقتنعا بان عبد الناصر كان وراء انقلاب

---

(١) هيكل . ناصر والعالم ص ١٨٤ .

العراق ولذلك فانه استعمل معه تعبير « انهم رجالك في العراق » ! ·

كان معنى هذا الاقتناع ان الثورة في العراق هي ثورة وحدوية · وان العهد الجديد سوف يتجه للانضمام الى الجمهورية العربية المتحدة ، فتزداد القومية العربية قوة وتتعاظم زعامة جمال عبد الناصر وتتضاءل مكانة الاحزاب الشيوعية التي كانت بدأت عداءها لوحدة مصر وسوريا ! بذلك فانه في ضوء ذلك الاقتناع والعداء الشيوعي للوحدة العربية ، فان موقف الاتحاد السوفياتي انحصر في حدود عدم التصادم مع الولايات المتحدة الاميركية !

لقد طالب عبد الناصر من الزعيم السوفياتي بضمانات لتقديم دعم فعال في مواجهة الأندفاع الاميركي المتصاعد ، ولكنه فوجيء بخروشوف يقول له : « انه يعتقد ان الاميركيين خرجوا عن صوابهم ، لكننا بصراحة غير مستعدين للمواجهة· لسنا مستعدين لحرب عالمية ثالثة »!

ولم يكتف خروشوف بذلك وانما نصح عبد الناصر « بان ينحني مع العاصفة وليس ثمة سبيل اخر ، لان دالاس قد يفجر العالم ويدكه دكا » !

ولم ييأس عبد الناصر منهذهالعبارات المحطمة للمعنويات، وانما استمر يحاور الزعماء السوفيات في محاولات متلاحقة لزحزحتهم عن موقفهم ·· وكان اكثر ما حصل عليه بعد مداولات خاصة قام بها خروشوف مع المكتب السياسي هو « ان يعلن حلف وارسو عن اجراء مناورات عامة على الحدود البلغارية التركية »! وحرص خروشوف على تأكيد ذلك بقوله لعبد الناصر « اقول لك بصراحة : لا تعتمد على اي شيء اكثر من هذا » ثم عاد يكرر هذا التأكيد في المطار وهو في وداع عبد لناصر فقال له من جديد : « انها مجرد مناورة · وارجوك يا سيادة الرئيس ان تتذكر ان لا شيء يتعدى المناورة » (١) ·

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٩٠ .

لم يكن غير عبد الناصر ومرافقيه يعرف حقيقة الموقف السوفياتي ، ورغم انه ليس فيه اي نوع من انواع الدعم الا ان عبد الناصر اراد ان يستفيد من ذلك ، وهذا جانب اخر من عبقريته وشجاعته الثورية ، في تعبئة الرأي العام العالمي وتوجيهه للضغط على العدوان الاميركي البريطاني لوقف اندفاعه المجنون وسحب قواته وحشوداته العسكرية منبها الى احتمالات الصدام الرهيب بين القوتين الكبريين ٠

كان الاتحاد السوفياتي قد وضع تحت تصرف عبد الناصر طائرة خاصة اقلته الى دمشق عبر الاجواء الايرانية بترتيب خاص مع شاه ايران ، ودون الافصاح عن الشخصية المقلة لها ٠

وفي دمشق التي وصلها يوم ١٨ يوليو تدفق مئات الالوف من ابناء الشعب العربي لتحية جمال عبد الناصر ٠ ومنها خاض ضد قوى الاستعمار والامبريالية بقيادة الولايات المتحدة الاميركية مباشرة اهم واخطر معارك المواجهة ٠٠٠ كان اعتماده فيها على القومية العربية وجماهير الشعب ،ولم يكن غير عبد الناصر يقوى على ذلك ، ويواجه اعتى قوة استعمارية عدوانية عرفها التاريخ ٠

« اني اعلن باسمكم من هذا المكان اننا جميعا سنحمل السلاح لندافع عن استقلالنا وندافع عن النصر الذي حققناه ٠ اننا جميعا ايها الاخوة سنحمل السلاح لندافع عن القومية العربية ونبني اركانها . اننا جميعا في هذا جنود للوطن نعمل من اجل نصرة الوطن ، ونعمل على حفظ كيان الوطن ٠ وما الوطن ايها الاخوة الا الامة العربية كلها »

« اننا اذا رأينا اليوم التهديد ينطلق من الدول الاستعمارية٠ واذا رأينا اليوم اميركا تحتل لبنان وبريطانيا تحتل الاردن فانا اقول لهم باسمكم: لقدكان هناك لاحتلال فيالماضي . .كان هناك احتلال فرنسي في دمشق وكان هناك احتلال بريطاني في بغداد ، وكان هناك احتلال بريطاني في القاهرة وعمان ٠اين

هم الان ؟ لقد انتهى الاحتلال واصبح كالرماد ولكن شعلة الحرية هي التي تنتصر ٠»

« اني اقول لهؤلاء المحتلين : اننا ما زلنا نصمم على ما اعلناه ٠ اننا نسالم من يسالمنا ونعادي من يعادينا ٠ فان دعوا الى السلام فانا لها ، وان عادوا سنقاتل لاخر قطرة من دمائنا ٠ هذا هو سبيلنا ٠ هذا هو شعارنا »٠

« ان اميركا ابلغتنا بالامس ان الجمهورية العربية المتحدة تعتبر مسؤولة عن امن الجنود الاميركيين في لبنان ! وانا لا اعرف كيف يدخلون لبنان ويحتلونها ونحن نعتبر مسؤولين عن حماية الاحتلال ! لقد قاوم الشعب دائما الاحتلال وانتصر الشعب ٠ قاومه في اسيا ، وقاومه في افريقيا ، وقاومه في اميركا نفسها لان أميركا حاربت بريطانيا وانتصرت واستقلت، وطبعا الشعب العربي سيقاوم الاحتلال في كل بلد وفي كل مكان » ٠

« ان الشعب العربي اليوم في كل مكان يصمم على الانتصار ويصمم على الكفاح حتى يحقق لنفسه الاستقلال الكامل والاستقلال الحقيقي . لا الاستقلال المزيف ولا شبه الاستقلال، وحتى لا يكون ضمن مناطق النفوذ » .

« ان هذه المبادىء هي المبادىء التي يعتنقها العرب في كل مكان ونحن ايها الاخوة في هذا السبيل نضحي بكل قطرة من دمائنا »٠

« وانا اقول لاخوانكم في بغداد : اننا معكم ايها الاخوة جميعا ٠ اننا نحمل السلاح معكم ايها الاخوة جميعا ٠ وان دماءنا معكم ٠ كل قطرة من دمائنا »٠

هكذا خاطب عبد الناصر جماهير الشعب لحظة وصونه الى دمشق في الثامن عشر من يوليو ١٩٥٨ ،

ثم عاد في اليوم التالي ١٩ يوليو الى مخاطبة الجماهير وبجواره محمد عبد السلام عارف قائد الثورة العراقية الذي وصل لتنسيق المواقف مع عبد الناصر :

« لقد اراد الاستعمار دائما ان يفرق بين الاخ واخيه · ويفرق بين البلد العربي والبلد العربي·· وان يفرق بين الكفاح في البلد العربي · حاول هذا في كل مكان · بل انهم حاولوا هذا معي · كانوا يقولون لي : ما دخل مصر · ما دخل مصر انها تتورط في المشاكل العربية . لماذا لا تهتم مصر بنفسها وتترك البلاد العربية · ماذا تكسب مصر من تضامنها مع البلاد العربية · لماذا لا تهتم مصر بنفسها الا في المشاعر » .

« ولكني كنت اؤمن ان كفاح مصر هو كفاح الامة العربية لان كفاح الامة العربية هو كفاح مصر ، فان انتصار مصر هو انتصار للامة العربية وان انتصار اي بلد من البلدان العربية انتصار لمصر »

« بل قالوا ايضا اكثر من ذلك : انك اذا ابتعدت عن العرب· واذا ابتعدت عن كفاح العرب نستطيع ان نعاونك بكذا وكذا، بالاغراء ، ثم تحولوا الى التهديد ، ولكنا كنا نؤمن ان قوتنا في قوة اخواننا العرب »·

« وحين وقعت ثورة ١٤ يوليو في بغداد لم يكن اللقاء الكامل بيننا ، بين الجمهورية العربية المتحدة وبين الجمهورية العراقية في حاجة الى زمن · لم يحتج اللقاء الى ايام · لم يحتج اللقاء الى ساعات ودقائق · كان اللقاء تاما لان الفرقة بين الشعبين ·· هذه الفرقة التي حاول الاستعمار والتي حاول اعوان الاستعمار ان يقيموها ، كانت فقط في مخيلة الاستعمار وفي مخيلة اعوان الاستعمار »·

« واليوم ايها الاخوة المواطنون باسم القومية العربيةوباسم الشعب العربي الحر في كل مكان ، اتكلم الى العالم اجمع من هذا المكان في هذا الوقت الذي تتأزم فيه الشؤون الدولية والذي يشعر فيه العالم بوطأة الحرب والدمار · اننا نريد الاستقلال لوطننا · اننا نريد الاستقلال لبلدنا · اننا نريد ان نحافظ على قوميتنا · اننا نريد ان نحافظ على عزتنا ·واننا

نعمل من اجل السلام ، لانالسلام هو هدف لنا ولان الحرب هي دمار للجميع ».

« وانا أعلم ايها الاخوة ان غيوم الحرب تتجمع اليوم لا على سماء الشرق الاوسط فقط ولكن على سماء العالم أجمع واننا في هذا الوقت حينما نعمل من أجل السلام في الشرق الاوسط نعمل أيضا من أجل السلام للعالم اجمع » .

« ولكننا ونحن نؤمن بالسلام لا نسمح ابدا لاي بلد ان يعتدي على حدود بلد عربي شقيق لنا ، بلد عربي حر آثر الحرية وآثر الحياة وآثر الاستقلال ».

ثم عاد عبد الناصر لمخاطبة الجماهير المحتشدة الهادرة في دمشق يوم ٢٢ يوليو قائلا :

« اذا كان العالم قد استطاع ان يميط اللثام عن سر الذرة العظيم ، فان هذا العالم يستطيع ان يثبت ان طاقته المعنوية وطاقته الروحية اقوى من عضلاته واقوى من قدرته على التخريب ، والا فانه سيدمر الارض وسيدمر نفسه »

« لقد وصل العالم كله اليوم الى حافة الحرب بسبب الموقف في الشرق الاوسط . الازمة ليست من الشرق الاوسط ذاته . انها مفروضة عليه من الخارج . هذه الازمة مفروضة علينا من الطامعين ومن المستعمرين . مفروضة علينا من الذين يريدون ان يضعونا ضمن مناطق النفوذ ويريدون ان يأمروا فنطيع ».

« اننا نشعر ان اي عدوان على العراق او على اي جزء من الجمهورية العربية المتحدة ، هو معركة سيشترك فيها كل فرد من ابناء الوطن العربي في كل البلاد العربية . وان اي عدوان على اي بلد عربي هو عدوان على البلاد العربية الاخرى. اننا في هذا الوقت ايها الاخوة الذي نعلن فيه التعبئة ونحمل السلاح ندعو ايضا الى السلام ونعمل بكل جهد حتى ندعم السلام ».

ان جماهير الامة العربية كلها ، في ارجاء الوطن العربي كله ، التفت حول جمال عبد الناصر صفوفا متراصة اكدت بها وحدة هذه الامة وتصميمها على تصفية الاستعمار والحواجز الاقليمية التي صنعها ·

وشعوب العالم كله التي هالها ان ترى شبح الحرب مخيما فوقها ، وقوى الاستعمار العالمي بقيادة اميركا مندفعة بكل امكاناتها التدميرية لخنق ارادة شعب ثار من اجل حريته .. وقفت ضد العدوان ، مؤيدة موقف عبد الناصر وحق الشعب العربي العراقي في التحرر ، مستنكرة البلطجة الاستعمارية ومطالبة بوضع حد لها .

بذلك فان عبد الناصر نجح في تعبئة جماهير الامة العربية وشعوب العالم ضد العدوان الذي قادته الولايات المتحدة الاميركية ·

ولم يكن امام قوى الاستعمار والامبريالية غير الاستسلام لارادة القومية العربية والانسحاب من لبنان والاردن ..

كان معنى ذلك انتصار النضال القومي العربي الذي قاده جمال عبد الناصر ضد الاحلاف العسكرية · فلقد سقط حلف بغداد بانتصار الثورة في بغداد · وبسقوطه انتهت معركة الاحلاف بعد سلسلة طويلة من المعارك الضارية المتنوعة خاضها عبد الناصر ضد اعتى واقوى الدول الاستعماريةالتي عرفها التاريخ ·

ولم ينحصر الامر بهزيمة الاحلاف ·· انما كان معنى ذلك ان عبد الناصر ادى دورا تاريخيا في تصفية الاستعمار من مناطق هامة ومعاقل حصينة ·· واحباط مخططاتالامبريالية الاميركية لاحتواء العالم كله ·· وتمهيد الطريق امام الشعوب حديثة التحرر والاستقلال لتأدية دور ايجابي في تخفيف حدة التوتر وانعاش امال الانسان في قدرته على صنع السلام ·

ان عبد الناصر بكل ذلك ، رغم كل المعاناة التي عاشها والمصاعب التي واجهها ، صنع صفحات مشرقة في التاريخ الحديث ، وشق طريقا للاجيال العربية الصاعدة وفتح ابوابا واسعة امام الشعوب لتصنع مستقبلها بارادتها ·

الفصل الثامن

الحرب الخفية

ان اكثر ما كان يثير ويغضب القوى الاستعمارية والامبريالية العالمية في تعامل عبدالناصر معها، او في تعاملها مع عبدالناصر هو ان هذا التعامل كان يؤدي باستمرار الى عكس ما كانت تبغي وتشتهي ، اذ كان ينتهي الى تعريتها وفضحها وكشف نواياها تجاه الشعوب حديثة التحرر والاستقلال ، وكذلك الشعوب المناضلة من اجل التخلص من السيطرة الاستعمارية ، وكان يترتب على ذلك تعريض مصالح هذه القوى واحتكاراتها وعمليات النهب والسلب التي تمارسها لاخطار لم تكن في حساباتها وتقديراتها ، اذ من خلال ذلك لم يكن الامر يقف عند حدود معرفة هذه الشعوب لاسباب فقرها وتخلفها فحسب ، بل كان يتعداه الى حد ثقتها في قدرتها على تحرير ارادتها واستعادة مواردها ومصادر ثروتها من مغتصبيها .

وعلى الرغم من ان هذا التعامل اخذ اشكالا متعددة وتطور الى حد ممارسة العدوان المسلح ، وشن الحروب الاقتصادية والسياسية والنفسية ضد عبد الناصر وثورة ٢٣ يوليو ، الا ان النتائج ، رغم انعدام التكافؤ المادي وضخامة التضحيات التي تحملها الشعب العربي المصري ، كانت في النهاية : مكاسب هائلة للثورة العربية ومسار التاريخ وحركات التحرير في العالم ، مقابل خسائر فادحة لحقت بالقوى الاستعمارية والامبريالية والراسمالية العالمية .

ومن خلال هذا التعامل كان عبد الناصر يرسي قواعد اساسية جديدة للعلاقات الدولية ، وعلى الأخص للعلاقات بين الدول الصغيرة والدول الكبرى ، او الدول النامية والدول المتقدمة ، او بين الدول الفقيرة والدول الغنية ، وكذلك بين الدول والشعوب غير المنحازة والتكتلات الدولية التي تمثلت في المعسكرين الشرقي الاشتراكي والغربي الراسمالي الاستعماري .

ولم يكن ارساء هذه القواعد امرا هينا ، فقد كان يتم في واقع دولي بالغ التعقيد والخطورة ، وفي ظروف شديدة الحساسية بالنسبة للدول الاستعمارية وعلى الاخص بالنسبة للولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا وفرنسا التي اعتبرت عبد الناصر منذ البداية تحديا خطيرا لها فواجهته بكل امكاناتها ، ورمت ضده بكل ثقلها مستهدفة القضاء عليه ، او على اقل القليل ، تقييد حركته وشل فاعليته .

وبالمقاييس المادية ، وهي اساس حسابات وتقديرات الدول الاستعمارية ، لم يكن هناك تكافؤ بين عبد الناصر وتلك الدول والقوى العالمية الكبرى التي كان يتحتم عليه ان يصطدم بها ويتصارع معها ويشق طريقه ، كل شبر منها ، تحت وابل كثيف من نيرانها وضغوطها ..

وعلى اساس تلك المقاييس المادية ، فان دالاس الاميركي ، وايدن البريطاني ، وجي موليه الفرنسي ، كانوا واثقين كل الثقة من قدرتهم على هزيمة عبد الناصر وتصفية الحساب معه خلال شهور قليلة ، او على الاكثر خلال سنوات قليلة .. ولكنهم فشلوا الواحد بعد الاخر ، وفشلوا مجتمعين رغم التفوق الساحق الذي بقي متوفرا لهم في الامكانات المادية على مدى الصراع الذي لم يتوقف لحظة واحدة .

وبالمقاييس المادية اياها ، كانت امكانات عبد الناصر بالقياس الى امكانات اميركا وبريطانيا وفرنسا والصهيونية العالمية ضئيلة جدا الى درجة تنعدم معها المقارنة .. ولكن عبد الناصر لم يقاتل الاستعمار العالمي بالامكانات المادية ، وانما قاتله وهزمه بارادة الشعب ، وروح الثورة وحركة التاريخ .

وهذه الامكانات غير المادية التي اعتمد عليها عبد الناصر في مواجهة التفوق المادي الساحق للقوى الاستعمارية والامبريالية والصهيونية كانت موجودة قبل عبد الناصر وما زالت موجودة بطبيعة الحال بعده ، ولكن ميزه عبد الناصر

انه عرف كيف يستفيد من هذه الامكانات غير المادية ويجعلها اكثر فاعلية من الامكانات المادية الهائلة التي توفرت لاعدائه ، اعداء الثورة العربية .

ميزة اخرى توفرت في عبد الناصر من بين المزايا الكثيرة التي تحلى بها ، هي انه لم يعتمد في مواقفه على حسابات وتقديرات القوة المادية التي كان يملكها بالمقارنة مع القوة المادية التي كان يملكها اعداؤه ، فمثل هذه الحسابات والتقديرات كانت تفرض على صاحبها اليأس والعجز ، وبالتالي الاستسلام للامر الواقع ، وهذا ما لم يفعله عبد الناصر .. فكانت الثورة ، ثم كان القضاء على الاقطاع ، ثم كان تحطيم احتكار السلاح والتصدي بالرفض والمقاومة للاحلاف العسكرية ومؤامرات ومخططات الاحتواء وتصفية القضية الفلسطينية .

ولم يشأ الاستعمار العالمي بكل قواه ودوله ان يعيد النظر في حساباته التي كان على اساسها يحدد علاقاته ومواقفه من عبد الناصر والثورة العربية ، وهذا امر طبيعي ومنطقي بحكم حرص الاستعمار على مصالحه واستثماراته الاحتكارية ، وعمليات السلب والنهب التي كان يمارسها في طول الوطن العربي وعرضه ، ثم بحكم العقلية الاستبدادية الاستعمارية التي اعتاد على التعامل بها مع انظمة فاقدة الارادة .. ثم ، ولعل هذا هو الاهم ، لان عبد الناصر كان مصمما على اتباع سياسة نابعة من ارادة عربية ثورية متناقضة بطبيعة الحال مع اهداف وغايات الاستعمار العالمي .

ومفهوم الارادة عند عبد الناصر كان يتمثل في تحرير الوطن من الاحتلال والسيطرة واخطار العدوان ، وتحرير المواطن من الخوف والاستغلال ، واتباع سياسة خارجية حرة مستقلة قائمة على اساس المصلحة العربية دون اي اعتبار اخر .

ولم يكن تحقيق دلك بالامر الممكن دون تحقيق شرطين اساسيين :

الشرط الاول : بناء جيش قوي باسلحة حديثة قادر على حماية الثورة وتأدية الواجب القومي .
الشرط الثاني : تحقيق تنمية عالية المعدل بما يضمن مضاعفة الدخل القومي خلال اقصر مدة زمنية وتوفير احتياجات الجماهير ورفع مستواها المعيشي .

ان هذين الشرطين كانا اساس التعامل المباشر بين عبد الناصر والدول الاستعمارية التي كانت في منتصف الخمسينات تهيمن هيمنة كاملة على مقدرات الوطن العربي .. ولم يكن مفر من الصراع والصدام بسببهما لان المرتكزات الاساسية للسياسة الاستعمارية تجاه الوطن العربي عامة تقوم على اساس ابقاء مصر بالذات باعتبارها مركز الثقل لهذا الوطن ضعيفة ومتخلفة ومحتواة .

ولقد رأينا في الفصل السابق كيف كان التعامل بين عبد الناصر والدول الاستعمارية اثناء سعيه للحصول على الاسلحة اللازمة لبناء جيش حديث ، ثم كيف انهى عبد الناصر هذا التعامل بتحطيم احتكار السلاح وارساء احدى القواعد الاساسية الحديثة للعلاقات الدولية .
وعندما اراد عبد الناصر تحقيق الشرط الثاني المتعلق بالتنمية اصطدم وتصارع مع الاستعمار العالمي ، ولقد تجسد التعامل بينهما في هذا المجال حول ما عرف بمعركة السد العالي التي انتهت ايضا بانتصار تاريخي لعبد الناصر .

★★★

ان السد العالي كان رمزا للاماني الطموحة التي ارتسمت في ذهن عبد الناصر منذ بداية التفكير والتنظيم والتخطيط للثورة . ولم تكن اعز امانيه ان يصبح حاكما تسلط عليه اضواء اجهزة الاعلام والدعاية ، ويغرق في حياة القصور، ويتعامي عن الظلم الواقع على اعناق الملايين من الفلاحين والعمال والكادحين ، وانما كانت أعز أمانيه أن يجعل الحكم

في خدمة التغيير ، وان يرفع الظلم عن اعناق المظلومين ، ويحرر أرض الوطن وارادة المواطن ، ويوفر لكل انسان حقه في الخدمات الصحية والتعليمية ، وفي العمل دون خوف ولا استغلال ، وفي شرب الماء النقي وليس ماء الترعة ، وفي القدرة على شراء الكساء والحذاء .. ثم في الانتقال بالمجتمع ككل من مرحلة التخلف الى مرحلة التقدم .

والاماني ، وطنية كانت أو قومية ، تمثل انعكاسا لاحتياجات المجتمع في ضوء الواقع ، وكان الواقع في المجتمع العربي المصري يتمثل في قلة قليلة لم تتجاوز في حجمها وعددها نصف واحد في المائة ، كانت تعيش في بذخ وترف ، وتستحوذ على أكثر من خمسين في المائة من الدخل القومي ، بينما يعيش تسعة وتسعون ونصف في المائة على أقل من نصيب النصف واحد في المائة ، الامر الذي نتج عنه تناقض رهيب مخيف بين القلة المستغلة والاكثرية المسحوقة المحرومة من الغذاء والكساء وابسط انواع الخدمات ، ناهيك عن حقها في التعليم والعمل وممارسة الحد الادنى من الحرية ..

لذلك كانت أماني عبد الناصر انعكاسا للواقع الذي عاش فيه ورفض أن ينفصل عنه ، وصمم على أن يجعل الحكم في خدمة جماهير الشعب .

كان ذلك يعني ما هو أكثر بكثير من تصفية الاقطاع واعادة توزيع الارض على الفلاحين ، فعلى الرغم من الاهمية التاريخية لتلك الخطوة ، الا ان الانتقال من التخلف بمشاكله المتراكمة ، الى التقدم بأمانيه الكبيرة ، كان يتطلب تنفيذ مشروعات كبيرة في مجالات التنمية والتصنيع ، ذلك لان حل مشاكل التخلف لا تتحقق باتخاذ أو استصدار القرارات وانما بتنفيذ المشروعات ، فليس أسهل على الحاكم من اتخاذ القرارات ، ولكن ليس أصعب من تنفيذ المشروعات ، خاصة اذا كانت هذه المشروعات تتطلب أموالا طائلة غير

متاحة في بلد متخلف محدود الموارد ، محاط بقوى استعمارية وصهيونيــة معادية .

ولقد وجد عبد الناصر وهو يتجــه نحو التغيير الثوري انه يواجه تحديا مع الطبيعة ، فالصحراء تحاصر الارض الزراعية على جانبي النيل ، وموارد الطاقة اللازمة للصناعة محدودة، ان لم تكن معدومة ، وتكاثر السكان يحتم توسيع رقعة الارض الزراعية .. بذلك فانه وجد نفسه أمام ضرورات متعددة لا بد من ايجاد الحلول الجذرية لها .

ولم يكن متاحا أمام عبد الناصر غير نهر النيل ، فاتجه اليه يبحــث عن الحل فيه . فنحن في عصر يعرف جيدا كيــف يستفيد من كل قطرة ماء في استصلاح الارض ، وزيـــادة الرقعة الزراعية ، وتوليد الطاقة الكهربائية ، واقامــــة المشروعات الانمائية والانتاجية ..

ومياه النيل غزيرة ، كانت ، بالاف الملايين من الامتــار المكعبة تذهب هدرا في البحر المتوسط بينما الملايين من فلاحي الشعب العربي المصري يرهبون فيضانه ويسعون وراء مياهه بشتى السبــل والوسائل لاستصلاح وارواء واستـــزراع امتار قليلة جديدة من الصحراء ..

وتجربة خزان أسوان عليه كانت ناجحة في تخزين الميــاه والاستفادة منها في الاستصلاح والارواء وتوليد الكهرباء ، رغم أن الغرض منه لم يكن معالجة مشاكل المجتمع ولا تحسين اوضاع الفلاحين ، وانما كان الغرض منه تدعيم الاقطـــاع وتنمية زراعة القطن ، لتلبية احتياجات المصانع البريطانية ، وتمكين السيطرة الاستعماريــة على الاقتصـــاد المصري ، ومضاعفة عمليات النهب والسلب لثروة مصر وجهد الكادحين من أبنائها . فلقد انشىء هذا الخزان في مطلع هذا القـــرن في ظل الاحتلال البريطاني ، أيام كان عدد سكان مصـــر سبعة ملايين نسمة ، ثم تمت تعليته في عام ١٩٣٣ بعد أن ارتفع عدد سكان مصر الـــى اثنـــي عشر مليونـــا . وبغض

النظـــر عـــن طموحـــات الثورة واهدافها فانـــــه لـــم يعد يفي بحاجة البلاد التي ارتفـــع عدد سكانها في عــــام ١٩٥٢ الى أكثر من ثمانية عشر مليون نسمة .

بذلك فان الحاجة الملحة كانت اكبر بكثير من طاقة خزان اسوان ، فلماذا لا يستفاد من التجربة الناجحة بمشـــروع اكبر واضخم يتلاءم مـــع اماني الثورة واحتياجات المجتمـــع ويعوض الشعب بعض ما فاته ، ويمهد الطريـــــق نحـــو التقـــــدم .

هكذا تولد الحماس لدى عبد الناصر لفكرة السد العالي .

وخلاصة هذه الفكرة تمثلت في انه اذا امكن اقامة سد عال، فانه يمكن تخزين الفائض من مياه النيل ، والقضاء على خطر الفيضان ، واستصلاح مساحة جديدة واسعة من الارض ، وتحويـــل مساحة واسعة اخرى من ري الحياض الى الري الدائم ، وتوليد طاقة كهربائية يستفاد منها في مشـــروعات صناعية لا بد من اقامتها .. واذا تحقق ذلك ، يكون قد أمكن اقامة جسر للعبور من التخلف الى التقدم ، اذ يصبح متاحا وممكنا عندئذ مواجهة تحدي التكاثر السكاني ، والتخلـــف ومشاكله المتراكمة المتوارثة ، واقامة قاعدة متينة للصناعة التي لا يمكن تحقيق التقدم والرخاء بدونها .

ومن اجل أن تتحول الفكرة الى مشروع لا بد لها مـــــن الدراسة العلمية من جانب الفنيين والاخصائيين لاستكشاف الافاق ، وتأكيد الخصائص الايجابية ، وامكانية التنفيذ ، ولقد قام المهندسون المصريون بالدراسات التمهيدية ، فتوصلـــوا الى تحديد أدق لفوائد الفكرة وأمكانية تحويلها الى مشروع ممكن التنفيذ ، وأوصوا بضرورة الاستعانة بالخبرات الفنية العالمية لاعداد دراسة متكاملة لهذا المشروع الضخـــم مـــن ناحيتـــي التصميم و**التكاليف** .

وقتئذ ، لم يكن قد تم أي نوع من الانفتاح ولا التعامـــل بين عبد الناصـــر والاتحاد السوفياتي والكتلة الشيوعية ،

ولم تكن هناك ثقة في الدول الراسمالية الاستعمارية ، ثم ان عبد الناصر كان يريد دراسة علمية فنية يستفيد منها في تعامله اللاحق مع الدولة ، أو الدول التي ستتولى المساهمة في تنفيذ وتمويل المشروع ... ولذلك فانه اتجه الى ألمانيا الغربية في عام ١٩٥٢ بعد اسابيع قليلة من قيام الثورة لكي يقوم فريق من مهندسيها العالميين باعداد دراسات شاملة وخرائط تفصيلية للمشروع . ولكن أعباء الضغوط الداخلية المتعلقة بمشاكل الجماهير واحتياجاتها اقتضت توجيه العملات الصعبة المتاحة للتغلب على تلك الاعباء وحل تلك المشاكل . كما أن أولويات الاهتمام كانت اعطيت الى أنهاء الاحتلال البريطاني وتحرير منطقة القناة من الثمانين الف جندي بريطاني الذين كان وجودهم كابوسا على صدر الشعب والثورة وأعلانا كبيرا الى وجود الاستعمار . ثم ان البنك الدولي رفض تقديم قرض لهذا المشروع ، ولم يكن هناك وقتئذ أي مصدر دولي للتمويل أو القروض .

ولقد أمكن التوصل الى اتفاقية الجلاء في عام ١٩٥٤ ، واذا كانت الاولوية أعطيت بعدئذ للحصول على السلاح وتثبيت سياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز ، ومحاربة الاحلاف العسكرية ، فانه بعد تحطيم احتكار السلاح بصفقة الاسلحة مع الاتحاد السوفياتي أعطيت الاولوية للسد العالي .

★★★

وتمشيا مع روح عدم الانحياز ، ومن أجل موازنة السياسة الخارجية بعد صفقة الاسلحة السوفياتية ، اتجه عبد الناصر الى الغرب وعلى الاخص الى البنك الدولي والولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا ، ساعيا وراء التمويل اللازم لتنفيذ مشروع السد العالي ، فعرض على تلك الاطراف الثلاثة من جديد في خريف ١٩٥٥ بعد صفقة الاسلحة بايام قليلة ، ان تتولى مجتمعة تقديم القروض والعون الضروري لبناء السد

الذي كان يعتبره عبد الناصر الاساس القوي لبناء مصر التقدمية الصناعية .

واستجابت تلك الاطراف ، أو على الاصح تظاهرت بالاستجابة لطلب عبد الناصر ، ربما لامتصاص الاثار التي كان قد أحدثها تصريح سوفياتي في أكتوبر ١٩٥٥ عن استعداد الاتحاد السوفياتي لتقديم مائة مليون دولار لمصر من أجل مساعدتها في تنفيذ مشروعاتها الصناعية وبناء السد العالي، خاصة وأن هذا التصريح جاء في أعقاب صفقة الاسلحة التي أحدثت دويا هائلا في العالم ، وكان لها أثر كبير في الاوساط العربية على كافه المستويات . وربما لكسب الوقت واستدراج عبد الناصر وابعاده عن الاتحاد السوفياتي ومحاولة خلق ظروف مواتية لضربه وتصفية الثورة . وربما لاحتواء عبد الناصر والتحكم في حركته وتوجيهه للانشغال بالمشاكل والشؤون الداخلية . وكل واحد منها كان في الاعتبار عندما صدر في واشنطن ولندن في ١٧ ديسمبر ١٩٥٥ بيان يعلن عن استعداد الاطراف الثلاثة من حيث المبدأ المساهمة في تمويل وتنفيذ مشروع السد العالي ، بحيث يقدم البنك الدولي قرضا بمائتي مليون دولار ، وتقدم الولايات المتحدة الاميركية معونة مقدارها ٥٦ مليون دولار ، بينما تقدم بريطانيا معونة مقدارها اربعة عشر مليون دولار من اصل اجمالي المرحلة الاولى البالغ الف مليون دولار .

كان البنك الدولي قد رفض في عام ١٩٥٣ تقديم قرض مماثل لذات المشروع بحجه أن السياسة المصرية غيرمستقره، ولعله بذلك ، وهو يشكل في الاصل انعكاسا لارادة الولايات المتحدة الاميركية ، لم يشأ تدعيم موقف ثور ٢٣ يوليو التي كانت بدأت المفاوضات مع بريطانيا ..

ولم تكن السياسة المصرية في ديسمبر ١٩٥٥ قد استقرت وفق ما تشتهي واشنطن ولندن ، الامر الذي يؤكد ان الموافقة المبدئية على تقديم القرض والعون لم يكن أكثر من

مناورة . ولم تكن في حساب عبد الناصر أكثر من ذلك ، ولقد قبلها لتمضي التجربة مع الغرب حتى النهاية ومن ثم لاسقاط حجج الذين كانوا يدعون الى ضرورة الاعتماد على الولايات المتحدة الاميركية داخل مصر وبين اعضاء مجلس قيادة الثورة بالذات .

ولقد تكشفت النوايا الحقيقية لواشنطن ولندن في ذات اللحظة التي اعلن فيها بيان الموافقة المبدئية على التمويل .. ثم تلاحقت الاحداث لتضع دالاس وأيدن ويوجين بلاك مدير البنك الدولي في العراء مكشوفين بدون أي غطاء .

كانت معركة حلف بغداد قد بلغت ذروتها ، كان الجنرال تمبلر قد أرغم على وقف محادثاته ومغادرة الاردن .وكانت وزارة سعيد المفتي التي اجرت المفاوضات مع تمبلر قد اجبرت على الاستقالة . وكان هزاع المجالي رئيس الوزراء الجديد المتحمس لحلف بغداد يتعرض الى ضغط شديد .. وكان عبد الناصر راميا بكل ثقله وامكانات مصر مع الحركة الوطنية الاردنية ضد حلف بغداد .. وقتئذ كان بيان الموافقة المبدئية ، وكان الهدف العاجل من ورائه التأثير على موقف عبد الناصر واضعاف الجبهة الرافضة للاحلاف . ولكن موقف عبد الناصر لم يتأثر ، وبالتالي بقيت جبهة الرفض متماسكة ، وبعد أقل من ٤٨ ساعة كانت وزارة المجالي قد سقطت . وكانت الهزيمة لحلف بغداد .

وبعد شهر واحد ، في يناير ١٩٥٦ جاء يوجين بلاك الى القاهرة مشحونا بالكراهية والاحقاد ، لاجراء محادثات تكميلية مع عبد الناصر بهدف تطوير الموافقة المبدئية لتمويل مشروع السد العالي وامتصاص الشروط الذي سببته المذكرة الثلاثية التي ارفقت ببيان الموافقة المبدئية لدى عبد الناصر وتضمنت الشروط القاسية التالية :

١ ــ أن قرض البنك الدولي مرتبط بدفع أميركا وبريطانيا لحصتيهما !

٢ — أن تتعهد مصر بعدم قبول اية قروض او ارتباطات بدون موافقة مسبقة من البنك الدولي !

٣ — أن تتعهد مصر للولايات المتحدة الاميركيه وبريطانيا بتركيز مشروعها الخاص بالتنمية على السد العالي فقط بحيث تخصص له ثلث الدخل القومي سنويا على مدى عشر سنوات ، ولا تبذر اموالها على مشروعات اخرى .
٤ — أن يكون الالتزام بالدفع سنويا .

٥ — أن يتم تنفيذ المشروع بموجب تعاقدات تقوم على اساس المنافسة، مع التعهد برفض اية مساعده من أقطار المعسكر الشيوعي ! (١) .
وكان دالاس قبل بيان الموافقة المبدئية والمذكرة التي أرفقت به ، قد حاول الابتزاز مع عبد الناصر أثناء المحادثات التي جرت حول تمويل مشروع السد العالي . ففي أثناء المحادثات التي كان يجريها عبد المنعم القيسوني في واشنطن اوفد دالاس واحدا من ابرز الشخصيات الاميركية هو روبرت أندرسون الذي أصبح بعد فترة وجيزة وزير المالية الاميركي في حكومة ايزنهاور لاجراء محادثات مع عبد الناصر في القاهرة تتعلق بانهاء النزاع العربي الاسرائيلي وتصفية القضية الفلسطينية .. وكان في تقدير دالاس أن عبد الناصر في حاجة الى الاموال الاميركية لتنفيذ السد العالي وغيره من المشروعات الاقتصادية ، ولذلك فانه حمل اندرسون كثيرا من الوعود بالاف الملايين من الدولارات يغدق بها على عبد الناصر لقاء موافقته على انهاء النزاع العربي الاسرائيلي .. وكان هذا التقدير مبنيا على أساس أن هذا الوقت الذي يسعى فيه عبد الناصر للحصول على القروض والمساعدات المالية هو انسب وقت لابتزازه ومساومته على القضية الفلسطينية .

(١) ناتنج انطوني : ناصر ص ١٣١—١٣٢ .

لقد استمع عبد الناصر الى المبعوث الاميركي روبرت اندرسون ، وجادله في المقترحات التي حملها جدالا طويلا ومفصلا .. ثم كان رده في النهاية حاسما قاطعا اذ قال له : « لن أبيع الفلسطينيين بالمساعدات الاقتصادية » . (٦)

ولم ييأس دالاس لفشل مبعوثه أندرسون ، وعمد الى الالتفات حول عبد الناصر للوصول الى ذات الهدف .. فكانت المذكرة الملحقة ببيان الموافقة المبدئية بالشروط التي تضمنتها. واذا كانت هذه الشروط تكشف وتفضح نوايا واهداف القروض والمساعدات المالية والاقتصادية وغيرها التي تقدمها الدول الراسمالية ، وتعكس مراميها وغاياتها الاستعمارية والاحتكارية ، فان موقف عبد الناصر منها يكشف لنا اصالة ثوريته ورفضه القاطع لان يكون الشعب العربي الفلسطيني ، أو حقوقه ، موضع مساومة أو أن تكون حرية مصر وحقها في ممارسة ارادتها واتباع السياسة النابعة من مصالحها موضع مساومة ايضا ..

لذلك فان عبد الناصر رفض المذكرة وما تضمنته من شروط ، وابلغ ذلك لسفراء اميركا وبريطانيا ، واعرب لهما عن غضبه بسببها .

ولم يكن من سياسة دالاس ولا ايدن وقتئذ تقطيع الخيوط مع عبد الناصر لكي لا يندفع من جديد نحو موسكو رغم شكوكهما ، وعلى الاخص دالاس ، في جدية موقف الاتحاد السوفياتي وقدرته على تمويل وبناء السد العالي .. وانما كانت سياستهما تستهدف مواصلة الحوار معه وابقاءه معلقا في الهواء ، متصورا بأن تمويل السد في متناول يده ريثما يتهيأ الوقت الملائم لافقاده توازنه وتوجيه الضربة له واظهاره أمام الجماهير والجيش مظهر العاجز ، فيسهل الانقضاض عليه واسقاطه ..

---

(٦) المصدر السابق .

مما يؤكد ذلك ان دالاس وايدن لم يردا على غضب عبد الناصر ورفضه لشروط المذكرة بسحب عرضهما وموافقتهما المبدئية كما فعلا بعد خمسة شهور ، وانما أسرعا بايفاد يوجين بلاك مدير البنك الدولي الى القاهرة .

وقبل أن يسافر بلاك في مهمته استدعاه دالاس وطلب منه ان يتصرف كمواطن أميركي قائلا له : « اذهب وسوي الامور مع عبد الناصر ولا تتصرف معه كمدير للبنك الدولي » ! (١)

ولقد سمع بلاك كلاما مماثلا من أيدن عندما مر بلندن في طريقه الى القاهرة .

ورغم أن بلاك كان شديد الاقتناع والحماس لتمويل الغرب لمشروع السد العالي ، الا انه تقيد بتعليمات دالاس ، فعندما اجتمع مع عبد الناصر تحدث بصفته مدير البنك الدولي ، ولكن بمنطق دالاس الامبريالي .. فقدم نفسه بقوله :

« ان مهنتي مدير البنك في الحي المالي الاميركي « الوول ستريت » وأنا أفخر بذلك . ولكن وظيفتي الان تختلف الى حد ما ، اذ انني مدير بنك للامم المتحدة . ورغم انني مواطن اميركي الا انني لا أخدم بلدا واحدا وانما أخدم جميع البلدان بما في ذلك بلدك التي شاركت في انتخابي لمنصبي الحالي. وبحكم وظيفتي فانني اسعى الى تحسين وتطوير مشروعات التنمية وليس الى القيام بأدوار سياسية لمصلحة أو ضد اي شعب » !

وكان رد عبد الناصر على هذا التقديم دليل الذكاء الخارق المغلف بأسلوب لاذع اذ قال له : « لم أكن أعرف ذلك حتى الان ، وكان فهمي للبنك الدولي بانه أداة بشكل ما بيد

(١) المصدر السابق ص ١٣٢ .

السياسة الاميركية ! » (١)

بعدئذ استطرد عبد الناصر في شرح أهداف ثورة ٢٣ يوليو مركزا حديثه على معنى الحرية والاستقلال وممارسةالارادة وعلاقة ذلك بمشروع السد العالي الذي يعتبر الدعامة الاساسية لكثير من مشروعات التنمية .

وعندما حاول يوجين بلاك تبرير الشروط التي طالب بها البنك الدولي باعتبار أنها شروط تقليدية روتينية ، رد عليه عبد الناصر بانه لن يسمح باي نوع من الرقابة الاجنبية على مالية مصر ، وطالب بتعهد الاطراف الثلاثة بالالتزام ببناء السد العالي دون أية قيود أو شروط اذا هم أرادوا المساهمة في تنفيذ هذا المشروع ، وإلا فان هناك غيرهم على استعداد للقيام بهذا الدور .

وبعد اسبوعين من المحادثات الصعبة تم التوقيع في الثامن من فبراير ١٩٥٦ على اتفاقية مع يوجين بلاك يقدم البنك الدولي بموجبها قرضا ماليا مقداره مائتا مليون دولار . ولم تتضمن هذه الاتفاقيه ايه شروط ماسة بسيادة مصر وحريتها واستقلالها وحقها في ممارسة ارادتها واتباع السياسة التي توافقها وتتلاءم مع مصالحها .

ولكن يوجين بلاك قبل مغادرته القاهرة تذكر تعليمات دالاس فآثر ان يختتم زيارته بتذكير عبد الناصر ان تنفيذ اتفاقية القرض مرهون بوفاء الولايات المتحدة الاميركيه وبريطانيا بالمعونة المالية البالغة ٧٠ مليون دولار التي التزمتا بها كما جاء في المذكرة الملحقة ببيان الموافقة المبدئية .

ولم يهمل عبد الناصر ما سمعه من بلاك ، فلقد كان مصمما على الاستمرار في التجربة مع واشنطن ولندن حتى النهاية رغم اقتناعه بانها تجربة مؤكدة الفشل . ولذلك بادر الى

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٣ .

ارسال مذكرة الى الحكومتين الاميركية والبريطانية يقترح فيها الغاء الشروط الماسة بسيادة مصر وحريتها وكرامتها .

كان معنى ذلك أن اتفاقية القرض مع البنك الدولي لم تكن نهائية ، وان الحوار من اجل الوصول الى اتفاقية نهائية لتمويل السد ما زال مستمرا ، مع الحكومتين الاميركية والبريطانية باعتبار انهما الاصل وان البنك الدولي ليس أكثر مما فهمه عبد الناصر منذ البداية مجرد أداة تستخدمه الامبريالية الاميركية لتنفيذ سياستها .

★★★

ان رفض عبد الناصر الربط بين تمويل السد العالي والقضية الفلسطينية أو النزاع العربي الصهيوني ، وبالتالي افشاله لمهمة المبعوث الاميركي اندرسون قد اثار دالاس وزاده حنقا وحقدا وكراهية وتصميما على اسقاط عبد الناصر . اذ كيف يجرؤ على رفض تسوية ابتدعتها عقلية دالاس الذي كان يعتبر نفسه ظل الله على الارض ويتصرف على هذا الاساس !

ولم يكن الامر يحتاج الى تعبئة المخابرات المركزية الاميركية ضد عبد الناصر ، فقد كانت مهمتها الرئيسية وقتئذ في هذه المنطقة هي تدبير المؤامرات ضده .

كما ان القوى الضاغطة على الحكومة الاميركية وفي مقدمتها القوى الصهيونية المؤثرة على الكونغرس الاميركي ، والمسيطرة على البنوك وكافة وسائل الدعاية والاعلام ، كانت ايضا شديدة العداء لعبد الناصر ، واستغلت افشاله لمهمة اندرسون لتأليب الراي العام وتجميع عناصر التأثير والضغط بهدف تكتيلها ضد اي عون له .

ولقد نجحت قوى الضغط في التأثير على اتجاهات الكونغرس ازاء المساعدات الاميركية الخارجية ، اذ برز تيار قوي دعا

الى حجب اي نوع من المساعدات مهما كان قليلا وتافها عن عبدالناصر بحجة انه يقترب من موسكو وتقديم اكبر قدر من هذه المساعدات للرئيس اليوغسلافي تيتو بحجة انه يبتعد عن موسكو .. هكذا العقلية الامبريالية الاميركية ومقاييسها ..
أن تيتو لم يكن يبتعد عن موسكو انذاك ليقترب من واشنطن، وانما كان يتبع السياسة التي اقتنع بها وهي سياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز التي جعلته مشدودا الى القاهرة ونيودلهي وملتقيا مع عبد الناصر ونهرو .. ولكن العقلية الاميركية تصورت أنه يمكن التاثير على عبد الناصر بالايحاء من خلال ربط مساعداتها بالابتعاد عن موسكو . وكان مقياسها للمسافات والاتجاهات هو مقدار القبول لارائها وحلولها للمشاكل والقضايا .. ولم ينفع هذا الاسلوب مع عبد الناصر كما لم ينفع مع تيتو .

وكان عبد الناصر من خلال متابعته لمناقشات الكونغرس وتصريحات المسؤولين الاميركيين قد أيقن بان اميركا لن تمول السد العالي ولن تفي بما وعدت به الا اذا ضمنت الثمن الذي تريده .. ولم يكن على استعداد لان يدفع اي ثمن ، وقال ذلك صراحة لاندرسون ثم ليوجين بلاك .

وقد احس بلاك وهو في طريق عودته الى واشنطن بعد توقيع اتفاقية القرض في القاهرة في ٨ فبراير ١٩٥٦ ، باشتداد العداء الاميركي لعبد الناصر وازدياد المعارضة لتمويل السد العالي . فقد التقى في روما مع السفير الاميركي في القاهرة هنري بايرود الذي كان عائدا الى مركز عمله بعد مشاورات مع المسؤولين الاميركيين كان قد استدعاه دالاس من أجلها لتقويم ومناقشة الموقف من عبد الناصر على ضوء فشل مهة أندرسون .

وكان بايرود قد لمس شدة العداء لعبد الناصر وقوة التيار المعارض لتمويل السد العالي ، ولذلك فانه حث يوجين

بلاك على أن يبذل قصارى جهده لدى المسؤولين في واشنطن لمصلحة تمويل السد .. وكان الرأي الشخصي للاثنين أن تساهم أميركا في تمويل السد العالي ، ولكنهما لم يكونا في موقع التأثير ولا في قوى الضغط الفعالة ، بل أنهما ، وعلى الاخص يوجين بلاك ، كانا منفذين للسياسة الاميركية وليس من صناعها .

وعندما وصل بلاك الى واشنطن أدلى بتصريحات اشاد فيها بالسد العالي ومشروعات التنمية التي يسعى اليها عبد الناصر لرفع مستوى شعبه . وقد استاء دالاس من ذلك ، وتعمد أن يتهرب من مقابلته .. ولكن المقابلة تمت بعد أيام .

لعل بلاك تاكد في تلك المقابلة أن الولايات المتحدةالاميركية قررت رفض المساهمة في تمويل السد العالي ، وانه بناء على ذلك لن يساهم الغرب في تنفيذ هذا المشروع الضخم .. فقد تحدث دالاس كما يقول انطوني نانتج في كتابه «ناصر» صفحة ١٣٥ عن اتجاهات الكونغرس المعادية لعبد الناصر والرافضة لتمويل السد العالي بسبب اقترابه من موسكو ، وضعف الاقتصادي المصري ، وتفضيلها تقديم العون الخارجي الى تيتو لتشجيعه على الابتعاد عن موسكو والانجذاب نحوها . ولكن بلاك ناقشه في ذلك وعلى الاخص فيما يتعلق بوضع الاقتصاد المصري ، وكان من رايه انه ليس ضعيفا كما كان يتصوره دالاس عندما قابله قبل سفره الى القاهرة وطلب منه أن يتفاوض مع عبد الناصر كمواطن اميركي وليس كمدير بنك .. وقد استاء دالاس من كلام بلاك فانهي النقاش عند هذا الحد .

ورغم أن بلاك في مفاوضاته مع عبد الناصر كان يمثل دور الامبريالي الاميركي الذي يسعى وراء الابتزاز والاستغلال والسيطرة ، الا انه في لقاءاته وتقاريره كان ينصح الرئيس

الاميركي ايزنهاور ووزير خارجيته دالاس بتمويل عملية بناء السد العالــي ، ولكن عقلية الامبريالية الاميركية لم تكن متفقة مع عقلية خبراء البنك الدولي ، ولذلك اتجه دالاس فــي طريق اخر ، فعمد الى تجميد موضوع السد العالي بقــدر الامكان ريثما تحين الفرصة المناسبة لسحب الموافقةالمبدئية وكانت ذريعته : موقف الكونغرس العدائي من عبد الناصر .

★★★

ولقد تم اعتماد هذا الاتجاه والاتفاق على موقف موحد مــن عبد الناصر والسد العالــي في المحادثات التي أجراها ايدن مع ايزنهاور ودالاس أثناء زيارته لواشنطن في فبراير ١٩٥٦، وكانت خلاصة ما تم الاتفاق عليهفي مؤتمر القمة الانجلواميركي ذاك كما كشفتــه الاحداث والمواقف بعدئذ هو : عدمتمويل السد العالــي الا اذا استسلم عبد الناصر وقبل بالشروط المعروضة عليه ، وانضوى تحت المظلة الاستعماريــة الامبريالية . وتدعيم حلف بغداد بالاعلان عــن مزيــد مــن تعاون الولايات المتحدة الاميركية معه ، ولقد تم تنفيذ هــذا الجانب في الشهر التالــي مارس ١٩٥٦ .

أن مؤتمر القمة ذاك أثار هواجس عبد الناصر وزاد مــن شكوكه في موقف واشنطن ولندن منه ومن السد العالي . ولكنه آثر التحلي بالصبر وانتظار الرد الرسمي على مذكرته التي بعثها بعد الاتفاق الذي تم مع البنك الدولي ..

ولكن الاحداث في المنطقة كانت أسرع مــن الرد ، ومقدمة لــــه .

● في الاول من مارس كان طرد جلوب من الاردن . ولان جلوب كان أحد أعمدة الاستعمار البريطاني في المنطقة ،فان طرده كان بمثابة ضربة قوية للمصالح البريطانية التي أحدثها عبد الناصر في الوطن العربي ، ولم يكن ذلك بعيدا عن ادراك رئيس الوزراء البريطاني ايدن الذي كان شديد الكراهــية

لعبد الناصر ، كما أن سلوين لويد وزير الخارجية البريطانية الذي تلقى نبأ الطرد أثناء زيارته للقاهرة صار وقتئذ من اشد المتحمسين لخط ايدن الذي كان يتجه بسرعة نحو الحرب مع عبد الناصر .

● ولمواجهة انعكاسات طرد جلوب على حلف بغداد فان وزراء خارجية الدول الاعضاء في هذا الحلف بادروا الى عقد اجتماع سري لهم في طهران شاركت فيه الولايات المتحدة الاميركية . وكان أهم ما قرره ذلك المؤتمر كماتضمنه ملفه الوثائقي الذي بعث به الى عبد الناصر أحد الوزراء العراقيين من بيروت أثناء مروره بها : مطالبة الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا بعدم تمويل مشروع السد العالي لاضعاف عبد الناصر بحجة أن أصدقاء الغرب أولى بالمساعدة منه .

وعندما أطلع عبد الناصر على هذه التوصية ووضع في اعتباره مشاركة أميركا وبريطانيا في ذلك المؤتمر ، ازداد اقتناعا بأن الدول الغربية لن تمول عملية بناء السد وانها سوف تستخدم ذلك في الحرب الخفية الموجهة لاسقاطه .

في تلك الاثناء أعلنعن اتفاقية للتعاون العسكريوالاقتصادي بين الولايات المتحدة الاميركية وحلف بغداد . وكان القصد من وراء هذه الخطوة تدعيم هذا الحلف في وجه تيارات الثورة العربية الاخذة في القوة والتاثير على موقف الحكم في العراق .

● وفي ذات الشهر مارس ١٩٥٦ وصل الى القاهرة وزير خارجية فرنسا كريستيان بينو لاجراء محادثات مع عبد الناصر . ولقد أوحى في محادثاته استعداد فرنسا للمساهمة في تمويل السد العالي ، وعرض وقف شحن الاسلحة الفرنسية لاسرائيل مقابل أن يوقف عبد الناصر مساعداته للثورة الجزائرية .. وكانت تلك الثورة تسبب قلقا شديدا لفرنسا ، وكانتالمساعدات المصرية العامل الرئيسي في

قدرتها على التصاعد والاستمرار . ولكن عبد الناصر رغم ادراكه لخطورة الاسلحة الفرنسية لاسرائيل ، رفض المساومة على الثورة الجزائرية كما رفض من قبل مساومه الولايات المتحدة الاميركية على النزاع العربي الاسرائيلي .. وكان انعكاس فشل مهمة بينو لدى جي موليه مماثلا لفشل مهمة اندرسون لدى دالاس ، ومهمة سلوين لويد لدى أيدن التي قام بها بين نهاية فبراير وبداية مارس .

ولقد اتضح ذلك جيدا في سلوكية السياسة الفرنسية . فقد اعترفت فرنسا في ١٥ ابريل بصفقة طائرات الميستير النفاثة لاسرائيل . وأعقب ذلك في ١٢ مايو اعتراف بوصول دفعة جديدة من الطائرات الفرنسية لاسرائيل ، ثم أعقب ذلك تصريح لوزير الخارجية بينو بعد عودته من واشنطن في شهر يونيو قال فيه انه اغتنم فرصة وجوده في العاصمة الاميركية ليطلع المستر دالاس على حقيقة الرئيس عبد الناصر .. ثم أعقب كل ذلك انشراح المسؤولين الفرنسيين لقرار دالاس بسحب عروض القرض للسد العالي .

● في ذلك الربيع ازداد نشاط حركة التحرر ضد الاستعمار البريطاني في كينيا بقيادة حركة « الماوماو » وفي قبرص بقيادة حركة « أيوكا » ، وبرز دور عبد الناصر في دعم هاتين الحركتين بمساعدات عسكرية ، ثم ضاعف من خطورة هذه المساعدات ان ارفقت بتوجيه اذاعة خاصة الى شرق افريقيا تدعو باللغة السواحيلية السائدة هناك الى الثورة ضد الاستعمار .. بذلك فان تاثير عبد الناصر لم يعد محصورا في منطقة محدودة ، فها هو الان يغطي منطقة المشرق العربي ، والمغرب العربي ، وينتقل الى شرق أفريقيا وشرق البحر الابيض المتوسط .

● وفي شهر ابريل ١٩٥٦ قام زعيما الاتحاد السوفياتي بولجانين وخروشوف بزيارة رسمية لبريطانيا . ولم تكن هذه الزيارة بعيدة عن الاحداث المتصلة بعبد الناصر والوطن

العربي . فلقد أبلغهما ايدن أثناء المحادثات بما لا يدع مجالا للشك بأن بريطانيا مصممة على حماية مصالحها البترولية في الشرق الاوسط ، ولن تتردد عن خوض الحرب في سبيل ذلك اذا لزم الامر . وكان رد الزعماء السوفيات على ذلك في المؤتمر الصحفي الذي عقده خروشوف في لندن قبيل مغادرتهما بالدعوة الى فرض حظر ارسال الاسلحة لدول منطقة الشرق الاوسط عن طريق الامم المتحدة بدافع الحرص على السلام العالمي .

ورغم أن خروشوف بعث بعدئذ برسالة مطولة لعبد الناصر عن محادثاته مع ايدن ، الا أن هذا التصريح اثار مخاوفه.

● كان عبد الناصر قد قرر الاعتراف بالصين الشعبية . وبنى هذا القرار على أساس مبدئي ، ولكنه عندما قرأ تصريح خروشوف عن حظر الاسلحة خشي من اغلاق الباب الذي فتحه بعد عناء ، ورأى ضرورة الاسراع في اعلان ذلك القرار من أجل أن تكون الصين جسرا للاسلحة غير خاضع للحظر والصفقات التي تتم عادة بين دول القمة على حساب الشعوب والبلدان الصغيرة والنامية . وكان اعلان الاعتراف بالصين الشعبية وتبادل التمثيل الدبلوماسي معها وسحب الاعتراف بالصين الوطنية (فرموزا) في السادس عشر من شهر مايو ١٩٥٦ .

● في ذلك الشهر أيضا مايو ١٩٥٦ ، قام السفير البريطاني تريفليان بزيارة عبد الناصر للتباحث في العلاقات بين البلدين وموقف بريطانيا من تمويل مشروع السد العالي .. وكانت القوات البريطانية في المرحلة الاخيرة من جلائها النهائي عن منطقة القناة الذي تم في الحادي عشر من يونيه ١٩٥٦، بينما كانت الاحداث في المنطقة اخذة في التصاعد . في ذلك اللقاء كشف السفير البريطاني عن النوايا الاستعمارية بصراحة ، فأشار على عبد الناصر انه اذا أراد الحصول على تمويل السد العالي من أميركا وبريطانيا ، وعلى

مساعدات اقتصادية اخرى ، أن يحصر اهتمامه في شؤون مصر الداخلية كما فعل أتاتورك في تركيا ! وكان رد عبد الناصر عليه انه لا يمكن أن يكون مثل الزعيم التركي أتاتورك لان هناك خطرا اسرائيليا جاثما على حدود مصر ، ولان مصر جزء لا يتجزأ من الوطن العربي ولا يمكنها أن تتخلى عن واجبها تجاه نضال الأمة العربية . ثم انكم ، موجها كلامه للسفير البريطاني « لا يمكنكم ان تتبعوا معي سياسة السفن الحربية التي كنتم تتبعونها ضد فاروق ، فليس لدى شيء أخاف عليه ، لا عرش ولا اقطاعيات وعقارات ولا ثروة » .(١) وكان تعليق تريفليان على تلك المقابلة : اننا نتجه نحو الحرب المكشوفة .

● وقد ازداد احساس الاستعمار بخطر عبد الناصر على مستقبله ومستقبل أعوانه ومصالحه في الوطن العربي عندما ظهرت في تلك الفترة من عام ١٩٥٦ نتائج اندفاع تيار القومية العربية المتعاظم في سوريا وبخاصة في اسقاط الوزارة التي كان يرئسها فارس الخوري المتعاطف مع حزب الشعب المرتبط مع الحكم العراقي ونوري السعيد في الدعوة الى الهلال الخصيب ، وتشكيل وزارة جديدة اتجهت على خطى عبد الناصر نحو موسكو وتمكنت من عقد صفقة للاسلحه السوفياتية . ورغم ان صبري العسلي رئيس الوزراء الذي خلف فارس الخوري لم يكن ثوريا ولا تقدميا الا ان وزارته ضمت عناصر من حزب البعث العربي الاشتراكي وبعض التقدميين المعادين للاحلاف العسكرية والمتأثرين بعبد الناصر. ولم يكن ذلك التغيير الوزاري ولا صفقة الاسلحة التي عقدها مع الاتحاد السوفياتي بعيدا عن حسابات الاستعمار العالمي الحريص على سلامة وأمن وبقاء اسرائيل.

● في تلك الاثناء ، كان عبد الناصر قد عقد صفقة أسلحة ثانية مع السوفيات لمواجهة صفقة الاسلحة الفرنسية

---

(١) همفري تريفليان . الشرق الاوسط في ثورة . ص ٨٦ـ٨٩ .

لاسرائيل التي تمت في أواخر ١٩٥٥ ، وقد استغلت الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا وفرنسا ذلك فقررت مجتمعة تزويد اسرائيل بأسلحة فرنسية جديدة من مستودعات حلف الاطلنطي وفي مقدمتها طائرات ميستير النفاثة الحديثة وقتذاك تنفيذا للسياسة الاستعمارية الامبريالية التقليدية القائمة على اساس ابقاء اسرائيل متفوقة عسكريا على مجموعة الدول العربية .

واذا وضعنا في اعتبارنا تصاعد مكانة عبد الناصر على المستويين القومي العربي والدولي ، وانحسار حلف بغداد وانعزاله جماهيريا ورسميا ، وانعكاسات كل ذلك على مستقبل اسرائيل والغايات التي وجدت من أجلها ، وكذلك على مخططات ومصالح وأعوان الاستعمار تكتيكيا واستراتيجيا في المنطقة ، وتجاه أفريقيا واسيا والكتلة الشيوعية .

ثم اذا وضعنا في اعتبارنا ان قوى التأثير على الحكم في اميركا ، وبريطانيا بالذات هي صاحبة المصالح في هذه المناطق التي غدت تتاثر بسياسة ومواقف عبد الناصر ، فانه يصبح من السهل علينا أن ندرك ان الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا لم تكونا جادتين في تمويل السد العالي ، وانما كانتا تراوغان وتناوران كسبا للوقت وتحينا للفرص لاحراج عبد الناصر واضعاف مركزه ، والعمل على اسقاطه وتصفية ثورة ٢٣ يوليو ..

اذن ، على ضوء سير الاحداث وتشابكها وتصاعدها في النصف الاول من عام ١٩٥٦ ، كانت الحرب الخفية المستعرة في المنطقة تقترب حثيثا نحو نقطة الانفجار لتصبح حربا ساخنة مكشوفة . وكان الموقف من مبدأ تمويل السد العالي ، هو الحاسم في حركة الاحداث المتصادمة ، ذلك لان عبد الناصر كان في شهر يونيه شديد الالحاح لمعرفة الموقف النهائي لاميركا وبريطانيا والبنك الدولي المرتبط موقفه بموقفهما من تمويل السد العالي ، ولعله كان يريد الحسم في هذا الامر قبل

الاحتفال الاول بجلاء القوات البريطانية عن اخر القواعد في منطقة القناة في ١٨ يونيه ١٩٥٦ ليعلن النبأ السار لجماهير الشعب في حالة الموافقة ، أو لينفض يديه نهائيا من الغرب ويتجه الى مصادر تمويل أخرى ويتناقش في الامر مع شبيلوف وزير خارجية الاتحاد السوفياتي الذي كان مقررا وصوله على راس وفد سوفياتي للمشاركة في احتفالات الجلاء . وقد شارك في هذه الاحتفالات بالفعل .

ورغم ان السفيرين الاميركي والبريطاني أشارا على حكومتيهما مجددا بضرورة الاتفاق مع عبد الناصر على تمويل السد العالي وحذرا من الامتناع عن التمويل لان البديل سوف يكون الاتحاد السوفياتي ، الا ان دالاس وايدن لم يتجاوبا مع بايرود وتريفليان . (١)

وقد تحلى عبد الناصر بمزيد من الصبر فاكتفى بالقول في خطابه الذي القاه في احتفالات الجلاء في ١٨ يونيه موجها اياه للدول الغربية على وجه الخصوص :

« اننا لا نقبل مطلقا ان نأخذ أوامر من الخارج . كل سياستنا تنبعث من مصلحتنا ، من ضميرنا ، من نفوسنا ، من ارضنا ، من مصر وليس من اية دولة أجنبية . ونحن في سبيل المحافظة على استقلالنا ، وفي سبيل تأمين حدودنا ، وفي سبيل بناء وطننا .. في سبيل هذه الاسس والمبادىء الثلاثة نبني علاقتنا الخارجية بكل وضوح وصراحة . نحن نسالم من يسالمنا ونعادي من يعادينا . هذا مبدؤنا . فنحن نريد السلام ونريد ان نعيش في سلام بعيدا عن المؤامرات الدولية » .

وبعد يومين اثنين من عيد الجلاء ، وصل يوجين بلاك في العشرين من يونيه ١٩٥٦ الى القاهرة في زيارة خاطفة أجرى خلالها محادثات مع عبد الناصر . ولكنها لم تسفر عن جديد لان الموقف بيد السياسة الاميركية التي كانت تستخدم

---

(١) المرجع السابق ص ٥٣-٥٤ .

البنك الدولي ومديره بلاك بمثابة أداة للمماطلة والخداع والتضليل .

★★★

ولم يكن الموقف الاميركي في حاجة الى استجلاء ، فلقد كشفه تماما في ذلك الشهر يونيه ١٩٥٦ هربرت هوفر الامين المساعد لوزير الخارجية الاميركية للسفير المصري في واشنطن أحمد حسين الذي كان قرر العودة الى القاهرة لاجراء مشاورات حول احتمالات الموقف الاميركي من تمويل السد العالي في ضوء اعتراف مصر بالصين الشعبية والمتاعب المتزايدة التي يواجهها دالاس من الكونغرس ... وقد اجتمع قبل عودته بمساعد وزير الخارجية الاميركية هربرت هوفر الابن الذي كان وزيرا للخارجيةبالوكالة بسبب غياب دالاس عن واشنطن .

كان موضوع تمويل السد العالي هو المحور الرئيسي للحديث في ذلك الاجتماع . ويبدو أن السياسة الاميركية كانت قد استكملت استعداداتها وقررت سحب موافقتها على المشاركة في تمويل السد العالي والصدام مواجهة مع عبد الناصر .. وعمدت ، من أجل الوصول بسرعة الى نقطة التصادم ، الى تصعيد وتكثيف وتشديد شروطها بدل الاتجاه الى التخفيف .

لقد ابلغ هوفر السفير المصري احمد حسين : اصرار الولايات المتحدة الاميركية على الشروط المالية التي تقدمت بها مع بريطانيا في المذكرة الملحقة ببيان الموافقة المبدئيه المعلن في ديسمبر ١٩٥٥ ، وكذلك اصرارها على اضافة شرطين جديدين :

الاول : أن تعلن مصر في بيان رسمي امتناعها عن عقد المزيد من صفقات الاسلحة مع الاتحاد السوفياتي !

الثاني : أن يمارس عبد الناصر نفوذه وزعامته في الشرق الاوسط لعقد صلح بين الدول العربية واسرائيل بحجة أنه

اذا كان عبد الناصر راغبا في بناء السد العالي فانه من الافضل أن يزيل أولا جميع أسباب التوتر والحرب في المنطقة !

وحاول هوفر ان يبرر هذا التشدد والتصعيد في الشروط بتزايد ضغط الكونغرس على حكومة ايزنهاور من جهة ، وضغط بريطانيا وفرنسا وايران وتركيا والعراق عليها من جهة أخرى ، لكي لا تمول السد العالي ولا تقدم أي عون او دعم لعبد الناصر المهدد لجميع هؤلاء في الشرق الاوسط وأفريقيا .

وكانت هناك كما أوضح هوفر ثلاث فئات من جماعات الضغط السياسية المؤثرة على مواقف الكونغرس وسياسة واشنطن :

الاولى : فئة جماعات الضغط المتحدثة باسم ولايات القطن الجنوبية التي تعارض في مساعدة مشروع السد العالي لانها ضد اي توسيع في انتاج القطن في مصر لئلا يؤثر على قوة تحكمها في السوق العالميه للقطن .

الثانية : فئة جماعات الضغط لصالح اسرائيل التي تعارض في اي مساعدة من شأنها أن تقوي مصر ، وتتمثل في البنوك والمؤسسات الراسمالية ووسائل الاعلام ، وجميعها في قبضة الصهيونية العالمية وتحت تاثيرها .

الثالثة : فئة اصدقاء الصين الوطنية وكان يتزعمها السناتور وليم نولاند وقد أهاجها اعتراف مصر بالصين الشيوعية .

كان هذا التصعيد في الشروط ، بمثابة هجوم مباغت استهدفت به الولايات المتحدة الاميركية حمل عبد الناصر على الرفض ، وبالتالي تحميله مسؤولية عدم مساهمة الغرب في بناء السد العالي .

ولم يكن الامر يحتاج الى عناء كبير لادراك ذلك ، على الاخص بعد اضافة الشرطين الجديدين اللذين كان يرفضهما عبد الناصر ويرفض مبدأ النقاش فيهما ، كما كان مدركا لحقيقة

الموقف الانجلو اميركي الذي كان منذ البداية أبعد ما يكون عن الجدية في أي نوع من المشاركة في تمويل أية مشروعات انمائية كبرى يمكن أن تخفف من مشاكل الشعب العربي المصري وتساعد على رفع مستوى معيشته ، وتساهم في اقامة صناعة انتاجية تعينه على الانتقال الى عصر التنمية والتقدم .

ولقد كشف دالاس بنفسه عن حقيقة نواياه وتصميمه المبكر على عدم تمويل مشروع السد العالي ، فقد أبلغ الملك سعود اثناء زيارته لواشنطن في يناير ١٩٥٧ : « أنه عندما قرر المساعدة في بناء السد ، مع أن المشروع طويل الامد ، فقد كان هدفه أن يربط مصر بالولايات المتحدة الاميركية لمدة عشر سنوات ، اما أن يقلع عبد الناصر في خلالها عن التعاون مع الاتحاد السوفياتي ، واما أن يكون نظامه قد سقط عن الحكم . » (١)

وفي ضوء المعلومات الوفيرة المدعمة بوثائق حلف بغداد التي كانت متوفرة ، فان عبد الناصر عندما تناقش مع أحمد حسين في أوائل يوليو في استراحة برج العرب حيث كان يستجم استعدادا لمؤتمر بريوني مع نهرو وتيتو ، لم يفاجأ بالتشدد الاميركي ، واستمع مطولا الى وجهة نظر سفيره حول الموقف الاميركي ، وتعقيدات السياسة الاميركية ، وتاثيرات الكونغرس والمتاعب التي يواجهها دالاس مع قوى الضغط الخفية .

وكان احمد حسين من مؤيدي الاعتماد على الولايات المتحدة الاميركية ، وكان هناك اتجاه ملموس في مجلس قيادة الثورة يدعو الى ذلك .. فلم يكن هناك حتى ذلك الحين صدام مكشوف مع اميركا باستثناء دعمها المالي والاقتصادي والسياسي والدعائي لاسرائيل ، متجنبة الدعم العسكري الذي كانت تتولاه فرنسا وبريطانيا ، كما أنها لم

---

(١) هيكل . عبد الناصر والعالم . ص ٩٤ .

تشأ أن تكون عضوا كاملا في حلف بغداد لكي لا تصبح هدفا مكشوفا لعداء الجماهير العربية التي كانت معبأة بالعداء والكراهية لبريطانيا وفرنسا في الدرجة الاولى الى جانب اسرائيل والصهيونية العالمية .. ولم يكن أصحاب هذا الاتجاه قد أيقنوا بعد أن الولايات المتحدة الاميركيه هي القيادة الفعلية للاستعمار العالمي ، وهي بالتالي الاشد خطرا على الثورة العربية .. كما أن دعاة التعاون مع أميركا كانوا يشكلون تيارا ملموسا في الوطن العربي . ولم يكن من الحكمة في ظروف تلك المرحلة أن يكون الرفض من جانبه لكي لا تبقى في أيدي هؤلاء أية ذريعة .

لذلك فان عبد الناصر بعد ساعات من الحوار مع احمد حسين الذي كان يتحدث عن متاعب دالاس مع الكونغرس قال له : « انني لن أخوض في التفاصيل لكن عندي الدليل القاطع على انك حتى لو عدت وقبلت بشروطهم كلها التي قد تريح دالاس مع الكونغرس فانهم لن يعطونا السد العالي . » (٢)
وتمسك أحمد حسين بموقفه ..

وأراد عبد الناصر أن يسقط كل حججه ، وحجج كل الذين كانوا يدعون الى الاعتماد على الولايات المتحدة الاميركية فقال له :

« حسنا سأعطيك الفرصة لكي تثبت شيئا من أجلي . اذهب وقل لدالاس : اننا قبلنا بأن يتجدد الالتزام الاميركي تجاه السد العالي كل سنة . ولكن لا تقل أو تفعل شيئا يمس كرامتنا . ذلك لاننا لن نحصل على السد العالي من اميركا » . (٢)
أراد عبد الناصر من ذلك أن يرد الكرة على الملعب الاميركي، وأن يحمل السياسة الاميركية مسؤولية امتناعها عن تمويل

---

(١) المصدر السابق ص ٩٩ .
(٢) المصدر السابق ص ١٠٠

السد العالي ويسقط بالتالي من يدها ويد اعوانها وعملائها في المنطقة كل الاتهامات التي سيتذرعون بها ويبتدعونها في حالة الاتجاه نحو موسكو لبنائه .

بعدئذ سافر عبد الناصر الى يوغسلافيا للمشاركة في مؤتمر قمة عدم الانحياز الذي انعقد في بريوني وضم القادة الثلاثة : عبد الناصر ونهرو وتيتو .

وسافر أحمد حسين الى واشنطن ..

★★★

كان المساس بالكرامة ، ابتداء من الكرامة الشخصية ووصولا الى كرامة الشعب والوطن أكثر ما كان يثير الغضب في عبد الناصر ، ولذلك فانه حذر أحمد حسين من ان يقون أو يفعل شيئا يمس بالكرامة اثناء التفاوض مع دالاس أو غيره من المسؤولين الاميركيين ، أو عند الادلاء باية تصريحات حول موضوع السد العالي . فعلى الرغم من أن عبد الناصر كان شديد الاهتمام والحرص على توفير الاموال اللازمة لتنفيذ مشروع السد أو غيره من المشروعات، فانه لم يكن يرضى أن يكون ذلك على حساب كرامة الوطن أو الشعب أو الحكم ، ذلك لانه كان شديد الاقتناع بأن من يستهين بكرامته الشخصية ، أو كرامة الوطن والشعب ، لا يمكنه أن يصون الاستقلال ولا أن يحمي مصالح الجماهير، ولا أن يكسب محبة واحترام الشعب ، وبالتالي لا يمكنه أن يكون ذا شان على مسرح الاحداث ، ويصبح دوره هامشيا. ومثل هذا النوع من الحكام لا يمكنه أن يحقق شيئا نافعا للشعب والوطن .

وكان عبد الناصر مصمما على أن يفعل الكثير المفيد للشعب والوطن مع الحفاظ على مبدأ الكرامة . ولم يكن الاستعمار العالمي قد اعتاد على التعامل مع مثل عبد الناصر ، بل انه كان يرفض مثل هذا التعامل ويبذل قصارى جهده ويعبىء كل امكاناته لقتل هذا النوع من الحكام ، لانه ــ اي

الاستعمار – كان يعلم جيدا بأن القيادات الثورية وعلى الاخص في الوطن العربي ، بموقعه وتاثيره وثرواته النفطية، تشكل تحديات واخطارا تهدد مصالحه الاحتكارية ومستقبله الراسمالي .. وبذلك فانه لم يكن يتهاون في التصدي لضرب هذا النوع من القيادات ، خاصة اذا كان ظهور هذا النوع في مصر التي تشكل باستمرار مركز الثقل فيالوطن العربي .

ولم تكن القيادات التقليدية ، لا فرق بين الملوك والرؤساء العرب وغير العرب ، تهتم بأكثر من أن تكون أعمالها وسياساتها ومواقفها الداخلية والخارجية منسجمة تماما مع رغبات العواصم الاستعمارية، الامر الذيكان يعني بالبديهة فقدان الارادة وانعدام الاحساس بمعنى الكرامة .. ولعل حادث الرابع من فبراير ١٩٤٢ كان ماثلا أمام عبد الناصر باستمرار في تعامله مع الدول الاستعمارية وفي تشدده في الحرص على الكرامة .

ولم يكن هذا الحرص محصورا في مواقف عبد الناصر الشخصية، وانما كان يريد عبد الناصر ان تكون كل مواقف المسؤولين المصريين مواقف كرامة ، بل كان يريد أن تكون كل المواقف العربية كذلك .

لهذا نراه يحذر احمد حسين ، ثم نراه يستاء اشد الاستياء ، بل ويغضب غضبا شديدا عندما يستمع الىتصريح لاحمد حسين في لندن وهو في طريقه الى واشنطن . يقول فيه : « أن مصر تقبل بجميع المقترحات الغربية بشان السد العالي ، وانها ترجو مساعدتها على بنائه ، وتعتمد على هذه المساعدة وتطلبها » .

كان سبب الضيق والغضب لدى عبد الناصر أن أحمدحسين استعمل في تصريحه كلمات « ترجو وتعتمد وتطلب » وهي كلمات استعطافية ماسة بالكرامة .

ولم يخف عبد الناصر ضيقه ولا غضبه من هذا التصريح

الذي استمع اليه من الاذاعة بينما كان يمر بكراويتا في يوغسلافيا في قطار خاص فجعله محورا لحديثه مع مرافقيه، وكان من رأيه أن مصر قد أهينت ، وانه ما كان على أحمد حسين أن يدلي بأي تصريح قبل مقابلة دالاس (١) . ولم يشأ أن يتخذ أي اجراء فوري ضده فربما كان التصريح محورا أو منسوبا اليه ، واثر أن يعطي الفرصة لاحمد حسين حتى النهاية .

كان دالاس وقتئذ متلهفا على وصول أحمد حسين لواشنطن، ليس لما تضمنه تصريحه في لندن ، وانما لانه كان قد حدد ساعة الصفر التي قرر أن يوجه فيها ضربته لعبد الناصر .

ورغم أن دالاس كان يستهدف عبد الناصر بالذات ومعه ثورة ٢٣ يوليو ، الا أنه اراد في نفس الوقت أن يصيب بضربته مبدأ عدم الانحياز ، ويظهر اقطابه المجتمعين في بريوني (عبد الناصر ونهرو وتيتو) بالعجز ، وأن يهز مكانة عبد الناصر الشخصية بين الاقطاب على المستوى العالمي ، ويزعزع ثقة الجماهير العربية فيه ، ويجعله يبدو امام جماهير الشعب العربي المصري بمظهر القائد الذي لم ينجح في كسب رضى وعطف وتأييد الولايات المتحدة الاميركية، ولا في انعاش الاقتصادي المصري ، ولا في تنفيذ الوعود التي قطعها على نفسه في الجولات الواسعة التي قام بها في أرجاء البلاد واتصل أثناءها بجموع الفلاحين والعمال .

كان دالاس بعقليته الامبريالية يتصور أن ضربته التي سيوجهها لعبد الناصر تسقطه ، أو على اقل القليل سوف تفرض عليه الانكماش على نفسه ومعاودة حساباته ، ثم الاتجاه نحو واشنطن للانضواء تحت مظلتها الامبريالية واتباع السياسة التي ترضيها وتحمي مصالحها في المنطقة العربية .

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٠

وكانت حسابات دالاس وتصوراتـــه مبنية على المرتكزات الاتيـــة :

اولا : أن الاتحاد السوفياتي سوف لا يورط نفسه ، حسب التقديرات الاميركية ، في مشروع تبلغ تكاليف مرحلته الاولى الف مليون دولار ، ويحتاج الى تجهيزات فنية متقدمـــة ، والاهـــم من ذلك انه سوف ينفذ في بلد غير شيوعي ، ولا بدت ملامحه الاشتراكية .. وكانت تلك التقديرات الاميركية قد وضعـــت في حسابها أن الاتحاد السوفياتي سوف لا يقامر بالالتزام بتنفيذ بناء السد العالي لحاجة شعوب الاتـــحاد السوفياتي الملحة لهـــذه التكاليف والامكانات ، ثم تحسبـــا لردود الفعل لدى دول أوروبا الاشتراكية التي كانت في أمس الحاجة للمعونة السوفياتية لتنفيذ مشروعاتها الخاصة .

ثانيا : بناء على التقدير السابق ، واطمئنانا الى أن جميـــع الدول الرأسمالية لا يمكنها وقتئذ بالذات على الخروج على الطاعة الاميركية ، أو الانفلات من الجاذبية الاميركية ، فان دالاس كان واثقا من ان عبد الناصر سوف يجد نفســـه في موقف العاجز أمام تحدياتكبيرة داخلية وصهيونيةواستعمارية ورجعية .

ثالثا : أن الضغوط الهائلة التي كان يتعرض لها عبد الناصر من القوى المعادية للثوره العربية بقيادة الولايات المتحـــدة الاميركية ، سوف تكون وقتئذ قوية الى درجة تخور معـــها قدرة عبد الناصر على مواجهتها والصمود في وجهها .. واذا حدث ذلك ، كما يقدر دالاس ، فان عبد الناصر يصبح عبرة لغيره من الزعماء وقادة الشعوب الذين يتجرأون على الحق الالهي الاميركي ..

الشيء الوحيد الذي لم يضعه دالاس ولا العقولالاميركية الالكترونية الحديثة في حساباتها هو : شجاعة عبد النـــاصر وكفاءته القيادية ، وأرادة الثورة العربية المتجسدة فيـــه ، وبالتالي رد فعله على تلك الضربة .

كانت تقديرات دالاس أن تلك الضربة سوف تكون كافية لاسقاطه ، وبناء على ذلك فانه لم يضع في حسابه امكانية اقدام عبد الناصر على المقاومة والرد .

وكانت الضربة التي اعدها دالاس تتمثل في سحب عرض تمويل بناء السد العالي ، وكان قد أعد كل شيء لذلك دون انتظار للرد الذي حمله أحمد حسين من القاهرة ونوه عنه في التصريح الذي أدلى به في لندن .. الامر الذي يؤكد أن الولايات المتحدة الاميركية لم تكن منذ البداية جادة في تمويل السد ، وانها اتخذت منه وسيلة للمناورة والمراوغة وكسب الوقت لتدبير المؤامرات ضد عبد الناصر .

وكانت ساعة الصفر قد تحددت لتتناسب مع انعقاد مؤتمر قمة عدم الانحياز في بريوني بيوغسلافيا ، وقبيل اعياد الثورة التي اعتاد عبد الناصر أن يوجه في مناسبتها خطابين للشعب ، الاول في القاهرة في ٢٣ يوليو ذكرى قيام الثورة ، والثاني في الاسكندرية في ٢٦ يوليو ذكرى طرد الملك فاروق .

وكان معنى تحديد ساعه الصفر ، اعداد كل ما يحتاج اليه الموقف ، وعلى الاخص البيان الرسمي الذي سيتلوه دالاس ، والسلوك الذي سوف يتبعه مع السفير المصري ، والجو الذي سيحاط بذلك المشهد ، ودور أجهزة الدعاية والاعلام ، وجميعها واقعة تحت السيطرة الصهيونية ، في تصوير بشاعة الاهانة التي كان قد تم أعدادها .

وقبيل وصول احمد حسين لواشنطن كان ذلك كله قد تم اعداده ، وغدت واشنطن تنتظر بلهفة ساعة التنفيذ .

وبمجرد وصول احمد حسين للعاصمة الاميركيه تحدد له موعد اللقاء مع دالاس . وكان ذلك في التاسع عشر من يوليو ١٩٥٦ .

لم يكن احمد حسين يعلم شيئا عما تم اعداده في الخفاء ،

ولا كان يتوقع المفاجاة ، بل الصدمة التي كانت تنتظره ...
كان يتصور أن لقاءه مع دالاس سوف يكون انتصارا دبلوماسيا له ، اذ كان يتوقع أن يتم في ذلك اللقاء الاتفاق على تمويل السد العالي .. بل وكان يتوقع أن يستقبله دالاس بالاحضان والترحاب على طريقة كيسنجر التي استخدمها مع المسؤولين العرب بعد سبعة عشر عاما .
ولان احمد حسين كان يتوقع ذلك ، فان ما لقيه من دالاس اصابه بالمرارة وخيبة الامل والذهول ..

لم يعطه دالاس الفرصة لحديث المجاملة التقليدي عندما يكون لقاء بين وزير خارجية وسفير أجنبي . فقد كان متعمدا مع سبق الاصرار والترصد ، على أن تكون المقابلة جافة لتكون الاهانة المقصودة مجسمة ..

استقبله ببيان مكتوب تلاه عليه فور دخوله مكتبه في مبنى وزارة الخارجية الاميركية ، وحرص على أن يستهله بالقول وقبل أن ينطق احمد حسين بأية كلمة : « سنصدر بيانا يا سعادة السفير . انني اسف لاننا لن نساعدكم على بناء سد اسوان . »

ثم راح يتلو البيان وكانت خلاصته : ان الولايات المتحدة الاميركية قررت سحب عرضها لان اقتصاد مصر لا يستطيع تحمل مثل هذا المشروع .
ورد احمد حسين بالاحتجاج على هذا القول لانه يشكل اهانة لمصر . ولكن دالاس الذي كان يتصور وقتها انه سدد الضربة القاضية لعبد الناصر ، وحقق النصر المبين للامبريالية الاميركية قال بسخرية :
« اننا نعتقد بأن من يبنى السد العالي ، أيا كان ، سيكسب كراهية الشعب المصري . ذلك لان العبء سيكون ساحقا ، وليس في وسع الشعب المصري أن يتحمله ، فمتطلباته تتجاوز ما تستطيع مصادر مصر احتماله وخاصة بعد التزاماتها تجاه شراء الاسلحة . اننا لا نريد أن نكون مكروهين

في مصر ،ولذا سنترك هذه المتعة للاتحاد السوفياتي اذا كان يعتقد انه يريد ان يبني السد . » (١)

وانتهت المقابلة التي كانت ولا شك نقطة البداية للصدام المباشر المكشوف بين عبد الناصر والامبريالية الاميركية ،وكذلك للعدوان الثلاثي الذي وقع بعد مائة يوم فحسب .

وعندما غادر أحمد حسين مكتب دالاس فوجيء بالوقاحة الاميركية المتعمدة قد تجاوزت كل حدود العرف والتقاليد الدبلوماسية ، اذ كان المتحدث الرسمي لوزارة الخارجية الاميركية « لنكولن هوايت » قد عمد بتعليمات من دالاس الى توزيع البيان الاميركي قبيل تسليمه للسفير المصري .. عندئذ تذكر أحمد حسين كلمات عبد الناصر وهو يقول له : « لن نحصل على السد العالي من أميركا » .

ولم يكن المهم وقتئذ ، وفي كل وقت ، موقف الولايات المتحدة الاميركية وانما المهم والاهم حينئذ وفي كل حين ، هو انعكاسات وتأثيرات الموقف الاميركي وردود فعله في المنطقة الموجه ضدها .. فالموقف الاميركي بطبيعته معاد للثورة العربية والاماني القومية العربية ، وكان يستهدف منذ اللحظة الاولى لانطلاق ثورة ٢٣ يوليو احتواء عبد الناصر أو اسقاطه . وكانت ضربة دالاس تلك تستهدف اسقاطه ولا شك ..

بذلك فان الاهتمامات العالمية ، والانظار كلها اتجهت نحو القاهرة تراقب أثر الضربة ورد فعل عبد الناصر عليها .

★★★

تلقى عبد الناصر نبأ القرار الاميركي وهو في الطائرة التي اقلته الى القاهرة ومعه الزعيم الهندي جواهر لال نهرو الذي كان سيبدأ زيارة رسمية لمصر قبيل عودته الى بلاده بعد انتهاء مؤتمر قمة عدم الانحياز في بريوني .

---

(١) المرجع السابق استنادا لتقرير احمد حسين ص ١٠٢ .

وعندما أطلع عبد الناصر ضيفه على القرار الاميركي علق نهرو قائلا : « يا لحماقة هؤلاء الناس » .

وكانت حماقة أميركية ولا شك . فلقد كان في وسع الولايات المتحدة الاميركية ومن حقها أن ترفض تمويل السد العالي ، ذلك لان لكل دولة ملء الحرية في الامتناع عن تقديم قروض او تمويل اية مشروعات لغير بلادها، ولكن ليس من حقها أبدا أن تتعمد الاهانة مرفقة بالامتناع عن التمويل او تقديم القروض .

أن السياسة الامبرياليه الاميركية التي تشكل تطورا للاستعمار التقليدي لم تكن أبدا حتى يومنا هذا تقدم معوناتها او قروضها دون شروط وقيود ، حتى مساعداتها الاقتصادية والغذائية، بل والثقافية، لا تخلو في كل الاحوال من اغراض وتطلعات سياسية .. بل انها اعتادت على استخدام كل ما تقدمه ، مهما كان قليلا او تافها ، اسلحة سياسية لاحكام قبضتها وسيطرتها على اقتصاديات الدول الاخرى وعلى الاخص اقتصاديات الدول النامية حديثة التحرر والاستقلال ، ذلك لانها تتصرف وفق استراتيجيتها الامبريالية على أساس انها وريثة جميع الدول الاستعمارية ، وأنه لا حق للشعوب في الحرية والاستقلال ، بل ولا في ثرواتها الوطنية والقومية .

بلغ التعالي والغرور في السياسة الامبريالية الاميركية الى حد انها اعتبرت حلفاءها في احلافها العسكرية اتباعا لها وليسوا شركاء معها ... هكذا غدت تتعامل بعد الحرب العالمية الثانية مع بريطانيا وفرنسا وغيرهما من الدول الراسمالية ..

وعملا بهذه العقلية المغرورة المتعالية ، فان دالاس لم يتورع عن اتخاذ قرار سحب تمويل السد العالي بدون اتفاق مسبق على التوقيت مع ايدن رئيس وزراء بريطانيا الذي اعترف بذلك في مذكراته ولحق بالموقف الاميركي في اليوم التالي كالانسان الفاقد لارادته المنساق وراء سيده رغم كل

الاحقاد والكراهية التي كان ايدن معبأ بها ضد عبد الناصر .

ثم لحق يوجين بلاك مدير البنك الدولي بالموقف الاميركي والبريطاني . وكان ذلك أمرا بديهيا ومنسجما تماما مع موقف بلاك منذ البداية ، اذ كان باستمرار يربط التزام البنك الدولي بتقديم قرض المائتي مليون دولار بوفاء أميركا وبريطانيا في تقديم قرض السبعين مليون دولار ..

واذا كان دالاس قد انفرد في اتخاذ القرار بدون تشاور مع اقرب واخلص حليف لبلاده ... فكيف يكون اذن السلوك الاميركي مع الدول الاخرى الاقل أهمية .. بل وكيف يكون هذا السلوك مع الدول المتخلفة الضعيفة ذات الانظمةالعميلة التي تعتمد في وجودها ووصولها الى الحكم على الدعم الاميركي لها ..

كان سلوك السادة مع العبيد ، أو سلوك الاقطاعيين مع الفلاحين ، أو سلوك الراسماليين أصحاب العمل مع الاجراء الذين لا يحميهم قانون ولا تدافع عنهم نقابة .

كان معنى ذلك ، أن الولايات المتحدة الاميركية ، اعتادت على اصدار الاوامر ، واعتادت في نفس الوقت على الطاعة العمياء ممن توجه اليهم التعليمات . بل وكانت اعتادت على استذلال الحكام والانظمة لها في سبيل الحصول على معونة مالية أو اقتصادية أو قرض يختلس وينهب . ولكنها لم تكن قد اعتادت على التعامل مع حكام وزعماء وقادة ثورات مثل عبد الناصر ، ولذلك ، ولانها لم تكن غنية التجربة ، فانها تصورت بأن امتناعها عن تمويل السد العالي واتهامهاللاقتصاد المصري بانه في حالة انهيار وعاجز عن تحمل اعباء هذا المشروع الضخم سوف يكون كافيا لتأليب الشعب العربي المصري وتحريضه على الثورة ضد عبد الناصر ..

ولقد خرجت الصحافة الغربية الراسمالية كلها بدون استثناء تهلل للموقف الاميركي وتصفه « بضربة المعلم » ،

وتمتدح دالاس لتوجيه هذه الضربة لقائد الثورة العربية الذي أقلق الاستعمار العالمي وفتح ثغرات واسعة في استراتيجية الغرب .

وبطبيعة الحال ، فان اسرائيل والرجعية العربية بانظمتها الاقليمية المتعفنة فرحت فرحا عظيما بالموقف الاميركي ، فلقد كان العدو الصهيوني يعاني وقتئذ من النشاط الفدائي الواسع المنطلق من قطاع غزة ، بينما كانت الرجعيةالعربية تتعرض الى ضغط متزايد من حركات التحرر الوطنية وتيارات الثورة العربية .. ولذلك كان التصور المشترك لهما ، أن القرار الاميركي يعني بوضوح تام أن الامبريالية الاميركية قررت تصفية عبد الناصر ، وانها ما دامت قررت ذلك فان التصفية أصبحت مؤكدة لان قرار أميركا كان بمثابة الارادة الالهية أو القضاء والقدر لا مهرب منه ولا مفر .

وفي نظر الاستعماريين واعوانهم في المنطقة العربية والعالم، اصبح مصير عبد الناصر مسألة وقت ليس اكثر .. وكان الوقت في تقديرهم بضعة أيام ليس الا .. ولعل دالاس فعل ما فعله ليفي أشكول وموشيه دايان بعد حرب يونيه ١٩٦٧ ، بات يتوقع أنباء من القاهرة تعلن نهاية عبد الناصر .

ولكن الانباء التي خرجت من القاهرة قلبت كل تصورات الغرب وتقديرات دالاس والمخابرات المركزية الاميركية راسا على عقب ، وأصابت العواصم والدوائر الاستعماريةبالذهول والدهشة ، بل والانفعال الهستيريالمفاجيء والفزعالمخيف.
لم يكن السبب في ذلك ان عبد الناصر امتلك سلاحا ذريا وهدد بتوجيهضربة ذرية ضد العواصمالاستعمارية الامبريالية، او أنه فاجأ العالم بعدوان على بعض الشعوب الامنة المطمئنة على طريقة الدول الاستعمارية فهدد بذلك السلام العالمي بالخطر ..
وانما كان سبب ذلك أن عبد الناصر كان نوعا جديدا من

القادة والزعماء والحكام ... فلم يكن رد فعله السعي لدى الولايات المتحدة الاميركية طلبا للصفح والغفران ، ولا الاكتفاء برد الاهانةورفضها ببيانتصدره وزارةالخارجية المصرية، او خطاب حماسي يعلن فيه رفضه لمنطق دالاس ودفاعه عن سلامة الاقتصاد المصري ثم يجتمع بعدئذ بالسفير الاميركي في القاهرة ليسلمه رسالة عتاب رقيق تتضمن تلميحاتبالاستعداد للتلاؤم مع السياسة الاميركية في المنطقة مقابل اعادة النظر في الموقف من تمويل السد العالي ..

لم يعمد عبد الناصر الى ذلك ، وانما عمد الى الرد على دالاس والموقف الاميركي البريطاني بشن هجوم مفاجيء على الاستعمار العالمي الحق به خسائر أفدح بكثير مما لو كان يملك اسلحة ذرية استخدمها ضد الامبراطوريات الاستعمارية دون أن يمكنها من فرصة الدفاع عن نفسها .. ذلك لان رده أدى في النهاية الى اسقاط وتصفية الامبراطوريتين الاستعماريتين البريطانية والفرنسية ، وتعرية الامبريالية الاميركية ، وأشعارها باعلان عالمي ، أن هناك في هذا العالم من يرد عليها باسلوبها ويرفض التعامل معها على الشكل الذي اعتادته مع الدول حديثة التحرر والاستقلال .. كان الرد : تأميم قناة السويس .

وكان ذلك في ٢٦ يوليو ١٩٥٦ بعد اسبوع واحد بالتمام من سحب دالاس للعرض الاميركي بتمويل السد العالي .

قد يبدو الامر للكثيرين الان ، وعلى الاخص للاجيال التي لم تعش لحظات تلك المرحلة التي عاشها جيلنا ، ان قرار التأميم كان ردا انفعاليا ، او انه قرار سهل خال من التعقيدات يمكن أن يتخذه أي رئيس .

لم يكن الامر كذلك ابدا .

اولا : انقرار تأميم قناة السويس كان موضع اهتمام بالغ من عبدالناصر وكان قد اولاه دراسة مستفيضة قبلئذ بعامين على الاقل ، يؤكد ذلك في لقاء له مع الزعيم اليوغسلافي تيتو

في سبتمبر ١٩٥٥ « اخبره بأنه يود الاستيلاء على شركة قناة السويس لان مصر كبلد مستقل لا يمكنها ان تقبل باستمرار السيطرة الاجنبية على هذا المرفق الهام الذي يعتبر من المصادر الرئيسية للدخل القومي » . (١)

ثانيا : ان تاميم قناة السويس يعتبر من اهم القرارات المؤثرة في مسار التاريخ والموقف الدولي ، كما يعتبر من أكبر التحديات التي واجهها الاستعمار العالمي بعد الحرب العالمية الثانية ، وذلك لاهمية القناة استراتيجيا واقتصاديا وعسكريا وسياسيا ومعنويا للدول الاستعماريه ، وعلى الاخص لبريطانيا وفرنسا . ثم لما ترتب على هذا القرار من تحولات عظيمة لمصلحة الشعوب .

ولكن توقيت القرار تاثر كلية بالموقف الانجلوأميركي من السد العالي ، وبالاهانة التي تعمد دالاس توجيهها لعبد الناصر بهدف اضعاف مكانته وتاليب الشعب والجيش ضده لاسقاطه .

★★★

كانت قناة السويس قد افتتحت للملاحة الدولية عام ١٨٦٩ بعد أحد عشر عاما من الحفر المتواصل قام به مئات الالوف من أبناء الشعب العربي المصري سقط منهم عشرات الالوف تحت وطأة المرض والجوع والعطش وسياط السخرة. وكانت مصر وقتئذ تملك ٤ر٤٤ ٪ من اسهمها (١٧٧ر٦٤٢ سهما من أصل ٤٠٠ ألف سهم) .

وفي عام ١٨٧٥ كان الخديوي اسماعيل قد اغرق مصر بالديون التي انفقها على مباذله واضطر تحت ضغط الدائنين الى بيع جميع اسهم مصر في شركة القناة لبريطانيا ، وتمت الصفقة على يد رئيس الوزراء البريطاني اليهودي

---

(١) ناتنج انطوني . ناصر ص ١٤٢ .

دزرائيلي باموال بنك روتشيلد اليهودي . وكان الثمن اربعة ملايين جنيه استرليني .

وبعد احتلال بريطانيا لمصر في العام ١٨٨٢ اصبحت القناة شريان الحياة للاستعمار البريطاني . وتعاظمت اهميتها الاقتصادية بعد الاكتشافات البترولية الهائلة في ايران والسعودية ومنطقة الخليج العربي . ولم تكن مصر الى ما بعد الحرب العالمية الثانية تحصل على ما يستحق الذكر من عائدات هذا المرفق الهام .

وفي عام ١٩٤٩ ، تحت ضغط الراي العام العربي المصري، وبعد مفاوضات بين الحكومة المصرية وشركة قناة السويس، جرى تعديل للاتفاقية المعقودة بين الطرفين وافقت الشركة بموجبها على دفع ٧ بالمئة من عائدات المرور بالقناة لمصر ، وجعل عدد المدراء المصريين في الشركة خمسة مديرين مقابل ٢٥ مديرا انكليزيا وفرنسيا . وزيادة عدد المرشدين المصريين ، وقد بلغ عددهم عند التأميم ٤٠ مرشدا من ٢٠٥ مرشدين .

وبعد الثورة في العام ١٩٥٤ استجابت شركة قناة السويس لطلب عبد الناصر باجراء مفاوضات لتعديل اتفاقية عام ١٩٤٩ الظالمة والمجحفة بالحقوق الطبيعية والشرعية لمصر . وبدأت المفاوضات بالفعل في ذلك العام . ولكن الشركة ، وكانت تعكس سياسة بريطانيا وفرنسا ، طالبت بتمديد اجل الاتفاقية المحدد بموجب الامتياز الممنوح الى ديلسبس بالعام ١٩٦٨ ، مقابل موافقتها على زيادة نسبة الارباح التي تحصل عليها مصر .

ولم يكن عبد الناصر مرتاحا لسير المفاوضات ، كما لم يكن على استعداد للبحث في فكرة تمديد امتياز الشركة . وكان احساسه الذي عبر عنه للرئيس تيتو ان استمرار ذلك الوضع للقناة يشكل انتقاصا لاستقلال مصر .. ولذلك فان

اتجاهه لاسترداد الحق المغتصب استكمالا للاستقلال كان قويا وبعيدا عن الاعتبارات المادية .

ولكن التحدي الامبريالي الاميركي جعله يعيد حساباته ويضع الاعتبارات المادية الى جانب الاعتبار الاساسي ، وهو اعتبار استعادة الحق ، واستكمال الاستقلال ، وممارسة السيادة على كامل التراب المصري والمياه الاقليمية المصرية ، ولقد عبر عن ذلك برده على استفسار من مستشاره الصحفي محمد حسنين هيكل ، عما « اذا كان يتذكر فكرته بالحصول على نصف دخل قناة السويس مساواة بما تحصل عليه الدول المنتجة للبترول وباستخدام ذلك المال لبناء السد العالي ، بالقول بصوت مشحون بالايحاءات :
ولماذا النصف فقط ؟ » (١)

كان ذلك يوم ٢١ يوليو ١٩٥٦ ، وهذا يشير بوضوح الى ان تفكيره كان يتجه الى ان يكون رده على التحدي الانكلو اميركي بتأميم قناة السويس استكمالا للاستقلال والسيادة وتوفيرا للامكانات المالية اللازمة لبناء السد العالي .
وكان على عبد الناصر وقتئذ ان يوفر بعض وقته لضيفه الرسمي وصديقه الشخصي الرئيس الهندي نهرو . ولعل نهرو عتب بعدئذ لان عبد الناصر لم يخبره بقرار التأميم الذي اعلنه بعد انتهاء زيارته باربعة ايام فقط .

ولكن بعد سفر نهرو ، اصبح كل وقت عبد الناصر وكل تفكيره منصبا ومركزا على موضوع تأميم قناة السويس ودراسة النتائج المحتملة لذلك .. فقد كان يعلم مدى خطورة القرار ، وكان يريد نتائج ايجابية مضمونة بنسبة مئوية مقبولة ومعقولة نوعا ما ، تبرر الاقدام على هذه الخطوة التاريخية ..

وكانت تقتضي الدراسة وضع تقدير عام للموقف . ومن اجل ان يكون تقدير الموقف وافيا ، فانه طلب الحصول على معلومات عن وضع القوات البريطانية في قبرص ومالطا

---

(١) هيكل . عبد الناصر والعالم ، ص ١٣١ .

بالاستعانة بثوار ايوكا في قبرص ، والحركة العمالية في مالطا . وكانت الحركتان تحصلان على دعم عبد الناصر .

ولم ينتظر ريثما تصله المعلومات المطلوبة ، وانما راح يضع تصوره لردود الفعل ، وكان يهمه في الدرجة الاولى ، رد الفعل الذي يمكن ان تقدم عليه بريطانيا باعتبار انها اكثر الدول اعتمادا على قناة السويس واهتماما بوضعها ومستقبلها .. فوضع نفسه في مكان انطوني ايدن رئيس وزراء بريطانيا ، وراح يفكر بعقليته ، على طريقة القادة العسكريين عندما يضعون خططهم الحربية .

وقد جاء تقدير الموقف مكتوبا بخط يد عبد الناصر على الوجه التالي :

١ ــ « سوف يتصرف ايدن بعنف ».

٢ ــ « سيتخذ هذا العنف شكل عمل عسكري . سوف يلجأ الى العنف لانه يشعر بان موقفه ضعيف ، فالعنف لا ينم عن القوة ، ولكن ماذا يستطيع ان يفعل ؟ غزو شامل ؟ استبعد ذلك . ربما حاول ان يشق طريقه بالقوة المسلحة عبر قناة السويس بادخال سفن حربية الى القناة . ما هي الخطوة المنطقية لمواجهة هذا الاحتمال . سؤال : هل يمكن ان ندفع بقافلة من السفن في الاتجاه الاخر لمقابلتهم وجها لوجه بحيث يسدون ممر القناة ، هل في استطاعة البوارج ساعتها التراجع الى الخلف ».

٣ ــ « ان احتمال استخدام العنف سيكون بنسبة ٨٠ بالمئة وسوف يتوقف ذلك على عدد القوات البريطانية الجاهزة للتدخل بسرعة في البحر الابيض المتوسط وعدن وقبرص ومالطة ».

٤ ــ « المرجح ان ايدن سيحاول ان يجر فرنسا معه ، او ربما جرت فرنسا ايدن . لكن فرنسا سوف تشترك بالتأكيد في اية عملية ضدنا ».

٥ ــ « ستبقى الولايات المتحدة الاميركية صامتة مع انها

ستبارك هذه الخطوة همسا ، ولم لا ؟ اليست هي المسؤولة على كل حال عن كل هذا . هل يستطيع احد ان يدرس الاثار الممثلة لحركة الانتخابات الاميركية المقبلة ؟»

٦ ـ « ان موقف روسيا سيكون حاسما . هل نخبرهم بخطتنا ؟ هل نفاجئهم ؟ واذا اخبرناهم فهل سيعني ذلك اننا نطلب الاذن منهم ؟ واذا فاجاناهم فهل يعني هذا انهم لن يشعروا باي التزام تجاهنا ؟» او ربما اذا اطلعناهم فانهم سيحاولون اثناءنا عن عزمنا بكل تلك الحسابات الحذرة التي يفرطون فيها عادة .. الافضل الا نخبرهم ، ماذا سيكون موقفهم ؟ التدخل المباشر في حالة وقوع غزو ؟ البقاء بعيدا عن المشكلة ؟ الدعم السياسي ؟ هذا هو الارجح ».

وما هو موقف الهند وسيلان وباكستان ؟ هل نستطيع الاتصال بهم بعد اتخاذ القرار ؟.. واستراليا ؟ ميئوس منها .. ماذا سيكون موقف بقية الكومنولث ، ما هو لون الضغط الذي يمكن ان تمارسه على الحكومة البريطانية ؟»

٧ ـ « الامم المتحدة ؟ تحال هذه النقطة على الدكتور فوزي لدراستها تفصيلا » .

٨ ـ « فرص نجاح الغزو ؟ صعبة جدا . ولكن ما هي الاحتمالات ؟ هل يمكن ان يهاجموا الاسكندرية من ليبيا ؟ ان هذا يحتاج الى قوات ضخمة لانه سيكون عليهم المضي حتى القاهرة . هل يمكن ان يقصفوا الاسكندرية من البحر كما فعل الاميرال سيمور عام ١٨٨١ ؟ ان هذا مستحيل تماما . ان الرأي العام العالمي لن يسمح بذلك فضلا عن انه امر لن يؤدي الى شيء على كل حال . عملية انزال ثم احتلال القناة ؟ محتمل ؟ وعلينا تدعيم القيادة الشرقية ».

٩ ـ « اخلاء سيناء . (التحدث في هذا مع عبد الحكيم) لا يجب ان نترك اكثر من القوات الضرورية فقط ».

١٠ ـ « اسرائيل . يستبعد اشتراك اسرائيل في هذه

العملية . ايدن لن يقبل . اسرائيل قد تحاول لكن ايدن لن يقبل . انه يفضل ان تبقى العملية اوروبية خالصة ».

١١ ــ « الحرس الوطني . اين يجب تركيزه ؟ يحال الموضوع على كمال الدين حسين (قائد الحرس الوطني).»

١٢ ــ « الوقت الملائم للتدخل . يجب ان يكون فوريا . يجب ان يبدو كرد فعل مباشر . اذا تأخر ايدن فان الضغط عليه سوف يزداد ».

١٣ ــ « هل نستطيع ان نكسب وقتا ؟ (اعداد رسائل الى تيتو ونهرو وسوكارنو) ».

١٤ ــ « هل تغامر اسرائيل بمفردها وتهاجم سوريا او الاردن ؟ (رسالة الى السوريين والاردنيين .. الافضل ان يبقوا صامتين . « اننا في حاجة الى تقدير مفصل من لجنة التقديرات في جهاز المخابرات ». (١)

في ضوء هذا التقويم الشامل للموقف ، ومواقف الدول الكبرى ، ودول عدم الانحياز ، والكومنولث والامم المتحدة واسرائيل وغيرها من القوى ، خلص عبد الناصر الى نتيجتين هامتين :

الاولى : ان مصر لا بد لها من ان تكون مستعدة لمواجهة اقصى الاحتمالات وحدها ، بما في ذلك احتمال الحرب .

الثانية : ان احتمال ان يغامر ايدن برد فعل عسكري فوري ، تصل نسبته الى ٨٠ في المائة في حالة وجود قوات بريطانية في المنطقة وقت اعلان التأميم ، ثم تنخفض هذه النسبة الى ٦٠ في المائة اذا تأخر التدخل اسبوعا واحدا ، والى ٤٠ في المائة بعد اسبوعين ، ثم يتدنى الاحتمال الى ٢٠ في المائة بعد ثلاثة اسابيع .

وعندما توفرت له بعدئذ المعلومات التي كان قد طلبها عن حجم القوات البريطانية في قبرص ومالطة ، أيقن تماما

(١) المرجع السابق صفحة ١٣٢ــ١٣٤ .

استحالة قيام بريطانيا وفرنسا بعدوان مسلح فوري ، وان تجميع القوات واعدادها للغزو يحتاج الى مدة شهرين على الاقل . وهذه مدة كافية للاثبات للمجتمع الدولي بقدرة وكفاءة مصر في ادارة القناة وتيسير الملاحة الدولية عبرها .. وبالتالي اسقاط كل الحجج والذرائع التي كان يمكن ان يتذرع بها الاستعماريون الانكليز والفرنسيون .

واهم ما يتضح لنا مما تقدم :

— ان عبد الناصر كان مصمما على استعادة قناة السويس. وانه كشف عن نواياه هذه للرئيس تيتو في سبتمبر ١٩٥٥ .
— انه اتخذ قرار التأميم في ضوء تقدير شامل للموقف ودراسة وافية لكل الاحتمالات وفي مقدمتها احتمال العدوان المسلح من جانب بريطانيا وفرنسا .
— ان توقيت التأميم ارتبط بالموقف الاميركي البريطاني العدائي من عبد الناصر وثورة ٢٣ يوليو التي تمثل في سحب عرض تمويل السد العالي .. وبالاهانة التي تعمدها دالاس لمصر الثورة واقتصادها القومي .

اذن فان عبد الناصر اغتنم فرصة نادرة هيأها له دالاس وايدن بشكل مفاجىء ليلقنهما ويلقن الاستعمار العالمي معهما درسا قاسيا . فلم يشأ ان يكون رده على اهانة دالاس بالتنديد بالسياسة الامبريالية الاميركية او بالاستعمار البريطاني ، ولا بالاتجاه الانفعالي نحو موسكو ، وانما بتوجيه ضربة مباشرة يكون لها دوي هائل واثار موجعة .

بذلك فان عبد الناصر اتجه الى تأميم قناة السويس :
ليسترد حقا مغتصبا .

ويرد على اهانة متعمدة بضربة موجعة .
ويوقظ الامبريالية والاستعمار من سبات الاوهام على حقيقة ان عهدا جديدا لمصلحة الشعوب قد بدات شمسه في الشروق .

ويبني السد العالي من عائدات القناة التي كانت تبلغ وقتئذ اكثر من قيمة القرض الاميركي البريطاني ، والتي بلغت بعدئذ في السنة اكثر من اجمالي قرض المائتي مليون دولار من البنك الدولي والسبعين مليون دولار التي وعدت بها اميركا وبريطانيا ، وبدأت الازمة من عندها .

كان دالاس وقتئذ يزهو مختالا ، كمصارع اجهز على خصمه بسرعة خاطفة ، او كملاكم هزم خصمه من اول ضربة ، وبالضربة القاضية ..

وازداد دالاس زهوا واختيالا عندما تكلم عبد الناصر في ذكرى الثورة ، ولم يكن قد مضى على « ضربة دالاس » سوى ثلاثة ايام ، دون ان يرد على الموقف الاميركي البريطاني من السد باكثر من الكلام .. ذلك انه لا يبني السد بالكلام ، ولا ترد الاهانات بالكلام ..

ورغم ان عبد الناصر قال في اليوم التالي ٢٤ يوليو في حفل افتتاح محطة لضخ البترول في مسطرد بجوار القاهرة، موجها كلامه للاميركان والانكليز وغيرهم من الاستعماريين والامبرياليين : « موتوا بغيظكم . ان مصر ستبني السد العالي حتى لو اضطررنا الى بنائه باظافرنا ».. فان حماقة الغرب واجهزة دعايته واعلامه راحت تسخر من هذا الرد الكلامي على « ضربة المعلم دالاس » .

لم يكن ذلك هو رد عبد الناصر .

كان عبد الناصر قد لاذ بالصمت الرهيب ، يستكمل تقديراته للموقف ودراسته للاحتمالات المتوقعة ، واستعداده لمعركة حاسمة فاصلة ..

كان رايه قد استقر نهائيا في ٢٤ يوليو ١٩٥٦ على تأميم قناة السويس ، ولذلك فانه اتجه الى اختيار الشخص الذي سيتولى اعداد وتنفيذ خطته للاستيلاء على القناة ..

لم يكن احد في العالم كله يتوقع ذلك ، وكانت السرية التامة لضمان المفاجأة من اهم العناصر التي حرص عليها عبد

الناصر .. ولذلك فانه عندما اراد ان يوسع دائرة الدراسة والمشاورات لم يجعلها تتجاوز الثلاثة من اعضاء مجلس قيادة الثورة .. ولم يعرض الامر على مجلس الوزراء الا قبيل موعد توجهه لالقاء خطابه في ذكرى طرد الملك فاروق ..

كان محمود يونس ، وهو ضابط مهندس ، هو الذي وقع عليه اختيار عبد الناصر لاعداد خطة تنفيذ التأميم ..

واقر عبد الناصر الخطة في يوم ٢٥ يوليو ، وطلب منه ان يتوجه مع رجاله الى منطقة القناة مع المحافظة الى ابعد الحدود على سرية المهمة الموكولة اليهم .

وابلغه بكلمة السر . وكانت ديلسبس .

وطلب اليه ان يستمع الى خطابه الذي سيلقيه مساء ٢٦ يوليو في الاسكندرية ، وان يعتبر كلمة السر « ديلسبس » عندما ترد في خطابه هي ساعة الصفر .. يستولي عندها على مكاتب ومباني ومنشآت القناة .

وكانت ساعة الصفر : الساعة السابعة والدقيقة الاربعين في مساء تلك الليلة الخالدة التي اعلن فيها عبد الناصر تأميم قناة السويس .

ذلك كان رد عبد الناصر على دالاس وايدن ..

كان الرد مذهلا وموجعا ، قاسيا وحاسما .. تضاءلت امامه الى درجة الصفر ضربة دالاس واصبح رد عبد الناصر هو : ضربة المعلم .. وموضع الاهتمام البالغ في عواصم جميع الدول قاطبة .

وكان العالم كله حتى تلك اللحظة مشدودا الى القاهرة في انتظار رد عبد الناصر على دالاس وايدن ..

واصبح العالم بعد تلك اللحظة التاريخية مشدودا الى واشنطن ولندن وباريس في انتظار ردهم على عبد الناصر .

★★★

وبغض النظر عن طبيعة الرد الامبريالي الاستعماري

ومضاعفاته ونتائجه الذي خصصنا له الفصل التالي ، فان ما يسترعي الاهتمام ويستحق وقفة تأمل هو ان عظمة عبد الناصر لا تنحصر فقط في صموده البطولي بشجاعة نادرة وكفاءة قيادية فذة في وجه اكبر تجمع عدائي عرفه تاريخ الثورات والشعوب ، وضم اعتى واكبر واقوى الدول الاستعمارية الامبريالية وقوى الصهيونية والرجعية والراسمالية في العالم ، كما لا تنحصر فقط في قدرته الثورية على التصدي للامبريالية والرجعية والراسمالية في العالم ، كما لا تنحصر فقط في قدرته الثورية على التصدي للأمبريالية الاميركية والرد على ضربة دالاس بضربة اشد واقوى ،وانما عظمة عبد الناصر فوق ذلك تتمثل في انتصاره التاريخي الخالد ببناء السد العالي بمعونة الاتحاد السوفياتي ومشاركته .

لقد كانت معركة السد العالي اعتى معارك التاريخ الحديث بين الشعوب المناضلة من اجل حقها في صنع تقدمها وممارسة ارادتها وفق ظروفها ومصالحها القومية ، وبين القوى الامبريالية الاستعمارية الرافضة لهذا الحق والمناوئة له . وسوف تبقى هذه المعركة من ابرز نقاط التحول واهم المؤثرات الايجابية في مسار التاريخ لمصلحة الشعوب .

ان السد العالي ليس مجرد مشروع ضخم يمثل اعلى مستوى توصل اليه الانسان في الفن الهندسي لتوليد عشرة الاف مليون كيلوواط ساعة في السنة ، والتحكم في مياه نهر النيل وبالتالي استصلاح اكثر من مليون فدان وتحويل تسعماية الف فدان اخرى من ري الحياض الى الري الدائم، اي زيادة الارض الزراعية بمقدار الربع ، والتخلص نهائيا من اخطار الفيضان او اخطار انخفاض منسوب المياه، وتوفير الطاقة اللازمة للعديد من المشروعات الصناعية الانتاجية الضخمة .. وغير ذلك مما يزيد الطاقة الانتاجية .

ان السد العالي بالاضافة الى ذلك ، رمز لقدرة الشعوب

اذا ما توفرت لها القيادة الثورية المخلصة ، على هزيمة الاستعمار وانتزاع حقوقها من براثنه ومخالبه وصنع التقدم .. فلم يتحقق بناء هذا السد الا بعد حرب انتصر فيها عبد الناصر على قوى العدوان الاستعماري الصهيوني ..

بذلك فان السد العالي الذي تم بناؤه كاملا في يوليو ١٩٧٠ قبيل وفاة عبد الناصر ، سوف يبقى رمزا للعزة والكرامة ، والنصر والتقدم ، والصداقة بين الشعب العربي وشعوب الاتحاد السوفياتي القائمة على الاحترام المتبادل .

واذا كانت قد ارتفعت اصوات كثيرة في الاونة الاخيرة لتنتقد السد العالي ، وتقلل من اهميته ، وتحمله مسؤولية القصور في معالجة بعض المشاكل الجانبية التي نتجت عنه .. فان اصحاب هذه الاصوات هم من الحاقدين الموتورين والاقليميين اعداء الثورة العربية العاملين في خدمة الامبريالية والاستعمار ، بل وفي خدمة الصهيونية العالمية بوعي منهم او بغير وعي .. فالقصور في التوسع في استصلاح الاراضي والاستفادة منها ، ومعالجة المشاكل الجانبية المتعلقة بتحسين التربة بالاسمدة ، وتطوير وسائل الصرف وما الى ذلك ، وكلها لا تحتاج غير بضعة ملايين من الجنيهات ، لا يجوز ان يتحملها السد العالي ، او ان تحمل لعبد الناصر باني السد العالي .

ان قصد هؤلاء ، من حاقدين ورجعيين واقليميين ومأجورين، هو النيل من عظمة عبد الناصر ، والتقليل من عظمة السد العالي ودور الاتحاد السوفياتي في بنائه ، ووقف اندفاعة التيار الثوري الناصري .

ولكنهم لن ينجحوا .

لان السد العالي سوف يبقى على مدى الايام والعصور رمزا لعظمة عبد الناصر ،

ولان عبد الناصر سوف يبقى للاجيال الصاعدة قائدا معلما.

ولانه « ليست هناك بقعة من الارض تصور المعركة العظيمة للانسان العربي المعاصر ، في ابعادها الشاملة ، كهذا الموقع الذي نقف امامه على سد اسوان العالي ».(١)

(١) من خطاب عبد الناصر بمناسبة تحويل مجرى النيل في ١٤ مايو ١٩٦٤ م. وكان العمل في تنفيذ المرحلة الاولى قد بدا في ٩ يناير ١٩٦٠. وكان الانتهاء من المرحلة الاخيرة في بناء السد العالي قد تم في منتصف يوليو ١٩٧٠ قبيل وفاة بانيه بشهرين !

الفصل التاسع

الحرب العدوانية
وسر الموقف الاميركي منها

عندما اتخذ عبد الناصر قرار تاميم قناة السويس لم يكن معتمدا على اسلحة ذرية رهيبة امتلكها وتفوق بها ، او تكافأ مع القوة المسلحة التي كانت تملكها الدول الاستعمارية الامبريالية او احداها ، ولا كان معتمدا على دعم الاتحاد السوفياتي باعتباره القوة العالمية الوحيدة القادرة على مواجهة الغرب الاستعماري ، حتى ولا على تأكيد منه بتقديم القروض والدراسات الفنية اللازمة لبناء السد العالي ٠٠٠ انما كان اعتماده في الدرجة الاولى على جماهير الشعب الملتفة حول الثورة ، المؤمنة بحقها في استرداد سيادتها وسيطرتها الكاملة على كل ارض الوطن ومياهه ، وكل مرافقه وثرواته ، واستعدادها للقتال في سبيل ذلك ، الى جانب ثقته في نفسه وصواب قراره ، وهذا عامل كبير الاهمية في اتخاذ القرارات المصيرية ٠

ولم تكن نظرة الدول الاستعمارية لقرار عبد الناصر متفقة مع المنطق القائل : ان من حق الشعوب استرداد كل ما اغتصب منها في فترات ضعفها وسيطرة الاستعمار عليها٠٠ وانما كانت تلك النظرة نابعة من منطق الاستعمار القائل : ان من حقه الاحتفاظ بكل الامتيازات التي ضمنتها له المواثيق والمعاهدات والاتفاقيات ، وبالتالي من حقه ، في منطقه ، ان يدافع عنها متذرعا بالاستناد الى القانون الدولي !

والقانون الدولي الىعهد قريب من صنع الدول الكبرى التي كانت تهيمن على العالم،اي من صنع الدول الاستعمارية، بذلك فانه كان وما زالت اجزاء كثيرة منه في خدمة الدول الكبرى وليس في خدمة حق الشعوب وعدالة قضاياها ٠

ولم تكن الاتفاقيات والمواثيقوالمعاهدات المعقودة بينالدول الاستعمارية ومستعمراتها ، او الاقطار التي اخضعت لنفوذها ، اكثر من مبررات قانونية زائفة كان يحتمي وراءها

الاستعمار ويغطي بها جرائمه البشعة ..
وبالمنطق الثوري الذي انتهجه عبد الناصر ، وهو منطق التاريخ وارادة الشعوب ، فان تلك المواثيق والمعاهدات والاتفاقيات باطلة يجب اسقاطها ، لانها كانت بين اطراف غير متكافئة وتمثل انعكاسا لواقع مرفوض .

وليس هناك اكثر من الامثلة على هذا النوع من العلاقات بين الدول الاستعمارية الكبرى وبين الشعوب المستعمرة (بفتح الميم) والمغلوب على امرها المستندة الى معاهدات ظالمة واتفاقيات غير متكافئة وزائفة .. ففي تاريخ كل شعب امثلة من هذا النوع .

ولو ان الشعوب وحركات التحرر اعتمدت اسلوب المفاوضات واحتمت بالقانون الدولي لما تحرر شعب واحد وحصل على استقلاله بالمعنى الحقيقي للتحرر والاستقلال .
ويكفينا ان نتمثل بواقعتين من تاريخ مصر مرتبطتين بعبد الناصر :

الاولى : ان الاحتلال البريطاني لمصر ابتدأ في العام ١٨٨٢م ولقد استمر لمدة تزيد على السبعين عاما لان اسلوب المفاوضات الذي اخذت به الحكومات المصرية المتعاقبة كان ينتهي الى صيغ توفيقية احتفظت بريطانيا بموجبها بحق الوجود العسكري وامتيازات ضمنت لها استمرار الاحتلال ! ولم ينته ذلك الوضع المهين الا بالثورة التي قادها عبد الناصر
الثانية : ان امتياز قناة السويس اعطي لمدة ٩٩ عاما ،وكان معنى ذلك بموجب الاتفاقية المعقودةان تبقى القناة طوال هذه الفترة تحت السيطرة الاجنبية ، ويبقى عائدها لاصحاب الاسهم من المستعمرين الانكليز والفرنسيين رغم ان العمال المصريين هم الذين حفروها بالسخرة ، وفي ظروف قاسية صعبة ، وبعد ان سقط منهم مائة وعشرين الفا ... ورغم ان مدة الامتياز كانت تنتهي في العام ١٩٦٨ م ، الا ان النوايا الاستعمارية كانت تتجه الى التمديد ، ولقد تكشف ذلك في

المفاوضات التي اجرتها حكومة الثورة مع شركة القناة لتعديل اتفاقية عام ١٩٤٩ ، ولم يكن هناك لاستعادتها غير السبيـــل الثوري الذي اتبعه عبد الناصر ٠

واذا كان هناك من يقول الان بحقد ، للتقليل من دور عبد الناصر في تصفية الاحتلال الاستعماري : ان الاحتلال البريطاني كان سينتهي بحكم التغيرات التي نتجت عن الحرب العالمية الثانية ٠ وان القناة كانت ستعود لمصر بانتهاء مدة الامتياز في عام ١٩٦٨م ، فانه ليس ادل على سخف وسذاجة هذا القول من سلوك الاستعمار نفسه تجاه مصر بالذات ٠فلقد عمد الى الحرب المسلحة للاحتفاظ بالقناة بحجة اهميتها للملاحة الدولية، وكأن هذه القناة لا تصان الا في ظل سيطرة الاستعمار بشكل من الاشكال على هذا الممر المائي العربي الحيوي ٠٠

ان عبد الناصر لم يشأ ان يكون اسير الامتيازات والاتفاقيات المعقودة في ظروف كانت السيطرة فيها تامة للاستعمار ٠٠ ولم يكن معنى ذلك ان عبد الناصر لا يحترم القانون الدولي وانما كان معناه انه يرفض كل ما من شأنه ان يعطي الاستعمار حقا في الاغتصاب او مبررا في الوجود على شبر من ارض او مياه الوطن او استغلال ونهب ثروة هي من حق الشعب ٠٠

ولو لم يفعل عبد الناصر ما فعله ، في ارغام بريطانيا على الجلاء ، وفي تأميم قناة السويس ، لكانت مصر الان في واقع غير واقعها المتحرر القادر على ممارسة ارادته ،بل لكان واقع الوطن العربي والواقع الدولي مغايرا لما هو عليه الان ، في مصلحة الاستعمار العالمي ولا شك ٠٠

★★★

ان قناة السويس ، لم تكن بالنسبة للاستعمار مجرد ممر مائي يصل البحر الابيض المتوسط بالبحر الاحمر والمحيـــط الهندي ٠٠ لو انها في هذا الاطار فقط لكانت الدول الاستعمارية تقبلت الامر الواقع واكتفت بالاحتجاج ، وتظاهرت بالتعايش معه في محاولة متطورة لاحتواء عبد الناصر ٠٠

ولكن القناة كانت بالنسبة للمستعمرين الاحتكاريين العصب الحساس في اهم منطقة استراتيجية تتجمع في جوفها مصادر هائلة من النفط لا يمكن للدول الرأسمالية الصناعية ان تستغني عنها او تعيش بدونها ٠

ولم يكن الخوف على هذا العصب الحساس من اضطراب الملاحة في القناة ، او من عجز المصريين في ادارتها فتتأثر عملية نقل البترول الخام الى دول اوروبا الغربية بشكل خاص ، التي كانت وما زالت تعتمد على البترول العربي ، وانما كان الخوف الحقيقي من عامل اخر هو اكثر العوامل المؤثرة في تفكير الاستعمار منذ قيام ثورة ٢٣ يوليو : ذلك هو موقع قناة السويس وانعكاسات قرار تأميمها على المصالح الاستعمارية والاحتكارات الامبريالية من جهة ، وايمان عبد الناصر بالقومية العربية وعداؤه الشديد للاستعمار وتصميمه على محاربته في كل الوطن العربي الغني بالمصادر النفطية من جهة اخرى ٠

ان الدول الاستعمارية ، مجتمعة ومتفرقة ، تنظر الى الوطن العربي باعتبار انه وحدة واحدة يتأثر ببعضه البعض ، فيؤثر الجزء منه في الكل ، وعلى الاخص اذا كانت مصر هي هذا الجزء ٠ ولذلك فان الاساس الذي قامت عليه وما زالت سياسة الدول الاستعمارية ، مجتمعة ومتفرقة ، هو السيطرة على هذا الوطن ، مباشرة او بالاحتواء ، وتفتيت وحدته ليسهل التحكم به واقامة انظمة متناغمة فيه تدور في نطاق الجاذبية الاستعمارية ٠٠

ولكن هذه القاعدة الاستعمارية بدأت في التشقق والتاكل والانهيار ، فلقد فتح فيها عبد الناصر ثغرة كبيرة ، ثم راح يناضل من اجل توسيعها ، في حين راحت الدول الاستعمارية بكل قواها وامكاناتها تقاتل بهجمات مضادة لسد هذه الثغرة واعادة الامور الى نصابها ٠٠

ونتج عن ذلك بالطبيعة تناقض تصادمي بين عبد الناصر

والاستعمار العالمي ، التقليدي منه والمتطور ٠

ولقد بلغت ذروة هذا التناقض التصادمي بقرار تأميم قناة السويس ٠

فهذا القرار زاد شعبية عبد الناصر المعادي للاستعمار عمقا واتساعا ، وبذلك ازداد خطره على الاستعمار واعوانه في المنطقة العربية والمناطق المجاورة لها ، جنوبا في افريقيا ، وشرقا في اسيا ٠

وهذا القرار ضاعف من قوة مصر وقدرتها ، سياسيا واقتصاديا وعسكريا وثوريا ، وبذلك اصبح عبد الناصر اكثر تأثيرا في محاربة الاستعمار ٠

ثم، هذا القرار كان يمكن ان يصبح مثالا يحتذى في المنطقة العربية بالذات ، فتصبح الاحتكارات البترولية معرضة في المستقبل الى التصفية بالتأميم .. وهذا ما حدث فعلا .

في ضوء ذلك ، اذا وضعنا في الاعتبار ، ان منطقة الشرق الاوسط ، واساسا منطقة الوطن العربي ، كانت اخر المواقع التي احتفظت بها الدولتان الاستعماريتان بريطانيا وفرنسا من بقايا امبراطوريتهما ، وغدت هذه المنطقة بالنسبة لهما خط الدفاع الاخير عن وجودهما كدولتين كبريين ، كما غدا مصير اقتصاد كل منهما مرتبطا باستثماراتهما في هذه المنطقة ٠

اذا وضعنا ذلك في الاعتبار امكننا انندرك لماذا اوفدتفرنسا وزير خارجيتها كريستيان بينو في مارس ١٩٥٦ قبيل تأميم القناة باربعة شهور لمساومة عبد الناصر في القاهرة على موقفه من ثورة الجزائر ! ولماذا قال ايدن للزعماء السوفيات بولغانين وخروتشوف اثناء زيارتهما لبريطانيا في ابريل ١٩٥٦ قبيل تأميم القناة بثلاثة شهور فحسب : ان بلاده سوف تحارب دفاعا عن مصالحها البترولية في الشرق الاوسط ! ٠٠

وكذلك ، لامكننا ان ندرك مغزى كل محاولات الاحتواء ، واغراءات الامبريالية الاميركية لعبد الناصر !

والاهم من ذلك ، في ضوء الاعتبارات السابقة ، يصبح من السهل معرفة : لماذا كان رد بريطانيا وفرنسا على تأميم قناة السويس بشن حرب عدوانية ضده !

***

تصور ايدن عندما بلغه قرار عبد الناصربتأميمقناةالسويس: ان العالم لم يعد يتسع له ولعبد الناصر !

ومثل ذلك كان تصور الزعيم الاشتراكي الفرنسي غي موليه ٠

ولا شك فان تصور الزعيم الصهيوني بن غوريون ، كان اشد قتامة واسودادا !

وكانت الرجعية العربية تقف في صف هؤلاء تحرضهم على الضرب الفوري السريع قبل ان يستفحل خطر عبد الناصر ، ويصفي الجميع ٠

كان ايدن في امسية ذلك اليوم من ٢٦ يوليو ١٩٥٦ يشعر بالراحة والطمأنينة بعد ان مضى اسبوع على الضربة التي وجهت لعبد الناصر دون ان يرد بغير الكلام ! ولم يكن في تقديره ولا في تصوره ان رد عبد الناصر ات اليه في تلك الامسية بالذات كالصاعقة المدمرة ٠

لو كان ايدن يتوقع شيئا غير الكلام من عبد الناصر ، لما اقام في تلك الامسية بالذات حفل عشاء على شرف الملك فيصل ملك العراق وخاله عبد الاله ورئيس وزرائه نوري السعيد ٠٠ او لكان اعتذر عن ذلك الحفل ، وعمل على تأجيله، وجلس في مكتبه يستمع لترجمة فورية لخطاب عبد الناصر ٠٠ لقد كان مرتاحا مطمئناً ، مرتديا زي الارستقراطية البريطانية وبجواره زوجته الانيقة الجميلة الاصغر منه سنا ، يداعب ضيوفه اركان الحكم الملكي العراقي حول مائدة العشاء في داوننغ ستريت ، وكان معهم من اركان حكومة المحافظين سلوين لويد ولورد سالزبوري ولورد هيوم ٠

كان العراق وقتذاك اهم قلاع الاستعمار البريطاني في الوطن العربي ، وكان عداء حكامه لعبد الناصر يمثل عداء

الرجعية العربية والانظمة الاقليمية لهذا القائد الثوري ·

كان موضوع الحديث بين اقطاب الاستعمار والرجعية في ذلك الحفل يدور ولا شك حول ضربة دالاس وايدن لعبد الناصر ، والاثار المتوقعة لهذه الضربة ·

وفجأة كانت المفاجأة المذهلة ·· وصفها ايدن في مذكراته بقوله :

« في مساء السادس والعشرين من يوليو ، كان ملك العراق وزعماؤه يتناولون طعام العشاء معي في « داوننغ ستريت »· واثناء تناول العشاء جاء احد سكرتيري الخصوصيين يحمل انباء استيلاء ناصر على قناة السويس واغتصاب ممتلكات الشركة التي كانت تدير القناة وفقا لاتفاق دولي ! فقد اعلن ناصر في خطاب القاه بالاسكندرية ان مصر نفسها ستجد الاموال اللازمة لبناء سد اسوان · وكانت الوسيلة في متناول يده · سوف يستولي على القناة ويأخذ من دخلها رأس المال الذي يريده · وانبأت ضيوفي بذلك ، وقد رأوا فيه بوضوح قلبا لكل الاتجاهات والافكار والامال التي كنا نتحدث فيها ، وادركوا على الفور ان الكثير يتوقف على العزيمة التي سنقابل بها هذا التحدي ، وانفض اجتماعنا مبكرا بعد ان انتهى الغرض الاجتماعي من عقده » ·(١)

وقد حرص ايدن على استشارة اركان الحكم العراقي فيما يجب عمله ، ربما كان ذلك مجاملة منه ، وربما كان بدهاء لمعرفة موقف الرجعية العربية من خطوة عبد الناصر ، وكان رأي نوري السعيد كما رواه لمجلس الوزراء العراقي بعدئذ قوله لايدن : « لم يبق امامكم سوى سبيل واحد للعمل هو : اضربوه الان واضربوه بشدة · والا فسيفوت الاوان ويقضي علينا جميعا » (٢) ·

---

(١) مذكرات ايدن . السويس . ص ٧٧–٧٨ .

(٢) هيكل . عبد الناصر والعالم ص ١٤٢ .

كان نوري السعيد بذلك يعكس موقف جميع الانظمة الملكية والاقليمية الرجعية في الوطن العربي من عبد الناصر • وكان على عكس ذلك تماما موقف الجماهير العربية في ارجـــاء الوطن العربي من المحيط الى الخليج ، فقد هبت تهتف بحياة عبد الناصر مؤمم القناة ، وتعلن فرحتها العارمة للقـــرار التاريخي ، والتفافها القوي حول الرجل الذي صار تجسيدا لارادتها وامانيها وامالها القومية ••

كان تقدير ايدن للموقف في بداية ذلك العشاء : ان عبـــد الناصر انتهى • ولكن بعد دقائق قليلة ، وفي ذلك العشاء ،راح يصرخ بانفعال شديد : « كيف يستطيع ان يفعل ذلك ؟ كيــف يستطيع ••»

وعلى غير عادة وتقاليد الارستقراطية البريطانية ، انفض حفل العشاء بالفوضى وقبل ان يكتمل • فالحدث الكبير افقد الاستعماريين اتزانهم ومشاعرهم ، وراحوا بعصبية بالغـــة وانفعال شديد يبحثون عن موقف يواجهون به هذا التحدي الذي لم يتعودوه ولم يسبق في تاريخ الاستعمار ان واجهتحديا في مستوى خطورته وابعاد اثاره ونتائجه ••

اسرع ايدن الى دراسة الامر مع اركان حكومته : لويـــد وسالزبوري وهيوم ، ثم انضم اليهم باستدعاء عاجل الفيلـــد مارشال تمبلر واللورد مونتباتن ، وتبع ذلك استدعاء انـدرو فوستر القائم بالاعمال الاميركي وشوفيل السفير الفرنسي ، لاجراء مشاورات عاجلة ••

وكان هناك في باريس وواشنطن مثل هذا الاهتمام العصبي المفاجيء •• بل ان عواصم العالم كله بدت في تلك الليلة وكأن ماسا كهربائيا اصابها • فراحت تتابع الموقف بقلق في ضوء ردود الفعل الانفعالية التي بدأت تخرج من لنــــدن وباريس وواشنطن وتل ابيب •

واصبح اصدقاء عبد الناصر في العالم قلقين عليـــه •• يتساءلون : كيف يمكنه ان يواجه هذا التجمع الاستعماري

الصهيوني الرجعي المكشر عن انيابه ، وهل يمكنه ان يصمد، وان ينتصر ، وماذا سيكون مصير السلام العالمي ، اذا ما نفذ الاستعماريون تهديداتهم التي ردوا بها على قرار التأميم ؟

كان اتجاه ايدن وغي موليه قبل ان يجتمعا ويتبادلا الرأي هو : الرد بالقوة المسلحة لاسقاط عبد الناصر واعادة فرض السيطرة الاستعمارية على قناة السويس . فلقد كانت لديهما قناعة تامة بان الضغوط السياسية والاقتصادية والدبلوماسية والدعائية لن تؤثر على عبد الناصر ولن تعيد القناة لسيطرة الغرب من جديد ، وانه لن ينفع معه غير القوة المسلحة ، متجاهلين منطق العصر وحق الشعوب ووجودارادات اخرى في العالم اقوى من ارادة بريطانيا وفرنسا ..

ان ايدن كشف عن هذا الاتجاه في البرقية التى بعث بها في اليوم التالي بتاريخ ٢٧ يوليو ١٩٥٦ للرئيس الاميركي ايزنهاور ، قال فيها :

« لقد استعرضت الموقف كله هذا الصباح مع زملائي اعضاء الوزارة ورؤساء هيئة اركان الحرب . وقد اتفقناجميعا على انه لا يمكننا ان نسمح لناصر بالاستيلاء على قناة السويس بهذه الطريقة متحديا الاتفاقات الدولية . واذااتخذنا قرارا حاسما في هذا الشان الان فسوف نظفر بتأييد كل الدول البحرية . واذا لم نتخذ مثل هذا القرار فاننا واثقون ان نفوذنا ونفوذكم في الشرق الاوسط كله سينتهي الى الدمار » .

« ان التهديد المباشر موجه الى موارد اوروبا الغربية من الزيت ، وجانب كبير منه يمر عبر القناة . فاذا اغلقت القناة، فسوف نطلب منكم ان تساعدونا بخفض الكمية التي تحصلون عليها من المصافي القائمة بنهاية خطوط انابيب البترول المنتهية عند شرق البحر الابيض ، وربما طلبنا منكم ان ترسلوا الينا كمية اضافية من جانبكم » .

« ولكن المستقبل البعيد هو الاكثر تهديدا . فان القناة « ملك شركة دولية » ومرفق حيوي للعالم الحر . ولا تستطيع

الدول البحرية ان تسمح لمصر بنزع ملكيتها واستغلالها واستخدام دخلها في اغراضها الداخلية الخاصة ، بغض النظر عن مصالح القناة ومصالح مستخدميها »٠

« ويجب الا نسمح بالخوض في جدل قانوني حول حقوق الحكومة المصرية في تأميم شركة تعتبر اصطلاحا شركة مصرية ، او في جدل مالي حول مقدرتها على دفع التعويضات التي عرضها المصريون ٠ انني واثق من اننا يجب ان نثير المشكلة مع ناصر على نطاق دولي اوسع »٠

« وليس من المحتمل كما نرى أن نحقق غرضا عن طريق الضغط الاقتصادي وحده ٠ وقد فهمت ان مصر لن تتقاضى منكم عونا اخر ٠ ولن يحل موعد سداد جانب كبير من الديون الاسترلينية المستحقة لها هنا قبل يناير ٠ اننا يجب في المقام الاول ان نقوم باقصى ضغط سياسي على مصر ٠٠ ولهذا الغرض يجب ان نحصل الى جانب عملنا على تأييد كل الدول التي يهمها الامر »٠

« ان زملائي وانا مقتنعون باننا يجب ان نكون على استعداد ، اخر الامر ، لاستخدام القوة لاعادة ناصر الى رشده ، ونحن من جانبنا مستعدون لهذا ٠ فقد اصدرت الامر صباح اليوم الى رؤساء هيئة اركان الحرب لوضع الخطة العسكرية اللازمة »٠

« على ان الخطوة الاولى هي ان نتبادل انتم ونحن وفرنسا الرأي ونوحد سياستنا وننسق معا افضل طريقة للضغط السياسي لاقصى حد على الحكومة المصرية »(١)٠

ان اهم ما تكشفه هذه البرقية : ان ايدن اكد فيها تصميم الحكومة البريطانية الاستعمارية على القيام بعدوان مسلح على مصر بهدف اسقاط عبد الناصر ، وانه عمد الى تاليب الرئيس الاميركي ايزنهاور واثارة الاحقاد الامبريالية فيه

---

(١) مذكرات ايدن . السويس ص ٨٣–٨٤ .

ضد عبد الناصر بهدف الحصول على الدعم الاميركي للعدوان المسلح ، او على الاقل لضمان الموافقة عليه ، ولهذا نراه يربط بين القناة ومستقبل امدادات البترول للغرب عامة ، ثم يربط بين الاثار والنتائج التي ستترتب على تزايد مكانة عبد الناصر اذا ما نجح في الاحتفاظ بالقناة وبين مستقبل نفوذ ومصالح الغرب عامة بما في ذلك نفوذ ومصالح الولايات المتحدة الاميركية في منطقة الشرق الاوسط ٠٠ وينذر بان خطر عبد الناصر سوف يسبب الدمار الشامل لكل ما للغرب في المنطقة ٠ ليخلص بعدئذ الى ضرورة استخدام القوة المسلحة ضده ٠

لقد سبق تلك البرقية دراسة مستفيضة على مدى ساعات الليل وصباح اليوم التالي (الجمعة ٢٧يوليو)لخطاب عبد الناصر ، لاستخلاص النوايا والافكار التي كانت تدور في راس قائد الثورة العربية مؤمم القناة ٠ فلم يشأ ايدن واركان حكومته ان تنحصر الدراسة في قرار التأميم ، وانما ارادوا ان تشتمل الدراسة فكر عبد الناصر ايضا ، ولذلك عمدوا الى دراسة شاملة للنص الحرفي لخطابه ٠ ولقد استوقفتهم فقرة كبيرة المعاني من فقرات ذلك الخطاب التاريخي ، حرص ايدن على اثباتها في مذكراته :

«هذه ايها المواطنون هي المعركة التي نخوضها الان ، انها معركةضد الاستعمار والطرقوالاساليبالتي يتبعها الاستعمار. معركة ضد اسرائيل طليعة الاستعمار ٠٠ ان القومية العربية كما قلت لكم ، قد اشتعلت من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي . ان القومية العربية تشعر بوجودها وكيانها وقوتها .(١)

معنى هذا في نظر الاستعمار ، انه اذا نجح عبد الناصر في معركة التاميم هذه فانه يصبح قوة هائلة مفجرة للقومية العربية في ارجاء الوطن العربي ٠ ولم يكن الاستعمار يخشى وهذا قائم الان وفي المستقبل ، من اية قوة او تيارات في هذه

---

(١) المصدر السابق . ص ٧٩ .

المنطقة غير قوة وتيار القومية العربية ، وعلى الاخص بعد ان اكد عبد الناصر عروبة مصر واعادتها الى موقعها الطبيعي لتاخذ دورها القيادي وتتحمل مسئولياتها القومية ٠٠

ولا شك في ان هذه الفقرة بالذات استوقفت اركان الاستعمار الفرنسي ، جى موليه ، وكريستيان بينو وغيرهما ٠٠ وجعلتهم يتجهون في تفكيرهم نحو القوة المسلحة ضد عبد الناصر قبل استفحال خطر القومية العربية ٠

وكان الاستعمار الفرنسي شديد العداء والكراهية للقومية العربية منذ ارغامه على النزوح عن سوريا ولبنان ٠ ولعل ذلك من اسباب تعاطفه مع الصهيونية ودعمه المبكر لاسرائيل رغم الخلافات الحادة التي كانت قائمة وقتئذ بين كل من فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الاميركية حول حلف بغداد وبسبب صراع المصالح والنفوذ في منطقة الشرق الاوسط ٠

ولكن وحدة الخطر المتمثلة في عبد الناصر والقومية العربية جعلت فرنسا وبريطانيا تلتقيان على طريق واحدة في اتجاه واحد ٠ طريق الحرب ضد عبد الناصر ٠

واذا كانت برقية ايدن لايزنهاور اكدت اتجاه بريطانيا نحو العدوان فان بينو وزير خارجية فرنسا اكد هذا الاتجاه بتصريح رسمي قال فيه :

«ان الحكومة الفرنسية مجمعة على الرغبة في اتخاذ عمل حاسم سريع ٠ ان الفرنسيين هم الذين بنوا القناة ، وفضلا عن ذلك فان اثر اجراء الرئيس ناصر مس فرنسا عن كثب في ميدان حيوى اخر ، في الجزائر وفي الموقف الفرنسي باكمله بشمال افريقيا ٠ فاذا سمح لمصر بان تنجح في الاستيلاء على القناة ، فسوف تدب القوة في قلوب الوطنيين الجزائريين كما انهم سيتطلعون الى مصر لتاييدهم ، وسوف تمنحهم هذا التاييد في شكل اسلحة وتاييد معنوي ٠ ولا تستطيع فرنسا ان تسمح بتطور هذا التهديد» ٠ (١)

---

(١) المصدر السابق . ص ٩٢ .

ولكن ، رغم هذا التصميم المبكر من جانب الانجليز والفرنسيين على استخدام القوة المسلحة لاحباط عملية تأميم قناة السويس ، والحاق هزيمة قاضية بعبد الناصر ، فانهم عجزوا عن تنفيذ تصميمهم ، ليس لانهم تعففوا عن ذلك او ارادوا اتباع سبل اخرى ، وانما لانهم وجدوا انفسهم غير قادرين على تعبئة وحشد القوات العسكرية اللازمة للغزو وشن الحرب ·

يعترف ايدن بذلك فيقول :

«وجه الينا النقد فيما بعد ، لاننا وفرنسا ، باعتبارنا الدولتين الرئيسيتين اللتين يهمهما الامر ، لم نتدخل فورا بالقوة ونحتل القناة من جديد · ويقول موجهو هذا النقد ، وخاصة اميركا ، اننا لو كنا فعلنا هذا لما كان هناك مجال كبير للشكوى · وثمة ردان على هذا :

الرد الاول سياسي : فبصفتنا من الموقعين على ميثاق الامم المتحدة ، كنا ملزمين اولا باتباع الوسائل السلمية · وبرغم اننا كنا على بينة بالفيتو السوفييتي ، وبضعف الامم المتحدة كاداة تنفيذية ، فقد ادركنا انه سوف يتعين علينا في وقت ما ان نعرض الامر على مجلس الامن · بل ربما تمكنا من ان نحفز الامم المتحدة ومجلس الامن على اتخاذ عمل ما · ولكن قبولنا لهذا لم يكن يعني التخلي عن استخدام القوة اخر الامر ، فهذا كان دائما موقف حكومة صاحبة الجلالة والحكومة الفرنسية في كل مراحل النزاع ، وقد اوضحناه مرارا للخصوص والعموم من البداية للنهاية ·

والرد الثاني عسكري : لما لم يكن في الامكان اتمام العملية بواسطة القوات التي تقلها الطائرات وحدها فلا مفر من القيام بحملة عسكرية من مالطة · فاذا لم يكن في استطاعتنا ان ننقل كل القوات اللازمة لهذه الحملة بطريق الجو فعلينا ان ننقلها عن طريق البحر · واقرب مكان تبحر منه القوات هو مالطة التي تبعد الف ميل · اما قبرص فليس بها ميناء يتسع

لسفن انزال الجنود وسفن نقل المعدات الحربية · تلك حقا
عسكرية لا سبيل لانكارها · ولم يكن لدينا ما يكفي مـــ
القوات التي تقلها الطائرات للقيام بعملية حربية كهذه ··

وكان ما لدى الفرنسيين اكثر ، ولكن ما لدينا نحن الاث
لم يكن يكفي لتكوين فرقة تؤيدها المدفعية · وكان تنظيم ا
سيحتاج الى عدة اسابيع على احسن الفروض · فان غـــ
صقلية من شمال افريقيا استغرق الاستعداد له سته اسا
في معمعان الحرب العالمية الثانية · وصحيح ان العس ض
المصريين لا يقارن بالعمل ضد الالمان كما كنت اقول دائما
ولكن من ناحية اخرى فان مواردنا في الشرق الاوسط في ذ
الوقت لم تكن لتقارن بموارد القوات البريطانية والامير
وهي في اوج قوتها اثناء الحرب» (١) ·

ان هذا الاعتراف الذي اثبته ايدن في مذكراته يؤكد صـ
المعلومات والتقديرات التي استند عليها عبد الناصر فـ
اتخاذ قرار تأميم القناة ·· ويؤكد في نفس الوقت ان عـ
ممارسة العدوان فورا لم يكن تعففا بقدر ما كان عجزا
ثم يكشف بوضوح ان الانكليز والفرنسيين راحوا يستعد
للعدوان متسترين بالنشاط السياسي والدبلوماسي والاعلا
وبالاجراءات الاقتصادية والمجادلات القانونية والمؤتمـــر
الدولية ·

★★★

كانت الحكومة البريطانية قد شكلت لجنة وزارية ، منـ
اليوم الاول ، مؤلفة من ستة اعضاء برئاسة انطوني ايـــ
رئيس الوزراء ، مهمتها دراسة ومتابعة تطورات الموقف ·
وضع رؤساء اركان الحرب تحت تصرف هذه اللجنة فـــي
وقت من الاوقات لمواجهة متطلبات الاستعداد للحرب ·

وكان من اول الخطوات التي اقدمت على اتخاذها الحكو
البريطانية في اليوم التالي للتأميم الى جانب ارسال البر

---

(١) المصـــدر السابـــق ، ص ٨٦ـــ٨٧ .

لايزنهاور ، تجميد حسابات مصر الجارية من الاسترليني في لندن • وفرض الحماية على اموال وممتلكات شركة قناة السويس في لندن ضد اية محاولة من مصر للاستيلاء عليها ونزع ملكيتها ، وحظر تصدير الاسلحة والمواد العسكرية الى مصر ، ومنع سفر اربع مدمرات مصرية كانت موجودة في ذلك الحين في الموانيء البريطانية ومالطة • ولقد اتخذت فرنسا في ذلك اليوم والولايات المتحدة الاميركية في اليوم التالي قرارات واجراءات مماثلة استهدفت فرض حصار اقتصادي على الشعب العربي المصري •

كذلك درست الحكومة البريطانية في ذلك اليوم الوضع الملاحى للاسطول البريطاني وحالة السفن البريطانية التجارية استعدادا لمصادرة بعضها للقيام بالغزو العسكري ، واصدرت اوامرها لعشرات القطع البحرية للتوجه بسرعة الى شرق البحر المتوسط •

كما درست مخزون البلاد واوروبا من النفط فوجدت ان ما لدى بريطانيا يكفيها لستة اسابيع ، واما ما لدى اوروبا فأقل نسبيا •

وقررت توجيه مذكرة احتجاج رسمية للحكومة المصرية بسبب الاستيلاء على قناة السويس ، وارسلت هذه المذكرة بالفعل ولكن عبد الناصر رفضها ، واعيدت مشفوعة بقصاصة غير موقعة مكتوب عليها «تعاد الى السفارة البريطانية» •

وعلى الجانب الاخر من المانش كانت الحكومة الفرنسية في حالة انعقاد دائم ، وكان جي موليه الاشتراكي كالثور الهائج ينفث سموما وتهديدا ووعيدا ، ويتبادل الراي مع زميله ايدن للاتفاق على موقف حاسم سريع ضد ذلك الرجل العربي المصري الذي تجرأ عليهما وسدد ضربة لبلديهما باتت تهدد بسقوطهما •

وفي يوم ٢٨ يوليو تلقى ايدن برقية جوابية من الرئيس ايزنهاور الذي كان منهمكا في معركته الانتخابية لرئاسة

الجمهورية استجاب فيها لدعوة ايدن لاجراء مشاورات ثلاثية بريطانية اميركية فرنسية ، وينبؤه بايفاد مورفي وكيل وزارة الخارجية لتمثيل اميركا في هذه المشاورات بسبب غياب دالاس حيث كان وقتئذ في بيرو ضمن اطار جولته في الدول الاميركية اللاتينية ٠

وكان غي موليه قد سبق ايزنهاور في الموافقة علـى هذه المشاورات ٠

ووصل مورفى الاميركي وبينو الفرنسي الى لندن يوم ٢٨ يوليو لتبدأ بذلك مرحلة تغطية الاستعداد للعدوان بالنشـاط السياسي ٠

***

لم يستهن عبد الناصر بالتهديدات العصبية التي كانـت تصدر تباعا من ايدن وجى موليه حينا ، ومن سلوين لويـد وكريستيان بينو حينا اخر ، ومـن جـون فوستر دالاس ومساعديه في وزارة الخارجية الاميركية حينا ثالثا ٠٠ كمـا لم يستهن بالتحركات السريعة الانفعالية لممثلي الاستعمـار والامبريالية الذين اخذوا في التوافد على العاصمة البريطانية باسلوب عشائري متطور لمواجهة الحدث الخطير الذي اصاب القبيلة الاستعمارية وراح يهدد كل عشائرها وافخاذها وبطونها فعمد الى مواجهة هؤلاء بامكاناتهم ومواردهم المادية الهائلة بالاعتماد على القدرة الذاتية للشعب العربي المصري وجماهير الامة العربية ،

ومن اجل توجيه هذه القدرة الذاتية حيث يجب ان توجه ضد اسوا الاحتمالات تقرر في يوم ٢٨ يوليو اعلان التعبئة العامة في مصر لحماية المكاسب التي حققتها الثورة ، ورد عبـد الناصر يومها على تهديدات ايدن وجى موليه باحتلال مصـر بانذار وجهه لكل الدول الاستعمارية في العالم قال فيه : ان مصر ستقابل القوة بالقوة والعدوان بالعدوان ، ولن تسـمح لعقارب الساعة بالرجوع الى الوراء ٠

كان عبد الناصر في تلك الايام ، منذ اعلان قرار تأميم شركة القناة ، وحتى اعادة فتحها للملاحة الدولية بعد هزيمة العدوان الثلاثي ، تحملا منه للمسئولية ، يخوض سلسلة من المعارك الضارية ضد قوى الاستعمار والامبريالية والصهيونية متعددة الجوانب والميادين والساحات ، لا يقوى غيره على خوضها وتحمل مسئولياتها ومشاقها ومتاعبها واهوالها ٠٠ وقد ترتب على ذلك ان يعمل، كما عمل في الايام الاولى للثورة التي قادها ، كل ساعات النهار ومعظم ساعات الليل ، بارادة ثورية نادرة لا تعرف الوهن ، وعزيمة متأججة لا تعرف الكلل ساعده على ذلك انه نذر نفسه لهذه الثورة لتكون الجسر الذي تعبر عليه جماهير الامة العربية من واقعها المتخلف الاقليمى المرفوض الى واقعها التقدمى الوحدوى المنشود ٠

وبسبب ظروف واعتبارات كثيرة ، اضطر عبد الناصر لان يتحمل مسؤولية قيادية مباشرة في اتخاذ القرارات المتعلقة والمتصلة بالموقف الخطير ، فلقد كان يؤمن منذ التفكير بالثورة والاعداد لها ثم التفكير بتاميم قناة السويس والاعداد له بانه ليس المهم تحقيق مكسب ما ، او الوصول الى هدف ما وانما المهم هو القدرة على الاحتفاظ بالمكسب وحمايته وتنميته وكذلك القدرة على الحفاظ على الموقع الجديد وتحصينه ودرء الاخطار عنه والانطلاق منه لتحقيق هدف اخر في اطار استراتيجية الثورة العربية ٠٠

لهذا فان عبد الناصر لم يكتف باتخاذ قرار التأميم ، كما لم يؤخذ بمظاهر الفرحة التي عمت الوطن العربي ، ولا انبهر بالاضواء الساطعة التي سلطت عليه من كل جانب ، ولا اغتر في انه بقرار التاميم كان المجسد لارادة شعوب القارات المقهورة افريقيا واسيا وامريكا اللاتينية ، وانه اصبح املها في هزيمة الاستعمار العالمي من سيطرته واستغلاله ٠٠ الشيء الوحيد الذي استفاده من كل ذلك هو المزيد من التصميم والاصرار على تعبئة كل الامكانات والطاقات لافساد واحباط كل المحاولات المتوقعة لعرقلة الملاحة في القناة والتصدى

للهجمات الاستعمارية التي كانت نذرها تلوح في الافق ، وكانت بوادرها قد ابتدات بالحصار الاقتصادي والحرب النفسية وتكتيل انظمة الحكم الراسمالية والرجعية ضده ٠

وقتئذ ، كان عبد الناصر يبذل جهدا قلما يقدر على بذله انسان :

● كان على صلة مستمرة بالمهندس محمود يونس والرجال الاكفاء الذين تولوا معه مهمة ادارة القناة ليطمئن الى سير الملاحة والتغلب على المشاكل المتعمدة التي بدات في اثارتها الدول الاستعمارية بهدف تأليب الرأي العام العالمي وتهيئته لتقبل العمل العسكري ضد قرار التأميم ٠

● وكان على اتصال دائم ، مباشرة في بعض الاحيان وعن طريق السفارات في احيان اخرى ، بزعماء وقادة دول عدم الانحياز والدول الاشتراكية لضمان تأييدها وكسب الرأي العام العالمي وتأييده لحق مصر في استعادة سيطرتها على قناتها ٠ ولم يهمل جبهة الاعداء فكان حريصا على بذل كل جهد ممكن ، بالامكانات المتاحة ، لتوضيح حقيقة نواياه وموقفه والتاكيد للراى العام البريطاني والفرنسي والاميركي ، بان ممارسة مصر لحقها في استعادة قناة السويس لا يستهدف العداء لاحد ولن يعرض سلامة الملاحة الدولية لاية اخطار ٠ ولم يكن امرا هينا النفاذ الى الراى العام من خلال لندن وباريس وواشنطن حيث تهيمن الصهيونية على اجهزة ووسائل الاعلام فيها ، ولكنه رغم ذلك حرص اشد الحرص على بذل المحاولة ، واوفد بعثات اعلامية خاصة لهذه المهمة ٠

● وكان يتصدى للحصار الاقتصادي الذي فرضته بريطانيا واميركا وفرنسا على مصر وشعبها العربي ٠٠ مستهدفا احباط مفعوله وتامين احتياجات البلاد من مواد تموينية وعلاجية وغيرها من المواد الضرورية ٠

● في نفس الوقت كان مهتما بسلامة الجبهة الداخلية وتعبئة

موارد البلاد وطاقاتها البشرية والعسكرية والاقتصادية لمواجهة الاحتمالات المتوقعة ، فلقد كان موقنا بان القدرة الذاتية لمصر هي الاساس في تقرير مصير هذه المعركة الحاسمة ضد الاستعمار بكل قواه وكافة اشكاله .

***

بعد ثلاثة ايام من التاميم ، اجتمع في لندن وزيرا خارجية بريطانيا وفرنسا ووكيل الخارجية الاميركية،وبدأوا مشاورات تمهيدية انتظارا لوصول دالاس ، وكان المعنى الذي تمثل في سرعة الاستجابة لعقد هذه الاجتماعات ، وعدم التريث والانتظار لحين وصول وزير الخارجية الاميركية هو تلاقى الدول الاستعمارية الثلاثة على مبدأ التصدى لعبد الناصر وهزيمته في معركة التاميم كما سبق ان تصدت للزعيم الايراني مصدق ..

وكما ان الولايات المتحدة الاميركية خرجت المستفيدة الاولى من انتصار الاستعمار على مصدق في معركة تأميم البترول، فانها راحت تمني النفس في ان تكون المستفيدة الاولى من وراء الانتصار الذي كانوا ينشدونه على عبد الناصر ..

ولعل هذه الامنية الاميركية كانت من الاسباب الرئيسية التي اثرت على الموقف الاميركي وجعلته مختلفا في الاسلوب عن اسلوب بريطانيا وفرنسا في معالجة الامر .

ورغم ان مورفي وكيل وزارة الخارجية الاميركية اهتم في المشاورات التمهيدية بالنواحي القانونية مستندا لمعاهدة القسطنطينية لعام ١٨٨٨ لدحض حق عبد الناصر في تأميم القناة ، مستهدفا في الدرجة الاولى عدم انعكاس تأميم شركة قناة السويس على امتياز قناة بنما ، باعتبار انه عقد ثنائي بين بلاده وحكومة بنما ، في حين ان معاهدة القسطنطينية جعلت لقناة السويس وضعا دوليا ، الا انه كان واضحا كل الوضوح ، في التعبير عن الموقف الاميركي في التلاقي مع موقف بريطانيا وفرنسا عند نقطة اساسية هي ضرورة وضع

قناة السويس تحت اشراف دولي ..

ورغم الاتفاق على هذا المبدأ الا انه كان هناك اختلاف في وجهات النظر بين موقف اميركا من جهة وبريطانيا وفرنسا من جهة اخرى حول كيفية تحقيق ذلك .. وترك الامر ليكون موضع النقاش الرئيسي مع دالاس .

وقد وصل دالاس الى لندن في الاول من اغسطس وسط جو بالغ التوتر والانفعال والعداء لعبد الناصر لخصته جريدة « التيمس » اللندنية في عددها الصادر في ذلك اليوم بقولها :

« عندما يبحث مجلس العموم مسألة السويس غدا سيكون هناك شيء واحد يمكن للنواب ان يتأكدوا منه ، هذا الشيء يجب ان يكون موضع تفكيرهم المتبصر ، فلو سمح لناصر ان ينجو بضربته لانهارت جميع المصالح البريطانية والمصالح الغربية الاخرى في الشرق الاوسط . ولقد قاسى العالم الحديث من ضربات كثيرة مشابهة مثل زحف هتلر على منطقة الراين ، وازهاق الحرية في تشيكوسلوفاكيا على يد ستالين (يلاحظ هنا اسلوب الاثارة والتأليب ضد عبد الناصر).. تلك الضربات التي كان يزعم القائمون بها انها ممارسة منهم للسيادة الداخلية بينما كانت في الحقيقة من الاحداث التي غيرت مجرى التاريخ . واستيلاء ناصر على القناة يعد نقطة اخرى من نقط التحول في التاريخ . اما المناقشات والمجادلات التي تجري حول احقيته من الناحية القانونية في اتخاذ هذه الخطوة فلن يسر لها الا دعاة المخالفة في الراي ، ولن يرتاح لها الا اصحاب القلوب الضعيفة ان هذه المجالات لا تتناول المشاكل الحقيقية بأي حال . « وقد عددت التيمس هذه المشاكل على النحو الاتي :

« المشكلة الاولى في منتهى البساطة هي ان حرية المرور في قناة السويس ــ زمن السلم او الحرب ــ هي من المصالح الرئيسية للغرب ! وهذه الحرية لا يمكن ضمانها الا اذا كانت

القناة في ايد صديقة موثوق بها ! واقدام ناصر على الاستيلاء على القناة وخطبه التي صاحبت هذه الخطوة تعطينا اثباتا نهائيا على انه ليس صديقا ولا موثوقا به من ناحيتنا .»

« والمشكلة الثانية ليست اقل وضوحا من الاولى ، فابار البترول ومعامله الضخمة الموجودة في الشرق الاوسط تعد من الاسس الرئيسية التي تعتمد عليها الصناعة في بريطانيا واوروبا، كما يعتمد عليها امن بريطانيا واوروبا . وكل من يعتقد ان انتصار ناصر لن يشجع المتطرفين الاخرين على التمسك بمطالبهم المضادة لمصالحنا في ابار البترول وفي قواعدنا الاستراتيجية فليس الا اعمى لا يرى الحقيقة ».

« واما المشكلة الثالثة فهي اوسع واشمل ، اذ لا يمكن ان يكون هناك استقرار وثقة في العالم ما دام في امكان اي شخص ان يكون في مأمن بعد ان يمزق الاتفاقات الدولية ».

هذه الفقرات من افتتاحية التيمس الصادرة في الاول من اغسطس تعكس تماما وجهة نظر الاستعمار ومنطقه . ورغم انها كانت موجهة لاعضاء مجلس العموم البريطاني كما جاء في مستهلها الا انها كانت في نفس الوقت موجهة لوزير الخارجية الاميركي ، الاكثر تأثيرا في موقف الغرب والذي وصل لندن في ذلك اليوم .

وبوصول دالاس الذي كان يتمثل فيه عداء الامبريالية الاميركية ومقتها الشديد لعبد الناصر بدا وزراء خارجية الدول الاستعمارية الكبرى في العالم اجتماعات متصلة ومكثفة استهدفت الاتفاق على موقف موحد من عبد الناصر .

وكان ايدن ووزير خارجيته سلوين لويد ، ووزير الخارجية الفرنسي كريستيان بينو متلهفين لمعرفة موقف دالاس .. ولقد ارتاحوا لوجهة نظره التي جاءت في خمس نقاط على النحو التالي :

١ — ان بقاء القناة تحت سيطرة دولة واحدة بغير اشراف

دولي شيء لا يحتمل !

٢ ــ يجب اتخاذ معاهدة سنة ١٨٨٨ اساسا للمناقشة لتجنيب التعقيدات فيما يتعلق بقناة بنما .

٣ ــ القوة هي اخر طريق يلتجأ اليه ، ولكن الولايات المتحدة الاميركية لا تستبعد استخدام القوة اذا فشلت كل الوسائل الاخرى .

٤ ــ يجب تعبئة الراي العام العالمي لصالح فكرة وضع القناة تحت ادارة دولية !

٥ ــ يجب ان نحاول جعل ارائنا الثلاثية مقبولة من اغلبية تتألف على الاقل من ثلثي المؤتمر المزمع دعوته ..

وكانت هذه النقاط جوهر الرسالة التي كان دالاس قد حملها الى ايدن من الرئيس الاميركي ايزنهاور « واعترف فيها بالقيمة الكبرى للقناة بالنسبة للعالم الحر . وبان استخدام القوة قد يصبح ضرورة مع الوقت لحماية الحقوق العالمية ». (١)

وبلغ ارتياح الانكليز والفرنسيين ذروته عندما استمعوا الى دالاس اثناء المناقشات وهو يقول :

« يجب ان نجد وسيلة نحمل بها الرئيس ناصر على ان يلفظ ما يحاول ابتلاعه .. يجب ان نقوم بجهد حقيقي لتعبئة الرأي العالمي لصالح فكرة وضع القناة تحت ادارة دولية . يجب ان يكون في الامكان خلق رأي عام عالمي معارض للرئيس ناصر بحيث يمكن عزله ، فاذا تطلب الامر القيام بعمل عسكري فيجب ان يرتب هذا العمل بحيث يكون له حظ وافر من النجاح وتكون عاقبته اقل خطورة من اي عمل يتخذ بطريقة فيها اندفاع وتعجل وطيش » .(٢)

ولكن رغم هذا الارتياح الاستعماري الانكليزي والفرنسي للموقف الاميركي كما تضمنته رسالة ايزنهاور لايدن وعبر

---

(١) ايدن . مذكراته عن السويس . ص ٩٤ .
(٢) المرجع السابق .

عنه دالاس في اجتماعات وزراء الخارجية ، كان هناك خلاف في الاسلوب وصولا للهدف :

ففي حين كانت الولايات المتحدة الاميركية تحبذ اسلوب العمل بالنفس الطويل لعزل عبد الناصر دوليا وتعبئة الرأي العام العالمي ضده تمهيدا لضربه بالقوة المسلحة ، كانت انكلترا وفرنسا تحبذان العمل بسرعة دون اي اعتبار بالوضع الدولي والرأي العام العالمي ولا بالسلام في العالم .. ولقد عبر ايدن عن ذلك بقوله : « لم اكن اريد ان تفقد المشكلة اهميتها مع الزمن . كما لم اكن اريد ان نجعل المناقشات تجرنا من مؤتمر الى مؤتمر ». (١)

ورغم هذا الخلاف في اسلوب العمل ، فقد وافق وزيرا خارجية انكلترا وفرنسا على اقتراح دالاس بالدعوة الى مؤتمر دولي للمنتفعين بالقناة تدعى اليه الدول الثماني الموقعة على معاهدة القسطنطينية وبينها الاتحاد السوفياتي وست عشرة دولة ، اختاروها بحجة اتساع وكمية تجارتها واستخدامها للقناة ، وهذا منطق استعماري كان القصد منه ضمان اغلبية الثلثين .

وقد انتهى مؤتمر وزراء الخارجية الثلاثي مساء الثاني من اغسطس ببيان رسمي تضمن الدعوة لمؤتمر المنتفعين بالقناة وحدد الدول المدعوة اليه وهي : مصر ، بريطانيا ، فرنسا ، الاتحاد السوفياتي ، ايطاليا ، المانيا الاتحادية ، البرتغال ، اسبانيا ، تركيا ، الولايات المتحدة الاميركية ، اليابان ، هولندا ، استراليا ، الدانمرك ، اثيوبيا ، ايران ، باكستان ، نيوزيلندا ، السويد ، النرويج ، الهند ، سيلان ، اندونيسيا، اليونان .

والجدير بالملاحظة ان الولايات المتحدة الاميركية صاحبة الاقتراح بالدعوة لهذا المؤتمر لم تكن من الدول الموقعة على معاهدة القسطنطينية .

---

(١) المصدر السابق . ص ٩٦ .

وكان البيان الرسمي لوزراء خارجية الاستعمار قد حـد يوم ١٦ اغسطس موعدا لانعقاد مؤتمر المنتفعين بالقنـا في لندن .

ورغم ان الدعوة لذلك المؤتمر موجهة من اكبر واقوى الدول الاستعمارية والامبريالية ، الا ان عبد الناصر لم يتردد في رفضها ، رفضا منه لاية مناقشة حول حق مصر في تأميم قنا السويس ووضعها تحت سيطرتها التامة وادارتها الكاملة كذلك رفضا منه للنوايا والمخططات الاستعمارية والافكا التي دعي المؤتمر للانعقاد على اساسها استنادا الـ ما تضمنته الفقرة التالية من البيان الرسمي لايدن ودالاس وبينو :

« ان هذا الاجراء (التأميم) يتضمن اشياء اكثـر كثيـر من مجرد عمل بسيط من اعمال التأميم، فهو يتضمن الاستيلا بطريقة تعسفية من طرف واحد لاحدى الدول على وكالة دولي تحمل مسؤولية صيانة وادارة قناة السويس حتى يمكن لكل الدول الموقعة على اتفاقية القسطنطينية المعقودة في سنة ١٨٨٨ والدول المنتفعة بتلك الاتفاقية من استخدام ذلك المم المائـي الدولي الذي يتوقف عليه اقتصاد وتجارة وأمن الكثي من دول العالـم » (١) .

وكانت اليونان هي الدولة الوحيدة التي تضامنت مع مصر في رفض الاشتراك في ذلك المؤتمر .

***

لم تكن الدعوة لمؤتمر المنتفعين بالقناة تعني ان حدة التوتر أو أن الازمة قد تجمدت .. على عكس ذلك تماما سارت الاحداث ، فلقد حرصت الدول الاستعمارية على ازاحة القضايا والمشاكل والازمات العالمية بعيدا من دائرة الضو

---

(١) المصدر السابق . ص ٩٨ .

والاهتمام لتبقى مشكلة تأميم قناة السويس وحدها في هذه الدائرة لتبدو المشكلة الاخطر على السلام العالمي الجديرة باهتمام الراي العام العالمي ..

وبالفعل غدت مشكلة تاميم القناة نتيجة ردود فعل الاستعمار تجاهها ومواقف العواصم العالمية منها المشكلة الرئيسية الاولى في العالم .

ورغم ان الاستعمار كان يصعد استعداداته العسكرية وتهديداته الارهابية ويستخدم أقوى الضربات في قرع أضخم طبول الحرب لتخويف عبد الناصر .. الا ان عبد الناصر لم يضعف ، بل كان يزداد قوة وصلابة وتمسكا بحق بلاده في استرداد حقوقها المغتصبة وثرواتها المنهوبة بفعل التأييد المتزايد الذي لقيه قرار التاميم :

أولا : من الجماهير العربية الواسعة وجميع الانظمة العربية التي لم تجد بدا من مجاراة التيار الجماهيري المتدفق فتظاهرت بالتأييد العلني في حين عمدت الى التحريض الخفي .

ثانيا : من دول عدم الانحياز وقادته العمالقة : نهرو وتيتو وسوكارنو ، ومن جميع حركات التحرر الوطني في أفريقيا واسيا وأميركا اللاتينية .

ثالثا : من الاتحاد السوفياتي الذي أعلن تأييده لموقف مصر وحقها في التأميم بعد اربعة ايام ، في الثلاثين من يوليو ، وكذلك من جميع الدول الاشتراكية في اسيا وفي مقدمتها الصين الشعبية ، وفي أوروبا .

اذن كانت دائرة التأييد لقرار التأميم تزداد اتساعا ، وقد شملت العالم كله باستثناء الدول الاستعمارية .

وكان هذا التأييد الواسع المتزايد ، رغم انه لم يتجاوز حدود التاييد المعنوي ، يشد من أزر عبد الناصر ويزيده اقتناعا بسلامة القرار والموقف ..

وبدون اعتماد على أي دعم خارجي ، تصدى عبد الناصر في

الاول من اغسطس لمؤتمر دالاس وايدن وبينو رافضا حقهم في اتخاذ أي موقف عدائي تجاه مشكلة غدت مشكلة داخلية مصرية قائلاً لهم : اننا نعرف كيف ندافع عن وطننا وكيف نرد المعتدين .

وعندما عمدت الدول الاستعمارية ، وعلى الاخص بريطانيا وفرنسا ، الى تصعيد التوتر بهدف التاثير على أعصاب عبد الناصر ، بقي عبد الناصر متمسكا بموقفه دون أي تراجع مهما كان طفيفا ، لانه كان شديد الاقتناع بأن السيادة غير قابلة للانتقاص ولو باية نسبة مئوية ، تماما مثل الاستقلال .وكانت نظرته للاستقلال بانه وحدة واحدة لا تتجزأ ، فليس هناك استقلال بنسبة ٥٠ أو ٧٠ في المائة أو ٩٥ في المائة .. كان يؤمن بأن الاستقلال يجب أن يكون بنسبة مائة في المائة .. واقل من ذلك يعني لا استقلال . كذلك الحال بالنسبة للسيادة الوطنية .

بهذا المفهوم ، كان عبد الناصر يرفض كل المقترحات الأستعمارية ، وكان مصمما على أن لا تتكرر مأساة مصدق ومأساة تأميم البترول الايراني ، وان لا تعود السيطرة الاستعمارية على قناة السويس بمصطلح دولي جديد كما استعادت الاحتكارات الراسمالية سيطرتها على بترول ايران.

كان الموقف يتطلب شجاعة ثورية .. وكانت هذه الشجاعة احدى الصفات البارزة في عبد الناصر ، ولقد تمكن بها من أن يواجه لحظات الخطر بأعصاب هادئة وتفكير ثوري متزن ..

وبفعل هذه الشجاعة الثورية الواعية ، كان رده على التصعيد الاستعماري للموقف : المزيد من الاستعداد لمواجهة أسوأ الاحتمالات ، والمزيد من الاهتمام بسلامة الجبهة الداخلية وتماسكها .

كان ذلك موقفه عندما قررت الحكومة البريطانية في الثاني من أغسطس ، والحكومة الفرنسية في الرابع من اغسطس

استدعاء الرعايا البريطانيين والفرنسيين من مصر . وكان عدد الرعايا الانجليز وقتئذ حوالي ثلاثة عشر الف شخص ، وكان الفرنسيون عدة الاف . وقد اقتصر الابعاد على النساء والاطفال .

أيضا ، كان ذلك موقفه عندما أعلنت الحكومتان بعدئذ عن استدعاء عشرات الالوف من قوات الاحتياط وتحريك الاساطيل في اتجاه الشواطىء المصرية وشرق البحر الابيض المتوسط .

كذلك بهذه الشجاعة الثورية واجه الموقف عندما حرضت بريطانيا وفرنسا المرشدين الاجانب في الثامن من اغسطس على الاضراب ، وفي نفس الوقت على توجيه أعداد كبيرة من السفن التجارية نحو القناة لخلق ضغط شديد عليها واستغلال اضراب المرشدين لاحداث ارتباك في الملاحة فيها ، واتخاذ ذلك مبررا للتدخل وسبيلا لتشويه الحقائق أمام الراي العام العالمي .. ولقد امكن بسهولة التغلب على هذا المخطط الاستعماري بفعل الجهد الهائل الذي بذله المرشدون المصريون والاداريون العسكريون الذين تولوا الاشراف على مرفق القناة ..

ولم يشأ عبد الناصر أن تكون مواقفه في تلك الايام مجرد ردود فعل ، فليست طبيعته كذلك ، ولا كان ممن يتحصنون في الخنادق والقلاع تأهبا للدفاع عن المكاسب .. انما كانت طبيعته في محاربة الاستعمار ومواجهته ، أن يفتح ضده الكثير من الجبهات ليرغمه على توزيع قواه .. بذلك فانه بينما كان يعد الجبهة الداخلية ، كان في نفس الوقت يمد حركات التحرر في الوطن العربي وأفريقيا بالذات بمزيد من الدعم العسكري والمادي وينسق مع قادتها لتصعيد الكفاح المسلح والنضال الجماهيري ضد الاستعمار .

وقبيل انعقاد مؤتمر المنتفعين ، كان عبد الناصر في موقف قوي جعله قادرا على مبادلة الدول الاستعمارية تهديدا

بتهديد ، ووعيدا بوعيد ، وضغطا بضغط ، وعمد في هـــذا الاتجاه الى ابلاغ الولايات المتحدة بواسطة سفيرها فـــي القاهرة ، في محاولة للتأثير على الموقف الاميركي ، وبالتالي مؤتمر المنتفعين ، بانه اذا لم تحترم الدول الغربيه قرار التاميم فسوف تنفجر الثورات على نطاق واسع في انحاء افريقـــيا والشرق الاوسط كافة .

ولم يكن عبد الناصر بذلك مساوما وانما كان معبرا عـــن صلابة موقفه وقدرته على مواجهة الاستعمار باسلـــوب ثـــوري .

ورغم ان هذا الاسلوب كان من شأنه ان يزيد من العداء والكراهية له ، الا انه كان يرفض بشدة أن يواجه الموقـــف بغير ذلك لانه شديد الشكوك والريبة بالاستعمار وشديـــد الايمان بانه لن ينفع في مواجهته اسلوب اخر .

بدافع من ذلك ، حرص على توجيه انذاره للدول الاستعمارية قبيل انعقاد المؤتمر ، وحرص في نفس الوقت لان يعلن مـــن جديد في مؤتمر صحفي عقده يوم ١٢ اغسطس رفضه لمؤتمر لندن وكذلك رفضه لفكرة تدويل القناة وتصميمه على التصدي لهذه المؤامرة الدوليـــة .

★★★

في ١٦ اغسطس انعقد في لندن مؤتمر المنتفعين بالقناة ، وقد حضرته اثنتان وعشرون دولة بعد أن رفضـــت مـــصر واليونان المشاركة فيه . واستغرقت اجتماعاته مدة اسبوع كامل ، اذ انتهت أعماله يوم ٢٣ اغسطس بخلاف حاد فـــي وجهات النظر بين أقلية من اربع دول هي الاتحاد السوفياتي والهند واندونيسيا وسيلان كانت تقترح انشاء هيئة دوليـــة استشارية بحتة ، وبين اغلبية من ١٨ دولة هي الـــدول الاخرى المشتركة في المؤتمر والتي سبق ذكرها وقد اتفقت على اصدار بيان باسم «تصريح مؤتمر لندن» يدعو الى انشاء هيئة دولية تتولى ادارة القناة والاشراف عليها .

واتفقت هذه الدول الثماني عشرة على ايفاد لجنة خماسية برئاسة منزيس فرانس رئيس وزراء استراليا وعضوية ممثلين عن اثيوبيا وايران والسويد وقد مثلهم وزراء الخارجية ، والولايات المتحدة الاميركية وقد مثلها لوي هندرسون .

وصلت هذه اللجنة الى القاهرة يوم ٢ سبتمبر ومكثت فيها حتى التاسع منه ، وقد أمضت الاسبوع كله في محاولات يائسة للتأثير على موقف عبد الناصر او زحزحته الى الوراء قليلا ، واستدراجه لقبول التفاوض على اساس تصريح مؤتمر لندن .. ولكن كل هذه المحاولات كانت تنتهي الى الفشل لان عبد الناصر بقي متمسكا بحق مصر في ممارسة سيادتها الكاملة على القناة دون وصاية او مشاركة دولية تحت اي اسم ولا بأي شكل .

وعندما حاول منزيس فرانس بعقليته الاستعمارية التأثير على عبد الناصر باسلوب التهديد والتلويح باستعمال القوة كان الرد عليه : ان طوى عبد الناصر الملف الذي امامه وقال لمنزيس بحسم : لقد انتهت المباحثات .

حدث ذلك في جلسة ٦ سبتمبر ١٩٥٦ ، وهي الجلسة الثالثة للمحادثات ، عندما دافع منزيس عن وجاهة الحجج التي تطالب بادارة دولية لتصريف أعمال القناة ، فقد تصدى عبد الناصر لدحضها موضحا بانه اذا قبل بعد تأميم القناة على ادخال ادارة دولية اليها فان من شأن تلك الادارة ان تكون في حاجة الى حماية ، كما ان من شان تلك الحماية ان تاتي من الخارج ، وبالتالي ستتعرض مصر من جديد للاحتلال من قبل قوات أجنبية .

ولم يقتنع منزيس بذلك ، واصر على ان الادارة الدولية سوف تحل جميع المشكلات .

ولكن عبد الناصر رفض هذا المنطق قائلا :

« انك تعتقد ان الادارة الدولية ستنهي المتاعب . لكنني اعتقد بان الادارة الدولية ستكون بداية المتاعب .. »

عندئذ ، بدافع من الاحساس بالفشل ، تصور منزيس بصفته ممثلا للاستعمار والامبريالية بان اسلوب التهديد اجدى وانفع في التعامل مع عبد الناصر ، فانحني فوق مكتب الرئيس بينما انعقد حاجباه الكثيفان ثم راح يقول والوعيد في نبرات صوته :

« يا سيادة الرئيس ان رفضك للادارة الدولية هو الذي سيكون بداية المتاعب » .

« واغلق عبد الناصر الملفات الموضوعة امامه على المكتب بعنف وقال :

« انك تهددني . لقد انتهى ما عندي . ولن يكون هناك مزيد من المناقشات . لقد انتهى كل شيء . انني اقول ان قبولي للادارة الدولية سوف يكون بداية المتاعب . وانت تقول ان رفضي لها سيكون بداية المتاعب . واذن فان المتاعب قادمة . واذا كان ذلك فلنواجه الامر منذ هذه اللحظة . وانا لست مستعدا لقبول تهديدات . »

واكفهر جو الجلسة . وبذل زملاء منزيس جميعا محاولات لتلطيف الجو مرددا الواحد منهم وراء الاخر بان منزيس لم يكن يقصد التهديد ، وانه على استعداد للاعتذار ، بل اعتذر فعلا قائلا :

« انني اسف فلم اكن اقصد ان اوجه اليك تهديدا » .

على أن عبد الناصر لم يلن . ولم ينثن ورد في غضب شديد :

« أن قولك لي ان رفضي القبول بادارة دولية سيكون بداية المتاعب الحقيقية هو تهديد ولن أفاوض تحت وطأة التهديد » .

وانتهت مهمة بعثة منزيس بذلك الى الفشل . ولم تنفع كل المحاولات التي بذلت على مدى ثلاثة ايام لاستئناف الحوار

مـــع عبد الناصر . (١)

وفي التاسع من سبتمبر ، عندما غادر أعضاء البعثـــة القاهرة كل الى بلاده ، بعث منزيس تقريرا الى ايدن قال فيه:

« لقد قيل لي قبل سفري الى القاهرة أن الرئيس ناصـــر رجل يتمتع بجاذبية شخصية كبيرة ، وقد يتحايل علي ويقنعني بغير ما أؤمن به واعرفه . ولكني أؤكد ان ناصر لم يستطـــع ان يضحك علي ، واستطيع ان اقول انه رجل يتمتع بكمية هائلة من الذكاء » .

ثم أراد منزيس أن ينقل لايدن وجهة نظر عبد الناصر فكتب له فقرة قال فيها عبد الناصر :

« أنت تقول في مقترحاتك انكم مهتمون بخطورة الموقـــف المتعلق بقناة السويس . وانا اوافقك على ان هناك خطورة . ولكن من الذي خلق هذا الخطر . اننا لم نخلقه ، لان كل مـــا فعلناه هو اننا أممنا شركة قناة السويس ، وهذا أمر كـــان لدينا كل حق قانوني في القيام به ، ولذلك فان هذا التصرف من جانبنا لا يمكن أن يؤدي الى خلق الموقف الخطـــير . أن تهديدات بريطانيا وفرنسا المتكررة هي التي خلقت هذا الموقف الخطـــير . (٢)

ولم تكن نهاية بعثة منزيس بالفشل مفاجأة للمراقبيـــــن السياسيين الذين تابعوا فكر وحركة ومواقف عبد الناصـــر منذ قيامه بثورة ٢٣ يوليو ، ذلك لان هؤلاء المراقبين كانـــوا موقنين بانه لن يتراجع خطوة واحدة الى الوراء . ولن يقبل التنازل ولو بنسبة واحد في المائة عن حق مصر في ممارسة سيادتها الكاملة على القناة .

★★★

---

(١) هيكل ، محمد حسنين . عبد الناصر والعالم ، ص ١٥١–١٥٢ .

(٢) مذكـرات أيـدن ، ص ١٤٤–١٤٥ .

كان أكثر ما يشغل بال ايدن وجي موليه باستمرار موقف الولايات المتحدة الاميركية ، فعلى الرغم من تاك من عدائها وكراهيتها لعبد الناصر وتصميمها على مد واسقاطـــه بشتى الوسائل بما في ذلك استخدام القوة انهما كانا يختلفان معها حول سرعة التوقيت في استـ هذه القوة، اذ انها رغم اتفاقها معهما على مبدأ انتـ قناة السويـــس ثانية من عبد الناصر ولو تطلب الامر است القوة ، الا انها لم تكن متعجلة في ذلك كما كان حال اي وجي موليه . لذلك كان هدف الاثنين هو محاولة ا عليها لكي تقبـــل وتقر وجهة نظرهما باستخدام القـ المسلحة ضد عبد الناصر بسرعة وقبل فوات الاوان .

من اجل ذلك لم يتركا وسيلة الا وعمدا اليها . وكان حل الاطلنطي احد هذه الوسائل . فقد دعت بريطانيا وفرنـ الى اجتماع طارىء لمجلسه ، في محاولة منهما للتاثير ع الموقف الاميركي من خلال الدول الاعضاء في الحلف ال كانت حسابات الدولتين تشير الى أن غالبية الدول الاور سوف تكون الى جانبهما .

كان بامكان الولايات المتحدة الاميركية باعتبارها سيدة الاطلنطي ان تقاوم هذه الدعوة وتحول دون الانعقاد على الاقل كان بامكانها ان تؤجل انعقاد مجلس الحلف ع أيام أن لم يكن عدة اسابيع . ولكنها لم تفعل ذلك . استجابت للدعوة .. واستجاب بعدها بقية الاتباع .

ولقد ارادت الامبريالية الاميركية أن يكون انعقاد مـ حلف الاطلنطي أثناء وجود بعثة منزيس في القاهرة ، لـ وسيلة ضغط وتخويف وارهاب لعبد الناصر ، ومظاهـ تأييد ودعم لبعثة مؤتمر لندن .. ولذلك فان مجلس حلـ الاطلنطي انعقد في الخامس من سبتمبر وسط شكوك وقلقه بسبب رسالة كان قد تلقاها في ٣ سبتمبر من الر الاميركي ايزنهـــاور .

ولم يكشف النقاب وتتئذ عن مضمون هذه الرسالة ، لا من جانب واشنطن ولا من جانب لندن ، ضمانا للتظاهر بوحدة الموقف الاستعماري من جهة واستخدام مؤتمر حلف الاطلنطي وسيلة ضغط على عبد الناصر من جهة أخرى .

ولكن ايدن ، كشف في مذكراته مضمون رسالة ايزنهاور .. واهميتها الكبرى تتمثل في انها كانت بداية التحول في الموقف الاميركي والخلاف الحاد بين أميركا من جهة وحليفتيها انجلترا وفرنسا من جهة أخرى في اسلوب معالجة الازمة ومواجهة عبد الناصر .

كانت أميركا حتى رسالة ايزنهاور في الثالث من سبتمبر تحبذ استخدام القوة ضد عبد الناصر بعد عزله ومحاصرته اقتصاديا ، وتعبئة الراي العام العالمي ضده ، وشاركت في كل الخطوات السياسية والاقتصادية التي استهدفته ، وكانت صاحبة فكرة مؤتمر المنتفعين في لندن ، وكان دالاس هو الذي قال في ذلك المؤتمر : « يجب ان نجد وسيلة نحمل بها الرئيس ناصر على ان يلفظ ما يحاول ابتلاعه ولو تطلبالامر القيام بعمل عسكري » . بل ان ايزنهاور نفسه هو الذي كتب الى ايدن في الاول من اغسطس رسالة رسمية قال فيها : « ان للقناة قيمة كبرى بالنسبة للعالم الحر ، وان استخدام القوة قد يصبح ضرورة مع الوقت لحماية الحقوق العالمية » .

ولكن هذا الموقف تغير تماما في الثالث من سبتمبر عندما بعث ايزنهاور برسالته الخطية الى رئيس الوزراء البريطاني ايدن قال فيها كما ذكر ايدن في مذكراته :

« ان الراي العام في اميركا يرفض استخدام القوة رفضا تاما ، وان اجراء المفاوضات التي سلكنا سبيلها لن تلحق بعبد الناصر ما يستحقه ، ورغم ذلك فاننا يجب ان نفرق تماما بين مسالة القناة وبين سياستنا العامة تجاه الرئيس ناصر والخطر الذي تتعرض له افريقيا والشرق الاوسط ،فان هذه السياسة مسالة سياسية بعيدة المدى . »

ولقد تصاعد هذا الموقف الاميركي حتى بلغ حد ادانة العدوان الثلاثي وشجبه ...

أنه تحول خطير بالغ الاهمية ، له أسبابه ودواعيه ولا شك، اقتضتها مصالح الامبريالية الاميركية واستراتيجيتها العالمية بعيدا كل البعد عن اي معنى من معاني التأييد لعبد الناصر الذي كان عدوها الاكبر في منطقة الشرق الاوسط .

وسوف نأتي لهذه الاسباب والدواعي بعد قليل في هذا الفصل .

المهم ، أن رسالة ايزنهاور في ٣ سبتمبر ١٩٥٦ سببت قلقا بالغا لايدن ، ولا شك في ان رسالة مماثلة من ايزنهاور أرسلت الى جي موليه فسببت له أيضا قلقا بالغا ...

لان الخلاف في الاسلوب ، أصبح الان تناقضا .. فلقد كان هناك قبل هذه الرسالة اتفاق على مبدأ استخدام القوة ضد عبد الناصر وكان الخلاف حول : متى تستخدم هذه القوة .

اي انه كان خلافا حول المدة الزمنية ليس الا . وأما الانفقد غدت أميركا ترفض مبدأ استخدام القوة .. وبذلك أصبح الخلاف تناقضا لان عدم استخدام القوة ، من وجهة نظر ايدن وجي موليه ، يعني انتصار عبد الناصر ، مع ما سيترتب على هذا الانتصار من انعكاسات وتاثيرات خطيرة علىالوجود والمصالح الاستعمارية الانجليزية والفرنسية في الوطن العربي .

وكان ايدن وجي موليه يدركان تمام الادراك أهمية الموقف الاميركي . ولذلك فانهما بنيا امالهما على مؤتمر حلف الاطلنطي الذي انعقد في ٥ سبتمبر ، لعله يؤثر على الموقف الاميركي .

كان الاتجاه الغالب في ذلك المؤتمر يؤيد وجهة النظر الانجليزية الفرنسية باستخدام القوة ضد عبد الناصر . وكان وزيرا خارجية هولندا وبلجيكا اكثر المتحمسين لهذا الاتجاه .

فقد دعا « لونز » وزير خارجية هولندا دول حلف الاطلنطي أن ترفض الاعتراف بامتلاك مصر للقناة ، وان تمتنع عن دفع الرسوم للهيئة المصرية الجديدة ، وان تتقدم مجتمعة الى مجلس الامن سعيا وراء الحصول على قرار يبطل التاميم ويسمح باستخدام القوة .

وحذر « سباك » وزير خارجية بلجيكا الذي كان عائدا لتوه من زيارة للمستعمرة البلجيكية الرئيسية في أفريقيا انذاك « الكونجو » من أي تهاون في ضرب عبد الناصر لأن انتصاره سوف يهدد الاستعمار في كل أفريقيا وليس في شمالها فحسب . وكان من رأي « سباك » أن المسالة بالنسبة للاستعمار أكبر بكثير من مجرد اعادة الاشراف الدولي على قناة السويس . اذ أنها تتصل بمستقبل ومصير الاستعمار في أفريقيا والشرق الاوسط .

وكانت التقديرات البريطانية والفرنسية لابعاد الموقف متفقة تماما مع تقديرات وزيري خارجية هولندا وبلجيكا ..

ورغم ذلك فان الموقف الاميركي لم يتغير عما جاء في رسالة ايزنهاور لايدن قبيل انعقاد المؤتمر ، وبذلك فان مؤتمر حلف الاطلنطي لم يكن أكثر من مظاهرة استعراض للقوة الاستعمارية الامبريالية المدججة بالاسلحة الذرية والهيدروجينية .

ولكن عبد الناصر لم يرهب بهذه المظاهرة التي شاركت فيها جميع دول حلف الاطلنطي الذي يشكل اكبر تجمع مسلح للدول الراسمالية . فقد بقي على موقفه الذي أدى الى فشل بعثة منزيس .

واذا كانت أسرار ذلك المؤتمر التي كشفها ايدن في مذكراته قد أكدت فشل حلف الاطلنطي في الاتفاق الجماعي على استخدام القوة لاستعادة قناة السويس ، فان هذا الفشل جعل انجلترا وفرنسا تتجهان الى الاعتماد على النفس

والاستعانة باسرائيل لتكون وسيلتهما في العدوان من جهة، وللاستفادة من تاثيرات الصهيونية على الموقف الاميركي من جهة أخرى ..

وعلى الرغم من هذا الاتجاه ، فان ايدن استمر في محاولاته التحريضية للتاثير على الموقف الاميركي ، فقد كتب الى ايزنهاور في ٦ سبتمبر ، في اليوم التالي لانعقاد مجلس حلف الاطلنطي رسالة جوابية قال فيها :

« اننا نحن الاثنين متفقان على ضرورة منح لجنة منزيس كل فرصة لتنفيذ مهمتها . ان هذا هو عزمنا الاكيد . فاذا نجحت اللجنة والمفاوضات القادمة في الحصول على موافقة عبد الناصر على مقترحات لندن التي وضعتها الدول الثماني عشرة فلن تكون هناك ضرورة لاستخدام القوة . أما اذافشلت اللجنة فلا بد لنا من حل بديل عاجل يبين أن عبد الناصر لن يسمح له بتحقيق ما يبغي . ونحن نميل في ذلك الامر الى اقتراح فوستر الذي يهدف ، كما عساني أكون قد فهمت ، الى ادارة القناة بواسطة المنتفعين بموجب حقوقهم في اتفاقية سنة ١٨٨٨ ، وقد سمعنا بهذا الاقتراح أمس من سفارتنا في واشنطن ، وأعتقد أنه يمكننا أن ننفذ ذلك، بشرط أن نكون قد أوضحنا نوايانا نحن الاثنين فور انتهاء منزيس من مهمته . ولكن اذا كنا لا نستطيع تنفيذ ذلك ، أو شيء قريب الشبه منه فماذا عسى تكون خطوتنا التالية .

أنت تقول أننا هنا نختلف . فاذا كان الامر كذلك ، فانني أعتقد أن خلافنا هذا ناشيء عن اختلافنا في تقدير خطط الرئيس عبد الناصر ونواياه . فدعنى أشرح لك رأينا في الموقف كما نراه . »

وبعد ان عمد ايدن في رسالته تلك في محاولة تحريضية الربط بين اسلوب عبد الناصر في تأميم القناة واسلوب هتلر في غزو النمسا وتشيكوسلوفاكيا وبولندا وغيرها ، وبين أسلوب عبد الناصر وأسلوب ستالين في حصار برلين ،

مذكرا أن المواجهة بالقوة هي التي هزمت هتلر وهزمت بعدئذ حصار برلين ، استطرد قائلاً :

« اننا نؤمن بان الاستيلاء على قناة السويس ليس سوى الحركة الاولى في حملة مدروسة ينويها ناصر لطرد كل ما للغرب من نفوذ ومصالح من كافة الدول العربية . وهو يعتقد اذا نجح في هذه الخطوة ، وانه اذا كان يستطيع النجاح في تحدي الثماني عشرة دولة ، فسوف يقوي مركزه في البلاد العربية الى الحد الذي يمكنه من اثارة ثورة يقوم بها ضباط شبان في السعودية والاردن وسوريا والعراق ، ونحن نعرف أنه يمهد لثورة في العراق ، وهو أكثر البلاد العربية استقرارا ، وهذه الحكومات الجديدة لن تكون في الواقع سوى توابع لمصر، ان لم تكن توابع لروسيا .ولسوف يضعون مصادر البترول بعد توحيدها في بلادهم تحت سيطرة « بلاد العرب المتحدة » التي تقودها مصر ، وتقع تحت نفوذ روسيا . وعندما تجيء هذه اللحظة سيمنع ناصر البترول عن غرب أوروبا ، ونصبح نحن هنا جميعا تحت رحمته . »

ويمضي ايدن في رسالته قائلا :

« باختصار اننا مقتنعون بانه اذا سمح لناصر بان يتحدى ثماني عشرة دولة فلن تمضي شهور قليلة قبل أن تندلع الثورة في البلاد المنتجة للبترول ، وسيحرم الغرب كلية من بترول الشرق الاوسط ، بل انما يقوي من هذا الاعتقاد عندنا ، نصيحة الزعماء الاصدقاء لنا في الشرق الأوسط ،والعراقيون هم أشد الناس الحاحا في انذاراتهم ، وقد تحدث الينا كل من نوري السعيد وولى العهد عدة مرات في عواقب نجاح ناصر في نهبته ، وانهم قد يجرفون مع التيار ».

وبعد أن أشار ايدن الى انذارات ثلاثة مماثلة للانذار العراقي ، لم يشأ أن يكشف أصحابها لانهم كانوا لا يزالون على قيد الحياة ، مضى في رسالته التحريضية مناقشا أفكار أيزنهاور بقوله :

« قد يكون من رايك أنه حتى لو صح اعتقادنا فالافضل أن ننتظر حتى يكشف ناصر بما لا يدع مجالا للشك عن نياته ، ولكن هذه هي الحجة التي كانت سائدة سنة ١٩٣٦ والتي رفضناها سنة ١٩٤٨ ، وأن كان ينبغي أن نعترف بأن هناك مخاطر في استخدام القوة ضد مصر في الوقت الحاضر ، الا أن التدخل العسكري الذي يهدف الى قلب الثورة التي يثيرها الرئيس ناصر في القارة كلها سيكون ولا شك أبهظ ثمنا واصعب تحقيقا . ولشد ما أنا منزعج لانه اذا لم نتوصل بسرعة الى حل نهائي ، أيا كان هو الحل ، فان احدى هذه البلاد الشرقية قد يحدث فيها انقلاب في أية لحظة بفعل حركات الرئيس ناصر الثورية » .

ثم يختتم ايدن رسالته لايزنهاور بالقول :

« وأنا متفق معك في أن العمليات الحربية الطويلة ، فضلا عن انها ستؤدي الى أنقطاع بترول الشرق الاوسط قد تضع عبئا ثقيلا على أقتصاد أوروبا الغربية ، وأني أؤكد لك أننا مقدرون تماما للاعباء والمخاطر التي ستترتب على التدخل العسكري ، ولكن اذا صح تقديرنا ، واذا كان البديل الوحيد هو ترك خطط ناصر لتنمو في هدوء حتى تصبح كل أوروبا الغربية رهينة في يد مصر فأعتقد أن واجبنا واضح . وطالما قدنا أوروبا في الكفاح من أجل الحرية . وانه ليس من الشرف لتاريخنا الطويل أن نقبل الاضمحلال والهلاك على درجات . »

أن أهم ما يلاحظ في رسالة ايدن لايزنهاور ، انه كان فعلا يدرك أبعاد خطر عبد الناصر على مستقبل ومصالح الاستعمار والامبريالية في الوطن العربي وافريقيا ، وانه كان شديد الاهتمام بكسب التاييد الاميركي لاستخدام القوة ضد عبد الناصر ، ولذلك فانه عمد الى أسلوب التحريض من خلال الضرب على الاوتار المتصلة بالاستراتيجية الاميركية والتي يمكن أن تؤثر في الموقف الاميركي .. فنراه يشدد على الخطر الذي سيهدد بترول الشرق الاوسط حيث المصالح والاستثمارات الامبريالية الاميركية .. كما يشدد على الفوائد

التي ستعود على الاتحاد السوفياتي دون عناء .. ويركز كثيرا على الربط بين اسلوب عبد الناصر واسلوب كل من هتلر وستالين . ثم يحذر من الخطر الذي ستتعرض له أوروبا الغربية كلها اذا لم تستخدم القوة ضد عبد الناصر .

ولم تنفع بلاغة ايدن وتظاهره بالخبرة في الشؤون العربية، في التأثير على موقف ايزنهاور . ولا نفعت الرسائل الاخرى التي بعثها ايدن وجي موليه في محاولات متلاحقة للتاثير على ايزنهاور ..

حتى دالاس ، الذي كان شديد الحماس « لاستخدام كافة السبل من أجل حمل عبد الناصر على لفظ ما يحاول ابتلاعه»، أصبح رافضا لاستخدام القوة .. وبغض النظر عمن اثر في الاخر ، الرئيس أم وزير الخارجية القوي ، فان الاسباب في تغير الموقف الاميركي كانت متصلة بمخططات الاستراتيجية الاميركية التي كانت المخابرات المركزية الاميركية بقيادة الن دالاس ، والبنتاغون وزارة الدفاع الاميركية ، تتوليان وقتئذ تنفيذ جانب خطير منها .

★★★

أن جميع الذين كتبوا عن الموقف الاميركي من أزمة السويس والعدوان الثلاثي لم يناقشوا ، وبالتالي لم يحددوا الاسباب الاستراتيجية التي دعت الامبريالية الاميركية برئاسة ايزنهاور الى اتخاذ ذلك الموقف .

ولانه لم تتحدد تلك الاسباب فقد بدا الموقف الاميركي الرافض لاستخدام القوة منذ أوائل سبتمبر ، والشاجب للعدوان الثلاثي منذ بدايته في ٢٩ اكتوبر ، وكأنه موقف اخلاقي يتصف بالعداء والرفض لاسلوب استخدام القوة ، وبحق الشعوب في استرداد ثرواتها وحقوقها المغتصبة من براثن الاحتكارات الامبريالية .

ولم تكن الحقيقة كذلك . لان الامبريالية الاميركية هي صاحبة النصيب الاكبر من الاستثمارات والاحتكارات في الوطن

العربي ومنطقة الشرق الاوسط . وانه لامر طبيعي أن تكــون معادية لمبدأ التأميم حفاظا منها على مصالحها الاحتكارية في المنطقة ، ومعادية بشدة اكثر لتأميم قناة السويس لموقعهـــا واهميتها الحيوية بالنسبة للاقتصاد الراسمالي الغربي مـــن جهة ، ثم لان الذي اتخذ قرار التأميم هو جمال عبد النـاصـــر قائد الثورة العربية الذي اتجه منذ بداية الثورة الى محاربـــة الاستعمار بكل أشكاله ومظاهره أينما وجد ، وعلى الاخص في الوطن العربي حيث مصادر البترول الرئيسية التي تعتمـــد عليها الدول الصناعية في العالم .

ولم تخف الامبريالية ، ولا الرئيس ايزنهاور نفسه ، ولا وزير خارجيته القوي دالاس ، عداءهم لعبد الناصر ، ورفضهم لمبدأ تأميم القناة ، وتصميمهم على استعادتها من جديد ووضعها تحت ادارة استعمارية بمظهر دولي ..

ولا يغرب عن البال ، أن ايزنهاور وافق رسميا على قرار سحب تمويل السد العالـــي الذي أعلنه دالاس في ١٩ يوليو والذي كان بداية تفجر الموقف والازمة .. وان هدف سحب التمويل كان : اسقاط عبد الناصر .

ولم يتردد كل من ايزنهاور ودالاس عن استعمال اقســـى عبارات التهديد والوعيد ، الى درجة أن كلا منهما قال فـــي أكثر من مناسبة : « يجب ارغام عبد الناصر على لفـــظ مـــا يحاول ابتلاعه ولو تطلب الامر استخدام القوة » .

ولقد استمر الموقف الاميركي كذلك منذ تأميم القناة وعلى مدى شهر اغسطس ، ثم تغير فجأة .. وتمثل هذا التغير في العدول عن استخدام القوة رغم أن عبد الناصر لم يتراجـــع خطوة واحدة ، ولم يبد أي تساهل في الاتصالات التي تمـــت معه ، ولـــم يتوقـــف عن تاليـــب الجماهير ضد الاستعمار والامبريالية والصهيونية والرجعية ..

اذن ، لا بد من سبب كبير أدى بالولايات المتحدة الاميركيـــة لان تغير موقفـــها .

كان السبب استراتيجيا ، على جانب عظيم من الاهمية والخطورة بالنسبة للولايات المتحدة الاميركية ، اذ كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بالاحداث الخطيرة التي وقعت في المجر في ٢٣ اكتوبر وبلغت ذروتها يومي ٢٥ و ٢٦ منه .

أن تلك الاحداث كانت ثورة مضادة للنظام الاشتراكي ، خططت لها ودبرتها ومولتها المخابرات المركزية الاميركية بتنسيق ، في المرحلة الاخيرة التي تسبق مرحلة التنفيذ وتتصل بها ، مع وزارة الدفاع الاميركية « البنتاغون » لكي تكون الاسلحة الاستراتيجية الاميركية متأهبة لمواجهة الاحتمالات المترتبة على تطور الاحداث نتيجة ردود فعل الاتحاد السوفياتي وحلف وارسو المتوقعة .

لقد كان وما زال من اهم الاهداف الاستراتيجية للامبريالية الاميركية أن تفتح ثغرة في جبهة المعسكر الاشتراكي ، وان تستخدم هذه الثغرة بعدئذ قاعدة انطلاق للتامر والتخريب والتحريض وتدبير ثورات مضادة في اقطار اشتراكية أخرى ، وعلى الاخص أوروبا ، بهدف خلق المتاعب للاتحاد السوفياتي وارغامه على اتباع سياسة دفاعية ، فيتهيأ المناخ الملائم للامبريالية الاميركية لكي تنفرد بحركات التحرر في العالم ، وعلى الاخص الثورة العربية بقيادة جمال عبد الناصر .

واذا وضعنا في الاعتبار أن سياسة الاحلاف العسكرية كانت ، وفق الاستراتيجية الامبريالية الاميركية ، مخططا يستهدف احتواء الاتحاد السوفياتي والشيوعية عامة ، فان المخطط الذي استهدف تدبير الثورة المضادة في المجر كان تطويرا للسياسة الاميركية وفق استراتيجيتها العامة ، والانتقال بهذه السياسة من مرحلة الاحتواء الى مرحلة الهجوم بهدف اختراق الجبهة الشيوعية وفتح ثغرة فيها ، ثم الانطلاق منها لفتح ثغرات أخرى في بولندا وتشيكوسلوفاكيا ، وتدمير حلف وارسو ، ويترتب على ذلك في حالة نجاحه ، عزل المانيا الديمقراطية في الشمال ، واضعاف موقف رومانيا وبلغاريا

المتاخمتين لتركيا واليونان الاعضاء في حلف الاطلنطي في الجنوب ، والوقوف على الابواب الرئيسية للاتحاد السوفياتي وتضييق الخناق عليه .

ورغم ان الحرب الباردة كانت في اشدها بين المعسكرين ، وكان يترتب على كل منهما بسببها الوقوف باستمرار في حالة التاهب القصوى والحذر الشديد والاحتياط خوفا من مؤامرات كل طرف ضد الطرف الاخر . فان المخابرات المركزية الاميركية بالتعاون مع اليهود الصهاينة والكردينال ميندزنثي وغيره من رجال الكنيسة الكاثوليكية نجحت في تنظيم العناصر اليمينية الرجعية من الحاقدين والموتورين المتضررين ممن اعتادوا على استغلال جماهير العمال والفلاحين ، واعدادهم لثورة مضادة تستهدف الاطاحة بالحزب الشيوعي والاستيلاء على الحكم والخروج من المعسكر الاشتراكي والعودة بالبلاد الى النظام الراسمالي الاستغلالي .

والمعروف جيدا ان المخابرات المركزية الاميركية شأنها شأن اي مخابرات متقدمة في العالم تنشط في اطار السياسة العامة للبلاد . ولعل ما كشفه « وليام كولبي » مدير هذه المخابرات ونشرته جريدة «نيويورك تايمز» الاميركية في نوفمبر ١٩٧٤ من أن المخابرات المركزية الاميركية هي التي دبرت مؤامرة الاطاحة بحكم الرئيس الشيلي اليساري « سلفادور الليندي » في سبتمر ١٩٧٣ ، وانها فعلت ذلك بتوجيه من وزير الخارجية هنري كيسنجر ، يعطي دليلا قاطعا على أن مؤامرة المجر في العام ١٩٥٦ كانت بتوجيه من دالاس على الاقل ، وبعلم أيزنهاور على الارجح لانها كانت موجهة للكتلة الشيوعية مباشرة .

وكان من الطبيعي أن يستغرق التخطيط والتنظيم والاعداد لهذه المؤامرة وقتا طويلا . وبدات عناصرها في الاكتمال في صيف العام ١٩٥٦ ، واصبح عامل الزمن مهما جدا بالنسبة للمخابرات المركزية الاميركية والمتآمرين اليمينيين واليهود

الصهاينة الذين كانوا من عناصرها الرئيسية .

ولان هذه المؤامرة كانت في مقدمة الاهداف الاستراتيجية الاميركية ، وكان المخططون لها يعلمون جيدا بانها سوف تكون عند تنفيذها شديدة الحساسية لدولتي القمة بسبب أن المجر تمثل في موقعها بوسط اوروبا مركز ثقل هام في التوازن الاوروبي منذ الحرب العالمية الثانية ، وتشكل احدى البوابات الرئيسية للمعسكر الشيوعي ، فان المخططين لنشاط المخابرات المركزية الاميركية أعطوها الاولوية في الاهتمام والتنفيذ كسبا للوقت وخوفا من اكتشافها واجهاضها ، وبالتالي ضياع الفرصة الثمينة التي قد لا تعوض قبل عدة سنوات ، اذا بقيت هناك امكانية لتدبير مؤامرة جديدة في المجر بالذات بعدئذ .

ثم لان المؤامرة كانت تستهدف نظاما شيوعيا شديد الحساسية والاهمية للاتحاد السوفياتي ، ولان الاتحاد السوفياتي كان يمكنه التدخل العسكري بحكم أن المجر عضو في حلف وارسو والمجموعة الاشتراكية ، فقد كان من الضروري أن تقع الاحداث وتنفجر الثورة المضادة دون ان تكون الاجهزة الاميركية المختلفة وفي مقدمتها وزارة الدفاع الاميركية « البنتاغون » في حالة استعداد لمواجهة الاحتمالات والتطورات المتوقعة ، بل والتدخل لحماية الثورة المضادة في حال نجاحها واستيلائها على الحكم وتشكيل حكومة جديدة ..

بذلك ، كان لا بد من ابلاغ الرئيس الاميركي بالمؤامرة وتوقيتها ، لانه بحكم الدستور الاميركي هو الذي يملك حق اتخاذ القرار ، ويتحمل التبعات والمسؤوليات ..

ورغم أنه لم تتوفر حتى الان وثائق رسمية تحدد لنا تاريخ ابلاغ المخابرات المركزية للرئيس ايزنهاور عن المؤامرة التي دبرتها في المجر ، ومدى تورطه فيها ، الا أن الوثائق التي

ضبطت بحوزة المتآمرين المجريين اكدت صلتهم بالمخابرات المركزية الاميركية منذ ديسمبر ١٩٥٥ ودور هذه المخابرات في تمويل وتسليح وتوفير كل الامكانات المادية والمعنوية اللازمة للثورة المضادة . (١) كما ان منطق الاحداث اكد بان ذلك الابلاغ تم في الفترة الزمنية ما بين نهاية شهر اغسطس وبداية شهر سبتمبر ، اذ أنه لم يكن هناك اي مبرر يدعو الى تغيير الموقف الاميركي تجاه معالجة ازمة السويس والتصدي لعبد الناصر ما لم يكن قد طرأ عنصر كبير الاهمية يتصل باستراتيجية الامبريالية الاميركية ويلقى الاولوية في الاهتمام ..

ولم يكن من السهل التعرف الى هذا العنصر الطارىء ، ولكن تفجر الثورة المضادة في المجر في ٢٣ اكتوبر ١٩٥٦ يمثل دليلا قاطعا بأن اكتمال عناصر تلك الثورة المضادة وبدء العد التنازلي لها كان هو ذلك العنصر الطارىء .

وبالمقاييس الاميركية ، كما تضمنته رسالة ايزنهاور لايدن في الثالث من سبتمبر ١٩٥٦ ، كان يمكن محاربة عبد الناصر بسياسة المدى الطويل ، بل وكان يمكن استخدام القوة المسلحة ضده في أي وقت يلائم السياسة الاميركية بعدئذ . ولكن لم يكن من السهل تأجيل مؤامرة الثورة المضادة في المجر بعد عناء سنوات الاعداد والتنظيم والتخطيط وسط عواصف واعاصير الحرب الباردة ، خاصة وانها موجهة الاتحاد السوفياتي .

اذن ، كان الاعداد الاميركي للثورة المضادة في المجر ، هو السبب الرئيسي في تغير الموقف الاميركي من موقف رسمي تضمنته الرسالة المكتوبة التي بعثها ايزنهاور لايدن في الاول من اغسطس ١٩٥٦ قال فيها : « أن استخدام القوة قد يصبح ضرورة مع الوقت لحماية الحقوق

---

(١) الثورة المضادة في المجر . مؤامرة ايمري ناجي وزمرته . النسخة الانكليزية ، ص ١٠٨ .

العالمية في قناة السويس » الى موقف رسمي آخر بعد اقل من خمسة أسابيع فحسب تضمنته الرسالة المكتوبة التي بعثها ايزنهاور نفسه لايدن نفسه في الثالث من سبتمبر ١٩٥٦ وقال فيها « ان الراي العالم في أميركا يرفض استخدام القوة رفضا تاما » .

والحقيقة ، ان الراي العام في اميركا لم يكن هو العامل الاساسي في تغير الموقف الاميركي ، ذلك لان هذا الراي العام الاميركي بالذات كان وما زال واقعا تحت تاثير أجهزة الاعلام والدعاية الخاضعة كلية للنفوذ الصهيوني .. وكان الراي العام الاميركي وقتئذ معبأ بفعل هذه الاجهزة ضد عبد الناصر . وعلى فرض أن الراي العام الاميركي كان وقتئذضد استخدام القوة في أزمة السويس ، فانه كان من السهل على أجهزة الاعلام والدعاية الاميركية الصهيونية أن تتلاعب به كيفما تشاء وتهيؤه لتقبل استخدام القوة ضد عبد الناصر .. ثم متى كان رؤساء الولايات المتحدة الاميركية يتخذون قراراتهم ومواقفهم وفق اتجاهات الراي العام ؟! لو أنهم يتقيدون بذلك لما كان التورط الاميركي الاجرامي واللااخلاقي في حرب فيتنام الذي بدأت بوادره في عهد الرئيس ايزنهاور .. بل ولما كانت سلسلة المؤامرات الاميركية التي دبرت ضد الثورات الافريقية وكانت أبرزها في عهد ايزنهاور تلك التي دبرت ضد الكونغو وأدت الى قتل زعيمها التقدمي لومومبا .. كذلك لما كان هناك مبرر لمبدأ ايزنهاور العدائي الذي طرحه ايزنهاور نفسه في يناير ١٩٥٧ لاحتواء الوطن العربي كله تحت شعار ملء الفراغ في هذه المنطقة الحيوية من العالم .

واذا كان ايزنهاور قد تذرع بالراي العام لتغيير موقفه والتراجع عن موقف سابق ، فانما فعل ذلك لتغطية السبب الحقيقي وهو : مؤامرة الثوره المضادة في المجر .

ولان الاهتمام الاميركي الاول اعطى لهذه المؤامرة الموجهة ضد الاتحاد السوفياتي والمعسكر الشيوعي ، فان الامبريالية

الاميركية ، والرئيس الاميركي ، أيا كان ، ليس أكثر من أداة بيدها ، كانت تري تركيز كل امكاناتها وأمكانات حلف الاطلنطي فيما بعد في جبهة واحدة .. وكانت المجر من وجهة النظر الاميركية هي هذه الجبهة على أساس أن النجاح فيها يهيء مناخا اكثر ملائمة لضرب عبد الناصر والقومية العربية وبالتالي احتواء الوطن العربي كله ، ومن ثم تصفية حركات التحرر في كل افريقيا .. بل وأكثر من ذلك ، يصبح من السهل بعدئذ ضرب دول عدم الانحياز الرئيسية ،الهند وأندونيسيا ويوغسلافيا ، الواحدة بعد الاخرى ..

ولان الولايات المتحدة الاميركية تعامل حلفاءها بعقلية السيد الاقطاعي ، فانها كانت تعتبر جميع الدول الاوروبية الغربية بما في ذلك بريطانيا وفرنسا اتباعا لها ، يأتمرون بأمرها ، ويرضخون لارادتها ، ويقفون مواقفها ولو عن كره .

وعلى أساس هذه العقلية فان ايزنهاور كان يتصور انه عندما يكتب لايدن وجي موليه بانه يرى أن يكون التعامل مع عبد الناصر بسياسة المدى الطويل فانهما سوف يراجعان مواقفهما ويتراجعان عن استخدام القوة ولو الى ما بعد الثورة المضادة في المجر .

ولكن نظرة ايدن وجي موليه للامور كانت مغايرة تماما لوجهة النظر الاميركية . وهذا أمر بديهي اذا وضعنا في الاعتبار أن العقلية الاستعمارية تنطلق في معالجة المشاكل والاحداث من آلمصالح الذاتية .. وكانت بالنسبة لكل من بريطانيا وفرنسا تستهدف في الدرجة الاولى وقتئذ استعادة قناة السويس بالقوة المسلحة لما يترتب على ذلك من نتائج أهمها : اسقاط عبد الناصر ، وثورة ٢٣ يوليو والاحتفاظ بمصالحهما ووجودهما الاستعماري في الوطن العربي ،ووقف اندفاع الخطر الداهم الذي بات يهدد اخر ما تبقى من امبراطوريتيهما .

وكان ذلك ولا شك ، نقطة تحول في الموقف الانجليزي الفرنسي متأثرا ولا شك بالتغير الذي طرأ على الموقف الاميركي .

★★★

كانت السياسة الاميركية تجاه حلفائها منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية تستهدف احتوائها اقتصاديا ، ووراثتها في مستعمراتها ، واستغلال تفوقها النووي من جهة والخطر الشيوعي من جهة اخرى ، لفرض سيطرتها عليها وتحويلها الى اتباع تدور في فلك نفوذها وجاذبيتها ..

وكانت الدولتان الاستعماريتان ، بريطانيا وفرنسا ، تحاولان بكل قوتهما الاحتفاظ بمواقعهما الاستعمارية ، وعلى الاخص ما تبقى منها في الوطن العربي .. وفي سبيل ذلك كانتا تريان انه لا بد من القضاء على عبد الناصر ..

وعندما قررت الدولتان الاستعماريتان استغلال تأميم قناة السويس لاثارة الازمة واتخاذها مدخلا لاستخدام القوة بهدف اسقاط عبد الناصر ، اتجهتا نحو استدراج الولايات المتحدة الاميركية للاشتراك معهما في ذلك .. ولقد انساقت السياسة الاميركية ومعهما في تصعيد الازمة ، بل وانساق معهما كل من ايزنهاور ودالاس في الاعلان عن ضرورة استعادة القناة ووضعها تحت ادارة دولية ولو ادى الامر الى استخدام القوة لتحقيق ذلك ..

وكان حرص الدولتين الاستعماريتين على المشاركةالاميركية نابعا في الاصل من اداركهما بأن اميركا هي الدولة الغربية الوحيدة القادرة على مواجهة احتمالات التدخل السوفياتي ، وحسم المعركة العسكرية مع عبد الناصر بسرعة ، بما لديها من امكانات عسكرية غير متوفرة لهما ، ووضع العالم كله وفي مقدمته الاتحاد السوفياتي تحت الامر الواقع ..

لذلك فان جهد الدولتين الاستعماريتين بقي مركزا على

الولايات المتحدة الاميركية حتى نهاية اغسطس .. وكان يهمها جدا ، وعلى الاخص بريطانيا بما كان لها من وجود ومصالح في المشرق العربي ، ابعاد اسرائيل عن العملية كلها لاضفاء الصفة الدولية على الصراع مع عبد الناصر .. وتجنبا للمخاطر الكثيرة التي ستنجم عن المشاركة الاسرائيلية لما يمكن أن تثيره من استفزازات عدائية في الوطن العربي كله من شانها أن تخلق ضغطا جماهيريا هائلا يؤثر على موقف كافة الانظمة بما فيها تلك المحسوبة على بريطانيا بالذات مثل العراق .. ولقد اشار ايدن الى ذلك في أواخر شهر اغسطس عندما قال :

« بينما كانت للمملكة المتحدة ارتباطاتها الواسعة المدى مع الاردن طبقا لمعاهدة التحالف بينهما ، كانت علاقات فرنسا وثيقة باسرائيل . وكان في الامكان تسوية الخلافات بيننا وبين الفرنسيين عن طريق الدبلوماسية والاهداف . ولكن هذه الخلافات لم تكن قد سويت في ذلك الوقت بعد . » (١)

معنى هذا القول أن اسرائيل لم تكن قد غدت عنصرا اساسيا ، حتى أواخر اغسطس ، في مخططات العدوان البريطانية الفرنسية رغم أن الاستعداد العسكري للدولتين كان قد بلغ ذروته ، اذ كان قد أصبح هناك في قواعد قبرص ومالطا مائة الف جندي بريطاني وفرنسي ، وأساطيل بحرية وأسراب عدة من الطائرات النفاثة المقاتلة والقاذفة متأهبة للقتال .

ولكن تغير الموقف الاميركي في مطلع سبتمبر فرض على بريطانيا وفرنسا أن تتجها نحو اسرائيل :

أولا : لاستخدامها ذريعة لتدخلهما العسكري واحتلال منطقة القناة تحت حجة حماية وسلامة الممر المائي الحيوي وضمان استمرار الملاحة الدولية فيه .

---

(١) ارسكين تشايلدرز . الطريق الى السويس ، ص ٢٢١ .

ثانيا : للاستفادة من النفوذ الصهيوني الطاغي في الولايات المتحدة الاميركية في التأثير على الموقف الاميركي لكسب تأييده العلني أو الضمني على الاقل للعمليات الحربية التي سوف تستهدف مصر فيما بعد .. وكان لذلك النفوذ الصهيوني حساباته ورصيده الضخم في ظل معركة الرئاسة التي كانت قد بلغت ذروتها وقتئذ ..

وبحكم العلاقة الخاصة التي كانت تربط فرنسا باسرائيل، فان الطرف الفرنسي قام بالدور الرئيسي في تهيئة المناخ الملائم لاقامة التحالف الثلاثي الفرنسي البريطاني الاسرائيلي. وقد شهد شهر سبتمبر اتصالات ثنائية بين الاطراف الثلاثة تؤكدها الوقائع التالية :

١ ــ ان جي موليه رئيس الوزراء الفرنسي ، أبان العدوان، اعترف رسميا في التاسع من مارس ١٩٦٠ « أن بن غوريون رئيس الوزراء الاسرائيلي انذاك جاء سرا الى باريس قبيل الهجوم على سيناء » (١) ولكنه رفض بشدة أن يكشف تاريخ هذه الزيارة السرية غير أن الخطة التي اتفق عليها في باريس بين ايدن ولويد من جهة وجي موليه وبينو من جهة أخرى في ٢٦ سبتمبر وتقوم على أساس ارسال سفينة اسرائيلية لعبور القناة واستغلال منع المصريين لها للتدخل العسكري يجعل الاحتمال المرجح أن زيارة بن غوريون تمت في ذلك الوقت وانه شارك في تلك الخطة التي أطلق عليها « السفينة التجربة » .. اذ من غير المعقول أن يتفق على دور لطرف ثالث بدون موافقته ، رغم أن اسرائيل كانت مهيأة لهذا الدور ومستعدة للقيام به في اية لحظة لانه يخدم مصلحتها الذاتية .

٢ ــ أن ضابطا بريطانيا يهوديا هو الكولونيل « هنريكس » قام بدور الوسيط السري في أواسط سبتمبر بين الحكومة

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

البريطانية واسرائيل .. وقد اعترف هنريكس نفسه بجانب من هذا الدور في مجلة السبكتاتور اللندنية ، فقد روى انه زار اسرائيل في اواسط سبتمبر ١٩٥٦ وانه اجتمع قبيل سفره بعضو في الوزارة البريطانية اطلعه على كثير من الامور ثم حمله الرسالة التالية الى بن غوريون :

« على اسرائيل ان تتجنب الحرب مع الاردن مهما كان الثمن . اما اذا قامت اسرائيل بالهجوم على مصر في نفس الوقت الذي سيقع الهجوم البريطاني عليها ، فان هجومها هذا سيكون في مصلحة جميع الاطراف المعنية . وستتظاهر بريطانيا باستنكار العدوان الاسرائيلي في اقسى عبارة ممكنة . ولكنها ستعمل في مفاوضات الصلح التي ستلي ذلك على مساعدة اسرائيل في الحصول على احسن شروط ممكنة . » (١)

ثم يقول هنريكس :

« ونقلت الرسالة الى بن غوريون وقلت له ايضا : ان ثمة جانبا كبيرا من الراي العام داخل حكومة جلالتها يؤيد كل التأييد مساعدة اسرائيل ، ويبدو ان هذا الوزير كان يعمل نيابة عن هذا الجانب من الراي الوزاري » . (٢)

٣ — ان ايدن نفسه الذي كان دائم التظاهر بالتعاطف مع العرب حفاظا منه على المصالح الاستعمارية البريطانية الهائلة في المشرق العربي « تحول في شهر سبتمبر الى اشد انصار اسرائيل تشيعا لها بعد ان كانت علاقته باسرائيل متوترة منذ خطابه الشهير الذي القاه في « جيلد هول » في نوفمبر ١٩٥٥ ودعا فيه الى تسوية سلمية للنزاع العربي الاسرائيلي تنسحب اسرائيل بموجبه الى خط جديد بين خطوط الهدنة التي كانت قائمة انذاك وخط تقسيم الامم المتحدة في العام ١٩٤٧ » . (٣) وانه لمن البديهي ان يدرك المرء بان هذا التحول

---

(١) السبكتاتور بتاريخ ٣٠ اكتوبر ١٩٥٦ .

(٢) السبكتاتور بتاريخ ٦ نوفمبر ١٩٥٦ .

(٣) ارسكين تشايلدرز . الطريق الى السويس ، ص ٢٢٣ .

في موقــف ايدن مرتبط بالمخطط العدواني الجديد الذي غدت اسرائيــل عنصرا اساسيا فيــه .

٤ ــ بعد الرسالة التي نقلها هنريكس الى بن غوريون ، صرح الاخير في بيان رسمي له في ٢٣ سبتمبر ١٩٥٦ : ان اسرائيل وجدت اخيرا حليفا صادقا واحدا . واذا وضعنا في اعتبارنا ان علاقة اسرائيل بفرنسا كانت ممتازة تبلئذ بكثير فان المعنى الذي قصده بن غوريون يرتبط بالرسالة التي حملها هنريكس او بالموقف البريطاني الفرنسي الموحد . الامر الذي يــؤكد ان التحالف الثلاثي بلغ درجة متطورة .

٥ ــ ان دالاس وزير الخارجية الاميركية كشف سرا رهيبا بعد هزيمة العدوان الثلاثي اذ اتهم ايدن اتهاما مباشرا بالتواطؤ في وضع المخططات الحربية التي انطوت على سيطــرة العراق على الاردن ليعقبه تقسيم البلاد بيــن العــراق واسرائيــل . (١)

وكان نوري السعيد قد بذل طيلة شهر سبتمبر جهــودا ضخمة عن طريق السفير البريطاني في عمان لاقناع المــلك حسين وحكومته بقبول مجيء قوات عراقية كبيرة الى الاردن بحجة مواجهة الاعتداءات الاسرائيلية المتصاعدة . ولكــن الهدف الحقيقي كان من اجــل التاثير على الانتخابات النيابية التي جرت في ٢٢ اكتوبر وفازت فيها الحركة الوطنية الاردنية، والعمل على ضم الاردن للعراق بسرعة عند وقوع الغــزو على مصر .. ورغم ان هذا الاتجاه يتناقض مع استراتيجيــة الاستعمار القائمة اصلا على تجزئة الوطن العربي وبذر بذور الاقليمية فيه ، والعمل المتواصل لتنميتها ، وجعل العــراق بعيدا نسبيا عن القضية الفلسطينية بابقائه بعيدا عن الحدود المشتركة مع فلسطين ، الا ان الظروف المستجدة التي طرات على المنطقة متمثلة في قيام اسرائيل من جهة وثورة ٢٣ يوليو

---

(١) المصــدر السابــق ، ص ٢٢٤ .

من جهة اخرى مع ما أحدثته من تاثيرات في المنطقة ربما جعلت ايدن يتجه الى ذلك الاتجاه ، على أساس أن الدور الرئيسي الذي وجد الاردن من أجله ككيان سياسي في استراتيجية الاستعمار البريطاني اكتمل بقيام اسرائيل . وأن التضحية بهذا الكيان مقابل الصلح بين الدول العربيةواسرائيل لا تتعارض مع أهداف الاستعمار بل يمكن ان تكون سبيلا لتدعيمها وحمايتها .. اذ انه من خلال الصلح ، خاصة في ظروف الخمسينات ، تصبح المنطقة كما كان يتصور ايدن ، تحت المظلة الاستعمارية ، وتتهيأ الاجواء الملائمة لكيتتعايش اسرائيل مع الانظمة العربية سياسيا واقتصاديا وثقافيا وربما عسكريا وتصبح عضوا مقبولا في الجسم العربي .

وكانت تقديرات ايدن الفرضية انه في حالة نجاح الغزو واسقاط عبد الناصر ، فان حالة من الفوضى سوف تعم الوطن العربي وعلى الاخص مشرقه ، وفي جو الفوضى هذه تستولي القوات العراقية على الحكم في الاردن ، وتقوم القوات الاسرائيلية باحتلال الضفة الغربية ، ثم تتم التسوية باقتسام الاردن بين اسرائيل والعراق مع ضمان تمكين اسرائيل من الاحتفاظ بقطاع غزة ... وبذلك يتم تغيير الخارطة السياسية للوطن العربي وفق المخططات الاستعمارية البريطانية ، كما يتم تسوية النزاع العربي الاسرائيلي وتثبيت وجود اسرائيل .

وكانت الامال الفرنسية وقتئذ تتجسد في القضاء على الثورة الجزائرية . وكان من الطبيعي جدا والبديهي ان تتفق الدولتان الاستعماريتان الكبريان بريطانيا وفرنسا على ابقاء دور اسرائيل في غياهب ظلام الاسرار بعيدا كل البعد عن الاضواء ، وكانت هناك مصلحة مشتركة بين الاطراف الثلاثة في ذلك ، فلقد كانت اسرائيل تمنى النفس في الادعاء بتحقيق نصر حاسم على مصر تستغله في حرب نفسية ضد الامة العربية ، وكانت بريطانيا وفرنسا تدركان ان اية اضواء على

تواطئهما مع اسرائيل من شانه ان يخلق متاعب لا حدود لها في الوطن العربي ، كما ان مثل هذا التواطؤ لا يتناسب مع مكانتهما كدولتين كبريين في المجتمع الدولي ..

ولقد عمدت الدولتان ، امعانا في اخفاء تحالفهما مع اسرائيل واستعداداتهما العسكرية في قبرص التي تقرر اتخاذها قاعدة للهجوم ، الى التظاهر بالسعى وراء تسوية سلمية من خلال المجتمع الدولي .. ولكنهما لم تتخليا عن التهديد باستخدام القوة اذا ما فشلت المساعى السلمية على امل منهما ان يتاثر عبد الناصر بهذه التهديدات ..

ورغم قناعة الدولتين بقيادة ايدن وجي موليه ، بان القوة المسلحة هي السبيل الوحيد لاستعادة القناة من عبد الناصر وان المؤتمرات الدولية والامم المتحدة لن تفيد في شيء اكثر من اتخاذ القرارات التي تبقى عديمة الفائدة ما لم تكن هناك اجراءات عملية فعالة لتنفيذها ، ومثل هذه الاجراءات غير مضمونة البتة بسبب مكانة عبد الناصر المتصاعدة دوليا والفيتو السوفياتي في مجلس الامن الدولي وقدرته على خلق راى عام عالمي ضد العدوان من جهة وتراجع الولايات المتحدة الاميركية عن استخدام القوة من جهة اخرى ، فان بريطانيا وفرنسا وافقتا دون تردد على اقتراح دالاس الداعى الى انشاء جمعية المنتفعين بالقناة تتولى تحصيل رسوم المرور من البواخر التي تمر بالقناة . وقد جاءت هذه المبادرة بعد فشل بعثه منزيس .

وكان هدف دالاس من وراء هذا الاقتراح هو محاربة عبد الناصر اقتصاديا بحرمانه من عائدات القناة وابطال مفعول التأميم وتفريغه من مضمونه العملي . وكان في تقديره ان ستة اشهر من الضغط الاقتصادى على الرئيس ناصر سوف تنتهي بتحقيق ما نريده (١) . وأهمية هذا الذي قاله دالاس انه لم يكن هناك بين اميركا من جهة وبريطانيا وفرنسا

---

(١) مذكرات ايدن عن السويس ، ص ١٧٣ .

من جهة اخرى اى خلاف على مبدأ العمل ضد عبد الناصر بهدف اسقاطه ، انما كان الخلاف على الاسلوب · اي انه كان هناك اتفاق تام على الهدف الاستراتيجي ولكن هناك خلاف على التكتيك لبلوغ هذا الهدف ·

والواضح جيدا ان السياسة الاميركية كانت تريد ابقاء الازمة قائمة ولكن دون تفجير كسبا للوقت اللازم لمؤامرة المجر ·

وعندما وافق ايدن وموليه على اقتراح دالاس في اجتماعهما بلندن في ١١ سبتمبر ، كانا قد اقرا خطة عمل مشتركة تستهدف احداث ارتباك في الملاحة الدولية عبر قناة السويس تقوم على سحب المرشدين · وقد وجها في ذلك اليوم امرا بذلك الى المرشدين الانجليز والفرنسيين مصحوبا بنداء الى غيرهم من المرشدين الاجانب · ولكن عبد الناصر كان قد توقع مثل هذا الاجراء منذ اعلان قرار التأميم ، ولذلك فانه طلب من المهندس محمود يونس السعى للتعاقد مع مرشدين اخرين للعمل مع الهيئة المصرية الجديدة لادارة القناة ، وكان قد تم التعاقد فعلا مع عشرات من هؤلاء ولكنهم كانوا اقل ممن امتنعوا عن الخدمة وانسحبوا ، ورغم ذلك فان الملاحة في القناة استمرت طبيعية جدا بفضل الجهد الخارق الذي بذله المرشدون المصريون · وهكذا انتهت الخطة الانجليزية الفرنسية الجديدة الى الفشل الامر الذي زاد من غيظهم واحقادهم على عبد الناصر ·

★★★

وفي الرابع عشر من سبتمبر اجتمع في لندن ممثلو الدول الثماني عشرة لمناقشة تقرير البعثة التي اوفدوها برئاسة منزيس للتفاوض مع عبد الناصر وانتهت الى الفشل .. وكان الشيء الوحيد الذي اتفقوا عليه في ذلك الاجتماع هو تاييد فكرة جمعية المنتفعين ، او نادي المنتفعين ، وعقد مؤتمر لمناقشة الاقتراح في لندن في التاسع عشر من سبتمبر تحضره الدول الثماني عشرة اياها ·

وقد رد عليهم عبد الناصر في اليوم التالي مباشرة ، في ١٥ سبتمبر ، رافضا الفكرة من اساسها ، متهـما الدول الثماني عشرة التي وافقت عليها بالقرصنة الدولية والاستعمار مؤكدا ان الحكومة المصرية والشعب المصري كله سيقاوم اية محاولة من جانب اية دولة او مجموعة من الدول لتاليف جمعية دولية تمارس حقوق مصر في السيادة ٠٠ واصفا جمعية المنتفعين بانها هيئة لاشعال الحرب وانه مصمم على مواجهة القوة بالقوة ٠ مقترحا وضع معاهدة دولية جديدة عن طريق الامم المتحدة لضمان حرية المرور ، وتنظيم الملاحة وتحديد رسوم العبور واجراءات صيانة القناة وتوسيعها ، على ان لا يتعارض كل ذلك مع مبدأ السيادة الكاملة ٠٠ وقد رفض دالاس وايدن وموليه ذلك واصروا على عقد موتمر لندن لجمعية المنتفعين ٠

وفي ١٩ سبتمبر اجتمع ممثلو الثماني عشرة دولة في ما عرف بمؤتمر لندن الثاني ٠ واستمات لويد وبينو في بذل الجهود والمحاولات للتاثير على موقف دالاس والخروج بقرار اجماعي لاستخدام القوة المسلحة اذا ما رفض عبد الناصر مشروع هيئة المنتفعين ٠ ولكن ذهن دالاس كان منصرفا الى مؤامرة المجر ، فلم يتراجع عن موقفه ، وبالتالي لم يقر المؤتمر مبدأ استخدام القوة ٠

غير ان دالاس وايدن وبينو اتفقوا على توجيه تهديدات جديدة لعبد الناصر اثناء انعقاد المؤتمر لعلها تؤثر على موقفه ٠ وبناء على ذلك فقد القى ايدن في ٢١ سبتمبر ثالث ايام المؤتمر بيانا في مجلس العموم البريطاني قال فيه :

« يجب ان اوضح انه اذا حاولت الحكومة المصرية التدخل في اعمال الجمعية او رفضت تقديم القدر اللازم من التعاون معها ، فانها ستكون قد خرقت مرة اخرى اتفاقية ١٨٨٨ ، وفي هذه الحالة سيكون لحكومة جلالة الملكة والاطراف المعنيةالاخرى حرية اتخاذ اية خطوات اخرى تراها لازمة اما عن طريق

الامم المتحدة او بواسطة وسائل اخرى لضمان حقوقها ». (١)

على اثر هذه الفقرة ارتفعت في المجلس صيحات تقـــول «هذه سياسة استفزازية» وتطالبه بالاستقالة • ولكن ايدن لـم يعر هذه الصيحات اهتماما لان هذه الكلمات كان قد تـــم وضعها بموافقة حكومات الدول الثـــلاث • اميـركا وفرنسا وبريطانيا • (٢)

وتنفيذا للاتفاق الثلاثي ، القى موليه في اليوم التالي ٢٢ سبتمبر ، بيانا في باريس مماثلا لبيان ايدن ومتضمنا ذات العبارات المتفق عليها •

وتبعهما دالاس في ٢٣ سبتمبر ببيان مماثل ولكنه اضاف اليه : «اعتقد ان لكل دولة الحق في ان تقرر لنفسها الاجــراء الذي تتخذه لضمان حقوقها والدفاع عنها ، ولكننا لا ننوي ان نشق طريقنا في القناة بالقوة ، وقد يكون مـــن حقنا ان نفعل ذلك» • (٣)

وقد علق ايدن على هذه الاضافة في بيان دالاس بقوله في مذكراته : «ان هذا استهزاء بالحلفاء من شانه ان يحطم مـــا بينهم من تحالف ولا يترك الا اختيار احد امرين : اما الخروج من الحلف او قبول عـــلاقة السيد بالعبد فـــي السياســة الخارجية» • (٤)

ولقد اختار ايدن بالاتفاق مع موليه التمرد على الزعــامة الاميركية ، وقررا الاستعانة بالصهيونية العالمية منذ مطــلع سبتمبر • وقد ازداد تصميمهما على انتهاج هذا السبيل بعد مؤتمر لندن الثاني ، مؤتمر جمعية المنتفعين الذي انتهى في ٢١ سبتمبر ببيان تضمن التمسك باقتراحات الدول الثماني عشرة

---

(١) مذكرات ايدن . السويس ، ص ١٥٩ .
(٢) المرجــع السابق .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٦٠ .
(٤) المرجــع السابــق .

التي قدمتها «بعثة منزيس» لعبد الناصر ، واعلان انشاء جمعية المنتفعين بالقناة ، ودعوة الحكومات الممثلة في المؤتمر للانضمام اليها على اساس ان «يتم تسليم الدخل العائد من الرسوم ، وغيره من المبالغ التي قديدفعها اي منتفع بالقناة للجمعية دون المساس بالحقوق الراهنة ، مع الاحتفاظ بهذه المبالغ والانفاق منها لحين الوصول الى تسوية سلمية ».(١)

ورغم ان بريطانيا وفرنسا وافقتا على ذلك ، الا ان هذه الموافقة كانت خداعية ، فقد اعترف ايدن «بانه منذ اليوم الاول للبدء في تنفيذ هذه الخطة لم يبق لدينا الا ان نسلك احد طريقين : اما استخدام القوة او الاعتراف بانتصار ناصر»(٢)

★★★

في تلك الاثناء كان الاتحاد السوفياتي قد تحرك بعد صمت بتوجيه رسالة من المارشال بولجانين الى ايدن تضمنت تاييد الاتحاد السوفياتي لموقف مصر في حقها المشروع بالدفاع عن سيادتها وارضها الوطنية ، ورفضه لمشروع جمعية المنتفعين واستعداده للمساهمة في الوصول الى تسوية سلميه بالنظر الى مصالح كل الدول التي يهمها الامر ، وتنديده بالتهديدات البريطانية والفرنسية باستخدام القوة ضد حقوق مصر المشروعة .

وقد اغتنم ايدن هذه الرسالة لاثارة عقد الشيوعية في الامبريالية الاميركية فبعث برقية تحريض لايزنهاور في الاول من اكتوبر قال فيها :

«ارجو ان تتاكد من اننا ندرك تماما الاخطار الواسعة التي تتعلق بالموقف في الشرق الاوسط ، ويمكن تلخيصها في كلمة واحدة : روسيا .

«فلا يخالج عقولنا اي شك في ان ناصر يتعاون معها ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٦٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٦١ .

وليس من المفيد مطلقا ان نتراضى مع ناصر الان لتهدئتـه • او لنطيب خاطره ، كما كان من غير المعقول ان نتراضى مع موسوليني لتهدئته • فالنتيجة الوحيدة التي يؤدي اليها مثل هذا التصرف كانت ولا تزال هي التقريب بين هذين الطرفين اى ناصر وروسيا •

«ولا شك في ان رجالك لا بد ان يكونوا قد اطلعوك عـلى الدلائل المتزايدة على المؤامرات المصرية في ليبيا والسعودية والعراق ، وقد تنفجر اية واحدة منها في اية لحظة ، الا اذا استطعنا ان نثبت للشرق الاوسط ان ناصر يخسر ، وهذا هـو السبب الذي نعني من اجله بعمل كل ما في وسعنا لجعـل نادي المنتفعين اداة فعالة» • (١)

ولم يكن ايزنهاور ولا الامبريالية الاميركية في حاجة الى تحريض ، فقد كان العداء الاميركي لعبد الناصر لا يقل عـن العداء الانجليزي والفرنسي له ، ولكن ما كان يشغل بـال ايزنهاور وقتئذ هو المؤامرة الكبرى ضد الشيوعية التي كانت تقترب حثيثا من الانفجار في المجر •• ولذلك فـان تحريض ايدن لم يؤثر على موقف الرئيس الاميركي ••

على ان ما تجدر ملاحظته فـي رسائل ايدن لايزنهاور ، وبياناته الرسمية في مجلس العموم البريطاني ، وتصريحاته الصحفية ، اصراره على الربط بين عبد الناصر وكل من هتلر وموسوليني وستالين في محاولة لتاليب وتعبئة الرأي العـام الغربي وتهيئته لتقبل الحرب العدوانية التي كان الاستعداد لها بالتواطؤ مع اسرائيل على قدم وساق •

وكان ايدن قد حرص على ان يبعث ببرقيته تلك لايزنهاور في الاول من اكتوبر ، وهو اليوم الذي كان قد اتفق عليه لعقـد الاجتماع الاول الرسمي لجمعية المنتفعين في لندن ، مؤمـلا ان تنعكس على الموقف الاميركي ••

ومن جديد ، تمسكت جمعية المنتفعين ، وجميع اعضائها

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٦ .

من الدول الاستعمارية واتباعها ، بالمقترحات التي حملتها بعثة منزيس للقاهرة ورفضها عبد الناصر ، وقررت الموافقة على اقتراح بريطاني فرنسي كان اتفق عليه ايدن ومولية في ٢٣ سبتمبر ، بعرض القضية على مجلس الامن الدولي . (١)

ورغم ان بريطانيا وفرنسا كانتا تدركان جيدا ان الفيتو السوفياتي سوف يحول دون اتخاذ اي قرار باستخدام القوة او ينتقص من السيادة المصرية الكاملة ، الا انهما ارادتا من وراء ذلك التظاهر امام الرأي العام الغربي بانهما استخدمتا كل وسيلة للتوصل الى تسوية سلمية .. لتبرير استخدام القوة بعدئذ .

واستمر النقاش في مجلس الامن من الثالث حتى الثالث عشر من اكتوبر ، وانتهى بالتصويت على مشروع قرار من جزئين :

الجزء الاول نال الموافقة الجماعية وقد تضمن ستة مبادىء هي :

١ ــ يجب ان يسمح بالمرور الحر عبر القناة بغير تمييز صريح او خفي . (وقد تحفظ عبد الناصر فيما بعد بالنسبة لاسرائيل) .

٢ ــ يجب احترام سيادة مصر .

٣ ــ يجب ان تعزل ادارة القناة عن سياسة اية دولة . (وقد تحفظ عبد الناصر على هذا المبدأ لان القناة جزء لا يتجزأ من مصر ، وبالتالي يجب ان لا تستخدم لتهديد سلامة البلاد او أمنها وسيادتها .)

٤ ــ ان طريقة تحديد العوائد والرسوم يجب ان تقرر بناء على اتفاق مصر والمنتفعين بالقناة .

---

(١) الدول الاعضاء في مجلس الامن الدولي وقتئذ : الاتحاد السوفياتي . الولايات المتحدة الاميركية . انكلترا ، فرنسا . الصين الوطنية . يوغسلافيا . استراليا . بلجيكا . كوبا . بيرو . ايران .

٥ – يجب ان تخصص حصة مناسبة من الرسوم لتنمية القناة ٠

٦ – في حالة وقوع منازعات ، يجب ان تسوى اوجه الخلاف بين شركة قناة السويس والحكومة المصرية عن طريق التحكيم ٠

والجزء الثاني كان يتعلق بالاجراءات لتنفيذ المبادىء السابقة ٠ وكانت تود بريطانيا وفرنسا استخدامها مبررا للعدوان ٠٠ فقد كان هذا الجزء من مشروع القرار ينص على ان جمعية المنتفعين يجب ان تتلقى الرسوم التي تدفعها سفن الدول الاعضاء ٠ وان تتعاون الجمعية مع هيئة قناة السويس المصرية المؤممة للتحقق من ادارة القناة على وجه مرضي ٠

لقد سقطهذا الجزء في الاقتراع بفعل معارضة الاتحاد السوفياتي ويوغوسلافيا فقد كان رفض شبيلوف وزير الخارجية السوفياتي له اثناء التصويت يعني «الفيتو» ٠

وكان رد فعل ذلك على ايدن عنيفا اذ علق عليه بقوله :«لقد خرجنا بستة مبادىء ولا قيمة للمبادىء ما لم تترجم الى عمل ٠ وآصبح لا مفر من ان نعتمد على انفسنا في اتخاذ اجراء في هذا الصدد لحماية حقوقنا ومصالحنا » (١)٠

ولم يشأ ايدن ومولييه ان يتوقفا عند هذا الحد ، لان استعدادات اسرائيل لاداء دورها لم تكن قد اكتملت بعد ، ولان خطة التواطؤ لم تكن قد اعدت بشكل نهائي ، ولذلكفانهما عمدا الى اسلوب الخداع والتضليل ليكون العدوان مفاجئا فتكون نتائجه اكثر ضمانا

اقتضى منهما هذا الدور ان يتجاوبا مع الجهود التي كان قد بذلها السكرتير العام للامم المتحدة اثناء انعقاد مجلس الامن الدولي ، لعقد مؤتمر في جنيف تحت اشراف الامم المتحدة تشترك فيه مصر واميركا وبريطانيا وفرنسا ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٥ .

باعتبارها العناصر الرئيسية في المشكلة لاجراء مفاوضات من اجل الاتفاق على صيغة مقبولةلمعاهدة جديدة بشأن الملاحة في قناة السويس ·

وبناء على اقتراح بريطانيا وفرنسا ، تحدد يوم ٢٩ اكتوبر موعدا لهذا المؤتمر · انه اليوم الذي بدأ فيه العدوان الثلاثي · فهل هناك اجرام وخداع وتضليل اكثر من ذلك·

***

كان النشاط الفدائي داخل اسرائيل قد بلغ ذروته في شهر اكتوبر ١٩٥٦ ، فقد غدت اعمق اعماق المواقع الاسرائيلية ، هدفا لعمليات فدائية جعلت الغزاة الصهاينة يعيشون في رعب وهلع ، يتوقعون الموت في كل لحظة وفي اي مكان ، لا فرق بين تل ابيب والمستوطنات المتاخمة لخطوط الهدنة ، بل ان خوف سكان المدن الكبرى الداخلية كان اشد من خوف سكان المستوطنات الاقرب لخطوط الهدنة · لان عمليات الفدائيين كانت موجهة الى الاعماق وشاملة لكل الوطن المحتل الامر الذي سبب اضطرابا قويا اصاب كافة اوجه الحياة الاسرائيلية ، وضاعف من مكانة عبد الناصر والتفاف الجماهير العربية حوله ·

وكانت اسرائيلترد على تلك العمليات الفدائية البطولية بغارات وحشية على القرى الفلسطينية الامنة المتاخمة لخط الهدنة على امتداد الضفة الغربية ·· مستهدفة من وراء ذلك :

● تصعيد التوتر على الجبهة الشرقية الاردنية الى الدرجة التي يبدو فيها الامر وكأن حربا وقائية اسرائيلية متوقعة في كل يوم ضد الاردن ·

● تهيئة المناخ الملائم بذلك للحكومة الاردنية لكي تدعو القوات العراقية للدخول الى الاردن مع ضمان عدم قيام الجماهير المعادية لحلف بغداد الملتفة حول عبد الناصر

بانتفاضة شعبية ومظاهرات عدائية ضد هذه القوات او ضد الحكومة التي تكون قد طلبت دخولها ٠٠ وكان دخول تلــك القوات وقتئذ يضمن للاستعمار الحد الادنى الذي كان يبغيه، وهو اقفال الاردن في وجه التيار الناصري المندفع بسرعــة هائلة ٠

● تغطية الاستعدادات العسكرية البريطانية الفرنسية ، التي كانت قد اعدت لغزو مصر ، وصرف الانظار عن التواطؤ الثلاثي ٠

كان ذلك وفقا للمخطط الاستعماري الذي كان يهدف الى توجيه ضربة ثلاثية مفاجئة لعبد الناصر ، بحيث اذا اصابته واسقطته ، يتم وضع المنطقة في ظروف الصلح مع اسرائيل ٠

ولكن التفاعل النضالي بين عبد الناصر والحركة الوطنية الاردنية حال دون ذلك ٠ ثم ترتب على فوز عناصر هذه الحركة الوطنية في الانتخابات النيابية التي جرت وقتئذ ، موافقة الاردن في ٢٤ اكتوبر على الانضواء مع مصر وسوريا تحت قيادة عسكرية مشتركة بقيادة عبد الحكيم عامر بصفته قائد القوات المصرية ٠

كان هدف عبد الناصر : اقامة طوق عسكري حول اسرائيل يحول دون انفرادها بدولة لوحدها من دول المواجهة ٠ ويشكل هذا الطوق العسكري الحد الادنى للطوق الوحدوي الذي كان يعتبره عبد الناصر احد العناصر الاساسية لمحاصرة العــدو الصهيوني وهزيمته ، وتحرير الاراضي العربية الفلسطينية التي اغتصبها ٠

وبقيام القيادة المشتركة ، تعزز موقف الحركة الوطنية فــي سوريا والاردن على السواء ، واصيبت المخططات الاستعمارية بارتباك شديد ٠

وبخط مواز لهذا التحرك،كان عبد الناصر شديد الاهتمام بالاتصالات الجارية بين الاطراف المعنية لعقد مؤتمر جنيـف

في ٢٢ اكتوبر الذي اتفق عليه في المحادثات الجانبية التي اجراها همرشولد سكرتير عام الامم المتحدة مع الدكتور محمود فوزي وزير خارجية مصر وغيره من وزراء خارجية الاطراف المهتمة بالمشكلة اثناء انعقاد مجلس الامن الدولي ·

وكان عبد الناصر على استعداد للمشاركة في اي تحرك دولي بغية الوصول الى معاهدة دولية بشأن الملاحة في القناة على شرط ان لا يكون هناك مساس بسيادة مصر الكاملة على القناة وكل ما يتصل بهذه السيادة ·

ولكن ايدن وموليه كانا منشغلين مع بن غوريون في استكمال مؤامرة العدوان ·· ولذلك فانهما سعيا الى تأجيل اجتماع جنيف من ٢٢ الى ٢٩ اكتوبر · وكلفا وزيري خارجيتيهما ، لويد وبينو بالاجتماع مع بن غوريون الذي انعقد بسرية تامة في سيفر وتم فيه الاتفاق على بدء العدوان في ذات اليوم الذي تأجل اليه اجتماع جنيف !

★★★

على الجانب الاخر ، كان التواطؤ الانكليزي الفرنسي مع اسرائيل قد بلغ مداه في ذلك الشهر ، اكتوبر ١٩٥٦ ، ففي حين كانت اسرائيل تنفذ دورها باتقان على الجبهة الاردنية ،كانت الاجتماعات السرية للغاية بين اقطاب العدوان الثلاثي تنعقد في باريس لوضع خطط العدوان ودور كل طرف بالتفصيل الدقيق ·

كان ايدن ولويد قد طارا الى باريس يوم ١٦ اكتوبر واجتمعا مع موليه وبينو لتقويم الموقف في ضوء ما انتهت اليه اجتماعات مجلس الامن الدولي · وقد اتفقوا باعتراف ايدن في مذكراته على انه بعد فشل اللجوء الى الامم المتحدة لم يعد هناك امامهم غير سبيل القوة المسلحة في التعامل مع عبد الناصر ، وعلى ان اسرائيل يجب ان تكون اداة العدوان على مصر ، والجسر الذي تستخدمه بريطانيا وفرنسا للعبور

الى قلب الازمة والمشاركة في العدوان بحجة حماية القناة وضمان سلامة الملاحة الدولية فيها ·

ورغم ان اسرارا كثيرة لم تتكشف حتى الان عن الاجتماعات السرية المشتركة التي تمت بين اقطاب العدوان الثلاثي ··· الا ان اخطر ما تكشف منها يؤكد اشتراك بن غوريون في اجتماعات السادس عشر من اكتوبر ، والاتفاق على شن حرب ثلاثية تستهدف اسقاط عبد الناصر واستعادة قناة السويس وفرض الصلح على الانظمة العربية وفق الشروط الصهيونية ·

يؤكد هذه الحقيقة الصحفيان الفرنسيان المتعاطفان مع الصهيونية الاخوان « برومبرجر » في كتابهما « اسرار السويس » فقد كشفا فيه استنادا الى اوثق واعلى المصادر الفرنسية السياسية والعسكرية التي كانت تربطهما بها روابط قوية ، ان مؤتمر السادس عشر من اكتوبر في باريس قرر اتخاذ الخطوات التالية واحاطة الجانب العسكري فيها بسرية تامة · وان التنفيذ الفعلي لهذه الخطوات بدأ في اليوم التالي مباشرة على الشكل الاتي :

● « تم حشد القوات الفرنسية في منطقة مرسيليا طولون ومعها عربات كانت اساليب التعمية التي طبقت عليها من النوع الذي يستخدم عادة في الصحراء · وقد افهم رجالها بانهم ليسوا متوجهين الى الجزائر · ووزعت اوراق نقدية تحمل عبارة « احتلال مصر » على ضباط الرواتب»·

● « خرجت ناقلات الجنود الفرنسية في التاسع عشر من اكتوبر الى عرض البحر ، تحت ستار القيام بمناورات بحرية بسيطة » ·

● « طارت قاذفات قنابل السلاح الجوي الملكي البريطاني النفاثة في السابع عشر من اكتوبر الى مالطا »·

● « تلقت سفن الاسطول الملكي البريطاني في السابع عشر من اكتوبر وهي في طريقها من موانىء الشرق الاوسط اوامر بالعودة فورا الى المنطقة لتكون قريبة من مدخلي قناة

السويس ومشارف مصر · ولعل ابرز مثل عليها المدرعة البريطانية « نيوكاسل » وكانت تمخر عباب المحيط الهندي متجهة الى استراليا لحراسة الدوق ادنبره في طريق عودته » .

● « توقف توزيع نشرات الوثائق الرسمية المصنفة على كبار الموظفين البريطانيين كالعادة ، وشطبت اسماؤهم من قوائم التوزيع حرصا على ما فيها من اسرار »·

● « منح احد كبار خبراء وزارة الخارجية البريطانية في شؤون الشرق الاوسط اجازة لم يكن يتوقعها · كما منح عدد من كبار الموظفين اجازات مماثلة »·

● « استقال السير « وولتر مونكتون » وزير الدفاع البريطاني في الثامن عشر من اكتوبر لاسباب وصفها ايدن بانها صحية ، وان كان المعروف ان الاستقالة نجمت عن معارضة الوزير لسياسات ايدن في موضوع السويس · ولم يدخله مكميلان فيما بعد في اول وزارة الفها · كما لم يعهد اليه باي منصب بارز » · لعلهم فعلوا ذلك عقابا له على موقفه كما عاملوا انطوني ناتنغ وزير الدولة الذي استقال احتجاجا على العدوان ·

● « قدمت اسرائيل في السابع عشر من اكتوبر بهدوء، تحفظاتها الى محكمة العدل الدولية في موضوع صلاحيتها واختصاصاتها » ·

● استدعت اسرائيل سفراءها في المراكز المهمة موسكو وباريس ولندن وواشنطن فطاروا اليها فورا» ·

ان هذا الجانب من التحرك الاسرائيلي يؤكد مشاركة بن غوريون في اجتماع باريس المشار اليه ·

● « بدأ شحن اضخم معدات رفع الانقاض اعتبارا من السابع عشر من اكتوبر الى جزيرة قبرص · ووصلت سفينة الجر المشهورة « ترمويل » الى ميناء فاماغوستا في قبرص في التاسع والعشرين من اكتوبر وهي تجر رافعة عائمة ضخمة »·

● « وصل العميد بيرنارد فيرجوسن في الثاني

والعشرين من اكتوبر الى قبرص حيث ظل مقيما · وقد اعلن في الواحد والثلاثين من اكتوبر انه يتولى ادارة حـــرب الحلفاء النفسية والدعائية ضد مصر »·

● « وجد الدبلوماسيون الاميركيون انفسهم اعتبارا من السابع عشر من اكتوبر في عزلة تامة عن اتصالاتهم الرسمية مع الموظفين الرسميين البريطانيين والفرنسيين والاسرائيليين في لندن وباريس وتل أبيب » (١)

يرجع السبب في هذه العزلة التي فرضها اطراف العدوان على الدبلوماسيين الاميركيين الى الموقف الاميركي الذي كان يعارض استخدام القوة وقتئذ في ازمة السويس لضمان وحدة المعسكر الغربي ازاء الثورة المضادة في المجر التي كـــانت تتولاها المخابرات المركزية الاميركية ·

وكان الرئيس الاميركي قد بعث الى ايدن ببرقية اخرى في السادس عشر من اكتوبر ، يوم اجتماع باريس ، قال فيها : « ان يديه ستظلان مغلولتين حتى تنتهي الانتخابات الاميركية في السادس من نوفمبر » · وكان رد اطراف العدوان علـــى هذه البرقية : اتخاذ قرار الحرب والمضي في الاستعدادات العسكرية ، واخفاء الاسرار عن الاميركان ·

ثم تكشفت اسرار هامة اخرى تؤكد ان التواطؤ الانكليزي الفرنسي مع اسرائيل تحول في ٢٢ اكتوبر الى مشاركـــة فعلية في التخطيط وتوزيع الادوار التنفيذية ·· ففي ذلـــك اليوم وعلى مدى ثلاثة ايام متواصلة ، حتى الرابع والعشرين من اكتوبر عقد في « سيفر » بجوار باريس الاجتماع الاخيـر بين اطراف العدوان ، وقد احيط بسرية بالغة واشترك فيه : سلوين لويد عن بريطانيا ، وكريستيان بينو عن فرنسا ، وبن غوريون عن اسرائيل ، وتم في هذا الاجتماع وضع اللمسات الاخيرة لخطط العدوان ، واعطاء بن غوريون الضمانات التي طلبها ، وقد اصر على ان تكون مكتوبة وموثقا عليها من لويد وبينو خوفا من ان تتورط اسرائيل في البدء بالعدوان وتفاجأ

---

(١) ارسكين تشايلدرز . الطريق الى السويس ، ص ٢٢٩ــ٢٣٠ .

بتراجع بريطانيا وفرنسا · وحصل على مبتغاه فعلا ·

ثم تحدد في اليوم الاخير ٢٤ اكتوبر الموعد النهائي لبدء العدوان في التاسع والعشرين من اكتوبر وفق الادوار التالية كما رواها كريستيان بينو وزير الخارجية الفرنسي ، احد المشتركين في الاجتماع والموقعين على الضمانات التي طلبها بن غوريون :

● « يشرع الاسرائيليون يوم ٢٩ اكتوبر في هجوم قوي على سيناء ، واضعين نصب اعينهم قبل كل شيء ، الوصول الى مشارف قناة السويس في اقرب وقت ممكن »·

● « تقوم القوة الجوية البريطانية بالاغارة على القوة الجوية المصرية وهي مرابطة في مطاراتها ، وتواصل هذه الغارات طيلة العملية كلها ، لتنذر الدول العربية الاخرى بصورة مستمرة بانها ستعاني نفس القصف الجوي لو حاولت مهاجمة اسرائيل »·

● « تبرر عمليات النزول الانكليزية الفرنسية بحماية القناة من مصر واسرائيل على السواء وتقبل اسرائيل الانذار الذي توجهه فرنسا وبريطانيا بوجوب وقف اطلاق النار ، على ان لا تفعل ذلك بصورة جدية الا بعد الوصول الى خط يبعد عن القناة مسافة عشرة اميال الى الشرق منها »·

● « تسبق اذاعة الانذار المشترك اذاعة اخبارية اسرائيلية تقول : ان الوحدات الاسرائيلية الامامية وصلت الى مشارف القناة · ويكون على هذه القوات ان تصل الى الخط المرسوم الذي يبعد عشرة اميال عن القناة في غضون اثنتي عشر ساعة وهي مدة الانذار »·

● « تؤمن القوة الجوية الفرنسية الغطاء الكافي للمدن الاسرائيلية الرئيسية ، وتتولى البوارج الفرنسية حراسة السواحل الاسرائيلية، وتقوم القوات الفرنسية بحراسة اسرائيل من اية دولة عربية معادية بالاضافة الى مصر · وتغطى تلك التحركات عن طريق الاعلان بان البحرية الفرنسة

قررت نتيجة حادث الباخرة اتوس (١) ان تبعث بالدوريات الى شرق البحر المتوسط لتحول دون وصـول اية شحنات اخرى من الاسلحة من الاسكندرية الى الجزائر » ٠(٢)

مما يؤكد هذه الجوانب التي تكشفت عن اجتماعات باريس الثلاثية في السادس عشر ومن ٢٢ـ٢٤ اكتوبر ، ان ايدن نفسه اعترف بها مؤكدا التواطؤ والمشاركة الفعلية في اعداد خطـة العدوان وتوزيع ادوار الاطراف الثلاثة فيها ٠ فهو يقول في مذكراته :

« كان الوزراء قد بحثوا من قبل في عدة اجتماعات الطرق التي قد يتطور اليها الموقف ٠ وقد جرت مشاورات في هـذا الصدد مع فرنسا ٠ وفي يوم ٢٥ اكتوبر بحثت الـوزارة احتمالات نشوب نزاع بين مصر واسرائيل (يلاحظ ان ذلك كان في اليوم التالي لاجتماع سيفر السري) وقررت من حيـث المبدأ ما يجب عليها ان تفعله في حالة نشوب هذا النزاع ٠ ورئي ان تطلب الحكومتان الفرنسية والبريطانية فورا مـن الفريقين ان يوقفا الاعمال العدوانية بينهما وان يسحبـا قواتهما الى مسافة من ضفتي القناة ، فاذا رفض احدهمـا او كلاهما الامتثال الى هذا الطلب بعد مدة معينة ، فان القوات البريطانية والفرنسية ستتدخل ، كاجراء موقت ، للفصل بيـن الفريقين المتحاربين ٠ ولتحقيق ذلك ، كان يجب ان ننفـذ المشروع الخاص باحتلال منطقة القناة ٠ وكانت القيـادة الفرنسية والانكليزية المشتركة قد وضعت هذا المشروع بعـد ان عكفت على دراسة المشكلة منذ نهاية شهر يوليو» (٣)

ثم يؤكد ايدن التواطؤ مرة اخرى بقوله :

« وفي صباح ٣٠ اكتوبر احيطت الوزارة علما بان القوات الاسرائيلية قد دخلت الاراضي المصرية في مساء ٢٩ منـه ٠

---

(١) اتوس : باخرة يونانية ضبطتها البحرية الفرنسية محملة بالاسلحـة المصرية مرسلة الى الجزائر .

(٢) تيرينس روبنسون : ازمة القصة السرية لمؤامرة السويس ص ٢١٠ــ٢١٢

(٣) ايدن . مذكراته عن السويس ، ص ٢٠٨ .

كان هذا هو الموقف الذي سبق ان بحثته الوزارة قبل ذلك خمسة ايام » (١)٠
لقد كان هذا التواطؤ اللا اخلاقي الاجرامي محاولة يائسة خيرة قامت بها الدولتان الاستعماريتان بريطانياوفرنسالوقف نيار التاريخ تحت ضغط الاقتناع الذي عبر عنه ايدن بقوله دالاس في الاول من اغسطس :

« لو سمحنا لعبد الناصر ان ينجو بما اغتصبه فان العالم سينظر الى المملكة المتحدة على انها مثل هولندا ٠ ونحن لسنا على استعداد لقبول هذا الوضع » (٢)٠
وكان منزيس فرانس ، موفد الدول الثماني عشرة لعبد الناصر ، قد ادرك خطورة الضربة التي وجهها عبد الناصر للاستعمار ، وانعكاساتها على موقف بريطانيا وفرنسا منه ، فقال لدالاس :
« انهم يؤثرون التعرض الى حرب عالمية على ان يذعنوا للهبوط الى مستوى دولة من الدرجة الثالثة ذات اقتصاد متهدم » ٠(٣)
هكذا، كان الحقد الاعمى هو الذي يحرك الاستعماريين ضد عبد الناصر ٠

★★★

وعلى جانب القمة الدولية ، كانت القيادة السوفياتية غافلة عما تدبره الامبريالية الاميركيةلتفجيرثورة مضادة للاشتراكية في جمهورية المجر الشعبية ، منشغلة في الصراعات الحزبية والخلافات حول موقف الاتحاد السوفياتي من مصر وعبد الناصر ، وهي الصراعات والخلافات التي اشار لها الزعيم السوفياتي الراحل خروشوف الذي كان يتربع مع المارشال بولغانين على قمة القيادة السوفياتية ٠ (٤) ولكن ذلك لم

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢١٠ .
(٢) تدرينس روبنسون . ازمة القصة السرية لمؤامرة السويس ، ص ١١٧ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٠ .
(٤) خروشوف . الوصية الاخيرة . ص ٤٤١ .

يمنع تلك القيادة الثنائية من اغتنام كل مناسبة لتكتب الى ايدن ومولية مرة ، وتعلن مرات ، انها تؤيد حق مصر في السيادة على قناة السويس ·· وتكتفي بالتساؤل عن هدف التحركات العسكرية البريطانية الفرنسية في منطقة الشرق الاوسط · ومغزى التهديدات الموجهة لعبد الناصر ، مؤكدة حرصها على السلام العالمي ·

اما الولايات المتحدة الاميركية فانها كانت ، وعلى الاخص بعد انتهاء اجتماعات مجلس الامن الدولي في الثالث عشر من اكتوبر ، تبدي اهتماما بالغا بمؤتمر جنيف الذي كان قد تحدد في ٢٢ اكتوبر ثم تأجل بناء على اقتراح بريطانيا وفرنسا الى ٢٩ منه · ولقد كانت تخفي وراء هذا الاهتمام ، نشاط المخابرات المركزية الاميركية في اعداد التجهيزات الاخيرة اللازمة لمؤامرة الثورة المضادة في المجر ·· وكان ابرز ما كانت تعده المخابرات الاميركية وقتئذ كما كشفته الوثائق الرسمية التي ضبطت مع الذين قادوا تلك الثورة المضادة بعد احباطها ما يلي :

● ان عمليات تخريبية واسعة استهدفت تفجير واتلاف حقول الالغام التي كانت مقامة على امتداد حدود المجر مع النمسا التي كانت القاعدة الرئيسية للتامر ·

● ان الافا من الجنود المجريين الذين كانت تحتفظ بهم الولايات المتحدة الاميركية في اطار قواتها المسلحة في المانيا الغربية تحت اسم الكتائب المجرية تسللوا عبر الحدود النمساوية الشرقية بملابس مدنية بعد تعبئتهم نفسيا ومعنويا ضد الشيوعية ·

● ان الافا اخرى من المجريين الذين مكثوا في اقطار اوروبا الغربية ـ وعلى الاخص الذين اقاموا في مخيمات اللاجئين في النمسا ـ وهاجروا الى الولايات المتحدة واميركا اللاتينية ، جمعتهم المخابرات المركزية الاميركية ، واعدتهم للثورة المضادة ومكنتهم من التسلل الى داخل المجر ·

● ان كميات هائلة من الاسلحة الاميركية الخفيفة والمتوسطة ، كان يجري تهريبها عبر الحدود النمساوية على مدى الاسابيع الثلاثة الاولى من اكتوبر التي سبقت انفجار الثورة المضادة ٠

● ان مائة وخمسة وعشرين مليون دولارا وضعت تحت تصرف « ناجي » و « مندزنتي » قطبي الثورة المضادة لتمويل المؤامرة الأمبريالية الرجعية وشراء العناصر اليمينية الحاقدة والانتهازية المتسلقة ٠(١)

● ان القوات الاميركية في اوروبا الغربية وضعت في حالة الطوارىء القصوى لمواجهة التطورات التي باتت وشيكة الوقوع في المجر ٠ وقد استغلت وزارة الدفاع الاميركية «البنتاغون» توتر الموقف في منطقة الشرق الاوسط لتغطية تلك الاجراءات ٠

ان اهم ما يسترعي الانتباه هنا هو ان المعسكر الغربي كان موزع الاهتمام ومنقسما انقساما حادا وخطيرا ، ومتعارض الاتجاهات والاهداف على مدى الاسابيع الثلاثة الاولى من اكتوبر ١٩٥٦ ٠

ففي حين كانت الولايات المتحدة الاميركية منهمكة في اعداد كل ما يضمن النجاح للثورة المضادة في المجر ، وتعطيها الاولوية في اطار استراتيجيتها العامة لاحتواء العالم ،وتخفي عن اقوى حلفائها ، بريطانيا وفرنسا ، مؤامرتها المدبرة ، وتسعى لتخفيف وتأجيل اندفاعهما في استخدام القوة ضد عبد الناصر لتضمن وحدة المعسكر الغربي ، وتسليط الاضواء والاهتمامات العالمية على مسرح الاحداث في المجر ، نجد بريطانيا وفرنسا خلال ذات الفترة الزمنية تتدنيان الى حد اشراك اسرائيل في التامر واعداد خطة العدوان على مصر بهدف اسقاط عبد الناصر ، واخفاء ذلك عن الولايات المتحدة

---

(١) الثورة المضادة في المجر . مؤامرة ايمري ناجي وزمرته ، ص ١٠٨–١٠٩.

الاميركية التي كانت تبدو ضد استخدام القوة في معالجةازمة السويس دون ان تتمكن اطراف العدوان من ادراك السبب الحقيقي لذلك الموقف ٠٠

ولم يكنذلك الموقف الاميركي يعني اكثر من ان الامبريالية الاميركية كانت تريد اعطاء الاولوية للثورة المضادة في المجر٠ وحيث ان اطراف العدوان الثلاثي كانت تجهل ما دبرته المخابرات المركزية الاميركية في المجر الشيوعية ، فانها سعيا وراء مصالحها الاستعمارية الذاتية اتجهت بكل احقادها في تدبير مؤامراتها العدوانية ضد عبد الناصر ٠

هكذا شاءت الظروف والاقدار ان تتناقض مصالح المعسكر الاستعماري وان ينقسم الى فريقين متعارضين :

الولايات المتحدة الاميركية تدبر للثورة المضادة في المجر ،

وبريطانيا وفرنسا واسرائيل تدبر في نفس الوقت للعدوان الثلاثي على مصر ٠٠

بل وشاءت الظروف والاقدار ان يجتمع لويد وبينو وبن غوريون في سيفر بجوار باريس للاتفاق على الموعد النهائي للعدوان على مصر عشية الوقت الذي كانت المخابرات المركزية الاميركية قد حددته موعدا لانفجار الثورة المضادة في المجر٠

★★★

في الثالث والعشرين من اكتوبر اندلعت الثورة المضادة في المجر بتمرد وحدات من الجيش والبوليس ، واندلاع المظاهرات المسلحة المعادية في بودابست العاصمة ٠٠ ثم اخذت هذه الثورة المضادة تتصاعد ساعة بعد ساعة ، وتنتقل من بودابست الى المدن الاخرى ٠٠ وغدت في اليوم التالي الرابع والعشرين من اكتوبر اعنف من اليوم الاول ، ثم تصاعدت بعنف اشد وتمكنت من السيطرة التامة على العاصمة ومناطق اخرى ، وتشكيل حكومة جديدة برئاسة ايمري ناجي الذي سبق ان طرد من الحزب الشيوعي ، وشهر به واعيد اليه اكثر من مرة بتهمة

الانحراف عن المبادىء الماركسية اللينينية والتحريف بها ··
واصبح الكاردينال الكاثوليكي مندزنتي القوة الاولى في المجر .

وكان من الطبيعي ان تكون الولايات المتحدة الاميركية كلها في تلك الايام في حالة الطوارىء القصوى ، تتابع بكل اجهزتها ووسائلها باهتمام بالغ وفرحة عارمة انتصار مؤامرتها الامبريالية في المجر التي تعتبر بموقعها الجغرافي الاستراتيجي بوابة اوروبا الشرقية ومركز ثقل التوازن الاوروبي ··متأهبة بقواتها ومختلف اسلحتها لمزيد من الدعم والتأييد والحماية لتلك الثورة المضادة التي استهدفت تدمير منجزات ومكاسب جماهير الشعب المجري ، واقامة رأس جسر يميني مرتد مرتبط بالامبريالية الاميركية في قلب المعسكر الاشتراكي ·· وترتب على ذلك تصاعد التوتر في اوروبا كلها ، الشرقية والغربية الى اقصى درجات التوتر ·

وقد اعتبر اطراف العدوان الثلاثي ان اندلاع تلك الثورة المضادة وانشغال القمة الدولية بها ، فرصة نزلت من السماء، واتجه تفكيرهم وتقديرهم للموقف : ان الاتحاد السوفياتي سوف يعطي الاولوية لاحداث المجر لما لها من حساسية زائدة بالنسبة للمعسكر الشيوعي والشيوعية الدولية عامة ، ثم بالنسبة له وحكم الحزب الشيوعي في اقطار اوروبا الشرقية بشكل خاص ·· والولايات المتحدة الاميركية ، في ضوء استراتيجيتها العامة ، لا يمكنها ان تكون اقل اهتماما باحداث المجر من الاتحاد السوفياتي ، بل لا بد لها من ان تكون مهتمة الى اقصى درجات الاهتمام ، وتعطي الثورة المضادة في المجر الاولوية على ازمة السويس ، لان الانتصار على الشيوعية في عقر دارها يضعف مكانة وتأثير الاتحاد السوفياتي ، كما يضعف الثورات التقدمية وحركات التحرر في العالم ، ويجعل عبد الناصر الذي كان ابرز واخطر قادة ثورات العالم الثالث النامي اقل قدرة على الصمود ، فيسهل ضربه واسقاطه ··

الاميركية التي كانت تبدو ضد استخدام القوة في معالجةازمة السويس دون ان تتمكن اطراف العدوان من ادراك السبب الحقيقي لذلك الموقف ..

ولم يكنذلك الموقف الاميركي يعني اكثر من ان الامبريالية الاميركية كانت تريد اعطاء الاولوية للثورة المضادة في المجر. وحيث ان اطراف العدوان الثلاثي كانت تجهل ما دبرته المخابرات المركزية الاميركية في المجر الشيوعية ، فانها سعيا وراء مصالحها الاستعمارية الذاتية انجهت بكل احقادها في تدبير مؤامراتها العدوانية ضد عبد الناصر .

هكذا شاءت الظروف والاقدار ان تتناقض مصالح المعسكر الاستعماري وان ينقسم الى فريقين متعارضين :

الولايات المتحدة الاميركية تدبر للثورة المضادة في المجر ،

وبريطانيا وفرنسا واسرائيل تدبر في نفس الوقت للعدوان الثلاثي على مصر ..

بل وشاءت الظروف والاقدار ان يجتمع لويد وبينو وبن غوريون في سيفد بجوار باريس للاتفاق على الموعد النهائي للعدوان على مصر عشية الوقت الذي كانت المخابرات المركزية الاميركية قد حددته موعدا لانفجار الثورة المضادة في المجر.

★★★

في الثالث والعشرين من اكتوبر اندلعت الثورة المضادة في المجر بتمرد وحدات من الجيش والبوليس ، واندلاع المظاهرات المسلحة المعادية في بودابست العاصمة .. ثم اخذت هذه الثورة المضادة تتصاعد ساعة بعد ساعة ، وتنتقل من بودابست الى المدن الاخرى .. وغدت في اليوم التالي الرابعوالعشرين من اكتوبر اعنف من اليوم الاول ، ثم تصاعدت بعنف اشد وتمكنت من السيطرة التامة على العاصمة ومناطق اخرى ، وتشكيل حكومة جديدة برئاسة ايمري ناجي الذي سبق ان طرد من الحزب الشيوعي ، وشهر به واعيد اليه اكثر من مرةبتهمة

الانحراف عن المبادىء الماركسية اللينينية والتحريف بها ٠٠ واصبح الكاردينال الكاثوليكي مندزنتي القوة الاولى في المجر .

وكان من الطبيعي ان تكون الولايات المتحدة الاميركية كلها في تلك الايام في حالة الطوارىء القصوى ، تتابع بكل اجهزتها ووسائلها باهتمام بالغ وفرحة عارمة انتصار مؤامرتها الامبريالية في المجر التي تعتبر بموقعها الجغرافي الاستراتيجي بوابة اوروبا الشرقية ومركز ثقل التوازن الاوروبي ٠٠متأهبة بقواتها ومختلف اسلحتها لمزيد من الدعم والتأييد والحماية لتلك الثورة المضادة التي استهدفت تدمير منجزات ومكاسب جماهير الشعب المجري ، واقامة رأس جسر يميني مرتد مرتبط بالامبريالية الاميركية في قلب المعسكر الاشتراكي ٠٠ وترتب على ذلك تصاعد التوتر في اوروبا كلها ، الشرقية والغربية الى اقصى درجات التوتر ٠

وقد اعتبر اطراف العدوان الثلاثي ان اندلاع تلك الثورة المضادة وانشغال القمة الدولية بها ، فرصة نزلت من السماء، واتجه تفكيرهم وتقديرهم للموقف : ان الاتحاد السوفياتي سوف يعطي الاولوية لاحداث المجر لما لها من حساسية زائدة بالنسبة للمعسكر الشيوعي والشيوعية الدولية عامة ، ثم بالنسبة له وحكم الحزب الشيوعي في اقطار اوروبا الشرقية بشكل خاص ٠٠ والولايات المتحدة الاميركية ، في ضوء استراتيجيتها العامة ، لا يمكنها ان تكون اقل اهتماما باحداث المجر من الاتحاد السوفياتي ، بل لا بد لها من ان تكون مهتمة الى اقصى درجات الاهتمام ، وتعطي الثورة المضادة في المجر الاولوية على ازمة السويس ، لان الانتصار على الشيوعية في عقر دارها يضعف مكانة وتأثير الاتحاد السوفياتي ، كما يضعف الثورات التقدمية وحركات التحرر في العالم ، ويجعل عبد الناصر الذي كان ابرز واخطر قادة ثورات العالم الثالث النامي اقل قدرة على الصمود ، فيسهل ضربه واسقاطه ٠٠

بذلك ، فان اطراف العدوان تصوروا ان الساحة الدولية اصبحت مباحة لهم ، وغابة هم الاقوياء فيها ·
هكذا شاءت الظروف والاقدار وقتئذ ·

واغتنم اطراف العدوان الفرصة الهابطة من السماء ··· وراحوا ، وعلى الاخص بريطانيا وفرنسا ، في استعراض القوة ، وكسب الوقت وتنفيذ ما تم الاتفاق عليه في سيفر ، وتصعيد التوتر والعمليات الاستفزازية والاستعدادات العسكرية في قبرص ومالطا الى اقصى درجة ، وغدت منطقة النصف الشرقي من البحر الابيض المتوسط ساحة واسعة تتهيأ للحرب ·

اساطيل من السفن الحربية الانكليزية والفرنسية تضم ست حاملات طائرات وعشرات المدمرات والبوارج ، وقطع الانزال ، تمخر عباب البحر معربدة في اتجاه الشرق لتأخذ مواقعها العدوانية ··· ومئات من الطائرات النفاثة المقاتلة والقاذفة تعربد بدورها في سماء المنطقة ملوحة بالقوة تهديدا لعبد الناصر ·وألوف من جنود المظلات البريطانيين والفرنسيين بجوار طائراتهم متأهبون بلباسهم الميداني وعتادهم الحربي للانطلاق في اية لحظة · وموانىء قبرص وقواعدها البريطانية تعج بأكثر من مائة الف جندي بريطاني وفرنسي ·

ولم ترتعد فرائص عبد الناصر لهذه الحشود الضخمةالتي ان دلت على شيء فانها كانت تدل على مقدار القوة الهائلة التي كانت تتمثل في عبد الناصر ، ومقدار الحقد والتصميم الاستعماري على مقاتلته بقوة تكفي لمقاتلة دولة تملك جيشا اكبر بكثير من الجيش المصري ، واكثر استيعابا للاسلحة الحديثة واستخداماتها · خاصة انه لم يكن قد مضى غير بضعة شهور على وصول شحنات من صفقةالاسلحةالسوفياتية لمصر ، وهي مدة زمنية غير كافية للتدرب عليها واستيعابها ·
ولم تكن تلك الحشودوالتحركات اسرارا بالنسبة للمخابرات المصرية ، وبذلك فان عبد الناصر اعتبرها مؤشرات تدل على

قرب العدوان ، فعمد الى تقويم الموقف مع رفاقه من قـادة الثورة ومستشاريه وقادة القوات المسلحة ، واتفق في ضـوء المعلومات المتوفرة على ان الغزو المتوقع للقوات البريطانية والفرنسية سوف يستهدف منطقة قناة السويس ، ولذلك تقرر تقليص القوات المرابطة في سيناء وسحب بعض وحداتهـا الرئيسية وتوزيعها في تلك المنطقة تأهبا لمواجهة الغزو ومقاتلته دفاعا عن كل شبر من ارض الوطن ومكاسب الشعب ٠

ورغم ادراك عبد الناصر ان انشغال الاتحاد السوفياتـي والولايات المتحدة الاميركية بالثورة المضادة في المجر سوف يقلل ولا شك من اهتمامهما بتطورات ازمـة السويس المتصاعدة بسرعة ، ويهيء بالتالي لبريطانيا وفرنسا مناخا ملائما للقيام بالغزو ، الا انه لم يفكر في التراجع قيد انملة او التنازل درجة واحدة عن حق مصر في السيادة الكاملة علـى قناة السويس ٠

انه رغم ادراكه الواعي لانعكاسات الموقف الدولي علـى الازمة ، الا انه لم يكن يعتمد على تأييد الاتحاد السوفياتي ، ولا على معارضة الولايات المتحدة الاميركية لاستخـدام القوة المسلحة في معالجة ازمة السويس ٠٠٠ انما كـان اعتماده في الدرجة الاولى على شجاعة الشعب العربـي المصري وقدرته على التضحية والصمود ،وتأييد جماهيـر الامة العربية له ٠

على اساس هذا الاعتماد ، واجه عبد الناصر الموقف المقترب بسرعة من نقطة الانفجار بشجاعة ثورية بقيت احدى صفاته المميزة حتى اخر لحظة في حياته، فقرر مواجهة التوتر المتصاعد بمزيد من اجراءات الاستعداد واليقظة وتعبئة قوى الشعب لمواجهة كل الاحتمالات والقتال حتى النهاية ٠

الشيء الوحيد الذي آحزنه في تلك الايام ، الحافلـة بالتطورات المتصاعدة ، كان اختطاف قائد الثورة الجزائرية احمد بن بلا ورفاقه بعملية قرصنة جوية دبرها الاستعمار

الفرنسي ونفذها يوم ٢٢ اكتوبر بينما كانت طائرة ركـاب مدنية تقلهم من المغرب بعد اجتماعهم مع الملك محمد الخامس الى تونس فهبط بهم قائد الطائرة الفرنسي في مطار الجزائر حيث تم القاء القبض عليهم ونقلهم الى باريس ٠

ولم يكن تواطؤ الدولتين الكبريين ، بريطانيا وفرنسا ، مع اسرائيل قد تكشف بعد ، ولا كان قد تكشف شيء بعد عن مؤتمر سيفر الذي احيط بسرية متناهية اقتضت نقل بن غوريون من المطار متخفيا ، وعقد الاجتماع في منزل ناء في احدى ضواحي باريس سدت جميع المنافذ والطرقات المؤدية اليه ٠٠ واقتصار الاجتماع على لويد وبينو وبن غوريون دون احد من المستشارين او المساعدين او المترجمين ٠٠

وعندما اعلنت اسرائيل المرحلة الاولى من التعبئة العامة في ٢٥ اكتوبر ، في اليوم التالي مباشرة لعودة بن غوريون من مؤتمر سيفر ، فقد ارتبط ذلك بتصاعد التوتر على الجبهة الاردنية ، واتفاقية القيادة العسكرية المشتركة بين مصر وسوريا والاردن ، وفوز الحركة الوطنية الاردنية في الانتخابات النيابية وتشكيل وزارة برئاسة سليمان النابلسي متعاطفة مع عبد الناصر ومعادية في خطها العام للاستعمار واحلافه العسكرية ٠٠

ومع الاقتراب من لحظة الصفر المحددة لبدء العدوان تلاحقت الاحداث على الوجه التالي :

● في ٢٨ اكتوبر اعلنت اسرائيل التعبئة العامة وبدأت في تحريك قواتها في اتجاه سيناء ٠

● في ذات اليوم كانت الثورة المضادة في المجر تحاول جاهدة تثبيت اقدامها في السلطة والسيطرة على الموقف ،وكان ذلك يهم الولايات المتحدة الاميركية الى اقصى درجة ، كما كان يهمها تأجيل تفجير الموقف في الشرق الاوسط ريثما تستقر تلك الثورة المضادة من جهة وابقائها القضية الوحيدة المستحوذة على اهتمام الرأي العام العالمي ، واستغلال ذلك

في تعبئته ضد احتمالات التدخل السوفياتي لقمعها من جهة اخرى . لذلك فان الرئيس الاميركي ايزنهاور ما ان علم بالتعبئة العامة الاسرائيلية حتى بادر في ذات اليوم ، ٢٨ اكتوبر ،الى الابراق لكل من ايدن وموليه مقترحا تحذير اسرائيل من مغبة اشعال الحرب ، واصدار بيان باسم اميركا وبريطانيا وفرنسا تعلن فيه تمسكها بالبيان الثلاثي الذي اصدرته الدول الثلاث اياها في العام ١٩٥٠ القاضي بالحفاظ على الوضع الراهن في منطقة الشرق الاوسط والتزام الدول الثلاث بذلك .

وكان الهدف من وراء ذلك البيان هو حماية اسرائيل ودعم وجودها الوليد ، وبدافع من المصلحة الاستعمارية الذاتية لكل من بريطانيا وفرنسا فان رئيسي وزرائهما لم يتجاوبا مع ايزنهاور ، معلنين بذلك التمرد على الزعامة الامبريالية الاميركية ، وراحا يراوغانه كسبا للوقت بحجة « ان الحكومة المصرية لم تقبل بتاتا ذلك البيان ، ولم تعده مستوجبا لاية التزامات ، كما اوضحت انه لا ينطبق عليها في حالة حدوث نزاع بينها وبين اسرائيل ».(١)

ولا شك ان الصهيونية العالمية ، بما لها من قوة هائلة متحكمة في القوى الخفية التي تصنع السياسة الامبريالية الاميركية ، رمت وقتئذ بكل ثقلها الى جانب بريطانيا وفرنسا للتأثير على موقف ايزنهاور ..

وانه لامر بديهي ان يلاحظ المرء بان موقف ايدن وموليه وقتئذ كان يحمل مؤشرات التواطؤ ويستهدف حماية اسرائيل من اي ضغط يمكن ان يجعلها تتردد وتتراجع عن اداء دورها .

● وتأكيدا لاسرائيل بالالتزام بما تم الاتفاق عليه في مؤتمر سيفر السري ، ومع موشيه دايان قائد القوات الاسرائيلية

---

(١) ايدن ، مذكراته عن السويس ، ص ٢١٦ .

وقتئذ في زيارته السرية الى لندن في اكتوبر ، فقد ضاعفت بريطانيا من تحركاتها العسكرية في المنطقة وعمدت فرنسا استجابة لالحاح بن غوريون يوم ٢٨ اكتوبر الى ارسال ستين طائرة نفاثة مقاتلة بطياريها لحماية الاجواء والقوات الاسرائيلية .

« ولم يكن هناك وقت متوافر لحمل الطيارين الفرنسيين على تبديل بزاتهم العسكرية بالبزة الاسرائيلية أو حتى لاقناعهم بذلك . ولعل هذا السبب هو الذي حمل عددا كبيرا من الصحفيين الغربيين في اسرائيل على معرفة هذا العون العسكري المباشر ، الذي قدمته فرنسا الى اسرائيل مع ما في معرفتهم هذه من تعريض لنية هذه في الاحتفاظ بمظهر الفردية في حركتها . وكان بعض هؤلاء مراسلو رويتر ولوموند والمانشستر جارديان وباري بريس وفرانس اوبزرفاتور والنيوز كرونيكل الذين رووا أحاديث لهم مع الطيارين الفرنسيين » . (١)

● بالاضافة الى تلك المظلة الجوية النفاثة ، تولت أربعون طائرة نقل فرنسية من طراز « نورد اطلس » حمل شحنات عاجلة من الاسلحة لاسرائيل » .

● وأخذت السفن الحربية الفرنسية مواقعا لها على امتداد ساحل فلسطين المحتلة لتوفير الحماية للعدو الصهيوني من هجمات البحرية المصرية ، ودعم قوات العدوان الاسرائيلي ومساندتها عمليا .

● وازدحمت القواعد العسكرية البريطانية في العراق وليبيا وقبرص بأعداد كبيرة من الطائرات البريطانية النفاثة المقاتلة والقاذفة .. وضعت تحت الانذار متأهبة للانطلاق ، ولكنها لم تقم بنشاط يثير الريبة .

هكذا ، ما أن اقتربت ساعة الصفر حتى كان كل شيء قد أعد للعدوان ، وكان التصميم عليه قد بلغ حدا جعل

---

(١) ارسكين تشايلدرز . الطريق الى السويس . ص ٢٣٦ .

ايدن ومولية على غير استعداد لمناقشة أو قبول وجهة نظر ايزنهاور ودالاس .. ولعل مضي خمسة أيام على نجاح الثورة المضادة في المجر دون تدخل حاسم من الاتحاد السوفياتي شجع الاستعماريين الانجليزوالفرنسيين على المضي في مخطط العدوان، متصورين ان الوضع الدولي في مصلحتهم وأن مصر لن تقدر على القتال في جبهات متعددة لفترة طويلة، وبذلك فان عبد الناصر لن يلبث أن ينهار ويستسلم ، وتنتهي معه الثورة العربية ، ثورة ٢٣ يوليو ، ويصبح الاحتلال الانجليزي الفرنسي لقناة السويس أمرا واقعا، كما تصبح منطقة الشرق الاوسط كلها في ظل أمر واقع جديد وفق أهواء الاستعمار والصهيونية .

★★★

الساعة الخامسة بعد ظهر يوم الاثنين التاسع والعشرين من اكتوبر ، كانت ساعة الصفر للعدوان . عندها ، بدأت القوات الاسرائيلية في ظل حماية جوية وبحرية فرنسية هجوما شاملا باربعة اتجاهات رئيسية :

الاول : في اتجاه رفح لعزل قطاع غزة والانطلاق نحو العريش والساحل في الطريق للقنيطرة .

الثاني : في اتجاه أبو عقيلة والقسيمة للانطلاق نحو الطريق الاوسط للاسماعيلية .

الثالث : في اتجاه نخل نحو ممر المتلا والسويس .

الرابع : في اتجاه شرم الشيخ ..

ومن أجل ارباك القيادة المصرية والتاثير على الروح المعنوية للشعب العربي المصري وقواته المسلحة .. تم انزال أربعمائة من جنود المظلات في منطقة ممر المتلا ، وتولت الطائرات الفرنسية دعم هذه القوة وامدادها بالغذاء والماء والعتاد وسيارات الجيب والاسلحة المختلفة . كما تولت الدفاع عنها بقصف المواقع المصرية بالصواريخ .

وفي العاشرة مساء ذلك اليوم ، ٢٩ اكتوبر ، اذاعت محطة الاذاعة الاسرائيلية بيانا عسكريا أدعت فيه كذبا أن القوات الاسرائيلية غدت على بعد أميال قليلة من قناة السويس . وكان مثل هذا الادعاء الكاذب ضروريا جدا لاسرائيل لانه أقصر وأسرع السبل لاجتذاب بريطانيا وفرنسا للمشاركة الجدية في العدوان قبل أن تحدث المواجهة مع القوات المصرية الرئيسيه . فقد كان أحد شروط اتفاقية سيفر أنه بعد أن تذيع اسرائيل أن قواتها غدت على مشارف قناة السويس تبادر بريطانيا وفرنسا الى تقديم انذار مشترك لكل من مصر واسرائيل للابتعاد عشرة أميال عن جانبي القناة والسماح لقواتهما - البريطانية الفرنسية - باحتلال المواقع الهامة في بور سعيد والاسماعيلية والسويس بحجة تأمين سلامة الملاحة في القناة .

لم يكن التواطؤ البريطاني الفرنسي مع العدو الصهيوني قد تكشف . وكان في تقدير عبد الناصر انه مهما بلغ حقد ايدن عليه ، فانه بسبب ما لبلاده من مصالح في الوطن العربي ، لا يمكنه أن يقترف حماقة التورط مع اسرائيل والاشتراك معها في شن حرب عدوانية على مصر او اي بلد عربي .. وذلك لان النتائج سوف تكون في كل الحالات مدمرة لمصالح بريطانيا وبالذات لاعوانها . وأنه بدون بريطانيا لا يمكن لموليه ان يقترف لوحده حماقة التورط في مشاركة اسرائيل في العدوان .

وعندما علم عبد الناصر بانباء الهجوم الاسرائيلي وانزال المظليين الاسرائيليين في منطقة ممر المتلا ، لم يشأ ان يغير من تقديره السابق لموقف بريطانيا وفرنسا ، ولذلك فانه كان شديد الحماس لمقاتلة العدو الاسرائيلي في معركة حاسمة ، وامر بتوجيه قوات المدرعات وغيرها من القوات المسلحة التي سبق سحبها من سيناء وتوزيعها في منطقة القناة لملاقاة العدو والتصدي له . واشترك مع عبد الحكيم عامر وقادة الجيش في وضع خطة المعركة بحيث تكون ساحتها

واحة بير روض سالم الواقعة بين الممرات وجبل لبني شرقا ، على ان تتولى القوات الجوية ابادة المظليين في منطقة ممر المتلا ، بينما يتولى لواء مدرع استعادة السيطرة على هذا الموقع الاستراتيجي الحصين .

ولقد بدىء في تنفيذ الخطة ليلة ٢٩-٣٠ اكتوبر بعد ساعات قليلة من بدء العدوان .

في تلك الساعات الهامة ، بينما كانت القوات المصرية باسلحتها المختلفة ، وفي طليعتها المدرعات تنتقل عبر القناة في اتجاه الشرق باقصى سرعة لاداء مهامها القتالية وبلوغ منطقة بير روض سالم التي حددت لتكون ميدان المعركة الحاسمة ، كان رئيس وزراء فرنسا موليه ووزير خارجيته بينو يتوجهان مع فجر الثلاثاء الثلاثين من اكتوبر الى لندن لاجراء مشاورات اخيرة في ضوء ردود فعل الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية على العدوان الاسرائيلي .

كانت ردود القمة الدولية ملتقية تماما ، لاسباب ودوافع متباينة بالطبع ، على شجب العدوان الاسرائيلي ودعوة مجلس الامن الدولي للانعقاد فورا ، رغم التناقضات الحادة والمجابهة التصادمية بينهما ازاء الثورة المضادة في المجر .

كانت الولايات المتحدة الاميركية بالذات شديدة الحماس في دعوة مجلس الامن لاصدار قرار سريع يدعو الى وقف القتال وانسحاب القوات الاسرائيلة الى ما وراء خط الهدنة ... ومثل هذا الموقف مثير للدهشة ، لانه لا ينسجم ، بل يتناقض مع المواقف الاميركية التقليدية السابقة واللاحقة من اسرائيل . والاكثر اثارة للدهشة انه جاء قبيل اسبوع واحد من انتخابات الرئاسة الاميركية التي تلعب فيها الصهيونية العالمية دورا مؤثراً يجعل المتنافسين في سباق هستيري لكسب اصوات اليهود والقوى الصهيونية المؤثرة

في اتجاهات الراي العام من خلال اغداق الوعود لاسرائيل والادلاء بتصريحات التأييد لها من غير تحفظ .. ثم تتعاظم الدهشة عندما تتصدى اميركا لعدوان يستهدف عبد الناصر الذي لم تتوقف عن التآمر لاسقاطه ..

ولكن هذه الدهشة المثيرة تنتفي عندما نعلم ان الولايات المتحدة الاميركية كانت وقتئذ في مواجهة حاسمه مع الاتحاد السوفياتي ، وكان هدفها الرئيسي من وراء شجب العدوان واستصدار قرار من مجلس الامن الدولي بذلك ، هو اقامة السدود في وجه احتمالات التدخل السوفياتي لقمع الثورة المضادة في المجر .

لم يكن ذلك الموقف ، الاميركي بالذات ، بعيدا عن رؤية ايدن ومولية ، فقد كان ايزنهاور على اتصال بهما ، وكان موقفه الشاجب للعدوان صريحا واضحا متسما بالشجاعة في نظر الذين لم يدركوا لاول وهلة الاهمية الاستراتيجية التي كانت تعلقها الامبريالية الاميركية على الثورة المضادة في المجر .. ولذلك ، فانهما ، ايدن ومولية ، بدافع مصالح بلديهما الاستعمارية ، قررا عدم الانصياع للموقف الاميركي ، والتناقض معه لاول مرة منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية ، واستخدام الفيتو في مجلس الامن الدولي للحيلولة دون اتخاذ اي قرار ضد العدوان الاسرائيلي ، والمضي في تنفيذ التزاماتهما وفق ما اتفق عليه في سيفر بالمبادرة بتوجيه الانذار المشترك استنادا الى الاشارة المتفق عليها التي تضمنها البيان العسكري الاسرائيلي المذاع في التاسعة مساء ٢٩ اكتوبر ..

لقد كان ذلك البيان الاسرائيلي كاذبا مائة في المائة فيما يتعلق بالادعاء بان القوات الاسرائيلية غدت على مشارف قناة السويس . وكان ايدن ومولية يعرفان جيدا ان ذلك الادعاء كان كذبا لانهما كانا يعرفان بانه باستثناء المظليين الاربعمائة الذين انزلوا في منطقة ممر المتلا لم يكن هناك

اي اثر للقوات الاسرائيلية في اي موقع اخر اقرب الى القناة من ممر المتلا . وان ذلك الممر يبعد اكثر من ستين كيلو مترا الى الشرق من القناة . وان الطائرات الفرنسية هي التي كانت تحمي هؤلاء المظليين وتمدهم . وان الطائرات البريطانية النفاثة من نوع « كانبرا » قامت باعتراف ايدن فيما بعد بعمليات استكشافية فجر الثلاثاء الثلاثين من اكتوبر، ومع ذلك كله ، فان ايدن وموليه اتفقا على توجيه الانذار وتسليمه للسفراء في لندن وباريس في وقت واحد .

بعدئذ عاد موليه وبينو الى باريس .

★★★

وفي الساعة الرابعة من بعد ظهر الثلاثاء الثلاثين من اكتوبر ، بعد اقل من ٢٤ ساعة من بدء العدوان الاسرائيلي ، واقل من تسع عشرة ساعة من البيان الاسرائيلي الاشارة . . كان سامي ابو الفتوح السفير المصري في لندن يتسلم الانذار البريطاني الفرنسي في مقر وزارة الخارجية البريطانية بينما كان زميله كمال عبد النبي السفير المصري في باريس يتسلم في نفس الوقت في وزارة الخارجية الفرنسية انذارا مماثلا .

كانت مدة الانذار ١٢ ساعة فقط . وكان يدعو مصر واسرائيل الى وقف اطلاق النار . وسحب قواتهما الى مسافة عشرة اميال عن ضفتي القناة رغم ان اقرب نقطة بلغتها القوات الاسرائيلية كانت تلك التي انزلت جوا في منطقة ممر المتلا على بعد اربعين ميلا شرقي القناة .

كذلك تضمن ذلك الانذار طلبا الى مصر لكي تقبل باحتلال القوات الانكليزية الفرنسية للمواقع الرئيسية في بور سعيد والاسماعيلية والسويس بحجة ضمان سلامة الملاحة الدولية في القناة . .

« واذا ما انتهت المهلة ـــ الاثنتا عشرة ساعة التي تضمنها الانذار ـــ دون ان تنصاع اي من الحكومتين او كلاهما الى الطلبات السابقة الذكر ، فان قوات المملكة المتحدة وفرنسا

ستتدخل بأية قوة تحتمها الضرورة لتأمين الانصياع .» (١)

وكان الامر الطبيعي ، بغض النظر عن شروط اتفاقية سيفر ، ان تعلن اسرائيل موافقتها الفورية .. فمثل هذه الموافقة تجعلها تبدو امام الراي العام وكأنها وصلت القناة فعلا ، فتحقق كسبا معنويا ونفسيا دون عناء ، وتعزز موقف شريكتيها المتواطئتين وتعطيهما امام المجتمع الدولي مبررا للتدخل المسلح .

لذلك ، اعلنت اسرائيل قبولها للانذار ..

وانصرفت انظار العالم مرة واحدة عن الثورة المضادة في المجر ، واتجهت نحو القاهرة ، تعد ثواني الساعات القليلة المتبقية على انبلاج فجر الاربعاء الحادي والثلاثين من اكتوبر ، في انتظار الكلمة التي سيقولها جمال عبد الناصر .

★★★

لم يتردد عبد الناصر في رفض الانذار البريطاني الفرنسي . لان قبوله كان يعني الاستسلام للاستعمار والصهيونية على السواء ، مع ما يحمله ذلك من معان اهمها : تصفية ثورة ٢٣ يوليو بكل ما حققت من مكاسب ومنجزات ، والتراجع عن قرار تأميم قناة السويس والموافقة على احتلال بريطانيا وفرنسا لها ، وتحطيم امال الجماهير العربية في مصر والوطن العربي ، وتدمير نفسية ومعنويات الانسان العربي ، واطلاق يد الاستعمار لضرب وتصفية الثورات وحركات التحرر في المنطقة العربية كلها ، بمغربها ومشرقها ، وارغام الانظمة العربية على الصلح مع اسرائيل والاعتراف بها والتنازل لها عن الحق العربي في كل ارض تحتفظ بها ، والتعايش معها سياسيا واقتصاديا وفي كافة مجالات الحياة .

واكثر من ذلك ، تصور عبد الناصر ان قبول الانذار يعني اعادة عقارب التاريخ الى الوراء سبعين سنة مرة واحدة ،

---

(١) ايدن في مذكراته عن السويس .

واعادة السيطرة البريطانية الفرنسية من جديد ، متطورة من لجنة الديون الى قوات الاحتلال .

ولم يكن عبد الناصر من القادة الذين يخشون الانذارات الاستعمارية ، حتى ولو كانت من الدول الكبرى ، ولا ممن يتجنب مواجهة التحديات ويؤثرون السلطة واضواءها ، والمصالح الذاتية واغراءاتها على المبادىء والاخلاق ومصلحة الوطن والشعب .

لقد كان ثائرا ، واهبا حياته للثورة من اجل الجماهير الكادحة التي كانت تعاني من الحرمان بكل معانيه ، ولم تكن ترث شيئا غيره . مؤمنا ومدركا بان طريق الثورة لم تكن في عصر من العصور ولا في اي وقت من اوقات التاريخ او مجتمع من المجتمعات البشرية ، ممهدة سهلة مفروشة بالورود والرياحين خالية من العقبات والمصاعب ، انما كانت على الدوام الطريق الاصعب والاخطر لانها طريق التغيير .

لذلك فانه عندما واجه الانذار بما كان يتمثل فيه من قوة بريطانيا وفرنسا العسكرية الاكثر من قوة مصر العسكرية مرات مضاعفة ، فانه واجه نفسه ولا شك بسؤال ، عما اذا كان ما زال ثائرا .. وكانت الاجابة عن هذا التساؤل ، هي التي تحدد بحسم الموقف من الانذار .

وكان الموقف بالرفض ، لان عبد الناصر الثائر رفض ان يتخلى عن ثوريته .

وكان مصمما على ان يتحمل وحده مسؤولية الرفض اذا تطلب الامر ذلك ، ولكنه لم يشأ ان ينفرد باعلان موقفه قبل دراسة الموقف بكل احتمالاته وابعاده مع رفاقه اعضاء مجلس قيادة الثورة ، تقديرا لنضالهم وارائهم ، واحتراما لجماعية القيادة وثقة في اصالة ثوريتهم وصدق اخلاصهم ، وحرصا على وحدة الموقف ازاء التحدي الكبير والخطر الاكبر .

كان الاستعمار البريطاني الفرنسي قد ارفق الانذار بحملة شرسة رهيبة من الحرب النفسية خصص لها اذاعة الشرق

الادنى من قبرص الى جانب كل وسائله واجهزته الاذآعية والدعآئية ، واستهدف من ورائها ارهاب عبد الناصر والتأثير على معنوياته من جهة ، وتأليب الشعب العربي المصري واعضاء مجلس قيادة الثورة ضده من جهة اخرى .. تفتيتا لوحدة القيادة والجبهة الداخلية ..

وبلوغا لهذا الهدف ، وادراكا الى ان اسقاط عبد الناصر يعني اسقاط الثورة وفتح ابواب مصر من جديد للاستعمار والامبريالية والصهيونية ، فان تلك الحرب النفسية الشرسة دارت حول محور واحد هو عبد الناصر . فكانت نغمتها واحدة ومطلبها واحد :

النغمة هي : ان عبد الناصر هو السبب في كل ما تطورت اليه احداث المنطقة .

والمطلب هو : اسقاط عبد الناصر انقاذا للموقف باعتبار انه وحده العدو .

في وسط هذه الحرب النفسية الضارية ، اجتمع عبد الناصر بعد الانذار مباشرة مع رفاقه وزملائه ، بينما كانت المدرعات ومدفعية الميدان ومختلف اسلحة القوات المصرية منطلقة باقصى سرعتها لتصفية المظليين في ممر مثلا وبلوغ منطقة بير روض سالم .. وعندما ابلغهم بوجهة نظره القائمة على الرفض لان البديل يعني الكارثة المدمرة لكل شيء ، وافقوه على موقفه وتضامنوا معه .. كما وافقوه بعد جدال طويل بينه وبين عبد الحكيم عامر على سحب القوات من سيناء لكي لا تعزل هناك وتدمر عن اخرها ، ثم لكي يستفاد منها في مواجهة الغزو البريطاني الفرنسي المرتقب لمنطقة القناة ، والاعتماد عليها في شن حرب شعبية .

كان الانذار دليل التواطؤ الاستعماري البريطاني الفرنسي مع العدو الصهيوني ، بل كان دليل المشاركة الفعلية في التخطيط والتنفيذ .

وكان الرفض دليل التصميم الثوري على التصدي للعدوان

ومقاومته حتى الرمق الاخير والطلقة الاخيرة ..

ولقد اهتزت شعوب القارات الثلاث المناضلة ضد الاستعمار ، افريقيا واسيا واميركا اللاتينية ، طربا لموقف عبد الناصر لانه برفض الانذار جسد ارادة جميع المقاتلين في العالم ضد الاستعمار بكل اشكاله ومظاهره وانواعه . فهذه اول مرة في التاريخ الحديث لا يأبه رئيس دولة بكرسي الحكم ويقرر بكل الكبرياء الوطني والقومي مقاتلة الدول الاستعمارية لانها كانت تريد الحكم في مصر ، كما كان في الماضي ، اداة استغلال وتسلط . ولعل عبد الناصر بموقفه الشجاع ذاك كان يعطي دروسا في معنى الحكم ومواصفات الحاكم وسلوكيته .

واهتزت للرفض اضطرابا وغيظا ، جميع انظمة الحكم الاستعمارية والرجعية في العالم .. لان الرفض كان تحديا لها كلها ..

ولم يكن هذا الرفض لمجرد تسجيل موقف في التاريخ ، وانما كان سلوكا نضاليا وممارسة ثورية وموقفا أيجابيا ، لان عبد الناصر لم يشأ ان يتخذ قرار الرفض ويكتفي بذلك ويستسلم للاحداث تحت شعار : عدم القدرة على مواجهة الدول الكبرى وانقاذ البلاد من الدمار . وانما اتخذ القرار وحمل السلاح وتحمل مسؤولية الدفاع عن الثورة وكرامة الشعب ومكاسب الجماهير الكادحة .

كان على ثقة واقتناع ، ان الرضوخ للانذار كان يعني الدمار بابشع معانيه ، لانه كان سيصل في ابعاده الى اعماق الانسان . والانسان اثمن بكثير من المادة بكل اشكالها المعمارية والهندسية . ذلك انه ليس اسهل على الانسان من ان يعيد بناء المدن والمنشات والمصانع وكل ما يمكن ان تدمره الحرب ، ولكن ما اصعب اعادة بناء الانسان والمجتمع ، واعادة ثقة الشعب في نفسه ..

ان الشعوب الحية تمكنت من اعادة بناء بلادها بعد

الحربين العالميتين الاولى والثانية خلال بضعة اعوام ، ولكن ما من شعب فقد الثقة في نفسه واصابته الحرب في مقوماته الروحية تمكن من اعادة بناء ذاته واستعادة الثقة في قدراته خلال بضعة اجيال ..

وبحكم ادراك عبد الناصر لهذه الحقائق، فانه لم يكن يخشى من دمار الحرب الذي يمكن ان يصيب المدن والقرى والمصانع والموانىء والمطارات والمنشات ، ولكنه كان يخشى من دمار الاستسلام الذي يصيب المجتمع في كيانه والانسان في نفسه ..

لذلك كان قرار الرفض ، قرارا تاريخيا ، واتخذ في ظروف دولية بالغة التعقيد .

وكان قرار القتال ، قرارا تاريخيا ايضا .. واتخذ بينما الاستعمار في منتهى الشراسة .

وبدا عبد الناصر بنفسه . لم يطلب من الشعب ان يقاتل بينما هو في ملجأه او مكتبه او منزله ، او ان اسرته في مكان امن ، او انه يحتفظ بطائرة تقلع به منجاة بالنفس عند اشتداد الخطر .. وانما حمل السلاح وراح يجوب شوارع العاصمة وسط عواصف الحرب النفسية الرهيبة ، وامر بتوزيع السلاح على افراد الشعب بينما حملات استعمارية صهيونية مسعورة تؤلب الجميع ضده وتدعو الى اسقاطه بمنطق انه وحده المطلوب ، ورفض ان تبرح اسرته منزله في منشية البكري ليتساوى مع جماهير الشعب في الخطر رغم انه كان الهدف الرئيسي للانذار والعدوان الاستعماري الصهيوني .

ان كثيرين جدا في انحاء العالم اشفقوا على موقف عبد الناصر وقتئذ ، لانه لم يعد يواجه عدوانا اسرائيليا فحسب ، انما صار يواجه معه بريطانيا وفرنسا بما تملكان من جيوش واساطيل وآسلحة متطورة في ظروف دولية بالغة التعقيد

بسبب الثورة المضادة في المجر واحتمالات المواجهة بين دولتي القمة .

لقد كان السؤال الوحيد الذي بات يتردد في انحاء العالم : كيف سيواجه عبد الناصر جيوش واساطيل وطائرات الدولتين الاستعماريتين الكبيرتين . وهل في قدرته ان يصمد ويقاوم وينتصر .

***

الساعة السادسة بتوقيت القاهرة صباح الاربعاء ٣١ اكتوبر ، انتهت مدة الانذار البريطاني الفرنسي . وكانت هذه المدة قد انتهت عمليا قبلئذ بعدة ساعات عندما اعلن عبد الناصر رفضه لذلك الانذار ..

صار العالم في حالة قلق شديد ، يترقب الخطوة التالية التي ستلجأ لها بريطانيا وفرنسا ..

وكان الانذار واضحا في انهما مصممتان على استخدام القوة لاحتلال منطقة القناة اذا كان الرد بالرفض . وكان الرفض هو الرد .

لذلك فان العالم الذي كان يعيش على اعصابه خوفا من احتمالات المواجهة الرهيبة بين اميركا والاتحاد السوفياتي بسبب الثورة المضادة في المجر ، اصبح الان اكثر قلقا على السلام العالمي بسبب التعقيدات الجديدة في الموقف الدولي التي ستنتج عن احتمالات التدخل البريطاني الفرنسي ..

وبدأت الدقائق والساعات تمر ..

الصهيونية العالمية بكل ثقلها تضغط على الولايات المتحدة الاميركية لكي تؤيد التدخل البريطاني الفرنسي .. او على اقل القليل ، لكي لا تمارس ضغطا على بريطانيا وفرنسا لتأجيل تنفيذ الانذار .

وكانت الولايات المتحدة الاميركية ، متمثلة في رئيسها ايزنهاور ، وتمارس ذلك الضغط فعلا ، مباشرة وعن طريق مجلس الامن الدولي ، لانها لم تكن تريد فتح جبهة ثانية

ينشغل بها المعسكر الغربي ، او الاقدام على عمل يتخذه الاتحاد السوفياتي مبررا للتدخل في المجر .. خاصة وان ايمري ناجي ، رئيس حكومة الثورة المضادة كان يبدو مسيطرا على الموقف ، وبدأت تصريحاته تقترب من نقطة الدعوة لانسحاب المجر من حلف وارسو » والمطالبة بسحب القوات السوفياتية من المجر .. وكان معنى ذلك أن المخطط الامبريالي الاميركي للثورة المضادة يقترب بسرعة من قمة النجاح في المجر .. وبعدئذ ، يكون من السهل ضرب عبد الناصر وتصفية الثورة ..

وبسبب التعارض بين المصالح ووجهات النظر ، ولان الولايات المتحدة الاميركيه كانت تعطي الاولوية المطلقة للثورة المضادة في المجر ، بل وكانت لا تريد تفجير الموقف في اية منطقة حساسة في العالم ليبقى الجهد كله مركزا على احداث المجر ، فان الضغوط الصهيونية على اميركا لم تنفع، كما ان ضغط اميركا على بريطانيا وفرنسا ادت الى تأجيل تنفيذ الانذار بضع ساعات ليس الا .

★★★

في الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والخمسين من بعد ظهر ذلك اليوم الاربعاء ٣١ اكتوبر بدأت بريطانيا في تنفيذ دورها في العدوان . فقد قامت طائراتها النفاثة من نوع « كانبرا » بالاغارة على المطارات المصرية مستهدفة تدمير الطائرات المصرية وقواعدها لتمهيد الطريق امام الغزو البريطاني الفرنسي من جهة ، ومساعدة القوات الاسرائيلة للتغلب على المقاومة العنيدة التي كانت ما زالت تواجهها في جميع المواقع الامامية وحالت دون تقدمها السريع في اتجاه القناة من جهة اخرى .

كان عبد الناصر وقت تلك الغارة البريطانية الاولى يتسلم رسالة من الرئيس الاندونيسي سوكارنو نقلها اليه سفيره

في القاهرة . ولقد تجاوز الاصول البروتوكولية فأسرع ، قبل ان تنتهي المقابلة الى سطح منزله في منشية البكري ، ليتعرف الى هوية الطائرات المغيرة .. وعندما ايقن انها من نوع كانبرا ، ادرك على الفور ان بريطانيا وفرنسا بدأتا في تنفيذ دور من ابشع الادوار الاستعمارية في تاريخهما الحافل بالاجرام والعداء للشعوب ..

ورغم قسوة الموقف في تلك اللحظات الا ان عبد الناصر بدا مرتاحا متمالك الاعصاب ليس فقط لانه اتخذ قرار الانسحاب من سيناء ، وانما لان الانسحاب كان قد قارب على نهايته وتم بانتظام رائع ، وبذلك امكن انقاذ القوات المسلحة المصرية من الانعزال والوقوع في مصيدة العدوان الثلاثي بين طرفي كماشة من الشرق والغرب والاستفادة منها في المقاومة والصمود .. ثم كان مرتاحا لان الطيارين المصريين وقسما كبيرا من الطائرات النفاثة الجديدة كانوا في منأى عن الخطر . ولقد كان شديد الاهتمام بسلامة الطيارين بالذات ، فكان ضد رغبتهم الملحة في الاشتراك في القتال بعدئذ لانعدام التكافؤ وضرورة الحفاظ عليهم ، لانه من السهل جدا استعاضة اية طائرات او معدات تصاب وتدمر وتسقط ، ولكن ليس من السهل ابدا استعاضة الطيارين الاكفاء ..

وكانت فرنسا قد بدأت مشاركتها العدوانية قبل الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والخمسين بعد ظهر ٣١ اكتوبر، اذ كانت قد وفرت الحماية الجوية والبحرية لاسرائيل ، وكانت طائراتها هي التي تولت حماية وامداد المظليين في ممر متلا ، ومساعدة الطائرات الاسرائيلة في مهاجمة القوات المصرية في سيناء والاشتباك مع الطائرات المصرية التي الحقت في الايام الثلاثة الاولى للعدوان خسائر فادحة بالعدو الصهيوني، وحققت نجاحا كبيرا في غاراتها وارقاما قياسية في طلعاتها .

ولكن الغارات الجوية البريطانية التي استهدفت القواعد الجوية وامتدت الى القاهرة كانت نقطة تحول في العدوان اقتضت تقويم شامل جديد للموقف بين عبد الناصر ورفاقه من اعضاء مجلس قيادة الثورة واركان حكومته .. ولقد تم الاجتماع لهذا الغرض في مساء الحادي والثلاثين من اكتوبر في مبنى مجلس قيادة الثورة ، بعد حوالي الساعتين من تلك الغارة التي ارفقت بحملة هستيرية من الحرب النفسية والقيت خلالها بعشرات الالوف من المنشورات التي تحض الشعب والقوات المسلحه على الثورة ضد عبد الناصر .

في ذلك الاجتماع ، بعد ان عرض عبد الناصر تقويما شاملا للموقف العسكري والسياسي ، ابدى وجهة نظره الشخصية بضرورة مواصلة القتال والمقاومة باعتبار ان هذا هو السبيل الوحيد للحياة الحرة الكريمة ، والتجسيد الحقيقي للثورة وارادة الشعب .

وباستثناء واحد ، فان الجميع كانوا في مستوى المسؤولية، فالتقوا مع عبد الناصر على ضرورة مواصلة القتال والاعتماد على جماهير الشعب صاحبة المصلحة في الثورة والمعطاءة بسخاء دفاعا عن حرية الوطن وكرامته ..

كان صلاح سالم عضو مجلس قيادة الثورة هو ذلك الواحد .. لقد وجه كلامه الى عبد الناصر قائلا :

« لقد فعلت كل ما في وسعك . لقد خدمت بلدك بكل قدرتك وطاقتك . لكنك فشلت ! وبقيت خدمة اخرى واحدة فقط يمكنك ان تؤديها لبلادك : ان السير همفري تريفليان لا يزال في السفارة البريطانية . فاذهب وسلم نفسك اليه ذلك انهم يريدونك وحدك فقط » .

« واجابه عبد الناصر انه لو كان يعتقد للحظة واحدة ان البريطانيين يريدونه شخصيا ولشخصه فقط لضحى بنفسه طائعا راضيا .. ثم قال :

« انني افضل ان اضحي بنفسي وانا اقاتل . لكنني لن

استسلم ». (١)

وبعد ان حدد عبد الناصر موقفه الثوري بحسم ، التفت الى رفاقه الاخرين وسألهم اذا كانوا يتفقون مع صلاح سالم .. ولكنهم بالاجماع كانوا مع عبد الناصر .

وانتهى ذلك الاجتماع التاريخي بقرار القتال وتوزيع السلاح في الميادين والشوارع الرئيسية ، ليتحمل ابناء الشعب الدفاع عن ثورتهم ومكاسبهم ووطنهم ..

كانت تقديرات الاستعماريين وعلى راسهم ايدن ، انه بمجرد البدء بالغارات الجوية فان المظاهرات ستندلع في القاهرة بالذات هاتفة بسقوط عبد الناصر مطالبة اياه بالاستقالة والتنحي ..

ولكن مضت الساعات بدون اية مظاهرة عدائية لعبد الناصر .. بل ان عبد الناصر عمد الى تسليح الجماهير دون قيد او شرط ، فلم يكن الوقت يتسع للتحري عن احد ، وبذلك فان الجماهير غدت مسلحة ايضا .

ثم عمد عبد الناصر في ساعات اليوم التالي ، الخميس الاول من نوفمبر ، بينما الغارات الجوية تزداد اتساعا ويزداد معها الدمار في انحاء البلاد ، وتشتد الحرب النفسية ضده ضراوة ، الى ان يتجول بنفسه بسيارة مكشوفة في شوارع القاهرة مؤديا بذلك دورا ثوريا تاريخيا في تحمل مسؤوليات القيادة الجماهيرية وتعبئة الشعب للقتال ..

اذن فان عبد الناصر لم يتوار عن الانظار ، ولا عزل نفسه عن الشعب ، ولا اعتكف في مبنى حصين . كان بامكانه ان يفعل ذلك ، وان يجد كل المبررات لذلك ، ولكنه لم يشأ الا ان يكون مع جماهير الشعب . جماهير الثورة ..

بذلك سقطت كل التقديرات الاستعمارية ..

وفي اليوم الخامس للعدوان ، الجمعة الثاني من نوفمبر ،

---

(١) هيكل . عبد الناصر والعالم ، ص ١٦٤ .

اتجه عبد الناصر بسيارة مكشوفة وسط جماهير حاشدة مسلحة الى جامع الازهر الشريف ، ليؤدي الصلاة ويخطب في المصلين موجها كلامه الى الشعب العربي في كل مكان ، والى المعتدين الاستعماريين بالذات قائلا قولته التاريخية من على منبر ذلك المكان التاريخي :

« سنقاتل في كل معركة من قرية الى قرية ومن مكان الى مكان ليكن كل فرد منكم جنديا في القوات المسلحة · وليكن شعارنا اننا سنقاتل ولن نسلم · سنقاتل ، سنقاتل ولن نسلم» ·

كان عبد الناصر وقتئذ مصابا بالانفلونزا . ولكنه لم يشأ ان يستريح . فليس الوقت وقت راحة . كما لم يشأ ان يكون بعيدا عن جماهير الشعب لئلا يفسر ذلك وسط الحرب النفسية الضارية انه بات يخشى الظهور في الاماكن العامة .. فصمم على ان يصلي في الازهر الشريف ، ويعلن من هناك بصوته المبحوح :

سنقاتل . سنقاتل . سنقاتل .

ولم يكن كلاما للاستهلاك . وانما كان تجسيدا لارادة ثورية . وتأكيدا لسلوك ثوري بداه عبد الناصر بنفسه . وتصميما على اقفال الابواب في وجه الرجعية المصرية المتخاذلة التي كانت تتحين الفرص ولا شك للانقضاض عليه وعلى الثورة وفتح الابواب من جديد للاستعمار ..

لقد كان عبد الناصر حاسما في موقفه ضد اي تخاذل .. وكان ذلك الموقف ضروريا الى اقصى حدود الضرورة .. فلقد حاولت العناصر اليمينية المتخاذلة ان تتحرك وقتئذ تحت مظلة التظاهر بالحرص على مصلحة البلاد وانقاذ ما يمكن انقاذه ، فجمعت صفوفها واستجمعت قوتها وبعثت تطلب تحديد موعد لمقابلته . وقد علم عبد الناصر بنواياها .. فوافق على المقابلة وحدد موعدا لها ولكنه بعث لتلك العناصر يقول :

ان من يدعو الى الاستسلام خيانة . وجزاء الخيانة الاعدام . وانه لن يتردد في هذه الظروف المصيرية عن تنفيذ الاعدام بأي خائن بمسدسه وفي حديقة منزله .
ولم يجرؤ احد على الحضور . وانزوت الرجعية تصلي من اجل ان ينتصر العدوان .. ولكن الله لا يستجيب لأعداء الوطن والشعب ..

★★★

اصبح عبد الناصر في تلك الايام المحور الرئيسي لاحداث العالم . وموضع الاعجاب والتقدير من جميع الشعوب والثورات وحركات التحرر والقوى التقدمية .. لانه كان مصمما على الصمود في وجه العدوان ، قادرا على مواصلة القتال ضد بريطانيا وفرنسا والصهيونية العالمية رغم انعدام التكافؤ في الاسلحة .

ولقد بدت الاحداث في تلك الايام متداخلة بشكل مضطرب لم يسبق له مثيل في التاريخ الحديث ..
في عواصم العالم ومدنه الرئيسية مظاهرات يومية متلاحقة ضد العدوان الثلاثي .. وفي كثير منها دمر المتظاهرون السفارات البريطانية والفرنسية ..

الكثير من حكومات الكومنولث المرتبطة ببريطانيا تندد بالعدوان وتطالب بوقفه فورا . بل ان الكومنولث اصبح مهددا بالانهيار .

الدولتان الكبريان المتربعتان على قمة العالم، المتواجهتان في مواقفهما ازاء الثورة المضادة في المجر ، تلتقيان عن غير قصد ، ولاسباب متباينة تماما ، ضد العدوان وتطالبان بوقفه وانسحاب القوات الاسرائيلية الى ما وراء خط الهدنة ..
والامم المتحدة في حالة انعقاد دائم .. تصدر القرار تلو القرار ، منددة بالعدوان داعية الى وقفه والعودة الى خط

الهدنة . وكريشنا منون الهندي يخطب بالساعات تلـــو الساعات تشهيرا بالمعتدين اعداء الشعوب ..

ولم يكن هناك في العالم كله غير استراليا ونيوزيلنـــده تؤيدان العدوان ..

بذلك فان بريطانيا وفرنسا واداتهما الاجرامية اسرائيل كانت قد غدت في عزلة تامة مدانة من المجتمع الدولي ..

ولكن ايدن ومولیه لم يأبها لهذه العزلة ، ولا لارادة المجتمع الدولي متمثلة في قرارات الامم المتحدة .. وصمما علـــى مواصلة العدوان بكل ما لدى بلديهما من قوة عسكرية ضاربة مدمرة .. يحدوهما امل واحد : ان تخور قوى عبد الناصر ، وينهار ، ويسقط ، ويفرضان بعدئذ امرا واقعا .

والصحافة الاميركية الواقعة تحت السيطرة الصهيونية تؤلب الراي العام الاميركي ضد عبد الناصر وتدعو الـــى محاربته .. وكانت جريدة « نيويورك تيمس » تقود تلـــك الحملة الحاقدة..ومن امثلة ما كتبته في هذا المجال ذلك الذي وجهته الى الامم المتحدة في يوم انعقادها في الاول من نوفمبر ١٩٥٦ قالت فيه :

« من المضحك تمكين عبد الناصر من الوقوف امام الامــم المتحدة او العالم كما لو كان الضحية البريئة لعدوان ! ومن المضحك محاولة رفع الايدي لحمايته ! ان الامر بالعكس لانه اذا كان ثمة رجل واحد قد ارتكب عدوانا فهذا الرجل هـــو الرئيس المصري . لانه شن حربا على اسرائيل وبريطانيـــا وفرنسا بالدعاية وبحرب العصابـــات وبالســـلاح وتسلل السفاكين ، وبالتحريض على الثورة في شمال افريقيـــا ، وبالاستيلاء على قناة السويس بالقوة ، وبتمزيق معاهـــدة بذات الكيفية التي زحف بها هتلر على بلاد الراين ، ثم بمنع السفن الاسرائيلية من المرور بالقناة !» انه منطق الحاقدين الموتورين .

ولقد كان اكثر مظاهر التداخل المضطرب في الموقف هـــو

موقف الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفياتي .

لقد كانت الصحافة واجهزة الاعلام والدعاية الاميركية مع العدوان ، ولكن كانت الحكومة الاميركية ضده ، ولم يكن موقفها هذا موجها ضد بريطانيا وفرنسا واسرائيل بقدر ما كان موجها ضد الاتحاد السوفياتي .. فقد كانت تخشى تدخله العسكري لقمع الثورة المضادة في المجر ، كما كانت تخشى ان يتخذ من التدخل البريطاني الفرنسي مبررا لتدخله في المجر .. لذلك فان الحكومة الاميركية كانت تستهدف من وراء معارضتها للعدوان الثلاثي تعبئة الراي العام العالمي ضد احتمالات التدخل السوفياتي ..

وكان الاتحاد السوفياتي ضد التدخل البريطاني الفرنسي في مصر ، وضد العدوان الثلاثي عامة .. ولكنه لم يتخذ اي موقف فعال لوقفه في الايام الاولى ، لان اهتمامه الاول كان موجها نحو قمع الثورة المضادة في المجر .. ولم يكن على استعداد لان يشغل نفسه في اكثر من جبهة واحدة، فاكتفى بشجب العدوان ببيانات رسمية وعلى مستوى الامم المتحدة ، ليس الا .. وقد تغير موقفه فيما بعد عندما تغير الموقف لصالحه في المجر .

ولعل ما رواه شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية انذاك لعبد الناصر يعطي دليلا على ان الاتحاد السوفياتي لم يكن مستعدا لفعل شيء لوقف العدوان الثلاثي على مصر بغير الوسائل السلمية وعبر الامم المتحدة .. والسبب في ذلك لم يكن تواطئا من الاتحاد السوفياتي ولا تشجيعا للعدوان الذي كان يستهدف اسقاط عبد الناصر ، وانما لان الثورة المضادة في المجر كانت اكثر خطورة عليه من انتصار العدوان الاستعماري الصهيوني على عبد الناصر، وبالتالي فان كل استعداداته وقتئذ كانت موجهة لقمع تلك الثورة .. ولم يكن على استعداد لان يكشف عن نواياه تلك ولا من عادة الاتحاد السوفياتي ان يفعل ذلك .

« قال القوتلي في روايته : انه تلقى خبر قصف القاهرة بينما كان يهم بالدخول الى قاعة الاجتماع مع خروشوف وبولجانين والمارشال زوكوف فاضطرب وانزعج وتخلى عن جدول اعمال الاجتماع ليسأل الروس :
ماذا سيحدث !

ولما سألوه عن رايه فيما يمكنهم عمله اجابهم :
« يجب ان تتدخلوا ».
وهنا فتح زوكوف خريطة امامه وفرشها وقال :
« يا سيادة الرئيس ، هذه هي الخريطة . انظر اليها وقل لي كيف يمكننا ان نتدخل ».

عند ذلك ، قفز القوتلي عن كرسيه كما روى، وصاح :
« مارشال زوكوف . مارشال زوكوف . هل تريدني وانا المدني المسكين ان اعلمك وانت نجم الحرب العالمية الثانية كيف تتدخل ! اجل يجب ان تتدخلوا » . (١)
كان الاتحاد السوفياتي يعرف كيف يتدخل .. ولكنه كان يريد الوقت الملائم لذلك .. ولم يكن الوقت ملائما .وقتئذ بسبب التطورات المذهلة التي كانت تجري في المجر .

ورغم ان الوطن العربي لم يكن في معظمه قد تحرر من السيطرة الاستعمارية المباشرة او غير المباشرة ، اذ كان ما زال العراق في حلف بغداد ، وكانت القواعد العسكرية الاميركية والبريطانية متناثرة في ارجاء هذا الوطن ، وكان الوجود الاستعماري بكل مظاهره التقليدية جاثما بكل الثقل البريطاني على منطقة الخليج العربي حتى عدن ، وبكل الثقل الفرنسي على الجزائر .. الا ان الجماهير العربية على امتداد ارض هذا الوطن لم تكتف بالتعاطف مع الشعب العربي المصري ضد العدوان الثلاثي الاستعماري الصهيوني، انما اعتبرت المعركة معركة الامة العربية ، والعدون الواقع

(١) المرجع السابق ، ص ١٦٥ .

على مصر عدوانا على الوطن العربي· واعتبرت عبد الناصر قائدا للثورة العربية والنضال القومي العربى؛بذلكفانها التفت حوله ايمانا به ودعما لـــه ، وانطلقت تؤدي دورهـــا ، بمظاهرات صاخبة منددة بالعدوان البريطاني الفرنسي ، مطالبة بتصفية المصالح والاحتكارات البريطانية الفرنسية وقطع العلاقات الدبلوماسية مع الدولتيـــن الاستعماريتين ومقاطعة منتجاتها ، ضاغطة بكل قوتها على الانظمة العربية لتنفيذ ذلك ووضع الامكانات العربية في المعركة الى جانب الشعب العربي المصري ..

ورغم عدم جدية معظم هذه الانظمة ، بفعل اقليميتـــها وكراهيتها لعبد الناصر ، فأنها وجدت نفسها منساقة مضطرة لاصدار بيانات التنديد بالعدوان والتأييدلمصر وعبد النـــاصر والاستعداد للمشاركة في المعركة ..

لقد ابدى شكري القوتلي لعبد الناصر استعداد سوريا، وجيشها في الطليعة ، تنفيذا لاتفاقية القيادة المشتركة التي لم يكن قد مضى على توقيعها غير اسبوع . كذلك فعل الملك حسين ملك الاردن ، ولكن أدراك عبد الناصر لابعاد العدوان الثلاثـــي جعله يطلب منهما التريث ..

غير ان هذا التريث لم يمنع تفجير أنابيب البترول المـــارة بالاراضي السورية ووقف تدفقه ، وكان لذلك تأثير كبير لانه أدى الى حرمان دولتي العدوان بشكل خاص واوروبا الغربية عامة من مصادر بترولية هامة ، خاصة وأن قناة السويـــس التي كانت معبرا رئيسيا لناقلات البترول قد سدت منـــذ الساعات الاولى للعدوان .. الى جانب بداية فصل الشتاء في أوروبا وازدياد الاعتماد على البترول باعتباره الوسيلـــة الرئيسية للتدفئة ، ناهيـــك عن اعتماد الصناعة عليه .

كذلك لم يمنع ذلك التريث من انطلاق مجموعات كبيرة مـــن الفدائيين عبر خطوط الهدنة الاردنية والسورية واللبنانيـــة والقيام بعمليات كبيرة واسعة النطاق والتأثير المعـــنوي

والعسكري في انحاء الكيان الصهيوني وخاصة في المنشات العسكرية وخطوط مواصلاته وتموينـــــه ... وكان ذلـــك مشاركة كبيرة الاثر .

ورغم اهمية كل ذلك ، ابتداء من موقف القمة الدوليـــة ، مرورا بموقف المجتمع الدولي والامم المتحدة ، وصولا الـــى موقف الجماهير العربية ، فان العامل الاهم والاكثر حسمـــا كان : صمود الشعب العربي المصري بقيادة عبـــد الناصر الشجاعة . فلولا ذلك الصمود البطولي ، وتلك القـــيادة الثورية ، لما نفعت كل تلك المحاولات .

لقد كان ذلك الصمود هو نقطة التحول الى ادت الى هزيمة العدوان ، وتبرز اهمية ذلك تاريخيا وثوريا ، من خلال الادراك بان الشعب العربي المصري اعتمد في صموده على قدرتـــه الذاتية .. ولسنا هنا نهمل او نتجنى على قيمة التأييد العالمي والعربـــي ..

بل أن ذلك الصمود البطولي ، بالاعتماد على القـــدرة الذاتية للشعب العربي المصري كانت اغناء لسياسة عـــدم الانحياز وممارسة ثورية لها .

لقد كانت هناك مبررات كثيرة لكي يطلب عبد الناصر فـــي تلك الايام شديدة الحرج عونا عسكريا من الاتحاد السوفياتي، أو عونا عسكريا من الولايات المتحدة الاميركية ، أو مـــن الدولتين معا الملتقيتين على معارضة العدوان والتنديد به.. ولكنه لم يفعل ذلك ، لان الالتجاء الى هذه الدولة أو ذلك ، أو اليهما معا يتعارض مع عدم الانحياز وربما كان يـــؤدي الى مضاعفات خطيرة ضارة بالمصالح الوطنية والقومية لمصر الثـــــورة ..

أن اهمية عدم الاستعانة بالقوى الكبرى أو احداهـــا ، والاعتماد على القدرة الذاتية لدرء خطر كبير ، كان اثراء لعدم الانحياز وتأكيدا لقدرة الشعوب على ممارسته وابعاد نفسها عن مناطق النفوذ ، شريطة أن تتوفر القياده الشجاعـــه

القادرة على ممارسة ذلك .. بتعبئة الشعب وجعله ، بعطائه السخي وارادته القتالية في الدفاع عن نفسه وحقه ، هو العنصر الاساسي في مواجهة اكبر التحديات رغم انعدام التكافؤ المادي .

★★★

عاش عبد الناصر تلك الايام ، بساعاتها ودقائقها وثوانيها، بوجدانه المتيقظ ومشاعره الانسانية واحاسيسه الثورية ، تحملا منه للمسؤولية . ليس لانه قائد الثورة ، وانما لانه المسؤول الاول عن العداء للاستعمار والأمبريالية والصهيونية ، وعن قرار تأميم قناة السويس الذي من عنده بدأ تصاعد الاحداث .. وبالتالي فانه تحمل مسؤوليته القيادية على اعلى مستوى من المسؤولية يمكن أن يتحملها قائد مهما بلغت ثوريته . فقد كان يعمل أكثر من عشرين ساعة متصلة ، ولا ينام أكثر من ساعتين أو ثلاث ، كما اجمع على ذلك جميع الذين كانوا قريبين منه .

وكان أكثر ما يهمه هو الجبهة الداخلية . تماسك الجماهير وتلاحمها مع القوات المسلحة واستمرار ثقتها في نفسها وتصميمها على المقاومة .. ولذلك فانه كان يتابع انعكاسات الغارات الجوية البريطانية الفرنسية المتلاحقة والمتصاعدة يوما بعد يوم على معنويات الشعب والقوات المسلحة ، وكان يبدو شديد الارتياح وهو يلمس بنفسه أن تلك الغارات البربرية كانت تزيد الجماهير والقوات المسلحة عنادا وشراسة وبسالة نادرة في القتال واصرارا على مواصلة الصمود والمقاومة مهما غلت التضحيات .

ولقد سجل أبناء الشعب العربي المصري في تلك الايام بطولات نادرة خالدة في التاريخ العربي .. ادت في مجموعها الى صنع معجزة النصر .

أن الغارات الجوية البريطانية الفرنسية التي بقيت

متلاحقة خمسة ايام بلياليها نجحت في تدمير الكثير من المنشات والمواقع .. ولكنها فشلت تماما في التأثير على معنويات الشعب او التقليل من الالتفاف حول عبد الناصر أو اضعاف الثقة فيه . بل أن ما حدث في ذلك الايام كان على عكس كل توقعات وتقديرات الاستعمار وعلى الاخص قادة العدوان : ايدن وموليه وبن غوريون .

على جبهة القتال في سيناء ، تمكنت القوات الامامية المصرية التي تصدت لضغط الهجوم الاسرائيلي وتولت فيما بعد حماية الانسحاب الشامل ، من مقاتلة العدو رغم تفوقه، واعاقة تقدمه واحباط مخططاته . . ولقد اعترف بذلك جميع الذين كتبوا عن العدوان الثلاثي ، بما في ذلك الموالون للصهيونية .

قال ارسكين تشيلدرز الذي الف « الطريق الى السويس بحياد وواقعية » : « لقد دخل الجنرال دايان معركة سيناء معتمدا على العون الفعلي المباشر من جانب فرنسا المتمثل في قاذفات سلاحها الجوي المقاتلة النفاثة وفي البحرية الفرنسية . » (١)

بل ان دايان نفسه اعترف بهذه الحقيقة فقال في مذكراته عن حملة سيناء ١٩٥٦:« لولا العملية الانجلوفرنسية المشتركة لكان من المشكوك فيه أن تشن اسرائيل هجومها . ولو فعلت لكان طابعه قد اختلف عسكريا وسياسيا على حد سواء » .

ورغم ان دايان باعترافه هذا يؤكد ان دور اسرائيل كان جزءا من مخطط استعماري بريطاني فرنسي ، وترتب على ذلك بالطبع توفير الحماية والدعم للقوات الاسرائيلية ، الا ان هذه القوات رغم تفوقها في نوع الاسلحة وكثافتها ، عجزت عن احراز تقدم حاسم الا بعد الانسحاب المصري الشامل ..

---

(١) ارسكين تشيلدرز . الطريق الى السويس ، ص ٢٧٦ .

والوقائع التالية المستقاة من كتاب « حملة سيناء » لمؤلفه المتعاطف مع الصهيونية الرائد « ادجار اوبالانس » تؤكد ذلك .

وقبل تسجيل هذه الوقائع تجدر الاشارة الى أن العدوان الاسرائيلي بدأ يوم ٢٩ اكتوبر . وفي مساء ذلك اليوم اتخذ قرار توجيه القوات المسلحة المصرية لخوض معركة حاسمة مع العدو في منطقة بير روض سالم . وقبل أن تبلغ هذه القوات هدفها كان الانذار البريطاني الفرنسي مساء يوم ٣٠ اكتوبر . وبعده بساعات كان قرار الانسحاب الشامل.

في ضوء هذه الاشارة دعونا نتمعن في الوقائع العسكرية التالية :

● أن المظليين الذين هبطوا في منطقة ممر المتلا كانوا قد وصلوا الى حالة شنيعة من الجهد والانهاك على حد تعبير « أوبالانس » وبقوا في موقف دفاعي ، يتعرضون الى هجمات متلاحقة من المصريين . ولم يتمكنوا من التقدم شبرا واحدا الا بعد انسحاب القوات المصرية من تلك المنطقة في الثالث من نوفمبر .

● في اقصى الجنوب لم تتمكن القوات الاسرائيلية المؤلفة من لواء مدرع ووحدات بحرية مدعمة بغارات جوية كثيفة بقنابل النابالم ، من احتلال شرم الشيخ الا في الخامس من نوفمبر بعد مقاومة بطولية .

● في قطاع غزة سقطت غزة في الثاني من نوفمبر .. وقاومت خان يونس ببطولة حتى الثالث من نوفمبر .. وشاركت البحرية الفرنسية في دعم الهجوم الاسرائيلي ..

● في منطقة رفح ، فشلت القوات الاسرائيلية في احراز اي تقدم الى ان تعاونت المدافع والدبابات الاسرائيلية والبوارج الفرنسية في قصف المواقع المصرية في الساعات المبكرة من صباح الاول من نوفمبر .

● في منطقة القسيمة وابو عقيلة . يقول أوبالانس : احتل

الاسرائيليون القسيمة بصعوبة هائلة وبعد خسائر فادحة . وردوا على أعقابهم عند أبو عقيلة رغم أنهم كانوا يهاجمون بمائتي دبابة . ولم يتمكنوا من احتلاله الا في الثاني من نوفمبر بعد مائة ساعة من القتال الضاري، رغم التفوق الاسرائيلي. .

ان هذه الوقائع تؤكد أنه « لو لم يقع التدخل البريطاني الفرنسي ، لطالت حملة سيناء اياما واياما ، واسابيع واسابيع . ولكانت اسرائيل خرجت من القتال حتما وهي مثخنة بالجراح ومجهدة ماليا واقتصاديا وماديا ، وكانت خسائرها في الارواح ستبلغ حدا مرعبا بالنسبة الى دولة صغيرة كاسرائيل » . (١)

واذا أضفنا الى تلك الوقائع ، العمليات الفدائية الانتحارية والبطولات الخارقة التي قامت بها البحرية المصرية والطيارون المصريون في تلك الظروف غير المتكافئة لامكننا أن ندرك سخاء العطاء ، وقيمة التفاعل بين القائد والشعب .

***

الخامس من نوفمبر كان ثامن أيام العدوان . وكان بالنسبة للتدخل البريطاني الفرنسي سادس أيام الغارات الجوية المتلاحقة نهارا وليلا . . وكانت تقديرات العسكريين البريطانيين والفرنسيين أن تلك الغارات دمرت قوة مصر العسكرية وانهكت قوى الشعب العربي المصري ، وحطمت أعصاب عبد الناصر ، وبذلك فان أرض مصر غدت مهيأة لنزول قوات الاحتلال .

كانت التقديرات خاطئة ولا شك ، وكان الاقدام على الغزو وانزال القوات البريطانية والفرنسية جوا وبحرا دليل اليأس وليس دليل القوة ، ومحاولة اخيرة من ايدن ومولييه لعلها تصيب .

كان اختيار ذلك اليوم مرتبطا بانتخابات الرئاسة الاميركية

---

(١) ادجار اوبالانس . حملة سيناء .

التي كانت ستجري في اليوم التالي ، السادس من نوفمبر ، وباخر تطورات الثورة المضادة في المجر التى كانت بلغت ذروتها بالتدخل المسلح وقمعها في اليوم السابق ، الرابع من نوفمبر ..

كانت حكومة الثورة المضادة في المجر قد قررت في الثاني من نوفمبر في اجتماع لها برئاسة ايمري ناجي ارسال وفدين في مهمتين على جانب كبير من الخطورة :

وفد الى موسكو لابلاغ الاتحاد السوفياتي بقرار انسحاب المجر من حلف وارسو ومطالبته بسحب قواته من الاراضي المجرية .

ووفد ثان الى الولايات المتحدة الاميركية للمطالبة بمساعدات عسكرية واقتصادية أميركية ، ومطالبة الامم المتحدة بارسال قوات باسمها الى المجر !

وفي مساء الثالث من نوفمبر ، وجه الكاردينال « مندزينتي » بيانا اذاعيا الى الشعب المجري أعلن فيه انتهاء عهد الشيوعية ، وانه الوريث لذلك العهد ، وانه سيتم تبعا لذلك اعادة الاراضي والممتلكات والعقارات والمصانع وما الى ذلك الى أصحابها .. وكان معنى ذلك البيان : اعادة السيادة في المجر للاقطاعيين والراسماليين مع ما يترتب على ذلك بالطبيعة من ارتماء في أحضان الامبريالية الاميركية ..

بذلك لم يعد أمام الاتحاد السوفياتي خيار في الاستجابة الى طلب الحكومة المجرية الشرعية الاشتراكية التي تشكلت في مدينة « سون لوك » . فتدخل بقواته المسلحة في الرابع من نوفمبر ، وقمع الثورة المضادة ، واستعاد العاصمة بودابست خلال ساعات قليلة ..

كان ذلك التدخل الحاسم دليلا على أن الاتحاد السوفياتي كان منذ الثالث والعشرين من اكتوبر منشغلا في الخطر المفاجىء الذي دهمه في عقر داره .. ولم يلتقط انفاسه الا بعد قمع الثورة المضادة في اليوم الثالث عشر لاندلاعها .

ولم تتمكن الولايات المتحدة الاميركية من عمل شيء أكثر من اللجوء الى الامم المتحدة ، فقد كانت الضربة السوفياتية للثورة المضادة قوية حسمت آلامر خلال ساعات . تولت بعدها الحكومة المجرية الشعبية أعتقال زعماء الثورة . وحاكمتهم في عام ١٩٥٧ وقضت على بعضهم ، وفي مقدمتهم أيمري ناجي بالاعدام . وقضت على الاخرين بالسجن مع الاشغال الشاقة .

وفي الامم المتحدة، راحت أميركا تندد بالتدخل السوفياتي وتعتبره عدوانا على عضو في الهيئة الدولية ، وتطالب بانسحاب القوات السوفياتية فوراً من الاراضي المجرية .

وبينما الامم المتحدة غارقة في مناقشاتها العقيمة ، قرر ايدن ، ومولية اعطاء الامر الى الجنرال كيتلي قائد القوات البريطانية الفرنسية المحتشدة في قبرص لتنفيذ خطة الغزو .

ولعل الانشغال العالمي بالتدخل السوفياتي الحاسم في المجر شجع ايدن ومولية على التدخل العسكري بقوات الغزو في مصر واسقاط عبد الناصر كما أسقط السوفيات أيمري ناجي مع الفارق الجوهري بين شخصية عبد الناصر الثورية المعادية للاستعمار والامبريالية والصهيونية ، وشخصية ايمري ناجي العميلة للامبريالية والصهيونية ·· وكذلك مع الفارق الجوهري في دوافع التدخل السوفياتي في المجر والتدخل الاستعماري البريطاني الفرنسي في مصر .

ولم يكن أمام الرئيس ايزنهاور وحكومته غير أدانة الغزو البريطاني الفرنسي ، والمطالبة بوقف القتال فورا والانسحاب من الاراضي المصرية ·· والا فكيف يمكن تبرير التنديدبالتدخل السوفياتي في المجر أمام الرأي العام الاميركي والعالمي ، بل وأمام التاريخ اذا لم يكن هناك تنديد مماثل بالتدخل البريطاني الفرنسي في مصر !

لقد كان موقفا صعبا للغاية بالنسبة للرئيس ايزنهاور عشية انتخابات الرئاسة . وكان موقفا شجاعا منه ، ان لا يتأثر بقوى الضغط الصهيونية قبيل ساعات قليلة من الانتخابات .

واذا كان ايزنهاور أسقط بموقفه ذاك بدعة السيطرة الصهيونية على اتجاهات انتخابات الرئاسة الاميركية ، فان دوافع ومبررات ذلك الموقف كانت نابعة من المصالح الاستراتيجية للامبريالية الاميركية التي تحكم حركة السياسة الاميركية وتجعلها في خدمة تلك المصالح .

ولقد استفاد عبد الناصر من ذلك . هذه حقيقة لا شك فيها ، ولا يجوز نكرانها أو التنكر لها . ولكن هذه الفائدة لم تكن مقصودة ، وانما كانت نتيجة تضارب المصالح الامبريالية الاميركية والاستعمارية البريطانية الفرنسية .

***

كانت بور سعيد هي الهدف الاول للغزو ، بحيث تتحول الى رأس جسر وقاعدة انطلاق لاحتلال منطقة القناة كلها ، من شمالها الى جنوبها ، بعد أن تكون قاذفات القنابل البريطانية الفرنسية مهدت الطريق أمامها وأنزلت وحدات المظليين في المواقع الاستراتيجية على امتداد القناة .

ولتحقيق هذا الهدف الاول ، فان قاذفات القنابل والبوارج والمدمرات ومختلف انواع السفن الحربية البريطانية الفرنسية اشتركت في قصف مدينة بور سعيد على مدى ساعات متلاحقة بالاف الاطنان من القذائف والمتفجرات كانت كافية في تصور وتقدير قيادة الغزو لان تجعل الطريق امام الغزاة ممهدة خالية من المقاومة .. ولكنها كانت تقديرات خاطئة..

لقد أبيدت عن اخرها وحدات المظليين الاولى التي أنزلت في مطار الجميل . وواجهت قوات الغزو مقاومة بطولية عنيدة لم تهدأ لحظة واحدة .

كان عبد الناصر في ذلك اليوم في طريقه الى منطقة القناة ليحيي صمود الجماهير والقوات المسلحة ويبعث فيها مزيدا

من العزيمة وروح المقاومة غير هياب لاسراب الطائرات المعادية المعربدة في سماء المنطقة . ولقد تلقى الانباء الاولى للغزو وهو في انشاص ، فاضطر الى العودة للقاهرة تحت ضغط مرافقيه ليكون على اتصال أسرع وأدق بتطورات الموقف من مقر القيادة المجهزة بأحدث وسائل الاتصال .

ورغم ان الغارات الجوية كانت قد نجحت قطعًا بتدمير محطات الارسال الاذاعية في محاولة يائسة لاخماد اذاعات القاهرة وصوت العرب لتسهيل مهمة الحرب وتحطيم معنويات الشعب العربي المصري والامة العربية ، الا أن محطات اذاعية بديلة كانت مجهزة لمثل هذه المواقف الطارئة أحبطت المحاولة الاستعمارية ، وبذلك فان صوت الثورة استمر متدفقا هادرا ، مفندا مزاعم الاعداء ، ومؤكدا التصميم على القتال والمقاومة والصمود بقيادة عبد الناصر .

وكان ما لقيه الغزاة من مقاومة متصلة قد بدد أوهامهم واحلامهم وجعلهم يوقنون ان طريقهم مزروع بالموت ، وان كل معلوماتهم التي بنوا عليها تقديراتهم كانت خاطئة . فها هي الجماهير ، بعد أسبوع كامل من الغارات والحصار والتدمير والتقتيل والحرب النفسية ، تزداد أيمانا بعبد الناصر والتفافا حوله ، وتفاعلا معه وثقة فيه ، وتصميما على مواصلة القتال والمقاومة والصمود معه حتى اخر طلقة واخر رمق ..

***

في ثاني أيام الغزو البريطاني الفرنسي ، السادس من نوفمبر ، بينما الولايات المتحدة الامريكية منشغلة بانتخابات الرئاسة التي تمت في ذلك اليوم وفاز فيها ايزنهاور فوزا كاسحا ، ثم بينما الغزاة يضربون بكل قواتهم الجوية والبحرية والبرية في محاولة يائسة لاخماد أنفاس مصر ومقاومتها كسبا للوقت ومن أجل وضع العالم تحت الامر الواقع .. ثم بينما الشعب العربي المصري بقواته المسلحة يقاوم الغزاة

بقيادة عبد الناصر ببطولة خارقة ، والمجتمع الدولي في اشد حالات التوتر والانشغال والاعجاب بصمود مصر الثورة في وجه العدوان .. اذ بانذار من الاتحاد السوفياتي ، فيه كل معاني الجدية والحسم ، يطلب فيه من أطراف العدوان ، وعلى الأخص من بريطانيا وفرنسا ، بوقف القتال فورا والانسحاب من الارض المصرية والا فان الصواريخ عابرة القارات سوف تقصف لندن وباريس ..

لقد كان لذلك الانذار اثره الفعال وانعكاساته الخطيرة على الموقف الاميركي من العدوان من جهة ، والموقف البريطاني الفرنسي الصهيوني من جهة أخرى .. ذلك أن الولايات المتحدة الاميركية لم تكن تسمح للاتحاد السوفياتي بتنفيذ انذاره وتوجيه ضرباته لباريس ولندن اللتين تشكلان ثقلا رئيسيا في المعسكر الراسمالي ، ولا كانت هناك مصلحة للامبريالية الاميركية بتصعيد الموقف المتفجر الى حد المواجهة المسلحة مع الاتحاد السوفياتي واشعال حرب عالميه نووية رهيبة في نتائجها على المتحاربين والجنس البشري عامة ، كما أن الاتحاد السوفياتي من جانبه لم يكن يريد المواجهة التصادمية مع الولايات المتحدة الاميركية ، وانما كان يريد وقف العدوان الواقع على مصر .. وليس في هذا أي تناقض مع الموقف الاميركي الذي كان شديد الحساسية في أي دور يلعبه السوفيات في هذه المنطقة الحيوية .

بذلك فان الجدية في الانذار السوفياتي جعلت الولايات المتحدة الاميركية اشد رفضا وادانة للعدوان الواقع على مصر ، واكثر ضغطا على بريطانيا وفرنسا لوقف غزوهما والانسحاب من منطقة القناة .

وقد أدى هذا التلاقي السوفياتي الاميركي غير المقصود بطبيعة الحال، النابع من مصالح متناقضة وأغراض متباينة، الى جعل الامم المتحدة أكثر فعالية في اتخاذ القرارات والضغط من أجل تنفيذها . وكانت أطراف العدوان الثلاثي،

بعد أن يئست من الحاق الهزيمة بمصر الثورة وغدت عاجزة عن مواجهة الموقف السوفياتي الاميركي ، تفضل التستر في تراجعها وتغطية هزيمتها بالتظاهر بالانصياع لارادة المجتمع الدولي على الانصياع للانذار السوفياتي أو الضغط الاميركي.

وقد كان هناك قرار من الامم المتحدة (١) اتخذته في الثاني من نوفمبر يدعو الى وقف القتال فورا والانسحاب الى ما وراء خط الهدنه الذي كان قائما قبل التاسع والعشرين من اكتوبر ، ولم تكن القوات البريطانية والفرنسيةقدبدأتغزوها مكتفية بالغارات الجوية ودعم القوات الاسرائيلية .. وكانت أطراف العدوان متجاهلة ذلك القرار ، معلقة امالها على انهيار عبد الناصر والمقاومة المصرية .

ولكن بعد الانذار السوفياتي بساعات قليلة في نفس يوم السادس من نوفمبر ، قررت بريطانيا وفرنسا قبول وقف اطلاق النار ، وأعلنتا ذلك رسميا وقتئذ ، وأصدرتا الاوامر لقواتهما بالبدء في تنفيذه فورا ·ولكن القتال من جانب المقاومة الشعبية المصرية لم يتوقف الامر الذي أرغم قوات العدوان على التعجيل في الانسحاب ، وقد تم ذلك بصفة نهائية في الثاني والعشرين من ديسمبر ١٩٥٦ تحت اشراف قواتدولية من يوغسلافيا والدانمرك وكندا ، ثم ما لبثت هذه القوات أن تولت الآشراف على انسحاب قوات العدو الصهيوني الى ما وراء خط الهدنة ، واستقرت على ذلك الخط حتى مايو ١٩٦٧ .

أن قرار وقف القتال من جانب بريطانيا وفرنسا ، رغم ارتباطه بمجموعة عوامل أهمها الانذار السوفياتي والضغط الاميركي والامم المتحدة ودول عدم الانحياز والرأي العام

---

(١) اتخذ ذلك القرار باغلبية ٦٤ دولة وعارضته خمس دول هي بريطانيا وفرنسا واسرائيل واوستراليا ونيوزيلنده . وامتنعت عن التصويت كندا . هولندا . بلجيكا . البرتغال . لاوس . جنوب افريقيا .

العالمي ، وانهيار الاسترليني والفرنك ، وانقسام الرأي العام في بريطانيا بالذات ، ونسف انابيب البترول في سوريا ، وتهديد المصالح الاستعمارية في الوطن العربي من جراء غضبة الجماهير ، الا أن ذلك القرار تأثر في الدرجة الاولى وارتبط بشكل رئيسي بالمقاومة البطولية من القوات المسلحة وجماهير الشعب العربي المصري .

ان تلك المقاومة ، والقدرة على الصمود في وجه العدوان الثلاثي وارتباط ذلك ارتباطا عضويا وثيقا بقيادة عبد الناصر الشجاعة ، كان هو العامل الاول والاهم في هزيمة العدوان .

أن أيدن يعترف بهذه الحقيقة فيقول : « كان المتفائلون يرون أن القتال لو استمر ثمان واربعين ساعة أخرى لامكن احتلال القناة كلها ولانتهى القتال . ولكن ذلك لم يكن ما نصحنا به العسكريون ، اذ كان الامر في تقديرهم يحتاج الى خمسة ايام وقد يحتاج الى فترة اطول . وحتى اذا لم يستمر قتال الوحدات المنظمة طويلا فان ما عمد اليه الجيش المصري في بور سعيد من استخدام اساليب حرب العصابات كان يحتمل أن يتكرر » . (١)

اذن فان العامل الاساسي في هزيمة العدوان ، هو المقاومة البطولية والصمود التاريخي للشعب العربي المصري ، وذلك مرتبط بالارادة الشجاعة والقيادة الثورية لعبد الناصر ..

أما العوامل الاخرى ، بما في ذلك الانذار السوفياتي والضغط الاميركي فانها كانت عوامل مساعدة ، ولم تكن اكثر من ذلك ، اذ بنيت على العامل الاساسي : المقاومة والصمود .

ولو لم تصمد مصر الثورة تسعة أيام في وجه عدوان دولتين استعماريتين كبريين هما بريطانيا وفرنسا ومعهما اسرائيل ، من ٢٩ اكتوبر حتى السادس من نوفمبر ، لما كان هناك الانذار السوفياتي اصلا . ولما كان للضغط الاميركي ولبقية عوامل الضغط

---

(١) مذكرات ايدن ص ٢٥٤ .

الاخرى اية قيمة فعالة · بل ان النوايا الحقيقية للولايات المتحدة الاميركية ، رغم الضغط الذي مارسته ، كانت مع العدوان رغم تضارب مصالحها مع المصالح البريطانية الفرنسية ، ثم رغم أطماعها في وراثة الاستعمار في هذه المنطقة الحيوية من العالم . فلقد كانت تتمنى سقوط عبد الناصر بفعل ذلك العدوان الثلاثي الاجرامي . هذه حقيقة اثبتها أيدن في مذكراته بقوله :

« في الشهور التي تلت حملة السويس سمعت وقرات مرارا وتكرارا ذلك التعقيب ، وخاصة من أميركا ، بل ومن الذين يحتلون المناصب العليا فيها : « لو أنكم مضيتم في عملياتكم ! » والمعنى المستفاد من هذا انه لو كانت القناة قد احتلت وتحققت العملية العسكرية الرئيسية فان أميركا كانت تغير اجاهها » . (1) وهذا صحيح .

ولكن سارت الامور على غير ما دبر المعتدون وخططوا ، وغير ما اشتهت الامبريالية الاميركية وتمنت . فعلى الرغم من انعدام التكافؤ العسكري بين المعتدين ومصر فان عبد الناصر بارادته الثورية تمكن بنجاح مذهل من تعبئة الشعب العربي المصري وقواته المسلحة والارتفاع بهما الى أعلى مستويات المسؤولية والمقاومة والصمود ، والحاق الهزيمة بفعل ذلك بالمعتدين .

***

لقد اصر عبد الناصر على ان تكون الهزيمة بالمعتدين كاملة غير منقوصة ، ودعم اصراره ذاك بالمقاومة الشعبية وضغط الجماهير العربية والرأي العام العالمي والمجتمع الدولي .. ونجح في ابطال كل المحاولات التي عمدت اليها بريطانيا وفرنسا واداتهما اسرائيل للمماطلة في الانسحاب وانتزاع بعض المكاسب ..

---

(1) المصدر السابق .

حاولت بريطانيا وفرنسا الربط بين انسحاب قواتهما وبين وضع القناة تحت أي نوع من الاشراف الدولي .. ورفض عبد الناصر ذلك ونجح .

وحاولت أطراف العدوان ومعها الولايات المتحدة الاميركية والدول الرأسمالية الاستعمارية انتزاع حرية الملاحة لاسرائيل، أو على الاقل المرور البريء لسفنها بقناة السويس . ورفض عبد الناصر ذلك ونجح .

وحاولت الدول الاستعمارية وفي مقدمتها بالطبع أطراف العدوان ، الربط بين ازالة اثار العدوان والتصفية النهائية الشاملة للقضية الفلسطينية . ورفض عبد الناصر ذلك ونجح ..

وحاولت اسرائيل التشبث ببعض المواقع في سيناء وقطاع غزة . واصر عبد الناصر على انسحابها الى ما وراء خط الهدنة الذي كان قائما قبل العدوان الغادر. ونجح في ذلك .

وجرت محاولة يائسة لعزل مصر عن القضية الفلسطينية من خلال وضع قطاع غزة تحت ادارة دولية . ورفض عبد الناصر ذلك . وتفاعلت ارادة الشعب العربي الفلسطيني معه . وانتفض القطاع وتفجرت في ارجائه المظاهرات الهاتفة بحياة عبد الناصر ، المتمسكة بقيادته وعودته للادارة المصرية . وبذلك احبطت المؤامرة الاستعمارية الصهيونية . وبقيت العلاقة العضوية المصيرية بين مصر والشعب العربي الفلسطيني .

الشيء الوحيد الذي اضطر عبد الناصر للقبول به في ضوء الظروف الدولية والواقع العربي كان مرابطة القوات الدولية على خط الهدنة وشرم الشيخ مع الاحتفاظ لمصر بحق سحب هذه القوات وقت تشاء . وقد مارس عبد الناصر هذا الحق في مايو ١٩٦٧ .

بذلك ، نجح عبد الناصر في أن يحرم المعتدين من اي مكسب .

كان بن غوريون قد أعلن في الكنيست في الايام الاولى للعدوان:ضم سيناء لاسرائيل باعتبار انها كانت ارضا يهودية مغتصبة قد تم تحريرها . ثم ما لبث أن وقف في الكنيست اياه بعد أيام قليلة ليعلن وهو يبكي : اضطرار القوات الاسرائيلية الى الانسحاب من سيناء وقطاع غزة . وكانذلك أمرا طبيعيا بعد اضطرار القوات البريطانيه والفرنسية الى الانسحاب دون قيد او شرط من منطقة القناة ، اذ كان موقف العدو الصهيوني معتمدا على الموقف البريطاني الفرنسي ومرتبطا به . وقد تمت اخر مراحل الانسحاب من قطاع غزة في السابع من مارس ١٩٥٧ .

ولقد ترتب على هزيمة العدوان سقوط الرؤوس المدبرة له والمسؤولة عنه .

كان هؤلاء يستهدفون اسقاط عبد الناصر ،
وكانت النتيجة سقوطهم تباعا .
كان ايدن أول الرؤوس التي سقطت .
ثم تبعه جي موليه .
ثم تبعهما بن غوريون .

وأما عبد الناصر فقد خرج بطلا قوميا منتصرا ، ورمزا للثوار في أنحاء العالم ، عبر عن ذلك قائد الثورة الكوبية فيدل كاسترو بقوله لعبد الناصر عندما التقيا في الاممالمتحدة في العام ١٩٦٠ :

« أن معركتك في السويس كانت الهاما لثوارنا في جبال سبيرامايسترا » .

وغدت النتائج أكبر من ذلك وأبعد ..
غدت معركة السويس ، فاصلا في التاريخ ..
فلقد ترتب على هزيمة العدوان سقوط الامبراطوريتين الاستعماريتين البريطانية والفرنسية .. وتراجع الدولتين الكبريين اللتين كانتا تتقاسمان أفريقيا واسيا الى الصفوف الخلفية مثخنتين بجراح غائرة..

وبذلك اندفعت حركة التاريخ ، وانفتحت الابواب واسعة أمام الشعوب في أنحاء العالم لتدخل منها الى عصر الحرية والاستقلال ، وتعبر من عصر الاستغلال والعبودية الى عصر اكتشاف الذات والتقدم .

ويرتبط ذلك بعبد الناصر الذي سيبقى خالدا في التاريخ لدوره القيادي الثوري البارز في هزيمة الاستعمار وبعث ارادة الثورة والقدرة على مواجهة التحديات في الشعوب .

أن ذلك الدور التاريخي لم ينته باسقاط الامبراطوريتين الاستعماريتين التقليديتين .. ذلك لان عبد الناصر كان عدوا للاستعمار بكل أشكاله ومظاهره . ولم يكن الاستعمار هو بريطانيا وفرنسا وحدهما . ولا كان العدوان الواقع على الوطن العربي هو العدوان الثلاثي دون سواه ، ولا العدوان الصهيوني وحده فقط .

فالاستعمار بقي بعدئذ وما زال بأشكال ومظاهر مختلفة . والعدوان الصهيوني بقي وما زال . واستمر عبد الناصر في اندفاعه الثوري نحو الاهداف الوطنية والقومية المتمثلة في الحرية والاشتراكية والوحدة وتحرير فلسطين . وبذلك لم يكن مفر من الصدام واستمرار الصراع .

الفصل العاشر

لمن الحرية..؟

لم يشهد التاريخ في مسيرته الطويلة عبر عصوره المختلفة أن تجمعت قوى عالمية ومحلية كبرى في عدائها ومحاربتها لقائد ثورة في بلد من بلاد العالم بما في ذلك الثورة الشيوعية في الاتحاد السوفياتي . كما تجمعت في عدائها ومحاربتها لعبد الناصر . فالدول التي شنت الحرب المسلحة العدوانية على الثورة الشيوعية الروسية كانت الدول الاستعمارية الاوروبية المتحالفة بطبيعة الحال مع الرجعية الروسية مستهدفة اعادتها الى الحكم . ولكن القوى التي حاربت عبد الناصر شملت بالاضافة الى الدول الاستعمارية الاوروبية : الامبريالية الاميركية والرأسمالية العالمية والرجعية المحلية المصرية والعربية الاقليمية وحركات سياسية تقدمية عقائدية عالمية ، مستهدفة اسقاطه .

ولم يكن العداء موجها لشخص عبد الناصر بدليل أنه استمر بعد وفاته ، وانما كان هذا العداء وما زال موجها لمبادىء القومية العربية واهداف وأفكار الثورة العربية التي جسدها عبد الناصر وتجسدت فيه متمثلة في الحرية والاشتراكية والوحدة التي تشكل السبيل لتحرير فلسطين من الاغتصاب الصهيوني .

لقد كانت تلك القوى مجتمعة ومتفرقة ، على استعداد لان تتقبل عبد الناصر وتتعامل معه بل وتدعمه لو أنه لم يؤمن بالقومية العربية ، وبالتالي بالوحدة وبالاشتراكية ، ثم لو لم يبق حريصا على انتمائه للطبقات الكادحة من الفلاحين والعمال وغيرهم من المحرومين والمسحوقين، ورفضه الانسلاخ عن تلك الطبقات والانتماء للطبقة البرجوازية . طبقة الاقطاعيين والرأسماليين .

وما زالت هذه القوى مجتمعة ومتفرقة على استعداد لان

تتقبل وتحتضن وتدعم أي حكم مصري يتخلى عن القومية العربية والوحدة والاشتراكية ، وينكمش على ذاته الأقليمية.. لان ذاك التخلي وهذا الانكماش يجعل مصر غارقة في مشاكلها المتوارثة المتراكمة ، غير مؤثرة في الاحداث ،ويترتب على ذلك ضعف لمصر والامة العربية على السواء ، الامر الذي يهيء مناخا ملائما لاحتواء الوطن العربي وتثبيت الغزو الصهيوني .

ولكن عبد الناصر لم يتخل عن ايمانه بالقومية العربية ، ولا عن نضاله لتحقيق الوحدة العربية ، واتخذ الحريةوالاشتراكية سبيلا الى ذلك .

وكان عبد الناصر يدرك ان هذا الذي رفض التخلي عنه يجعله في صراع مرير قاس مع جميع القوى المستفيدة من بقاء مصر أقليمية ، وبقاء الوطن العربي في واقعه الاقليمي.. وقد اختار الانطلاق على هذا الطريق ، لانه كان ينشد الحياة الحرة الكريمة ، وحل المشاكل المصرية والعربية حلا جذريا، وبناء القوة العربية الذاتية القادرة على مواجهه التحديات وبناء التقدم وفتح افاق المستقبل للانسان العربي .

وكان أمرا طبيعيا أن يترتب على ذلك تناقض حاد ، عرفنا بعض أبعاده في الفصول السابقة ، بين عبد الناصرومجموعة القوى التي حاربته بشتى أنواع الاسلحة ، صاحبةالمصلحة في استمرار أقليمية مصر، وأقلمة القضايا العربية ،واستمرار الواقع العربي الاقليمي ، تظلله شعارات دعائية ومزايدات كلامية .

ولقد ازداد التناقض والصراع حدة وعنفا وتصاعدا ، بعد الوحدة مع سوريا ، والثورة الاجتماعية الاشتراكية في اقليمي الجمهورية العربيه المتحدة ، ثم بفعل اصرار عبد الناصر على أن تبقى الجمهورية العربية المتحدة بعد الانفصال قلعة وقاعدة وقيادة للنضال القومي العربي رغم

كل ما سببه هذا الانتماء القومي من متاعب مريرة مع رفاق له من طلائع الثورة .
كان عبد الناصر اذن هدفا لتلك القوى ، شنت عليه حروبا عدوانية متلاحقة بهدف اسقاطه .

اما عبد الناصر ، فلم يكن هدفه اسقاط أنظمة الحكم في الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا وفرنسا وغيرها من الدول الاستعمارية والامبريالية .. انما كان هدفه استعادة الحقوق العربية المغتصبة ، واعادة الوطن العربي الى أصالته الوحدوية ، وتحرير الانسان العربي من الاستغلال والقهر ، والمجتمع العربي من السيطرة والتسلط . وتحرير أرادة الشعب العربي من قيود الاقليمية وسلاسل الاستعمار واحتكاراته الرهيبة ليتمكن من ممارسة حقه الطبيعي في السيادة وأستثمار امكاناته وموارده في صنع مستقبله والانتقال من التخلف الى التقدم على جسور التنمية وقواعد الكفاية والعدل ، انتاجا وتوزيعا .

لم يكن شيء من ذلك يتم الا اذا أنتزع انتزاعا من براثن الاستعمار والامبريالية .. وعلى الاخص براثن أميركاوبريطانيا وفرنسا صاحبة الاحتكارات الهائلة في أرجاء الوطن العربي. ولا كان شيء من ذلك يتم في مصر أو في الوطن العربي الا اذا أنتزع أنتزاعا من براثن الاقطاعيين والرأسماليين والعائلات الاقطاعية المالكة والمتملكة ، التى استمرأت الاستغلال والبطش ، والمرتبطة مصلحة ومصيرا بالاستعمار والامبريالية .

ولقد تمكن عبد الناصر من أن ينتزع كل ما كانت تغتصبه الرجعية المصرية واالاستعمار ويعيده الى اصحابه الشرعيين من الفلاحين والعمال والكادحين . ثم تمكن من أن يضع حدا للاستغلال ، وجعل الوسائل الرئيسية للانتاج ملكا للشعب وتحت سيطرته ، وفتح أبواب العمل والعلم والعلاج لكل أبناء الشعب بدون تفرقة أو تمييز .

لقد فعل عبد الناصر كل ذلك من اجل أن تسود المجتمع حرية حقيقية . حرية سياسية وحرية اجتماعية للوطن والمواطن .. ونجح في احداث تغيرات اجتماعية جوهرية .

واعتبرت كل القوى المتضررة من ذلك مباشره أو بطريقة غير مباشرة ، ابتداء من الرجعية الاقليمية وامتدادا الى الصهيونيةعبورا بالاستعمار والامبريالية، انه سلوكدكتاتوري ظالم مناف للحريات العامة والحرية الشخصية .. وجعلوا ذلك محورا رئيسيا للحملات الدعائية وحروبهم النفسية الموجهة ضد عبد الناصر .

ولم تتوقف هذه الحملات والحروب بوفاة عبد النّاصر . لان الهدف كان وما زال هو القضاء على المنجزات والمكاسب الضخمة التي حققها الشعب العامل الكادح ، وقتل الافكار والمبادىء التي ضربت جذورها في أعماق الانسان والمجتمع العربي ..

أنها الثورة المضادة التي وجدت لها طريقا الى داخل مصر عبر بعض الصحف والمجلات بواسطة مجموعة من الكتاب والادباء ، بعضهم بدافع الحقد والعمالة ممن أدانهمالقضاء بخيانة الشعب والوطن . وبعضهم الاخر بدافع الانتماء الطبقي للبرجوازية الاستغلالية . وبعضهم بدافع الانتماء العقائدي ، أو لقاء أجر من هذا السيد أو ذاك النظام أو تلك الجهة الاستعمارية .

***

لقد كان ايمان عبد الناصر شديدا بأنه لا يمكن أن تكون هناك حرية للانسان ما دام هناك استغلال في المجتمع . وجعل سلوكه منسجما مع هذا الايمان النابع اصلا من مبادىءالاسلام وتعاليمه . فاتجه الى الاشتراكية بأعتبار أنها السبيل لمنع استغلال الانسان للانسان . والانتقال السريع من التخلف الى التقدم .

كان الواقع في المجتمع العربي المصري قائما على الاستغلال، متناقضا كل التناقض مع مبادىء وتعاليم الاسلام . ورغم ذلك كان هناك استغلال للدين ورجاله للدفاع عن ذلك الواقع الظالم .

كان نصف واحد في المائة يملكون أكثر من خمسين في المائة من الانتاج القومي . وكان كثيرون من أبناء طبقة النصف واحد في المائة من الاجانب الاوروبيين .

كان هؤلاء الاجانب الاوروبيون من أبناء الدول الاستعمارية يسيطرون على التجارة والهياكل الرئيسية للانتاج والبنوك وشركات التأمين .. وأمتدت سيطرتهم حتى بلغت الارض ومنتوجاتها الزراعية . وكان يهمهم بطبيعة الحال الربح السريع ، أي استغلال المواطن المصري وامتصاص دمه ، ولذلك فانهم لم يتجهوا ولا أتجه الراسماليون المصريون الى الصناعة اللهم غير بعض الصناعات الاستهلاكية . وكان كل ما انفق على الصناعة في العام ١٩٥١ الذي سبق الثورة مبلغ مليون ومائة ألف جنيه .. ولم يكن هناك ما عرف بعد الثورة بالقطاع العام .

كانت مجموعة من العائلات الاقطاعية تملك مئات الالوف، بل وملايين الافدنة ، مقابل ملايين من الفلاحين كانوا لا يملكون شيئا ..

وكان هؤلاء وأولئك ، ضمانا لاستمرار استغلالهم ، مرتبطين مصلحة ومصيرا بالاستعمار ..
وكان الحكم في أيديهم اذ كانوا بطبيعة مصالحهم مرتبطين بالنظام الملكي الأقطاعي .

وكان لهؤلاء برلمان . واحزاب . وصحف ومجلات ..

كان البرلمان للاقطاعيين والراسماليين .. ولم يكن للعمال والفلاحين والكادحين والمحرومين .

وكانت قيادات الاحزاب من الاقطاعيين والرأسماليين . وكانت تلك القيادات تتلاعب بعواطف جموع الشعب بشعارات زائفة خادعة كاذبة ..

وكانت الصحافة بأيدي القادرين على الانفاق عليها .وكانوا هؤلاء من الرأسماليين أو من أمثال علي أمين ومصطفى أمين الذين يعتمدون على تمويل المخابرات المركزية الاميركية أو غيرها من الجهات الاجنبية .

« كان سلطة الدولة كلها في يد تحالف رأس المال والاقطاع . كان فيه مائة عيلة تملك معظم الاراضي الزراعية ، ١٦ عيلة قدمت لمصر كل رؤساء الوزارات والوزراء ، وكل من تسلط على المناصب السياسية القائدة في البلاد » خطاب عبد الناصر في ٢٢ — ٧ — ١٩٦٤ .

ولقد صور عبد الناصر بأسلوبه الجماهيري الاخاذ واقع المجتمع المصري قبل الثورة على النحو التالي :

« ان هذا المجتمع الى جانب ركوده ، كان يعيش في حالة خلل محزن ، بتأثير التفاوت بين الطبقات . ويكفي أن يذكر أن نصف في المائة من السكان في هذا المجتمع كانوا يحصلون على دخله القومي كله . ولقد قلت السكان ولم اقل المواطنين ، لان الواقع المر كان يشهد ان الطبقة الممتازة التي تستقطع لنفسها نصف الدخل الوطني كله ، كانت خليطا من العناصر الاجنبية تسكن في مصر بعض وقتها ولكنها لا تعيش الحياة المصرية .» (١٨ـ٣ـ١٩٦٧)

ثم يصور لنا عبد الناصر التفاوت الرهيب في توزيع الثروة ، بقوله :

«ولست اعد الارقام في بيان ما كان عليه الحال ، لكنني لا اتصور ولا اظن احدا يتصور ، ان المجتمع الذي نعيش فيه كان يمكن له ان يتحمل وجود مائة اسرة مصرية واجنبية وصل ما تملكه وما استرد منها بالتأميم والحراسة والاصلاح الزراعي ، ما تصل قيمته دون مبالغة الى الف مليون جنيه (٥ـ٣ـ١٩٦٤) .

ولقد انهى عبد الناصر ذلك الواقعبضرباته الثورية المتلاحقة وأقام على أنقاضه واقعا اجتماعيا اشتراكيا تقدميا ٠٠

ووصفوا ما فعله بالدكتاتورية والظلم ٠

اين هي الدكتاتورية ٠ واين هو الظلم ٠

واين هي الحرية واين هو العدل ٠

الامر نسبي ولا شك ٠٠

الاقطاعيون يفهمون الحرية على ان يكونوا احرارا في تملك عشرات الالوف من الافدنة واستعباد واستغلال مئات الالوف من الفلاحين وابقائهم على حافة سد الرمق ، وحرمانهم من حقهم في ممارسة انسانيتهم ، بل ومن حقهم في شرب الماء النقي ، ناهيك عن حقوقهم في العلاج والتعليم والعمل والتملك والخدمات الاساسية الاخرى ٠

والراسماليون يفهمون الحرية على ان يكونوا احرارا في استغلالهم جهد العمال وحرمانهم من حقوقهم الطبيعية في تشكيل النقابات وتحديد ساعات العمل وتحسين بيئته ورفع الاجر بحيث يكون مناسبا مع طبيعة العمل ومقدار الانتاج ، وتوفير الضمان الصحى والامن الصناعي وما الى ذلك ٠٠

والتجار يفهمون الحرية على ان يكونوا احرارا في استغلال المستهلك واحتكار السلع والتلاعب بالاسعار تحت شعار العرض والطلب ٠ والحرية الفردية ٠ ودع كل شيء يمر ٠٠

ثم هناك العملاء المأجورون الذين يضعون انفسهم وأقلامهم وحناجرهم في خدمة الطبقة الاستغلالية ٠ انهم يفهمون الحرية في ان يكونوا احرارا في خدمة من يدفع ٠ والقادرون على الدفع هم الاقطاعيون والرأسماليون واصحاب الامتيازات والاحتكارات والشركات الاستغلالية والمخابرات الاجنبية ٠

هؤلاء في مجموعهم يشكلون اقلية قليلة ٠٠ يريدون ان تكون لهم كل الحرية ٠ وان لا يكون للشعب اى نوع من الحرية ٠

انهم باسم الحرية يمارسون ابشع انواع الدكتاتورية والظلم ٠٠

وجاء عبد الناصر ليبدد زيفهم ، ويقضي على دكتاتوريتهم البغيضة وظلمهم الرهيب ، ويجردهم من كـــل امتيازاتهـم المتوارثة القائمة على الاستغلال البشع ٠

ومن الطبيعي ان يصفونه بالدكتاتورية والظلم ، لانه وضع حدا لدكتاتوريتهم وظلمهم واستغلالهم واستمتاعهم بكل ملذات الحياة وموبقاتها ومباذلها على حساب حرمان الملايين مـــن لقمة العيش ٠

***

ان الحرية كما فهمها عبد الناصر ومارسها : ان تكـــون الحرية كل الحرية للشعب ٠ ولا حرية لاعداء الشعب ٠ ولعل البعض يجتهد في تخفيف هذا التعبير فيقترح استعمال تعبير مستغلي الشعب بدل اعداء الشعب ، وليس هذا الاجتهـــاد صائبا لان الطبقات الاستغلالية تنظــر الى الطبقات الكادحة نظرة عدائية ٠

ان الاقطاعي بطبيعته ومصلحته ومسلكه معاد للفلاح لانـــه يتعمد استعباده ٠

والرأسمالي بطبيعته ومصلحته ومسلكه معاد للعامل لانـــه يتعمد استغلال جهده

والتاجر المستغل هـــو بطبيعته ومصلحته ومسلكه معـــاد للمستهلك لانه يتعمد ابتزازه ،

والعميل المأجور ، هو ايضا بطبيعته ومصلحته ومسلكـــه معاد للجماهير الكادحة لانه اداة فـــي ايدي اعـــداء هذه الجماهير ٠

وجميع هؤلاء بطبيعتهم ومصلحتهم ومسلكهم اعداء للشعب والوطن ، مرتبطون مصلحة ومصيرا بالاستعمار والامبريالية والصهيونية ، وبذلك فانهم كانوا وما زالوا اعداء لعبد الناصر

كان من الطبيعي ان يحاربهم عبد الناصر ويقضي علـــى مصادر قوتهم ، ليصبح بالامكان توفير الحرية للشعب ٠

وكان من الطبيعي ان يعزلهم ويعاقبهم ويجردهم من حقوقهم المدنية ، ليحمى الشعب من خطرهم ، ويحمي الثورة مـــن مؤامراتهم ٠٠

ولم يكن في ذلك دكتاتورية ولا ظلما ٠

ان رفع الظلم عن المظلومين ليس ظلما وانما هو عـــــدل وحرية ٠ ان القضاء على الاقطاع ، واعادة توزيـع الارض على الفلاحين ، عدل وعدالة ٠ ولقد اعتبر الامام ابن حـزم امتلاك الارض حراما الا لمن يزرعها ٠

ان القضاء على استغلال الراسماليين لجهد العمال ٠ عـدل وعدالة ٠ ولقد اعتبر ابو ذر الغفارى ان ثروة الاثرياء لا تكون حلالا اذا كان في المجتمع فقير واحد لا يجد الكفاف ٠

ان مصادرة الممتلكات من ناهبي ثروات الشعب وجهده ٠ عدل وعدالة ٠ ولقد تدخلت الدولة الاسلامية في الاقتصـاد على عهد عمر بن الخطاب الذي لم يتردد في مصادرة الزيادة غير المعقولة في اموال ولاته بما فيهم الصحابي ابو هريرة وخـالد بن الوليد وعمرو بن العاص وسعد ابن ابي وقاص مستندا في هذا الاجراء على الشبهة في استغلال المنصـب وتناقض ذلك مع الاية الكريمة التي تنص :

«ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكـام لتأكلوا فريقا من اموال الناس بالالم وأنتم تعلمون» ١٨٨ ــ البقرة ٠

واذا كانت الشبهة كافية لان يعمد عمر بن الخطاب الـى مصادرة الثروات الزائدة المشكوك في مصادرها ، فان الواقع المحزن الذي كان سائدا في مصر قبل الثورة كان يفرضـ على عبد الناصر ان يتصدى له بالعلاج الجذرى ، اسقاطـا لدكتاتورية ظالمة تمارسها اقلية قليلة جشعة في استغلالهـا الى ابعد حدود الجشع ، وتحريرا لارادة الجماهير الكادحـة المظلومة والمحرومة من كل شيء ٠

ولقد انطلق عبد الناصر في معالجته الجذرية للواقـع الاجتماعي ذلك من مبدأ ثابت يعتبر الاساس الذي تقوم عليه الاشتراكية هو : تحريم استغلال الانسان للانسان ، نحو هدف ثابت يعتبر الغاية التي ينشدها الاسلام والاديان السـماويـة

وهو : المساواة والعدالة الاجتماعية وتذويب الفوارق بين الطبقات ٠

وليس هناك اى تعارض بين الاشتراكية والاسلام ٠ فالاشتراكية تعنى اسقاط حكم الطبقة الاستغلالية ، واقامة حكم نابع من ارادة الشعب ، يعمل في خدمة المجتمع لتحقيق الرخاء والرفاهية للانسان بتوفير الفرص المتكافئة للجميع وضمان الكفاية والعدل انتاجا وتوزيعا ٠ والاسلام يدعو الى ذلك ٠ فهو ضد الطبقية ، والتحكم الطبقي ، وتعدد الطبقات والقرآن الكريم واضح في ذاك وصريح ٠ يحرم تداول المال بين فئة محدودة من الاغنياء : «كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم» ٧٠ الحشر ٠ كما يحرم التفاوت الطبقي : «ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون» ١٩ ـ الاحقاف

والمعنى الاشتراكي في هذه الاية القرانية صريح يتخذ من العمل وليس من الانتماء الطبقي اساسا لمكانة الفرد في المجتمع وسبيلا للدخل، على ان لا يترتب على ذلك ظلم واستغلال

بل ان الاسلام اول من دعا الى الاشتراكية وطبقها : «الناس شركاء في ثلاثة : الماء والكلا والنار» حديث نبوى شريف ٠ والمعنى واضح والدعوة صريحة في محاربة الاحتكار والتسلط

ولقد اتخذ عبد الناصر من هذا الحديث النبوى مدخلا الى القرارات الاشتراكية التاريخية التي اتخذها وأعلنها في ٢٢ يوليو ١٩٦١ قال في خطابه ذاك : «فيه حديث عن النبي عليه الصلاة والسلام قال فيه : ان الناس شركاء في ثلاثة الماء والكلا والنار ٠ فيه ناس قالوا ايضا الملح ٠ معنى هذا ايه ٠ في هذه الايام كانت المقومات الاساسية للمجتمع هي المراعى والماء ٠ انهم رعاة بقر يرعوا ويعوزوا الماء والكلا ٠ يعوزوا النار ٠ ويعوزوا الملح ٠ هذه الاشياء كانت حاجة هامة في المجتمع» ٠

«النبي قال : ان الناس يجب ان يكونوا شركاء في هذا ما يجيش واحد يستولي على المراعى ويقول دي بتاعتي ٠

التأميم بيختلف عن هذا في ايه ؟ النهارده المصانع هيه بتمثل الاراضي الزراعية وبتمثل المقومات الاساسية في المجتمع »٠

«الدولة الاسلامية حينما قامت كانت هي اول دولة اشتراكية والاسلام سار بعد النبى عليه الصلاة والسلام في طريق الاشتراكية ، ايام ابو بكر وايام عمر سارفي طريق الاشتراكية وفي ايام النبى وفي هذه الايام انصفوا هل الفقر من اهل الغنى ٠ في ايام عمر امموا الارض ، ووزعوا الارض على الفلاحين» ٠

ومع ذلك ، رغم ان الاشتراكية فلسفة ومنهجا ، والتطبيقات الاشتراكية سلوكا وتنفيذا ، لا تتعارض مع الاسلام ، الا ان اعداء الثورة العربية ٠ اعداء الحرية والاشتراكيه والوحدة راحوا يزيفون الحقائق ويتهمون عبد الناصر بالخروج على الاسلام واتباع طريق الشيوعية ٠ وعندما عجزوا عن وقف اندفاعة التيار الاشتراكي وحركة التاريخ ، راحوا يتهمونه بالدكتاتورية والظلم ٠٠ ويثيرون الشفقة على تلك العائلات التي تعيش على مائة فدان بعد ان تعودت العيش على الاف الافدنة ٠ وحرمت من حياة القصور ومجموعات الخدم والاصطياف في اوروبا والتزحلق على جليدها في الشتاء ٠٠

ان وضع حد لعبث تلك العائلات الاقطاعية الرأسماليه البرجوازية ، واسترداد ما كانت تغتصبه ، واسقاط حكمها وتحكمها واستغلالها ، اعتبروه دكتاتورية وظلما ٠٠

واما نهب نصف واحد في المائة من السكان للثروة القومية وحرمان الملايين من الفلاحين والعمال والكادحين من كل شيء فقد اعتبروه : حرية وديمقراطية ٠

وكان رد عبد الناصر عليهم باستمرار : المزيد من الاشتراكية لانها السبيل لمزيد من الحرية للشعب وللفرد في المجتمع اذ لا حرية بدون عدالة اجتماعية ٠ ولا يمكن اقامة عدالة اجتماعية طالما كان هناك ظلم اجتماعي ، فكان لا بد من

القضاء على الاقطاع وحكم البرجوازية استكمالا لمعنى الثورة سياسيا واجتماعيا ، وصولا الى الديمقراطية الحقة القائمة على اساس العدالة الاجتماعية وانصاف الطبقة المظلومة من الطبقة الظالمة لأن الديمقراطية اساسا هي «الا يكون الحكم احتكارا للاقطاع ورأس المال المستغل ، بل ان يكون الحكم لصالح الامة كلها ٠ ان يكون الحكم منصفا للمظلوم من الظالم» ٠ عبد الناصر ٢٢-٧-١٩٦١ ٠

ومنذ بداية الثورة ، كان عبد الناصر حاسما في موقفه ضد التحكم الطبقي الاستغلالي ، وحاسما في خطواته لتحقيق الحرية للشعب عن طريق الاشتراكية ٠ ففي خطاب له في العام ١٩٥٥ قال :

«ان الحكومة ستتدخل في كل شيء لمصلحة الغالبية ، ولن تترك الحرية للاقلية تفعل ما تشاء ٠ وبهذا تحقق الحكومة غرضين ٠ حماية الشعب والعمل لصالحه ، والقضاء على الرأسمالية الحرة التي انتهت ولن تجد فرصة للظهور مرة اخرى ٠ لن يكون راس المال حرا يعمل كيف يشاء ٠ لا بد ان يكون رأس المال موجها ٠ اننا نريد مجتمعا اشتراكيا » ٠

وعندما حاول الرأسماليون المصريون بعد هزيمة العدوان الثلاثي استغلال فرصة تمصير الشركات البريطانية والفرنسية ومحاولة شرائها لتكون سبيلهم الى الحكم والتحكم، تصدى لهم عبد الناصر محبطا قصدهم ، فاضحا نواياهم ، مخاطبا الشعب قائلا :

«لما اعلنا تمصير الشركات البريطانية والفرنسية على طول اتكلموا على بعض وقدموا يفط٠وجاء القيسوني وجايب كشف مقدم له بيه الرأسماليين ، وكل واحد عايز شركتين او ثلاثة من الشركات المصرة ٠ وانا في هذا اليوم قلت له ان جميع الشركات تروح القطاع العام٠لن نستطيع بأي حال ان احنا نخلي الرأسماليين يزيدوا من تحكمهم بانهم يأخذوا ايضا

ـمتلكات فرنسا وممتلكات انجلترا · كانت الفرصة طبعا لينا
ـي الوقت ان احنا نقيم القطاع العام ، ونبدأ قطاع عام فعلا
على اساس واسع ونبدأ في تطبيق الاشتراكية بمفهومها
لحقيقي اللي يبدأ بخلق قطاع عام في الصناعة والتجارة» ·
ثم كانت قرارات التأميم في يوليو ١٩٦١ ، واصبح القطاع
العام بعدها ، القوة الرئيسية المحركة للاقتصاد الوطني
والاساس القوى الذي يقوم عليه البناء الاشتراكي ··

وعندما يعود المرء الى كشوف اصحاب الشركات المؤممة او المساهمين فيها يصاب بالدهشة والذهول عندما يجد ان الاقتصاد المصري بكافة مجالاته ونشاطاته كان مملوكا للاجانب الغرباء الذين وفدوا مع الاستعمار وفي ظله ·· ثم يكتشف في الحال من خلال ذلك الواقع المحزن : ان ابناء الشعب العربي المصري · الملايين من الفلاحين والعمال والكادحين كانوا غرباء في بلدهم ووطنهم ، اجراء في خدمة الاقلية المتحكمة في اقتصاد البلد الناهبة لثروة الشعب ، بل يكتشف ان اصحاب البلد والوطن كانوا مواطنين من الدرجة السلفى وكانوا يعاملون معاملة العبيد ·

وعندما اسقط عبد الناصر ذلك الواقع المحزن ، واسترد للشعب ثرواته المنهوبة وحقوقه المغتصبة قالوا : انها دكتاتورية وظلم ··

ولم يكن يصدق ذلك احد غير تلك الاقلية الساقطة · اما جماهير الشعب فقد كانت تزداد ثقة في عبد الناصر وايمانا بمبادئه وافكاره الاشتراكية والتفافا حوله ·

***

كان الامر الطبيعي ان تستميت الاقلية الاقطاعية والراسمالية البرجوازية التي انهى عبد الناصر استغلالها للجماهير الكادحة ، واسقط حكمها وتحكمها بالفلاحين والعمال والكادحين في محاربتها لعبد الناصر وعدائها له · كذلك

الحال بالنسبة للرجعية العربية ، وعلى رأسها الانظمة الاقليمية • وكان الاستعمار والصهيونية والرأسمالية العالمية تعتبر عبد الناصر خطرا عليها وعلى مصالحها في الوطن العربي ، بل وفي القارات الثلاث افريقيا واسيا واميركا اللاتينية التي نكبت بالاستعمار واكتوت بنيرانه •• ولذلك فان هذه القوى اعتبرت صراعها مع عبد الناصر صراعا مصيريا •

كذلك الحال بالنسبة للقوى الطامعة في هذا الوطن •• وعلى الاخص بمصر مركز الثقل لهذا الوطن ••

ولم يكن الامر يحتاج الى كبير عناء لربط الرجعية المصرية بالاستعمار والامبريالية ، واستخدامها بتنسيق مع الانظمة العربية الاقليمية للتآمر على عبد الناصر والثورة العربية •• وكانت الصهيونية مستفيدة من ذلك ولا شك •

وعلى الرغم من ان الرجعية البرجوازية المصرية كانت غارقة في عمالتها للاستعمار ، متمرسة في تغطية تعاملها معه بخداع الجماهير بالشعارات الزائفة ، الا انها بعد ان اسقطها عبد الناصر واسقط حكمها وتحكمها واستغلالها البشع ، غدت مشحونة بالاحقاد ، موتورة ، مستعدة دون تفكير او نقاش لان تكون اداة طيعة بيد الاستعمار والامبريالية بل وبيد الصهيونية •

ازاء ذلك التحالف المعادي لعبد الناصر والثورة العربية ، كان لا مفر من حماية مكاسب الشعب السياسية ، ومنجزاته الاشتراكية التقدمية ، وحريته في ممارسة ارادته واخضاع الثروة القومية لمنفعة المجموع •

وحماية الثورة مسئولية لا تقل في اهميتها عن مسئولية تفجير الثورة • بل ان الحماية بما تعنيه من ضمان الاستمرار بالثورة وترسيخ مبادئها وافكارها ، وتذليل العقبات التي تعترض طريقها ترتقى الى مستوى اكثر اهمية واعلى مسئولية من القيام بالثورة ذاتها رغم ما فيها من فدائية ، لان الاحتفاظ

بالثورة صعب • والاستمرار بالثورة اصعب بسبب الهجمات التي ستتعرض لها من الاعداء ، والمقاومة العنيدة التـــي ستلقاها من هؤلاء في كل خطوة تخطوها ••

ورغم ضراوة الهجمات والحروب التي شنتها قـــوى الاستعمار والامبريالية والصهيونية والرجعيه العربية ، فان عبد الناصر كان شديد الاعتماد في هزيمتها واحباطها علـى الجبهة الداخلية ، ذلك لانه بالمقاييس المادية للقوة كانت كفة اعدائه ، اعداء الثورة العربية ، هي الارجح بكثير باستمرار• ولكنه مع ذلك ، كان قادرا باستمرار على تحطيم تلك الهجمات ونقل المعركة الى مواقع هؤلاء الاعداء ، معتمدا على سـلامة الجبهة الداخلية وتلاحمها مع القوات المسلحة ، وتفاعله مع الجماهير العربية والانطلاق معا في اتجاه حركة التاريـخ ، حركة القومية العربية في هذه المنطقة •

ومن اجل ضمان سلامة الجبهة الداخلية ، وبالتالي من اجل حماية الثورة ومكاسبها ، كان لا بد من تقييد حرية اعدائهـا اعداء حرية الشعب ، لشل فعاليتهم ، ومنعهم من الغـــدر والحيلولة دون ان يصبحوا اداة الاجرام والخيانة والطعـن من الخلف •

وكان عبد الناصر كريما مع هؤلاء فلم يعمد الى التنكيـل بهم ، ولا الى تصفيتهم جسديا ، وكان قادرا على ذلك ، وقد وصل تسامحه الى حد ان عددا من الذين حكمت عليهم المحاكم بتهمة التامر على وطنهم ، ودخلوا السجن فعلا بأحكام محددة افرج عنهم لتبقى الوحدة الوطنية حتى على المستوى الفـردي سليمة من اى اعتبار للانتقام ، بـــل حتى للعقوبة العادلـة الصادرة عن احكام المحاكم ، وكان مدفوعا الى ذلك عـــن ايمان بأن الثورة لم تقم لكي تكون اداة انتقام دموي ، وانما قامت لتفتح الطريق امام الآمال الشعبية المكبوتة بالقهـــر الحرماني •

وأقصى ما اتخذ من اجراءات ضد هؤلاء ، ضمانا لسلامة الجبهة الداخلية ، كان بعد ململة الرجعية المصرية ومحاولتها

استجماع قواها والانقضاض على الثورة اثر جريمة الانفصال وقد تمثلت تلك الاجراءات في اعتقال اربعين شخصا من اقطاب الاقطاعيين والرأسماليين ، وفرض الحراسة على ١٦٧ شخصا اخرين ، وكان الهدف هو عزل هؤلاء عن النشاطات التآمرية والتخريبية .. وهذا حق مشروع للثورة . بل آن جميع انظمة الحكم في العالم ، لا فرق بين انظمة تقدمية واخرى محافظة او رجعية او رأسمالية تعمد الى حماية نفسها ممن تتصور انهم يشكلون خطرا عليها ..

والثورة بطبيعة الحال ، احق من غيرها ، في حماية ذاتها بتجريد اعدائها الاجتماعيين من اسلحتهم الاساسية وفي مقدمتها حريتهم في النشاط والتامر والتخريب .
ان الولايات المتحدة الاميركيةالتي تمثل قمة الرأسماليةالعالمية اشهرت سلاح المكارثية ضد الذين تصورت ، مجرد تصور وهمي ، انهم يمكن ان يشكلوا خطرا على نظامها الرأسمالي .

والانظمة الرجعية العربية ، ما زالت حتى اليوم تفتك بأسلوب وحشي بالاحرار المناضلين من اجل حرية الشعب وحقه في ثروات وطنه ، بل وبمن تتصور ، مجرد تصور وهمي ، بأنهم غير موالين لها .. فتحاربهم بلقمة العيش ، وتزج بهم في غياهب السجون حيث تقوم بتصفيتهم جسديا .

والامثلة كثيرة لا حصر لها .. ولكن الموتورين والحاقدين والمأجورين يتجاهلون الحقائق عن عمد ، ولا يرون ، ولا يعرفون غير ما اصاب بضعة عشرات من الاقطاعيين والبرجوازيين المعادين للثورة والشعب . وكأن الحرية هي ان يملك هؤلاء كل شيء وتحرم جماهير الشعب من كل شيء . ان تكون الرفاهية والحياة والعلم والمال والارض ووسائل الانتاج احتكارا لهم . وآن لا يكون للملايين من الفلاحين والعمال والكادحين غير المرض والجهل والفقر والحرمان ..
ان ذلك ليس هو الحرية . وانما هو دكتاتورية القلة القليلة التي عمد عبد الناصر الى اسقاطها . ولم يكن حكم الاقلية ،

في اي بلد من البلاد ، او اي مجتمع من المجتمعات ، هو حكم الحريات والديمقراطية ، لان هذه الاقلية ، خاصة اذا كانت تمثل الرأسمالية او تحالف الاقطاع والرأسمالية ، تجعل الحكم والسلطة في خدمة مصالحها الاقتصادية والاجتماعية المتناقضة مع مصالح الجماهير الامر الذي يجعل حكمها دكتاتوريا ظالما استغلاليا ٠

ولقد ادرك عبد الناصر هذه الحقيقة مبكرا ، فجعل الثورة اداة تغيير في المجتمع لمصلحة الجماهير الكادحة ٠ وبحكم انتمائه لطبقة الكادحين ، وتمسكه بهذا الانتماء ، ورفضه الانسلاخ عنها والالتجاء للبرجوازية الاستغلالية فانه كرس حياته من اجل ان تكون الحرية والديمقراطية للشعب ، وان يكون الحكم اداة الشعب لحماية ثورته ومكاسبه ومنجزاته السياسية والاجتماعية ٠

***

ان الواقع الاقتصادي لاي مجتمع في اي بلد هو اكثر العوامل تأثيرا في تكوين البنيان الاجتماعي وتحديد طبيعة واطار الحرية ٠ والعلاقة بين الحرية بالذات والواقع الاقتصادي قوية الى حد الترابط العضوي او التلازم والانعكاس ، لان الحكم الذي يتولى ادارة شئون البلد والشعب ، يشكل انعكاسا طبيعيا صادقا للواقع الاقتصادي ٠٠ كما ان الحرية بمفهومها المطلق ، والحريات الفردية بشكل عام ، وثيقة الارتباط بالحكم

ومن السهل جدا على المرء ان يلمس هذه الحقائق على مستويات مختلفة ٠

ففي المجتمعات الرأسمالية نجد الحكم وكل مؤسساته في ايدي الرأسماليين بغض النظر عن وجود معارضة هنا او هناك او وجود احزاب اشتراكية او شيوعية في هذا البلد او ذاك فلقد تطورت الرأسمالية وطورت اسلوبها في الحكم بحيث يبدو ديمقراطي المظهر ، في حين انه حكم رأسمالي دكتاتوري رهيب مغلف بستائر الحرية والديمقراطية ٠ وليس معنى

رأسمالية الحكم ان اصحاب المصانع الكبرى والشركات الاحتكارية والبنوك وما الى ذلك يتخلون بالضرورة عن ادارة اعمالهم ويتفرغون لادارة الحكم ، وانما معناه ان الحكم يكون في خدمة هؤلاء بواسطة البعض منهم في بعض الاحيان وبواسطة عناصر رأسمالية التفكير تكون بمثابة الوكيل او العميل او الاداة في معظم الاحيان من خلال مؤسسات الحكم وأدواته ٠

وفي المجتمعات الاقطاعية المتخلفة ، او الاقطاعية الرأسمالية المتطورة ، نجد الحكم بكل مؤسساته وأدواته في ايدي الاقطاعيين المتحالفين مع الرأسماليين حيثما وجدوا ٠٠ الامر الذي يعني دكتاتورية الطبقة الرأسمالية الاستغلالية ٠٠ بغض النظر عن دكتاتورية الفرد في هذه المجتمعات او دكتاتورية القبيلة ٠

ونجد في بعض المجتمعات ، كما هو الواقع العربي ، ان الحكم في يد «العائلة» وان كل مؤسسات الحكم في خدمة العائلة وربها الاعلى الذي يتصرف بعقلية ان المجتمع كله والبلد اقطاعية له وللعائلة الكريمة !

ثم نجد في المجتمعات الاشتراكية ، حيث اتخذ الاقتصاد شكلا اشتراكيا ، وحيث الحزب الشيوعي هنا او الحزب الاشتراكي هناك هو القوة السياسية الرئيسية ، ان الحكم وكل مؤسساته يشكل انعكاسا ، بل ويشكل اداة تنفيذية للفلسفة الاشتراكية او الشيوعية القائمة على مبدأ دكتاتورية البروليتاريا ٠

يترتب على ذلك بطبيعة الحال ، اختلاف جوهري في مفهوم الحرية وأسلوب ممارستها ٠ فالحكم الرأسمالي يوفر الحرية للطبقة الرأسمالية على حساب حريات الطبقات الادنى ٠ والحكم الاقطاعي ٠ او الاقطاعي المتحالف مع الرأسماليين ٠ او حكم العائلة ٠ يوفر الحرية للقلة الممتازة على حساب حرية الفرد ٠ وليس ادل على دكتاتورية الحكم المغلف بالحرية

والديمقراطية في هذه المجتمعات من ان ابواب مؤسسات الحكم والاخص المؤسسة البرلمانية مفتوحة فقط لابناء الطبقة الممتازة الاستغلالية او لاعوانها ، ومغلقة باستمرار في وجه أبناء عامة الشعب من الفلاحين والعمال والكادحين لانعدام قدرة هؤلاء على المنافسة والانفاق ، الامر الذي يجعلهم موضع استغلال بشع في اطار حرية مشوهة وديمقراطية زائفة

والحال يختلف نسبيا في المجتمعات الاشتراكية حيث دكتاتورية البروليتاريا ، اذ يكون الخيار بين الناخبين محصورا في مرشحي الحزب الحاكم ، او مجموعة الاحزاب المتحالفة في الحكم ..

ولم يكن الحكم في مصر قبل الثورة ، وفي سوريا قبل الوحدة ، يختلف عن الحكم في اى مجتمع يسوده النظام الاقتصادي الرأسمالي . فقد كان الحكم بكل مؤسساته للاقطاعيين والرأسماليين .. وكانت قيادات الاحزاب التقليدية رغم غوغائيتها ، احتكارا لتلك العائلات الاقطاعية الرأسمالية البرجوازية .. وكان البرلمان ، نتيجة لذلك الواقع الاقتصادي مفتوحا على الدوام لابناء تلك الطبقة الاستغلالية رغم قلتها القليلة ، ومقفلا على الدوام في وجه ابناء الطبقات الكادحة . والسبب في ذلك ، اقتصادي ايضا ، وهو لانعدام القدرة على الانفاق ومنافسة مستغلى جهد الفلاحين والعمال وناهبي ثروة البلد .

وعندما سقط ذلك الواقع الاقتصادي المتخلف ، وبدىء في اقامة واقع اقتصادي اشتراكي تقدمي ، وبالتالي اقامة حكم ينشد التقدم والعدالة الاجتماعية واتاحة الفرص المتكافئة للجميع ، كان لا بد من اسقاط المؤسسات التقليدية ، واقامة مؤسسات جديدة للحكم تتمشى مع الواقع الجديد واهدافه وآماله الوطنية والقومية .

وكانت المؤسسة البرلمانية هي احدى واهم مؤسسات الحكم التي تحتم عبد الناصر مواجهتها، لانها المؤسسة التشريعية .

ولقد أولاها عبد الناصر اهتماما خاصا لكي يحمي التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والاشتراكية بالقوانين اللازمة والتشريعات الضرورية ، قناعة منه وايمانا بان الطبقة البرجوازية لا يهمها سوى مصالحها المتناقضة مع مصلحة الطبقات الكادحة ، وبالتالي فانها تستخدم مواقع السلطة لحماية تلك المصالح وتستغل المؤسسة البرلمانية لا ستصدار القوانين والتشريعات وفق اغراضها • ثم ان الطبقة البرجوازية لا يمكنها باى حال من الاحوال ان تتحسس مشاكل الجماهير الكادحة الامر الذي يجعلها غير مهيأة ولا امينة في معالجتها لتلك المشاكل •

ولقد توصل عبد الناصر الى تجربة رائدة في هذا المجال ترتكز اساسا على نبذ الدكتاتورية •

كان ضد دكتاتورية الفرد ، لان الفرد زائل مهما امتد به العمر وعظم شأنه ، والشعب هو الخالد مهما قست عليه الظروف واشتدت به المحن ، وانه بالتالي ليس هناك من سبيل لضمان الاستمرار غير وضع الحكم في يد الشعب •

وكان ضد دكتاتورية البرجوازية لان الحكم يكون لها على حساب حرية الجماهير الكادحة وحقها في الحياة •

وكان ضد دكتاتورية البروليتاريا ، لان العمال فئة من الشعب وليسوا كل الشعب ، ثم لانه كان يؤمن بان التطبيق الاشتراكي يخضع في الدرجة الاولى للظروف الموضوعية لكل مجتمع ، وان الملكية الخاصة وعلى الاخص ملكية الفلاح للارض ضمن الحدود التي تمنع الاستغلال لا تتعارض مع الاشتراكية ••

وكان ايضا ضد دكتاتورية العائلة •• لان الحكم في هذه الحالة شديد القسوة بل وشديد الامتهان بالشعب •

على اساس هذا النبذ للدكتاتورية بكافة مظاهرها ، فانه اتجه الى ارساء قواعد جديدة للحكم تقوم على اساس ديمقراطية الشعب ، الامر الذي جعله يتجه الى تحديد الفئات

الجماهيرية صاحبة المصلحة في الحكم الاشتراكي ليكون الحكم في مصلحتها وخدمة امانيها ..

ولقد توصل عبد الناصر من خلال التجربة المتطورة ، الى ان الفئات الجماهيرية صاحبة المصلحة في الثورة الاشتراكية واستمرارها تتمثل في : الفلاحين والعمال باعتبارهم القوة الانتاجية الرئيسية وفي : المثقفين والجنود والرأسمالية الوطنية غير المستغلة باعتبار ان هؤلاء في غالبيتهم من ابناء الفلاحين والعمال ، ويتولون مسؤولية في حماية الثورة .

ولم يستبعد عبد الناصر الصراع الطبقي بين هذه الفئات ولكنه وجد ان هناك مصلحة مشتركة في استمرار الثورة تحتم عليها التحالف في وجه الخطر المهدد لها ، والعمل من اجل فض خلافاتها سلميا من خلال تذويب الفوارق بينها .

اذن ، لا بد من تحالف هذه الفئات ، رغم وجود تضارب في مصالحها ، ولكنه اقل بكثير وأدنى بدرجات من التناقض التصادمي في المصالح بين اي من هذه الفئات ، او بين هذه الفئات مجتمعة وبين دكتاتورية البرجوازية ، او دكتاتورية الطبقة الواحدة .

ومن اجل ان يكون هذا التحالف بناء ، لا بد لفئاته من ان تلتقى على ارضية واحدة في اطار واحد .

فكانت فكرة الاتحاد الاشتراكي العربي ، اطارا للفئات الجماهيرية صاحبة المصلحة في الثورة الاشتراكية ، وكان التنظيم السياسي جزءا لا يتجزأ منه ، يعتمد على النوعية ، ويكون دوره بمثابة العمود الفقري والجهاز العصبي والاداة المتفاعلة مع الاحداث ، القادرة على تحريك الجماهير ..

ولقد بدىء في بناء هذا التنظيم السياسي في وقت متأخر من حياة عبد الناصر بسبب الانشغال في الكثير من القضايا العربية والدولية التي كانت شديدة الانعكاس والتأثير على الاوضاع الداخلية .

ولقد اعتبر الاتحاد الاشتراكي العربي هو الاساس الذي

تقوم عليه مؤسسات الحكم بما في ذلك المؤسسة البرلمانية ..
لانه «لا يمكن باي حال ان احنا نقول عندنا ديمقراطية وعندنا برلمان ونبص نلاقي الاقطاعي هو اللى بيروح البرلمان وصاحب راس المال هو اللى بيروح البرلمان» عبد الناصر ٩ـ١ـ١٩٦٣

وحيث ان الحكم بكل مؤسساته يجب ان يكون لتلك الفئات صاحبة المصلحة في الثورة الاشتراكية ،

ثم حيث ان الحرية يجب ان تكون لهذه الفئات انسجاما مع طبيعة الحكم .. ونبذا لمبدأ الدكتاتورية ،

فان عبد الناصر جعل الاساس الذي يقوم عليه الحكم ، ابتداء من الاتحاد الاشتراكي العربي ، وانتهاء بكل المؤسسات الدستورية بما فيها المؤسسة البرلمانية ، مرتكزا على مبدأ أن يكون للفلاحين والعمال خمسين في المائة على الاقل من أعضاء كل مؤسسة ، وذلك لانهم ما داموا يشكلون الاغلبية في الشعب والقوة الرئيسية في الانتاج ، فانهم يجب أن يكونوا الشركاء الاساسيين في كل المؤسسات وعلى الاخص في المؤسسة البرلمانية صاحبة السلطة التشريعية .
واذا كان البعض من الحاقدين والموتورين أعداء الاشتراكية اخذوا على هذا المبدأ ، انعدام التجربة والوعي والثقافة بين ممثلي الفلاحين والعمال فان ممارسة هؤلاء الممثلين للمسؤولية وحرصهم على حماية مصالحهم خلقت منهم عناصر قيادية وكوادر متفهمة لحقوقها تعرف كيف تدافع عنها ..

★★★

ولم تكن الصحافة في أي مجتمع او اي بلد ، بعيدة عن واقعه الاقتصادي ، وطبيعة وشكل الحكم فيه .. فهي في المجتمعات الرأسمالية في ايدي الرأسماليين أو الاحزاب ، لانها تحتاج الى رؤوس أموال لا يقدر عليها بطبيعة الحال غير الرأسماليين ، الامر الذي يجعلهم أداة بايديهم يتحكمون بها من خلال المعونة والاعلان .

والصحافة في المجتمعات الاشتراكية مؤسسات حكومية

يشرف عليها الحزب الحاكم من خلال مؤسساته أو من خلال رؤساء التحرير الاعضاء فيه والمنتدبين لادارتها .
وأما الصحافة في المجتمعات الاقطاعية ، أو حيث الحكم بيد البرجوازية فانها صحافة رأسمالية في خدمة الحكم البرجوازي .. والصحافة الخاصة في هذه المجتمعات ،تكون أسيرة الرأسماليين لانها في حاجة لمعوناتهم المالية والاعلانية، وسلعة معروضة للبيع على أجهزة المخابرات الاستعمارية ، والمؤسسات المالية الاحتكارية والسفارات الأجنبية ..

بذلك فان الصحافه ، كوسيلة هامة من وسائل الاعلام والاتصال بالجماهير وتكوين الراي العام ، معرضة أكثر من غيرها لان تكون أداة تخريب في المجتمع وتشويهللحقائق ما لم توضع في خدمة الشعب دحريته ، ويتولاها مثقفون ثوريون ملتزمون .. وليس أدل على ذلك من أن تلك الصحفاعتبرت الاقتراح الذي دعا فيه محمد الخطاب عضو مجلس الشيوخ المصري في العام ١٩٤٥ بتحديد الملكية مستقبلا وبدون أثر رجعي بمائة فدان ، بأنه عنوان كبير للحرية والديمقراطية . وقد رفض ذلك الاقتراح بالاغلبية الساحقة . ولكن شجاعة صاحبه في ضوء تلك المرحلة تستحق التسجيل .
وعندما تقدم عبد الرحمن الرافعي في العام ١٩٤٨ بمشروع قانون لمجلس الشيوخ المصري دعا فيه بعدم تمليك الاجانب للاراضي في مصر وكانوا يملكون وقتئذ ٣٥٧ ألف فدان ، وقد سقط ذلك الاقتراح بالاغلبية الساحقة ، فان تلك الصحف اعتبرته عنوانا كبيرا للحرية والديمقراطية ، دفاعا منها غير مباشر عن دكتاتورية الاقطاع والرأسمالية أو تزييفا لمعنى الحرية والديمقراطية .
في ضوء ذلك لم يكن مفر من تأميم المؤسساتالصحفية الكبرى في مصر ، وفي سوريا في عهد الوحدة ، وجعلها مرآة الشعب تعكس آماله وامانيه ، وتدافع عن حقوقه وقضاياه ، وتعمل من أجل تعميق أفكار الثورة الاشتراكية ومبادئها في ذهن المواطن .

ولقد ترتب على ذلك بطبيعة الحال اسقاط الاقطاعيات الصحفية وفي مقدمتها اقطاعية اخبار اليوم التي كانت تعتمد على أموال المخابرات المركزية الاميركية وغيرها من المخابرات الاستعمارية ، والمصروفات السرية من القصر ورئاسة الوزارة ، ومن المؤسسات المالية المختلفة التي كانت في معظمها بأيدي الاجانب الغرباء أعداء الشعب العربي المصري .

ولم يشأ عبد الناصر أن يحارب أصحاب تلك الصحف ، فلم يكن هدفه هو القضاء عليهم كأشخاص ، وانما كان هدفه هو أن تصبح الصحافة ملكا للشعب وتحت سيطرته وفي خدمة حريته وثورته الاشتراكية .. وعندما تحقق هذا الهدف ، اعطى لاصحاب تلك الصحف بروحه المتسامحة ، فرصة للتكيف والتلاؤم مع مسيرة الجماهير .. غير أن البعض من هؤلاء أمثال علي أمين ومصطفى أمين لم يتمكنوا من التغلب على طبيعتهم ، فوضعوا أنفسهم من جديد في خدمة المخابرات المركزية الاميركية .. وكان العقاب بحكم القضاء : السجن المؤبد مع الاشغال الشاقة لمصطفى أمين . وأما شقيقه التوأم فقد لحق بأحمد أبو الفتح وبقيا طريدي العدالة الى ما بعد وفاة عبد الناصر .

وعندما اتيحت لهؤلاء الفرصة للعودة من جديد الى المواقع الصحفية انطلقوا تحت شعار حرية الصحافة ، ينفثون السموم والاحقاد في محاولات يائسة لتشويه معنى الحرية والتشكيك في أمجاد ومنجزات الثورة ، وكأن حرية الصحافة في مفهومهم ، كما في مفهوم الذين يعملون في خدمتهم ، ان يكونوا احرارا في محاولات الاساءة لعبد الناصر .

لقد سار في ركب هؤلاء ، وجاراهم في نفث السموم والاحقاد ، عدد من الادباء والكتاب والشعراء ، أمثال توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وصالح جودت ، فكشفوا بمواقفهم عن انتمائهم الطبقي اليميني ، وأدانوا أنفسهم بالانتهازية الرخيصة ، والا فكيف يسمح هؤلاء لانفسهم أن يكونوا الى ما بعد وفاة

عبد الناصر بقليل مداحين له وممجدين بمنجزاته وأعماله ، ثم يتحولون الى أقلام تافهة في خدمة أعداء الثورة ، أعداء حرية الجماهير ، أعداء عبد الناصر منذ يوم ٢٣ يوليو حتى يومنا .

أن المبادىء التي ارساها عبد الناصر والاسس التي أقام عليها المجتمع الاشتراكي العربي ، والمنجزات التقدمية التي حققها للجماهير الكادحة ، والانتصارات العظيمة التي صنعها في ملحمة نضاله البطولي ضد الاستعمار والامبريالية والصهيونية والرجعية أكثر بكثير من أن ينالها هؤلاء الحاقدون المأجورون .

ان هؤلاء بمواقفهم المتناقضة الانتهازية ، هدموا انفسهم ، وفقدوا الحد الادنى من الاحترام وانتهوا الى زوال .

وأما عبد الناصر فانه خالد ببطولاته ومنجزاته ، ومبادئه وافكاره ، وأخلاقه وسلوكه .. وبعطائه السخي للشعب العربي المصري والامة العربية ..

لقد أعطى الحرية للشعب العامل ،

وفتح أبواب الامل والرخاء والحياة الحرة الكريمة أمام الكادحين ..

ولن تقدر الاقلام الرخيصة ، ولا أية قوة حاقدة موتورة ، من استرداد ما جعله عبد الناصر ملكا للشعب .. لان حركة التاريخ بطبيعتها ، لا تعود الى الوراء وانما هي دوما الى الامام ...

لقد كان منتميا للكادحين ، مؤمنا بالجماهير .. واثقا من قدرتها على صون حقوقها ومكاسبها ومواصلة الانطلاق بالثورة لاتمام بناء المجتمع الاشتراكي .. الحكم فيه للشعب ، والحرية فيه للفئات الكادحة التي تتحمل مسؤولية الأستمرار ، بلوغا للاماني الوطنية والاهداف القومية ، وتبديدا للقلق الذي ساور عبد الناصر حين قال :

« أن حياة أي انسان هي وديعة لخالقه ، يستردها حين يشاء .. ولقد كنت ادرك انني التعرض لمفاجآت لا حصر لها طوال مرحلة التحول العظيم . ولم تكن لي خشية على نفسي. فأني أقدر مسؤولية ما فعلت منذ اليوم الاول الذي بدأ فيه العمل العظيم لتنظيم الثورة . ولكن كانت الخشية على وطنى . ان امال هذا الوطن والنتائج العظيمة التي حققها لا بد ان تصان فوق كل المفاجآت ». انها مسؤولية الذين كانت الثورة من اجلهم والحرية لهم .

★★★

المراجع

ـ مجموعة خطب وتصريحات وبيانـــات عبـــد الناصر . مصلحة الاستعلامات . القاهرة .

ـ وثائق عبد الناصـــر . مركـــز الدراسات السياسيـــة والاستراتيجية بجريدة الاهرام . القاهرة

ـ فلسفة الثورة ١٩٥٤

ـ الميـــثاق ١٩٦٢

ـ بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨

ـ قصة الثورة كاملة . أنور السادات

ـ عبد الناصر والعالم . محمد حسنين هيكل .

ـ كيف نجح عبد الناصر .ك. كرانجيا

ـ ناصر . أنطوني ناتنج

ـ ناصر . روبرت ستيفنس .

ـ بصراحة عن عبد الناصر . فؤاد مطر . حوار مع محمد حسنين هيكـــل

ـ ناصر مصر الحديثة . كيثويلوك .

ـ جمال عبد الناصر . سلسلة مطبوعات معهد تدريـــب الشرطة . القاهـــرة

عبـــر الماضي وملامح الحاضـــر والمستقبل فـــي فكـــر القائد الخالد جمال عبد الناصر . أمانة الاتحاد الاشتراكي العربي ببنغازي .

ـ عبد الناصر دوره في النضال العربي . عودة بطـــرس عـــودة

ـ مذكرات ايدن . انطوني ايدن

ـ بريطانيا وقناة السويس . دي.سي.وات

ـ الشرق الاوسط في ثورة . همفري تريفليان
ـ الدفاع عن الشرق الاوسط . جون كامبل
ـ أزمة الشرق الاوسط . جي ونيت . بي كالفاكوريس
ـ الجيش المصري في السياسة . بي . جي فاتيكيوتس
ـ شخصية مصر . جمال حمدان
ـ البيان القومي الثوري . عبدالله الريماوي
ـ المعرب . انطوني ناتنج
ـ الفكرة العربية في مصر . أنيس الصايغ
ـ مصر الحديثة . لورد كرومر
ـ مصر .. توم ليتل
ـ جندي مع العرب . جون باجوت جلوب
ـ اخضاع النيل لارادة الانسان . توم ليتل
ـ على جانبي النيل . جون وديفيد كيمشي
ـ القرية المصرية بين ماض وحاضر . محمود الشرقاوي
ـ الاصلاح الزراعي والانماء في الشرق الاوسط . دورين وارنر
ـ الثورة الاجتماعية . قوانين يوليو ١٩٦١
ـ سنوات البيت الابيض . دوايت ايزنهاور
ـ مذكرات فورستال . جيمس فورستال
ـ مذكرات خروشوف . نيكيتا خروشوف
ـ ألف يوم .. جون كنيدي في البيت الابيض . شليزنجر
ـ رحلة في الفوضى . بول جونسون
ـ استراتيجية الاستعمار والتحرير . جمال حمدان
ـ ركوب العاصفة . هارولد مكميلان .
ـ الحسين بن طلال . عمان ١٩٥٧
ـ الثائرون . بريان كروزيير
ـ تقسيم نهر الاردن . جورجيانا ستيفنس
ـ بين العرب واسرائيل . لفتنانت جنرال .أي.أل.أم.برنز
ـ الخدمة العسكرية من اجل السلام . الجنرال كارل فون هورن

ـ ضوء بعد الظهر . روبرت منزيس
ـ الطريق الى السويس . أرسكين تشيلدرز
ـ أزمة .. القصة السرية لمؤامرة السويس .. تيرينس روبرتســون
ـ خبايا السويس . هيو توماس
ـ حملة سيناء . أدجار أوبلانس
ـ مائة ساعة الى السويس . روبرت هنريكس كولنز
ـ أسرار السويس . مري وسيرج برومبرغر
ـ يوميات حملة السويس . موشيه دايان .
ـ اسرائيل .. سنوات التحدي . ديفيدبن غوريون .
ـ التجربة والخطأ . حاييم وايزمن .
ـ أحذروا الصهيونية . ايفانوف
ـ الصهيونية ودورها في السياسة العالمية . هايمان لومر .
ـ الصهيونية الاميركية والسياسة الخارجية للولايــات المتحدة الاميركية . ريتشارد ستيفنس
ـ القوى الخفية التي تحكم العالم . جان مينو
ـ امبراطورية المال . هنري كوستون
ـ امبراطورية البترول . هارفي أكونور
ـ الصراعاتالبترولية في الشرقالاوسط . أندريهنوسشي .
ـ النفط في المشرق الاوسط . ستيفن لونجرج
ـ دور احتكار النفط الدولي في العراق . منشــورات البيان . بغداد
ـ النفط يستعبد ايران . حميد صفري . ترجمة عبــد الرازق الصافي
ـ الاستثمارات الامبريالية في ايران . منشورات الثورة . بغداد .
ـ العلاقات الدبلوماسيه بين الولايات المتحدة وايــران (١٨٨٣ ـ ١٩٢١ م) أدوارد نلسون
ـ نهاية الاستعمار . جون ستراشي

ـ الدولة والاقتصاد في الشرق الاوسط . ألفريد بونيه
ـ اسيا والسيطره الغربية . بانيكار اللين وأونوين
ـ سياسة بريطانيا الاقتصادةمنذ الحرب. أندروستونفيلد
ـ الدول الافرواسيوية ومشاكلها . بانيكار اللين واونوين
ـ مشكلات أفريقيا الاقتصاديـــــة .ف. ريباكوف .ل. الكسندوفسكايا
ـ العالم وأفريقيا . و.أ.ب ديبوا
ـ أفريقيا السوداء الغربيةوالوسطى . جان سوريت.كاتال
ـ أفريقيا في الحرب العالمية الثانية . شبيرت .
ـ موجز تاريخ أفريقيا ي. سافيلييف.ج. فاسيلييف .
ـ الجغرافيا الاقتصاديه لبلاد العالم . سبيدتشينكو
ـ اسرائيل وأفريقيا . عبد الملك عودة
ـ العرب في اسرائيل . صبري جريس .
ـ العرب في اسرائيل . والتر شفارتز
ـ اسرائيل وعرب فلسطين . دون بيرتز
ـ هكذا ضاعت وهكذا تعود . نقولا الدر
ـ القضية الفلسطينية في الواقع العربي . عودة بطرس عـــودة .
ـ دليل القضية الفلسطينة . مركز الابحاث
ـ صحف الاهرام . التايمز . نيويورك تايمز .
ـ وثائق جامعة الدول العربية . الجمعية العمومية للامم المتحدة . مجلس الامن الدولي .
ـ الثورة المضادة في المجر . ايمري ناجي وزمرتـــه . بودابســـت ١٩٥٨ .

محتويات الكتاب

طبع بمطابع الكفاح
بيروت / لبنان

كتب صدرت للمؤلف

- مصرع فلسطين 1950
- ملامح الاشتراكية العربية 1958
- ثورة الوجود العربي 1961
- القضية الفلسطينية في الواقع العربي 1970
- عبد الناصر .. دورة في النضال العربي 1971

.. وإذا كنتم تسمعون من أصداء الحوادث في منطقتنا ما كان موضع التساؤل في كثير من الأحيان، فإننا نسمح لأنفسنا أن نقول أمامكم أن هذا الصوت لا يصدر عن التيار المتدفق للقومية العربية وإنما يصدر عن الذين يقاومون هذا التيار أو يحاولون تغيير مجراه.

انه صوت الحواجز المصطنعة وهي تتمزق .. وهو صوت الحدود الموهومة التي وضعها الاستعمار وهي تطوى وترفع، وهي صوت بقايا الرجعية والاقطاع والاستغلال تحاول بقلوبها المهزومة ان تمنع التطور الحتمي.

هكذا فإن الذي تسمعونه ونسمعه معكم هو صوت التاريخ ذاته يباشر حركته ويضع تفاصيل احداثه ويصحح الاخطاء التي وقعت خلافاً لمنطق الاشياء ومجافاة للطبيعة وللحقيقة الخالدة.

جمال عبد الناصر